لعبة الشيطان

دورالولايات المتحدة في نشأة التطرف الاسلامي



روبرت دريفوس

تقديم ومراجعة: مصطفي عبدالرازق

ترجمة: أشرف رفيق



مركز دراسات الاسلام والغرب

لعبة الشيطان

دور الولايات المتحدة في نشأة التطرف الإسلامي

روبرت دريفوس

تقديم ومراجعة : مصطفى عبد الرازق

ترجمة: أشرف رفيق

الترجمة الكاملة لكتاب :

DEVIL'S GAME

How the United States helped Unleash Fundamentalist Islam

Robert Dreyfuss

Owl - 2005

الطبعة الأولى – سبتمبر ٢٠١٠

الناشر : مركز دراسات الإسلام والغرب

مدير المركز : مصطفى عبد الرازق

٩١٥ – الحي الثالث – ٦ اكتوبر

هاتف : ٠١٠٠٥٦٢٩٥٦

E-mail:

Islam.west.sc@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز

تصميم الغلاف : ألفت الراعي

olfat.raee@yahoo.com

مركز دراسات الإسلام والغرب

مركز بحثي مستقل يهدف إلى تعزيز الفهم المشترك والصحيح بين العالم الإسلامي والغرب من خلال نشر المعرفة التي تؤكد على هذا التوجه عبر أنشطته المختلفة على النحو الذي يمكن معه تجاوز حالة الصدام التي تسعى لفرضها أطراف مختلفة، سواء كانت تنتمي إلى عالم الإسلام أم الغرب.

الفهرس

المقدمة

رغم كثرة الكتب التي قدمت حول دور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط إلا أن هذا الكتاب يقدم تناولا فريدا لجانب لم يحظ بالكثير من الإهتمام ألا وهو أبعاد هذا الدور في نشأة ونمو قوى التشدد الإسلامي على النحو الذي وصل بها إلى ما وصلت إليه في المنظور الغربي من تهديد للدول الغربية ذاتها وللأنظمة الوطنية في الدول التي انبثقت منها هذه القوى. والفرضية التي يقوم عليها الكتاب هي أن الولايات المتحدة قامت على تشجيع وتمويل نشأة ما يصطلح على وصفه بـ"الإسلام السياسي".

ولعل هذه الفرضية تصدم الكثيرين ممن يقوم تصورهم على وجود علاقة عداء بين الولايات المتحدة والإسلام أو الحركات الإسلامية بمعنى أصح وهو الأمر الذي يقوم المؤلف على تفسيره بأن ذلك جاء في إطار سعي الإدارات الأمريكية المتعاقبة أياً كانت، لتحقيق مصالحها القومية الأمر الذي رأت فيه، حسب دريفوس، ضرورة الإقدام على هذا النهج دون إيلاء الكثير من الإهتمام للإعتبارات الأيديولوجية فما كان يهم صانع القرار الأمريكي هو البحث عن مصلحة بلاده حتى لو اقتضت التحالف وفق المقولة التقليدية مع الشيطان.

ويحاول الكتاب تقديم إطارا واسعا لموضوعه معتمدا في ذلك على العديد من التقارير الرسمية والمقابلات مع الكثيرين ممن ساهموا في صياغة السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط سواء في البنتاجون أو الخارجية الأمريكية أو السي أي أيه. ويقدم المؤلف في هذا السياق العديد من الرؤى التي لا شك أنها لن تحظى بقدر كبير من التأييد في عالمنا الإسلامي، الأمر الذي نرى أنه لا ينبغي أن يكون في أي الأحوال عائقا دون متابعة والإطلاع على هذه الرؤى عن قرب ودراستها إذا كان لنا أن نصل إلى رؤية صحيحة بشأن العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب.

وعلى ذلك نتابع مع المؤلف ما يعتبره أبعاد الدعم الأمريكي لحركة الإخوان المسلمين في مصر خلال الخمسينات، وكذلك دور واشنطن في دعم رجال الدين في

إيران على النحو الذي انتهى بهم إلى الإطاحة بالشاه حليف أمريكا الأساسي وحركات الجهاد في أفغانستان الأمر الذي انتهى بظهور بن لادن وتنظيم القاعدة.

ودون مصادرة حق القارئ في تكوين رؤيته الخاصة لمضمون الكتاب نشير إلى أن الإطار العام له هو تقديم صورة بالغة السلبية للإسلام السياسي دون أن يرى فيه أية ميزة، وإن كان المؤلف في ذلك يعمد إلى التأكيد على التمييز بين الإسلام كدين يحظى في بعض تناوله له بقدر من الثناء، وبين الحركات التي أعلنت إنتسابها له. ورغم صحة هذه النظرة في مضمونها العام، إلا أن ما يلاحظ على المؤلف هو محاولة إلصاق كافة النقائص بحركات الإسلام السياسي إلى الحد الذي لا تخلو معه حتى المؤسسات الرسمية الدينية في العالم الإسلامي من انتقاداته الأمر الذي يدعونا الى التساؤل عن ماهية الإسلام الذي يريد لنا أن نكون عليه.

غير أن الرؤية الموضوعية تقتضي الإشارة إلى أن المؤلف ورغم ما قد يراه البعض من سلبية في حصيلة هذه الأطروحات، يقدم أطروحات أخرى لا نبالغ إذا قلنا أن الكثيرين في عالمنا الإسلامي لا يصل إليها في نقده لمسار السياسة الأمريكية، وهو أمر قد لا يكون غريبا في ضوء كونه يصدر ضمن سلسلة مشروع الإمبراطورية الأمريكية وهو مشروع يمثل رد فعل للتغيرات التي حدثت في التفكير الإستراتيجي الأمريكي وكذلك في وضعها العسكري والاقتصادي، التي لطالما اعتبرت جريمة ضد تراث أمريكا الديمقراطي، فدريفوس ومن خلال مادة الكتاب يقدم انتقادات بالغة الحدة للسياسة الأمريكية تجاه العالم الإسلامي، ويصل في موقفه بشأن إسرائيل إلى تقديم اقتراحات تتجاوز ما يطرح في عالمنا العربي في تبنى المطالب العربية، وهو ما نراه يتطلب التعامل بعقل منفتح مع الكتاب دون إنغلاق على فهم ضيق لمضمونه، الأمر الذي نؤكد عليه رغم ما قد يلحظه القارئ من تباين مع المؤلف في ثنايا التعليقات التي قدمناها في هوامش الكتاب بشأن العديد من أفكاره التي رأينا أنه قد جانبه الصواب بشأنها أو افتقد الدقة في التعرض لها.

وتبقى كلمة .. إن القيام على ترجمة ونشر هذا الكتاب وفي هذا التوقيت بالذات لا ينبغي أن يحمل أي دلالة - خاصة إذا علمنا أنه يأتي في سياق مشروع تأخر تنفيذه خمس

سنوات - على صعيد موقفنا بشأن التباين الداخلي بين الحركات الإسلامية والأنظمة في دولنا الوطنية، فهو يأتي في سياق الهدف الذي يقوم عليه المركز فيما يتعلق بطبيعة العلاقات مع الغرب، ودراسة الإدراكات المتبادلة والغوص فيها من أجل الوصول الى فهم أفضل لهذه العلاقات. فعلى صعيد الوضع في مصر مثلا فإذا كان الكتاب يكيل الإتهامات لحركة الإخوان المسلمين الممثل الرئيسي لحركة الإسلام السياسي في مصر، فإنه في الوقت ذاته يكيل العديد من الانتقادات لأداء النظام المصري في تعاطيه مع هذه الحركات وغيرها من القضايا.. مانريد التأكيد عليه أننا لسنا طرفا في قضية تتعلق بأبعاد داخلية وإنما رسالة المركز أعم من ذلك وأشمل.

مصطفى عبد الرازق

مقدمة المؤلف

(١)

هناك فصل لم يكتب من تاريخ الحرب الباردة والنظام العالمي الجديد الذي جاء بعدها. هذا الفصل يروي كيف مولت الولايات المتحدة وشجعت النشاط الإسلامي اليميني ، أحيانا في الخفاء، وأحيانا في العلن. هذا الفصل شديد الأهمية لأنه يحوي ميلاد "الإرهاب" الإسلامي كظاهرة عالمية بسبب تلك السياسات التي مورست لفترة تزيد على ستة عقود.

الحقيقة إن الولايات المتحدة والتي سوف تصبح فيما بعد إمبراطورية تبسط نفوذها في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ووسط وجنوب آسيا ، كانت قائمة على الاعتماد على الإسلام السياسي. على الأقل هذا ما كان يطمح إليه الذين خططوا لمسار تلك الإمبراطورية. غير إنه ثبت فيما بعد إنها لعبة شيطانية وإن جاء ذلك الإدراك في وقت متأخر جدا، بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حيث بدأت واشنطن تكتشف الخطأ في حساباتها الإستراتيجية.

قضت الولايات المتحدة عقودا من الزمان في زراعة وتربية الإسلاميين "المتشددين" والتلاعب بهم وخداعهم واستغلالهم بدهاء وإساءة، هذا الاستغلال باعتبارهم من حلفاء الحرب الباردة. لكن الولايات المتحدة اكتشفت أنها بذلك زرعت قوة انقلبت عليها ومارست الانتقام منها. الأئمة المتشددون والملالي وآيات الله الذين انتشروا كانوا مثل الوحوش التي دبت فيهم حياة اصطناعية فهدر زئيرهم وصبوا جام غضبهم ، ليس ضد الولايات المتحدة وحدها، بل ضد حرية الفكر والعلوم الدنيوية وضد القومية واليسار وحقوق المرأة. كان بعضهم من "الإرهابيين" لكن الغالبية كانوا من المتطرفين في الدين أصحاب عقول من العصور الوسطى يريدون إعادة التاريخ إلى الخلف حتى القرن السابع عشر.

في فترة الحرب الباردة التي امتدت من ١٩٤٥ حتى ١٩٩١ لم يكن العدو الوحيد هو الاتحاد السوفيتي السابق. ووفقا للقواعد السائدة في ذلك الوقت فقد ساهمت الولايات المتحدة في تحول عدد من القادة والزعماء ممن لم يعترفوا بالأجندة الأمريكية أو تحدوا الغرب وخاصة الهيمنة الأمريكية إلى وحوش وقد كانت الأفكار والإيديولوجيات التي ألهمت هؤلاء الزعماء تتضمن قدراً من الشك في أفكار مثل القومية والإنسانية والعلمانية والاشتراكية، وهي ذاتها الأفكار القمعية التي كانت تخشاها قوى التطرف الإسلامي الوليدة.

وخاض اليمين الإسلامي في أنحاء المنطقة معارك ضارية ضد من يروجون لتلك الأفكار، ليس فقط في عالم الفكر، بل في الشوارع أيضا. وقد وجدت الولايات المتحدة أنه من المناسب سياسيا أن تختلق قضية مشتركة مع اليمين الإسلامي خلال الصراع الذي استمر عقودا ضد القومية العربية وضد القومية الفارسية والتركية والهندية.

وإذا تحدثنا على نطاق أوسع نجد أن الولايات المتحدة حاولت على مدى سنوات طويلة إقامة حاجز ضد الاتحاد السوفيتي من ناحية حدوده الجنوبية. وبما أن جميع الدول فيما بين اليونان والصين كانت إسلامية فقد أدى ذلك إلى ظهور فكرة أخرى هي أن الإسلام ذاته قد يسود على إستراتيجية خط ماجينو (الفاصل بين الاتحاد السوفيتي والدول الواقعة جنوبه). وتشكلت تدريجيا فكرة إنشاء حزام اخضر على طول القوس الإسلامي. ولم يكن الهدف الوحيد من الفكرة مجرد الدفاع. فقد تخيل السياسيون المغامرون أصحاب الطموح أن زراعة الإسلام داخل جمهوريات وسط آسيا التي تحد الاتحاد السوفيتي من الجنوب قد تؤدي إلى هدم الاتحاد ذاته، واتخذ هؤلاء السياسيون الخطوات اللازمة لتشجيع تلك السياسة.

لم تكن الولايات المتحدة تلعب ببطاقة الإسلام على أنه الديانة والنظام المحكم والتقاليد والمعتقدات التي يعتنقها ملايين المسلمين، بل تلعب ببطاقة "التشدد الإسلامي"، وهو فكرة ذات جذور عميقة في التاريخ ولا يعكس الإيمان الذي يرتكز على ١٤ قرنا

من تاريخ الإسلام. "التشدد الإسلامي" عقيدة سياسية لها جذور تعود إلى القرن التاسع عشر، هو فكرة متطرفة تقوم على القوة، فلسفة شاملة يتضح أن من يعتنقوها أغرابا و"منشقين" بالنسبة لغالبية المسلمين من العصور السابقة ويبدون كذلك أيضا للعديد من المسلمين المتعلمين في عصرنا الحالي.

وسواء أطلقنا على هذه الظاهرة اسم "الإسلام القومي" أو "الأصولية الإسلامية" أو "الإسلام السياسي" فكل تلك الأسماء تشير إلى كيان مختلف عن الترجمة الصحيحة للحياة الإسلامية التي تشير إليها أركان الإسلام الخمسة الرئيسة. الحقيقة إن الكيان الجديد هو نسخة مشوهة من العقيدة الدينية. وتلك هي الإيديولوجية المتحولة التي شجعتها الولايات المتحدة ودعمتها ونظمتها وأسست لها. هذا الكيان هو الذي يمثله الإخوان المسلمون وإيران في عهد أية الله خميني والوهابية المتشددة في السعودية وحماس وحزب الله والمجاهدين الأفغان وأسامة بن لادن.

(2)

لقد أسست الولايات المتحدة للتطرف الإسلامي ليكون شريكا مريحا لها خلال فترات مشروع الإمبراطورية الأمريكية في الشرق الأوسط منذ دخولها المبكر في المنطقة حتى سيطرتها العسكرية التدريجية إنتهاءا بتوسعها بالوجود العسكري على أرض المنطقة وأخيرا تحول الولايات المتحدة إلى ذراع احتلال عسكري في العراق وأفغانستان.

في الخمسينات لم يكن العدو الوحيد هو موسكو، بل القوميون الجدد من جمال عبد الناصر في مصر إلى محمد مصدق في إيران. استغلت الولايات المتحدة وبريطانيا الإخوان المسلمون وهي حركة "إرهابية" (*) وأم اليمين الإسلامي ، ضد جمال عبد الناصر، الذي سيتحول إلى زعيم القومية العربية.

ومولت الولايات المتحدة سرا، أحد آيات الله اسس حركة الأنصار في الإسلام وهي حليف إيراني متشدد للإخوان المسلمون ، خلال الانقلاب الذي وقع في إيران بتخطيط من المخابرات الأمريكية في عام ١٩٥٣. وفي نفس العقد بدأت الولايات

* توصيف المؤلف وهو الأمر الذي لا يمكن قبوله على إطلاقه دون فرز.

المتحدة تتلاعب بفكرة الكتلة الإسلامية بقيادة المملكة العربية السعودية لمواجهة اليسار القومي.

وفي الستينات، وبرغم جهود الولايات المتحدة لاحتواء القومية اليسارية والاشتراكية العربية، انتشرت تلك الاتجاهات من مصر إلى الجزائر إلى سوريا إلى العراق وفلسطين. وكونت الولايات المتحدة تحالفا مع السعودية لمواجهة هذا التهديد الناشئ وكانت تنوي من وراء ذلك استغلال سياستها الخارجية لإحياء الوهابية الأصولية. وتعاونت الولايات المتحدة مع الملك سعود والأمير فيصل (الذي أصبح الملك فيصل فيما بعد) في تأسيس الكتلة الإسلامية من شمال أفريقيا إلى باكستان إلى أفغانستان. وأسست السعودية مؤسسات لتعبئة اليمين الديني الوهابي والإخوان المسلمون. وأسس النشطاء بتمويل من السعودية المركز الإسلامي في جنيف (١٩٦١)، ورابطة العالم الإسلامي (١٩٦٢)، ومنظمة المؤتمر الإسلامي (١٩٦٩) ومنظمات أخرى شكلت جوهر الحركة الإسلامية العالمية.

وبعد وفاة عبد الناصر في السبعينات وتراجع القومية العربية أصبح الإسلاميون قوة مهمة في العديد من الأنظمة ذات العلاقة بالولايات المتحدة . وقد أقامت الولايات المتحدة نفسها تحالفا مع اليمين الإسلامي في مصر واستغل الرئيس الراحل أنور السادات هذا التيار لإنشاء قاعدة سياسية مضادة للناصرية في مصر، وفي باكستان التي استولى فيها الجنرال ضياء الحق على السلطة بالقوة وأقام دولة إسلامية، وفي السودان التي يسعى فيها حسن الترابي زعيم الإخوان المسلمون إلى السلطة.(**) وفي الوقت نفسه بدأت الولايات المتحدة ترى التشدد الإسلامي على إنه أداة تستطيع استغلالها هجوميا ضد الاتحاد السوفيتي خاصة في أفغانستان ووسط آسيا حيث استغلت الولايات المتحدة سيفها الإسلامي لتسلطه على رقبة الاتحاد السوفيتي دون هوادة.

ومع اندلاع الثورة في إيران أدى التعاطف مع الأصولية الإسلامية، فضلا عن جهل الولايات المتحدة بالتيارات الدينية في إيران، بالكثير من المسئولين الأمريكيين لأن

** يبدو هذا التوصيف ينطبق على مرحلة معينة في ماضي الترابي.

يعتقدوا إن آية الله خميني شخصية مسالمة وأعجبوا بما قدم به نفسه على إنه معارض للشيوعية. وكان من نتيجة ذلك وقوع المأساة المتمثلة في عدم تقدير الولايات المتحدة لما يمكن أن تؤول إليه الحركة الإسلامية الخمينية في إيران حق تقديرها.

وحتى عقب الثورة الإيرانية في ١٩٧٩ أخفقت الولايات المتحدة وحلفاؤها في استيعاب الدرس والذي مفاده أن الأصولية الإسلامية كيان خطير وقوة لا يمكن السيطرة عليها. فقد أنفقت الولايات المتحدة مليارات الدولارات لدعم الجهاد الإسلامي في أفغانستان التي كان مجاهدوها تحت قيادة جماعات إسلامية متحالفة مع الإخوان المسلمين. ولم تتوجس الولايات المتحدة أيضا خيفة عندما دعمت إسرائيل والأردن سرا "الإرهابيين" من الإخوان المسلمين في الحرب الأهلية في سوريا وساعدت إسرائيل وشجعت على انتشار الأصولية الإسلامية بين الفلسطينيين في الأراضي المحتلة مما ساعد في تشكيل حركة حماس. وأيد المحافظون بيل كيسي في المخابرات الأمريكية في الثمانيات عندما عقد صفقات سرية مع آية الله الخميني في إيران.

وانتهت الحرب الباردة بحلول التسعينات وأصبح وجود اليمين الإسلامي لا طائل من ورائه، الأمر الذي وصل إلى حد تأكيد بعض خبراء الإستراتيجية إن الإسلام السياسي يشكل تهديدا جديدا بدلا من الشيوعية العدو العالمي للولايات المتحدة. غير أن تلك القوة المبالغ فيها للحركة كانت مقصورة على الفقراء والدول المتخلفة. لكن الإسلام السياسي من المغرب إلى اندونيسيا لا يزال قوة يتعين على الولايات المتحدة أن تتعامل معها. وكان رد الفعل الأمريكي على ذلك مشوشا وغير واضح.

وخلال التسعينات تعاطفت الولايات المتحدة مع قوى الإسلام السياسي الناشئة فقط بسبب حملة الجيش الجزائري ضدها(*). ثم حافظت الولايات المتحدة على إبقاء قنوات الحوار مفتوحة مع تلك القوى التي تحولت بسرعة إلى الإرهاب(**). وفي مصر شكل الاخوان المسلمون والجماعات المنبثقة عن جماعات العنف التي اتخذت من السرية أسلوبا لعملها، تهديدا خطيرا على نظام الرئيس مبارك لكن الولايات المتحدة تلاعبت

* هناك بعض الآراء التي تشير إلى أن الحملة على جبهة الإنقاذ كانت بدعم وتشجيع من الولايات المتحدة ما يشير إلى ضعف الرؤى التي يقدمها المؤلف، إن لم تكن ترتقي إلى المغالطة.

** يواصل المؤلف هنا مساعيه لترسيخ صفة الإرهاب بالحركات الإسلامية رغم أن العودة إلى ما حدث خلال تلك الفترة يكشف عن الكثير من الجوانب السلبية التي تدين النظام وليس الإنقاذ.

بورقة تأييد الحركة. وفي أفغانستان التي انهارت بفعل جماعة الجهاد التي دعمتها الولايات المتحدة لمدة عقد من الزمان فازت طالبان بتأييد الولايات المتحدة. وحتى عندما ظهرت القاعدة وأسامة بن لادن وجدت الولايات المتحدة نفسها في نفس الخندق مع اليمين الإسلامي في باكستان والسعودية والخليج العربي ثم وقع هجوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

ويبدو أن حكومة بوش، عقب ١١ سبتمبر ٢٠٠١، استمعت إلى تيار المحافظين الذين أعلنوا أن العالم أصبح رهينة صدام الحضارات وشنت حربها العالمية على الإرهاب واستهدفت "القاعدة" اشد الفيروسات فتكا، المتولدة عن الفيروس الأكبر الذي دعمته الولايات المتحدة. ولم تنفك الولايات المتحدة، كما فعلت من قبل ولا تزال، تدعم بهمة اليمين الإسلامي مرة أخرى في العراق الدولة الاشتراكية العلمانية التي عارضت التشدد الإسلامي لفترة طويلة. وأيدت الولايات المتحدة علنا المتشددين الشيعة في العراق من آية الله على السيستاني إلى الأحزاب الإسلامية المتشددة مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق والدعوة الإسلامية وكلاهما يحظى بتأييد ملالي طهران.

(3)

وبدأ صدام الحضارات المزعوم، وهو الصدام الكبير بين الغرب والعالم الإسلامي، إذا صح القول، بلا مبررات. تعثرت الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وسط ركام وحطام الحرب العالمية الثانية لأنها دخلت عالم بالكاد تعرف عنه شيئا. وإذا كانت الولايات المتحدة اقترفت أخطاء في التعامل مع الإسلام في النصف الثاني من القرن العشرين فإن هذا يعود من بين أسباب أخرى إلى إنها كانت جاهلة تماما بالإسلام.

كانت منطقة الشرق الأوسط حتى عام ١٩٤١ عالم العجائب الذي تخشاه الولايات المتحدة الفتية فكان عبارة عن أرض خيالية من الإمارات والمشايخ والشيوخ والحريم والسلاطين المعممين وعبارة عن شعوب تعيش بلا دورات مياه في واحات صحراوية بها أهرامات وارض مقدسة. وقد عكس الأدب والشعر والروايات والقصص المختلفة التي رواها الرحالة هذه الصورة ومفادها أن الشرق الأوسط أرض الغموض يسكنه أناس غير أذكياء وغير متدينين. وكانت شعوب المنطقة تصور باعتبارهم مسلمون أو

محمديون كل ما يملكونه هو التلويح بالسيف فيما هم يفتقدون إلى أي معنى للتحضر والتهذب. كان الشرق الأوسط بالنسبة للولايات المتحدة أرض القراصنة و"الأتراك" وهو المعنى السائد حتى اليوم.

وعبر كتاب مارك توين بعنوان " الأبرياء في الخارج" منذ ظهوره عام ١٨٦٩ عن السذاجة الأمريكية في الخارج. لكن القليلين لاحظوا أن توين، الذي ربما يكون أكثر الأمريكيين ملاحظة وذكاء، استغل هذا الكتاب ليصف رحلة استمرت بضعة أشهر في حوض المتوسط والشرق الأوسط. وكان الكتاب ذي تأثير عظيم على القراء الأمريكيين في القرن التاسع عشر. لكن توين من سوء الحظ ساهم في الجهل بالأمور ذات العلاقة بالإسلام واستغلها. ويبدو أن توين الذي تجول بين تركيا وسوريا ولبنان وفلسطين كان يحاول الإلتزام بالموضوعية في وصف البربرية التي رآها. فقال إن سكان تلك المناطق يجففون روث الإبل، ووصف كيف تكره تلك الشعوب أي مسيحي في دمشق بسبب تعصبهم للدين الإسلامي. وقال إن أهل دمشق "هم الأكثر قبحا و شرا رأيناه في حياتنا". وقارن توين بين الأرض المقدسة والناصرة فقال " في أرض الناصرة لم يكن هناك قذارة ولا ملابس رثة ولا براغيث ولا وجوه قبيحة ولا عيون مليئة بالبثور ولا ذباب ولا جهل مطبق ولا أماكن رثة تصلها على ظهور الحمير ولا همهمة وغمغمة غير مفهومة بلغات غريبة ولا ابل نتنة الرائحة."

في مطلع القرن العشرين عندما بدأت إرهاصات الحرب العالمية الأولى أدى تفتيت الإمبراطورية العثمانية وبداية إضعاف العرب بمعرفة بريطانيا، إلى بداية وعي الولايات المتحدة بالشرق الأوسط الحديث على يد أناس من أمثال ونستون تشرشل وتي أي لورانس (العرب) وجيرترود بيل. ولا تزال الصورة ضبابية من وراء رداء من الرومانسية والجهل. وقد أصبحت كتب لورانس ومنها "أعمدة الحكمة السبعة" أفضل الكتب مبيعا في الولايات المتحدة وكذلك أدب الرحلات بين الواحات الذي كتبه العديد من المغامرين. وكان الشرق الأوسط في ذاكرة غالبية الأمريكيين عبارة عما يذكروه من فيلم أو أغنية. وشكلت أغنية رودولف فالنتينو بعنوان "الشيخ" في عام ١٩٢١ ما سوف يكون فكرة الأمريكيين عن العرب فيما بعد إلى جانب أغنية "الشيخ [illegible]ي" التي كانت كلماتها

تنطوي على تهديد يقول "عندما تكون نائما في الليل سوف أتسلل إلى خيمتك". واستمر تأثير تلك الأغنية لعقود من الزمان. وقد سجل بيني جودمان تلك الأغنية في عام ١٩٣٧ كما سجلها فريق البيتلز في ١٩٦٢ وليون ردبون في ١٩٧٧.. ولم يكن لدى الولايات المتحدة أي خبرة بالشرق الأوسط في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية.

ومن القرن التاسع عشر إلى العشرين كان الأمريكيون الذين غامروا بالسفر إلى المنطقة هم أعضاء البعثات البروتستانتية والمبشرين والأطباء الذي أخذوا على عاتقهم نشر الدين المسيحي بين غير المسيحيين والوصول إلى المسحيين المتبقين من الإمبراطورية العثمانية خاصة في سوريا ولبنان. ومن أمثال هؤلاء رواد منهم دانييل بليس وابنه هوارد بليس والإخوة دودج (ديفيد ستيوارت دودج ووليام ايرلي دودج) الذين شيدوا وأداروا الكلية البروتستانتية في سوريا والتي تحولت إلى الجامعة الأمريكية في بيروت في العشرينات، وماري ايدي ابنة رئيس البعثة الدينية التي أسست مستشفى في لبنان، وهي منشآت كانت مصابيح تضئ المناطق العربية على سواحل الإمبراطورية العثمانية. وكان هؤلاء آباء وأجداد وأسلاف الأجيال التي كونت الحركة التبشيرية الأمريكية التي ظهرت عقب الحرب العالمية الثانية باسم "محبو العرب".

(4)

توجه فرانكلين ديلانو روزفلت في عام ١٩٤٥ إلى الشرق بحثا عن النفط فوجد الإسلام. وأجرى روزفلت مقابلة مصيرية على متن سفينة مع الملك عبد العزيز آل سعود عاهل السعودية. وكانت تلك المقابلة بالنسبة للولايات المتحدة بداية ارتباط الولايات المتحدة سياسيا وعسكريا مع المنطقة.

وجدت الولايات المتحدة، المنتشية بانتصارها في الحرب، نفسها تلعب دور القوة العظمى في العالم. وكان نشاطها في ذاك الوقت ساذجا إلى أقصى حد بالنسبة إلى الحزبين الرئيسين فيها ومخيفا بالنسبة للآخرين. وساور جيل القادة الأمريكيين بعد الحرب العالمية الثانية شعور عارم بأن الروح الأمريكية سوف تتفوق على الجميع وإذا لزم الأمر على الكرة الأرضية قاطبة. كان ذلك القرن رغم كل شيء هو القرن الأمريكي الذي تحدث عنه هنري لويس.

كان الشرق الأوسط في ذاك الوقت يبزغ نجمه على إنه المنطقة الحيوية خارج نطاق القوى الصناعية آنذاك في أوروبا الغربية واليابان. وهرعت الولايات المتحدة إلى مهمة إمبريالية مدفوعة بقوتها برغم افتقارها للخبرة والمهارات اللغوية والمعرفة الثقافية بالحضارة المعقدة في المنطقة. وقد قدم الجنرال كومنج في كتاب "العاري والميت" من تأليف نورمان ميلر النمو غير العادي للقوة الأمريكية التي سوف تنطلق من عرينها بعد الحرب العالمية الثانية، فقال: "أحب أن اسميها عملية طاقة تاريخية. هناك دول لديها قوة ضخمة وموارد هائلة وهي مليئة بالطاقة المخزونة مثل الطاقة الحركية. فالدولة عبارة عن منظمة وجهد تنسيقي. ومن الناحية التاريخية كان الهدف من تلك الحرب هو ترجمة القوة الأمريكية المخزونة لتحويلها إلى طاقة حركية. وعندما يكون لديك قوة متولدة وموارد وجيوش لا تعتمد تلك الأشياء على قوتها الذاتية. إن فراغ أمتنا مليء بالقوة المنصرفة ويمكن أن أقول إننا في دائرة الضوء التاريخي الآن."

لكن مع انسياب القوة الأمريكية في العالم الإسلامي بدأت الولايات المتحدة ارتباطها طويل المدى بقليل من الفهم أو بعدم فهم مع القوى التي تتعامل معها. و لم يكن هناك دراسات في الولايات المتحدة عن الشرق الأوسط إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وبدأت مراكز البحث في شئون الشرق الأوسط، وبعضها حكومي، تزدهر بعد عام ١٩٤٧ عندما أنشأت جامعة برنستون مركز الشرق الأدنى في الولايات المتحدة. غير أنه مرت سنوات طويلة قبل أن يتوفر للولايات المتحدة كوادر من الخبراء الأكاديميين الذين يفهمون السياسة والثقافة والديانة الإسلامية.

وكان رجالات السياسة الأمريكيون سجناء نماذج مقولبة. ومنذ عهد روزفلت، كان يبدو أنهم متأثرين بالمظهر العالمي الذي يبدو على الذين يجرون معهم محادثات من العرب. عاد روزفلت إلى واشنطن بعد لقاء الملك عبد العزيز ولم يستطع تغيير الصورة "المتوحشة" عن الملوك العرب حيث كانوا يجلسون على مقاعد من الذهب ويحيط بكل منهم ستة من العبيد. وبعد عامين وصف هاري ترومان مسئولا سعوديا كبيراً بأنه نموذج قديم للعرب الذين يطلقون لحاهم ويرتدون أثوابا بيضاء ويتحلون بالذهب وكل تلك المظاهر. وأعرب ايزنهاور عن رفضه للعرب باعتبارهم مجموعة غير مأمونة

وقنبلة موقوتة وتتصف بالهوى وعدم الموضوعية. والتاريخ الرسمي للولايات المتحدة مليء بمثل تلك النماذج الصارخة للعرب والمسلمين وهي الصور التي رسمها المسئولون الأمريكيون. وفي السنوات الستين التالية ظهر القليل من الأمريكيين المحبين للعرب الذين عرفوا القليل عن الشرق الأوسط وسيحاولون فيما بعد محاربة النماذج المقولبة لكنهم لن ينجحوا في ذلك.

(٥)

وثبت إن الخيال الرومانسي عند الأمريكيين عن حياة العرب والكراهية المغلفة بالعنصرية والدين لما افترضوه عن العرب من عدم تدين هو خليط قاتل عندما حان الوقت للولايات المتحدة أن ترتبط سياسيا وعسكريا بالشرق الأوسط. وربما تكون تلك النماذج المقولبة هي التي أدت برجال السياسة الأمريكيين أن يروا المسلمين على أنهم محاربون شرسين. ربما اعتقد الأمريكيون أن فانتازيا ديانة العرب المسلمين سوف تؤدي بهم إلى مقاومة الشيوعية الوثنية. وربما كان التصور السائد أن المؤسسة الدينية التقليدية هي تكريس لواقع قائم في جنوب غرب آسيا. لكنه لم يتبادر أبدا إلى عقول الأمريكيين أن المنظمات الإسلامية مثل الإخوان المسلمون كانت ظاهرة مختلفة نوعيا عن مثل هذا النوع من المؤسسات الدينية. وبالتأكيد، ومع تطور الحرب الباردة، بدا أن العدو الأكبر وهو الاتحاد السوفيتي وحلفائه والقومية العربية لهم عدو واحد مشترك هو الإسلام.

بدأت الحرب الباردة من عدة نواح في الشرق الأوسط. وادعى الرئيس هاري ترومان مسئولية الولايات المتحدة عن اليونان وتركيا لتحل الولايات المتحدة محل بريطانيا في هذا الدور منذ عام ١٩٤٧ وواجه الاتحاد السوفيتي في أذربيجان شمالي إيران. كان الوجود الإمبريالي البريطاني يتقلص. وتخلت لندن عن اليونان وتركيا ثم عن الهند وفلسطين. وكان هذا التراجع الذي يملأ فراغه الولايات المتحدة وحدها، هدف مغري للتوسع السوفيتي (ستوضح الدراسات الأكاديمية فيما بعد إن كلا من ستالين وخروتشوف لم يكن لديهما النية أو القدرة على انتزاع السيطرة على الخليج العربي (*)

* يذكر المؤلف أنه الخليج الفارسي حسبما هو متبع في أغلب الكتابات الغربية والتي تحاول نفي الصفة العربية عن الخليج وسنستبدلها في كافة المواضع التي ترد في الكتاب.

والشرق الأوسط). كانت الأهمية الإستراتيجية للشرق الأوسط واضحة للجميع فقد كان ولا يزال المصدر الذي لا ينضب للطاقة لحلفاء الولايات المتحدة في أوربا واليابان. وفي ذلك الوقت لم تكن الولايات المتحدة تعتمد على الخليج العربي للوفاء بحاجاتها من النفط بل كانت تعتمد في ذلك على فنزويلا وتكساس ولويزيانا واوكلاهوما. لكنّ أوربا واليابان يحتاجان إلى الشرق الأوسط بشدة لتوفير حاجات الحياة اليومية.

وليس من قبيل المبالغة القول أن صناع الاستراتيجيات الأمريكيين لاحظوا أن الذود عن أوربا الغربية لا يمكن أن يتحقق دون خطة موازية للسيطرة على الخليج. وبرغم التوترات الداخلية بين الدول الغربية فقد أقامت سلسلة من التحالفات في المنطقة مثل الناتو ومنظمة الشرق الأوسط الدفاعية التي جرى إجهاضها وحلف بغداد ومنظمة "السنتو" وهي منظمات كانت جميعا موجهة ضد الاتحاد السوفيتي. وفي تطور أكثر هدوءاً أيدت واشنطن ولندن اليمين الإسلامي ضد اليسار في بلد تلو الآخر وشجعتا على ظهور نوع من الكتلة الإسلامية.

وبالنسبة للذين لا يعرفون الكثير عن ديانة وثقافة الشرق الأوسط من الرؤساء ووزراء الخارجية ومديري المخابرات المركزية كان اليمين الإسلامي يبدو مثل جواد يسهل ترويضه. كان يمكنهم التعرف على الذين يؤمنون بالمعتقدات الدينية بعمق حتى إذا كان مثل هذا الدين غريبا عنهم. وفي بحثهم عن حلفاء على المستوى التكتيكي كان يبدو الإسلام رهانا أفضل من العلمانية لأن العلمانيين من اليسار كان ينظر إليهم على أنهم مخالب موسكو أما أعضاء الوسط فكانوا معارضين لدرجة خطيرة للملكيات والنخب التقليدية في المنطقة. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية شملت قائمة الدول التي يحكمها ملوك ليس فقط السعودية والأردن بل مصر والعراق وإيران وليبيا.

وبحلول الخمسينيات ازدهرت الدراسات العسكرية والثقافية عن الشرق الأوسط في العديد من الجامعات الأمريكية مما نتج عنه تزايد من يؤيدون العرب أو "العروبيون" (*) والمستشرقون الذين كان صناع السياسة يأتون إليهم طلبا للنصح في فهم معضلات المنطقة. وامتلأت المخابرات المركزية ووزارة الخارجية بمجموعة من الخريجين الذين

---

* من المفضل تسميتهم مستعربين.

يتحدثون العربية والتركية والفارسية والأوردية ولغات أخرى في الشرق الأوسط. وظهرت مجموعة من "العروبيين" في الحكومة الأمريكية على الأقل كانوا يعرفون شيئا قليلا عن الشرق الأوسط. غير أن القليل منهم وباعترافهم تعلموا الكثير عن الإسلام والمسلمين وركزوا بشكل أكبر على تفاصيل المسائل الاقتصادية والسياسية. وكانت غالبية العروبيين من العلمانيين ولم يكونوا متعاطفين مع الأصولية الإسلامية، فقد كان الكثير منهم في الواقع يتعاطفوا مع القومية العربية، واعتبر أغلبهم أن الإسلام هو الرمز الزائل من العهد السابق.

غير أنه مع اندلاع الحرب الباردة تم تجاهل الكثير من "العروبيين" الذين تعاطفوا مع القومية العربية من كل من المخابرات المركزية ووزارة الخارجية. كان دعاة الحرب الباردة يهاجمون رؤيتهم كما هاجمهم مؤيدو إسرائيل الذين عزموا هدم أي شخص يعتبر نفسه مؤيداً للعرب. وبحلول السبعينات خبا تعبير " العروبي" أو محب العرب تماما. ومنذ ذاك الوقت زاد عدد الناشطون الذين يؤيدون الصهيونية وشنوا حربا إيديولوجية على "العروبيين" الذين بقوا في الحكومة أو في المؤسسات الأكاديمية. ومثل كتاب " العروبيون: رومانسية النخبة الأمريكية" الذي كتبه روبرت كابلان في ١٩٣٣، ذروة هذا الاتجاه. ومنذ نشر هذا الكتاب أصبحت مهاجمة العروبيين في الولايات المتحدة شغل الجميع الشاغل. وقد تم إقصاء كل العروبيين من التخطيط السابق للحرب ضد العراق، والذين عارضوا بشدة الحرب الوقائية، غير أن المفارقة أنه باستبعادهم افتقدت حكومة بوش رؤاهم الواقعية، وهو ما أسفر عن حقيقة أن التخطيط للحرب جرى تنفيذه على يد من لا يعلمون شيئا.

(6)

وقد يقول البعض إن الولايات المتحدة لم تنشئ الأصولية الإسلامية من عدم وهذا حقيقي. غير أننا يجب أن نأخذ في الاعتبار العلاقة بين هذا الطرح واليمين المسيحي في الولايات المتحدة حيث يوجد مسيحيون محافظون وإنجيليون بأعداد كبيرة منذ الحقبة الاستيطانية. كما أن ظهور اليمين المسيحي في الولايات المتحدة يمكن أن يرجع إلى السبعينات مع تشكيل الأب تيموثي لاهاي تحالف كاليفورنيا من الكنائس وظهور الغالبية

الأخلاقية التي أسسها لاهاي مع جيري فولويل ودور الرجلين وغيرهما في ظهور مجلس السياسة الوطنية والتحالف المسيحي ومنظمات مثل الإمبراطورية الإذاعية التي كونها بات روبرتسون ومنظمة العائلة التي أسسها الدكتور جيمس دوبسن. ومنذ ذلك الحين أصبح المسيحيون المحافظون قوة سياسية رئيسية وشعرت تلك المنظمات التي تكونت بلا ضابط بقوتها وأصبحت حركة قوية.

وينطبق نفس الشئ على اليمين الإسلامي، حيث تعود نشأة المعارضة في إطار الإسلام إلى ١٣ قرنا مضت. ومنذ فجر الإسلام يتنافس السلفيون والمناهضون للمنطق والعقل وحملة القرآن مع الاتجاهات التنويرية والتقدمية والمعتدلة. وفي عصور لاحقة كان المعارضون المسلمون عبئا على التحديث ويرفضون التعليم التقدمي والتحرر العقلي وحقوق الإنسان. لكن بعد تشكيل حركة جمال الدين الأفغاني الإسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وتأسيس الإخوان المسلمون في مصر على يد حسن البنا في عام ١٩٢٨ وإنشاء جماعة أبو الأعلى المودودي الإسلامية في باكستان عام ١٩٤٠ أصبح لدى الإسلام شخصيات تناظر لاهاي وفولويل وروبرتسن. ورفع هؤلاء الإسلاميون رماح الحرب الثقافية في الشرق الأوسط كما فعل نظرائهم المسيحيون من اليمين المسيحي في الولايات المتحدة وللأسباب ذاتها.

وعلى غرار ما وجده اليمين المسيحي من تأييد فعلي من المتبرعين له خاصة رجالات النفط في تكساس والغرب الأوسط وجد الإسلاميون تأييد مماثل من أثرياء البترول أيضا في السعودية والخليج. وكما كون اليمين المسيحي تحالفا سياسيا سهلا مع اليمين الجمهوري كون اليمين الإسلامي تحالفا مماثلا مع مهندسي الإستراتيجية الخارجية من الجناح اليميني في الولايات المتحدة. والحقيقة إن تأييد اليمين المسيحي والإسلامي على السواء تحقق بشكل كبير في ظل حكومة ريجان التي كانت تسعى بنهم إلى تحالفات مع كلا الجانبين. وهكذا أصاب العمى بعض الأمريكيين بفعل الحرب الباردة لدرجة أن ناشطين من اليمين المسيحي المسلح وعدد من العناصر ذات الميول الصهيونية والمؤيدة لإسرائيل، أيدوا المتشددين الإسلاميين في أفغانستان.

فضلا عما سبق فإن هناك أوجه تشابه أخرى بين اليمين المسيحي والتطرف الإسلامي .. فكلا الجانبين يؤمن إيمانا مطلقا بمعتقداته وليس لديه استعداد التنازل عنها قيد أنملة ويدينون أصحاب الديانات الأخرى وغير المؤمنين وأصحاب حرية الفكر لدرجة التكفير. كما يؤمن الجانبان بالوحدة بين الدين والسياسة، وهو محور الفكرة السابقة بأن الولايات المتحدة هي أمة مسيحية، وهو فكر يشبه ما يؤمن به المسلمون بشأن أسلوب الحكم سواء عن طريق خليفة ديني سياسي مطلق السلطة أو نظام من الجمهوريات الإسلامية تقيم الشريعة الإسلامية بحذافيرها. ويشجع كلا من اليمين المسيحي والتشدد الإسلامي التطرف الشديد بين الأعضاء المنتمين لهما. وليس من قبيل المصادفة أن يكون العالم مسرحا لصدام الحضارات مع وجود إتباع الحلفين.

(7)

وعلى ذلك فإن الحرب على الإرهاب تعد بالفعل وسيلة خاطئة للتعامل مع هذا النوع من التحدي الذي يشكله الإسلام السياسي.. ويأتي هذا التحدي في شكلين، أولا: هناك تهديد معين للأمان والأمن الأمريكيين يتمثل في "القاعدة". وثانيا: هناك مشكلة سياسية أكبر نتجت عن نمو اليمين الإسلامي في الشرق الأوسط وجنوب آسيا.

وفيما يخص "القاعدة" فقد بالغت حكومة بوش بشدة في حجم التهديد الذي تمثله فهي ليست منظمة بالغة القوة ولاتستطيع القاعدة غزو أو تدمير الولايات المتحدة، كما أنها لا تمثل تهديداً خارجيا للبلاد. وإذا كان يمكن للقاعدة قتل أمريكيين، إلا أن هذا لا يعني أنها وصلت إلى مرتبة إمتلاك أسلحة دمار شامل، ولن تستطيع في أي فترة مقبلة. ولا تملك القاعدة عدداً كبيراً من الخلايا والأصول أو العملاء داخل الولايات المتحدة رغم أنه بعد هجوم ١١ سبتمبر وجه المدعي العام الأمريكي الاتهام إلى القاعدة بأن لها خمسة آلاف عضو في الولايات المتحدة. كما أن لم يكن هناك أي علاقة بين الأشخاص الذين أُلقي القبض عليهم أو جرى اعتقالهم بعد ١١ سبتمبر وأي منظمة إرهابية. وخلال فترة ثلاثة أعوام ونصف العام التي تلت الهجوم لم تنفذ القاعدة أي عمل إرهابي ولم تقم أي منظمة إسلامية أخرى بعمل مماثل في الولايات المتحدة، ولم تقع حوادث خطف أو تفجير أو حتى إطلاق رصاص. ولم يكن هناك أي أدلة على أن هناك علاقة بين القاعدة

والعراق أو سوريا أو حتى السعودية ولا أي دولة إسلامية في العالم. باختصار التهديد الذي تشكله القاعدة يمكن التغلب عليه.

لكن استغلال القوات المسلحة الأمريكية في حرب تقليدية لمهاجمة القاعدة ليس هو الطريقة السليمة بما يمثله من مشكلة للمخابرات وما يواجهه من مشاكل إجرائية تتعلق بأبعاد قانونية مثل هذا العمل. وكانت الحرب في أفغانستان خطأ كبير وفشلت في تدمير قيادات القاعدة أو تدمير طالبان وفشلت في تحقيق الاستقرار للدولة التي عانت أشد المعاناة في العصر الحديث من التمزق بفعل الحرب مما أدى إلى ظهور حكومة مركزية ضعيفة تحت رحمة لوردات الحرب وعصابات طالبان السابقة. والأسوأ من ذلك أن الحرب في العراق كانت خاطئة وغير ضرورية فضلا عن أنها كانت تستهدف دولة ليس لها أي علاقة بعصابة بن لادن. وكما قال أحد المراقبين أن الحرب على العراق مثل أن تهاجم الولايات المتحدة المكسيك انتقاما من معركة بيرل هاربر. واستغلال القوات المسلحة بحرية كاملة ضد كيان هامشي لا يمثل دولة مثل القاعدة أمر لا طائل من ورائه ويعني الاعتراف بالهزيمة. وكلما قطعت رأس بفعل الصواريخ الموجهة بالليزر أو غارات مشاة البحرية على المعاقل الإسلامية أو بهجمات المدفعية الإسرائيلية على مواقع حماس وحزب الله، تنمو ثلاث رؤوس جديدة محلها.

وقد استمرت الحرب في أفغانستان وعلى العراق لأنها كانت على هوى حكومة بوش في سياستها الرامية لتوسيع الإمبراطورية الأمريكية والحروب المجهضة ومكنتا الولايات المتحدة من إنشاء مؤسسة عسكرية سياسية كبرى تمتد من شرق أفريقيا إلى وسط آسيا. وقد وسعت حكومة بوش بشكل كبير من نطاق المشكلة التي تعالجها جراحيا، باستخدام القوات الخاصة ودبلوماسية متشددة وإجراءات قانونية وإدانات وجهود دولية منسقة وإجراءات دفاعية مبالغ فيها. ومع ذلك لا يزال من الممكن هزيمة القاعدة.

المشكلة الأكبر أن قوة التطرف الإسلامي في الشرق الأوسط وآسيا أكثر تعقيدا من ذلك. وبالطبع ترتبط المشكلة الأولى بالثانية. فإذا لم يتم إيقاف اليمين الإسلامي من الممكن أن تعيد القاعدة بناء نفسها أو كما حدث في العراق عقب الغزو الأمريكي قد تظهر منظمات جديدة تشبه القاعدة من حيث الغضب والسخط على الولايات المتحدة.

ويمكن أيضا أن تولد من رحم إحدى الجماعات المتشددة اليمينية الإسلامية مثل حماس أو حزب الله مجموعة أكبر ذات تركيز محلي وطموحات عالمية. وتحصل الجماعات التي تميل إلى العنف والمجموعات الإرهابية في الشرق الأوسط على تمويل ودعم مادي وتبرير ديني وقوات ممن تجندهم من بين المؤسسات الإسلامية المتشددة القائمة التي ظهرت في العقود الثلاثة الماضية في كل بلد إسلامي. وعلى ذلك يمكن القول أن القوى المرتبطة بالإسلام السياسي في الشرق الأوسط مكبوتة تشبه البخار داخل القدر كما لو كان هناك غلاية على النار ويخرج منها البخار شيئا فشيئا إلى الهواء. ويخرج مع هذا البخار متطرفون باستمرار وتستوعبهم على الفور الجماعات الإرهابية القائمة.

إذن ما الذي يمكن أن تقوم به الولايات المتحدة لتهدئة النار تحت القدر؟. لابد أن تخفض حرارة السياسة تحت قدر الحركة الإسلامية. أولا: ينبغي على أمريكا أن تفعل ما في وسعها للقضاء على الأسباب التي تجعل المسلمين الغاضبين يسعون الى الانضمام الى جماعات أو منظمات مثل الإخوان المسلمين. وليست كل تلك الأسباب بالطبع من صنع الولايات المتحدة ولا يمكن حل كل تلك المشكلات أو تخفيفها بفعل الولايات المتحدة غير أنه على الأقل يمكن للولايات المتحدة أن تتخذ خطوات مهمة يمكن أن تضعف قوة وقدرة اليمين الإسلامي على تجنيد الأعضاء في الجماعات على خلفية هذه القضايا.

ويمكن للولايات المتحدة عن طريق الأمم المتحدة والأوربيين وروسيا أن تساعد في تسوية القضية الفلسطينية والنزاع الفلسطيني الإسرائيلي بأسلوب يضمن العدالة للفلسطينيين، أي إقامة دولة مستقلة لهم تكون صالحة سياسيا وجغرافيا وبمقتضاها يتم إزالة المستوطنات الإسرائيلية غير القانونية وعودة الإسرائيليين إلى حدود ١٩٦٧ والتقسيم المستقر والعادل للقدس. وسوف يساعد ذلك أكثر من أي عمل آخر في القضاء على أسباب وجود اليمين الإسلامي.(*)

---

* بغض النظر عن الإختلاف مع المؤلف في النتيجة التي يتوصل إليها إلا أنه لا يمكن الإختلاف على أنه يقدم من خلال هذه الوصفة ما يمكن اعتباره خارطة طريق تتضمن مطالب تتجاوز تلك التي يطرحها أغلب الأطراف العربية بما فيها الجانب الفلسطيني ممثلا في السلطة الوطنية.

وثانيا: لابد أن تتخلى الولايات المتحدة عن تدخلاتها الاستعمارية في الشرق الأوسط. وسوف يستدعي ذلك سحب القوات الأمريكية من العراق وأفغانستان وإزالة القواعد العسكرية الأمريكية في الخليج العربي والسعودية والتخفيف الكبير من إمكان رؤية البحرية الأمريكية في المنطقة وبعثات التدريب العسكري ومبيعات السلاح.

ويعرف الكثير من الدبلوماسيين الأمريكيين الذين عملوا في المنطقة إن الوجود المستفز للولايات المتحدة في الشرق الأوسط يعزز ويفاقم من حالة الغضب والسخط عليها. وليس للولايات المتحدة أن تدعي أي شئ في الشرق الأوسط أو منطقة الخليج العربي اللذين لا بد أن تتحدد العلاقات الاقتصادية والسياسية المستقبلية معهما فقط في السياق الذي يراه قادة دول المنطقة حتى إذا كان ذلك لا يراعي مصالح الولايات المتحدة.

وثالثا: لابد أن تتوقف الولايات المتحدة عن السعي إلى فرض خياراتها المفضلة على المنطقة. ومنذ ٢٠٠١ سببت الولايات المتحدة أضراراً لا نهاية لها بمطالبتها إقامة شرق أوسط أكبر يتوافق مع الرؤية الأمريكية للديمقراطية. وينظر كثيرون إلى مطالبة المتشددين أصحاب الرؤى المثالية في حكومة بوش بالديمقراطية في العالم العربي وإيران على أنه بطانة مقنعة لمزيد من التدخل والتورط في المنطقة.(*) وحتى من حيث المعنى المعلن فان تلك المبادرة تتجاهل أن دول الشرق الأوسط لابد أن تتوصل إلى الديمقراطية بمعرفتها وفي الوقت المناسب لها، حيث ينظر لفرض الديمقراطية أو الإصلاح الديمقراطية باعتباره هزيمة ذاتية وإهانة لدول الشرق الأوسط، خاصة في ضوء حقيقة أن بعض تلك الدول قد يكون مستعداً للإصلاح والبعض الأخر غير مستعد. فضلا عن أن الإصلاح الديمقراطي الذي ينتهي إلى هيمنة اليمين الإسلامي وتمكين الإخوان المسلمين من السلطة في القاهرة ودمشق والرياض أو الجزائر لن يخدم الغرض المرجو. وسوف يضيف ذلك فقط دولا إلى سيطرة التشدد الإسلامي، وهو ما يعني في النهاية ضرورة أن ترفع الولايات المتحدة يدها عن المنطقة فيما يتعلق بالديمقراطية في العالم الإسلامي.(**)

* ينصب الحديث على موقف هذا الفريق قبل رحيل إدارة بوش الإبن.

** مهما يكن حجم الجدال حول هذه النقطة فلا شك انها – وهذا هو الغريب – تمثل المطلب الذي ينادي به كلا من أنظمة الحكم العربية ومعارضيها، وهو ما قد يعزز من الجدال بشأن النقاط والرزي التي يطرحها المؤلف على مدار صفحات كتابه.

ورابعا: لابد أن تتخلى الولايات المتحدة عن ميلها للتهديد باستخدام القوة العسكرية المباشرة ضد دول الشرق الأوسط بما في ذلك دول مثل إيران والسودان التي لا تزال تحت حكم إسلامي. وقد تكون موجة الإسلام لم تصل الى ذروتها بعد، فقد تخضع دول أخرى لتلك الموجة قبل أن تنحسر لأنها قوة تجمعت وتبلورت منذ عقود. لكن الولايات المتحدة لابد أن تعتاد على أن التهديد باستخدام القوة والأعمال الاستعمارية تعزز من قوة اليمين الإسلامي ولا تقضي عليه.(***)

إن التحرير الحقيقي لمنطقة الشرق الأوسط سيتطلب من القوى العلمانية في المنطقة أن تسمو بنظرة الناس الذين وقعوا في حبائل الإسلام، وتعلمهم وتثقفهم وتحدثهم. وسوف يستغرق هذا الجهد عقودا من الزمان لكنه لابد أن يبدأ الآن. وليس في الإسلام ما يستوجب أن يظل حبيس معتقدات القرن السابع عشر والتي تقوم على أن القرآن لابد أن يحكم السياسة والعلم والتعليم والثقافة في العالم، ويعني ذلك تغيير ثقافة تجعل ملايين المسلمين الموهومين يفكرون في العودة إلى الأصول السلفية المتشددة على إنها الإجابة المناسبة لحل مشكلات القرن العشرين والقضايا المقلقة فيه.

إن التطرف سواء كان إسلاميا أو يظهر في شكل اليمين المسيحي الأمريكي أو التطرف الديني الإسرائيلي قوة رجعية، والفصل العقلاني بين الدنيوي والإلهي في العالم الإسلامي لم يسمع به أحد. ويستطيع مئات الملايين من المسلمين الفصل بين المعتقدات الدينية والسياسة كما يفعل ملايين المسلمين والمسحيين واليهود في الولايات المتحدة، وهو أمر موكول القيام به إلى الغالبية الصامتة الحقيقية التي ينبغي أن تأخذ المبادرة من يد المتشددين. وقد يطلبون ويحصلون على التأييد والدعم من المجتمع المدني في الغرب ومن المنظمات غير الحكومية ومراكز البحث والفكر وغيرها.

ولابد أن تنخرط شعوب الشرق الأوسط في بناء دولهم، إلى جانب ما هو قائم من تركيز يقوم على تعزيز الخطاب الديني. وعندما تنخفض حرارة الخطاب السياسي في الشرق الأوسط يمكن أن يتجمع علماء الإسلام والفلاسفة وعلماء الاجتماع معاً

*** يجعلنا ذلك نتصور أن تلك وصفة أو روشتة للسياسة الخارجية الأمريكية مهما بلغت درجة كره صاحبها للحركات الإسلامية أو غيرها إلا أنها تعبر عن وصفة موضوعية تعبر عن وعي حقيقي بمصلحة الدولة التي ينتمي إليها المؤلف.

وينخرطون في نقاش كبير لوضع رؤية للقرن الواحد والعشرين تعبر عن تسامح الإسلام وتدشين ثقافة جديدة ليست رهينة الشيوخ والملالي وآيات الله.

ويمكن أن يظهر اتفاق عام أو إجماع عضوي في العالم الإسلامي حول إعادة تفسير التراث من نصوص دينية وتقاليد قديمة بطريقة ملائمة تناسب رؤية العالم المستنير ولابد أن يجد هذا الإجماع طريقه إلى كل مكان وركن في المدن الكبرى مثل اسطنبول والقاهرة وبغداد وكراتشي وجاكرتا وأن ينتشر في كل قرية ومسجد. وسيعني ذلك إصلاح المناهج التعليمية في العالم الإسلامي وعدم التركيز على الجامعات الدينية وما يسمى "بالمدارس" لصالح التعليم الحديث. وسيتطلب ذلك منافذ ومنابر إعلامية يمكنها أن تزدهر وتستخدم المحطات الإذاعية والفضائيات والانترنت في الأماكن التي لا تستطيع الوصول إليها. وسيستغرق هذا كله أعواما عديدة. ولا يمكن أن يحدث إلا بالقضاء على النزاعات العسكرية التي تشغل المنطقة وإتاحة الظروف لتحسين الأوضاع الاقتصادية تدريجيا. إن البناء الديني مثل بناء الأمم يمكن أن يستغرق الكثير من الوقت.

الفصل الأول

الجامعة الإسلامية في حضن الإستعمار

قبل مائة عام من إطلاق المبادرة السرية من جانب المسئولين في حكومة ريجان الموجهة لآية الله الخميني في إيران، وبالتحديد في عام ١٨٨٥، وقبل قرن من إنفاق أمريكا مليارات الدولارات لدعم الجهاد الأفغاني بقيادة المجاهدين المتطرفين ضد الاتحاد السوفيتي السابق، التقى ناشط أفغاني إيراني في لندن مع المخابرات البريطانية والمسئولين في الخارجية لوضع فكرة مثيرة للجدل. تمثلت الفكرة في تساؤل الناشط عن مدى اهتمام بريطانيا بإقامة جامعة إسلامية تضم مصر وتركيا وإيران وأفغانستان ضد روسيا القيصرية؟ (١) كان هذا هو عصر اللعبة الكبرى الذي اتسم بالصراع الاستعماري الطويل بين روسيا وبريطانيا للسيطرة على وسط آسيا. فقد كان البريطانيون تمكنوا من السيطرة على الهند، وعلى مصر كذلك في عام ١٨٨١. (الدقيق هو ١٨٨٢). وكانت تركيا العثمانية التي شملت أراض أخرى ضمت ما يمثل في الوقت الحاضر العراق وسوريا ولبنان والأردن فلسطين(*) والسعودية ودول الخليج، في وضع مهتز أيضا وكانت أجزاء من تلك الأراضي جاهزة للضم أو السيطرة رغم أن حل الممتلكات التركية سوف يستغرق وقتا حتى الحرب العالمية الأولى.

وكان هناك اندفاع كبير للإستيلاء على الأراضي في أفريقيا وجنوب شرق آسيا وكان البريطانيون يفكرون في تعزيز فكرة إحياء الإسلام في ضوء حقيقة كونهم خبراء في اللعب على أوتار القبلية والعرقية والانتماءات الدينية والوقيعة الشديدة بين الأقليات من أجل مصلحة جلالة الملكة المعظمة ملكة بريطانيا، خاصة إذا كانت تلك الفكرة تخدم أغراضهم ومصلحتهم. وكانت نفس الفكرة تراود كلا من روسيا وفرنسا لكن البريطانيين هم الذين كان لهم الغلبة بفعل خضوع الملايين من المسلمين في الشرق الأوسط وجنوب آسيا لهم. وكان من اقترح فكرة الجامعة الإسلامية عام ١٨٨٥ هو جمال الدين الأفغاني.(**) ومنذ سبعينات القرن التاسع عشر إلى تسعينياته أيدت المملكة المتحدة

* يشير إليها المؤلف في نصه بإسرائيل.

** يكرر المؤلف هنا المقولات ذاتها التي يرددها الكثيرون ممن شوهوا سيرة الأفغاني ومن الملاحظ في ذلك أنه يعتمد على مصدر يكاد أن يكون وحيدا وهو إيلي خضوري وهو يهودي يناصب الإسلام والمسلمين العداء ويمكن لمن يريد المزيد من الردود على مثل هذه الإتهامات العودة إلى الأعمال الكاملة للافغاني للدكتور محمد عمارة والتي تمثل ردا وافيا على كل الشبهات التي أوردها خصوم الأفغاني بشأن حقيقة مواقفه. ومن الغريب أنه فيما حاول المؤلف أن ينسب للأفغاني إنشائه للإحياء الإسلامي أنه جرى في حضن الإستعمار أن يشير مفكرا مثل الدكتور حسن حنفي في كتابه حول الأفغاني إلى أنه أول من صاغ المشروع الإصلاحي الحديث في النصف الثاني من القرن قبل الماضي القائم على الإسلام في مواجهة الإستعمار في الخارج

الأفغاني أو كما يوضح التاريخ على الأقل مرة واحدة في عام ١٨٨٢ في الهند وفق ما جاء في السجل السري لمخابرات الحكومة الهندية، فقد عرض الأفغاني رسميا أن يذهب إلى مصر في صورة عميل للمخابرات البريطانية. (٢)

ويعتبر الأفغاني مؤسس الجامعة الإسلامية الجد الأعلى لأسامة بن لادن، ليس من الناحية الفعلية وإنما من الناحية الإيديولوجية. وكانت ترجمة تساؤلات البريطانيين حول إنشاء اليمين الإسلامي تسير على هذا المنوال: الأفغاني (١٨٣٨- ١٨٩٧) يلهم محمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠٥) وهو ناشط مصري يؤيد الجامعة الإسلامية وكان تلميذ الأفغاني الأول وساهم في نشر رسالته. وعبده يلهم محمد رشيد رضا (١٨٦٥ – ١٩٣٥) وهو تلميذه السوري النجيب الذي انتقل إلى مصر وأسس مجلة "المنار" للدفاع عن أفكار محمد عبده في إنشاء الجامعة الإسلامية. وألهم رشيد رضا تلميذه حسن البنا (١٩٠٦ - ١٩٤٩) الذي تبنى السلفية الإسلامية من خلال مجلة المنار وأسس الإخوان المسلمين في مصر في عام ١٩٢٨. وتتلمذ العديدون على يد البنا ومن بينهم زوج ابنته سعيد رمضان المنسق العام الدولي للإخوان المسلمين الذي كان مقره في سويسرا، وأبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية في باكستان وهي أول حزب سياسي إسلامي قام بناءاً على أفكار البنا. وأنشأ تلاميذ البنا الآخرون فروعا للإخوان المسلمين في مختلف الدول العربية والأوروبية والولايات المتحدة ذاتها. ومن تلاميذ البنا النجباء كان رجل سعودي شارك في الجهاد الأفغاني الذي قادته أمريكا وهو أسامة بن لادن مؤسس القاعدة المنبوذ من عائلته.

وخلال الفترة التي امتدت لنصف قرن من ١٨٧٥ وحتى ١٩٢٥ تراصت لبنات بناء اليمين الإسلامي بمساعدة الإمبراطورية البريطانية. وانشأ الأفغاني البناء الفكري للجامعة الإسلامية تحت رعاية بريطانية ودعم من المستشرقين البريطانيين أمثال أي جي براون ومحمد عبده تلميذ الأفغاني النجيب، اللذين أسسا الحركة السلفية أو اليمين المتشدد القائم حتى الآن بمساعدة القنصل المصري في لندن ولورد ايفلين بارينج واللورد

والقهر في الداخل، وهو ما يشير إلى مدى التعسف الذي يعتمده المؤلف في كتابته عن الأفغاني وتقديمه لرؤى خدوري دون تمحيص.راجع: د. حسن حنفي، جمال الدين الأفغاني، المئوية الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩.

كرومر(*). ولكي نتفهم الدور الحقيقي لكل من الأفغاني ومحمد عبده من المهم أن ننظر إليهما على إنهما تجارب في الجهود البريطانية التي استمرت قرنا من الزمان لإنشاء الجامعة الإسلامية المؤيدة من بريطانيا.

قدم الأفغاني الحليف المراوغ الغريب خدماته لإمبراطوريات أخرى وأخرها نسخته نصف الحديثة والغامضة من الإسلام الأصولي التي فشلت في الارتقاء إلى مستوى حركة جماهيرية. والتحق محمد عبده تلميذه النجيب الأول بالحكام المصريين الذين زرعتهم بريطانيا ومثل حجر زاوية في الإخوان المسلمين التي سيطرت على اليمين الإسلامي خلال القرن العشرين.

وأيد البريطانيون محمد عبده رغم أنهم أطلقوا برنامجين أخرين قبيل الحرب العالمية الأولى لحشد القوى الإسلامية وتعبئتها. وفي الجزيرة العربية ساعد البريطانيون حفنة من سكان الصحراء من أشد المتشددين العرب بقيادة عائلة ابن سعود وأقاموا أول دولة إسلامية متشددة في السعودية. وفي الوقت ذاته شجع البريطانيون الهاشميين حكام مكة، ثاني عائلة عربية تدعي الانحدار من نسل الرسول محمد، ونصبتهم لندن أبنائهم ليكونوا ملوكا في العراق والأردن.

وكان يفترض أن يتولى الهاشميون في الأصل، بوصفهم حماة مكة والمدينة، قيادة العالم الإسلامي تحت مظلة فكرة إنشاء خلافة موالية لبريطانيا تحل مكان الخلافة التركية المترنحة. غير أن تلك الخطة لم تفلح على الإطلاق وإن نجحت الخطة الموازية. ومنذ عشرينات القرن العشرين صعد نجم الدولة السعودية بمذهبها الوهابي المتشدد ذو الطابع السلفي والذي انخرط تنظيميا مع الأخوان المسلمين على نحو عزز من عملية الإحياء الإسلامي.

لكن الأفغاني هو الذي بدأ العملية برمتها. فقد كان الأفغاني مثل بقية التابعين يشترك مع القوى الاستعمارية التي تتنافس على بسط نفوذها على الأراضي الشاسعة بين شرق أفريقيا والصين. وبعد سنوات من وفاة الأفغاني كتب عشرات من رواة سيرته

---

* من الغريب هنا أن ينسب المؤلف لعبده تلك التوصيفات رغم إجماع مختلف الدراسات التي تناولت فكر الرجل على أنه يعد أحد رموز التنوير الإسلامي وهو ما يطرح التساؤل حول ماهية الإسلام الذي يرى المؤلف وغيره من الغربيين التزام المسلمين به؟

الذاتية إنه من المؤمنين ويدافع بضراوة عن نهضة الإسلام ومناهض للاستعمار ويقاوم القوى العظمى ومصلح ليبرالي يسعى إلى المزج بين إسلام العصور الوسطى والعقلانية العالمية التنويرية. وفيما كل هذه العناصر حاضرة في مسيرة الأفغاني فقد كان ساحرا سياسيا استغل الدين لأهداف مؤقتة فيما كان حليفا وساعيا لدى القوى العظمى. ورغم أن الأفغاني لم يفوت فرصة واحدة لعرض خدماته على البريطانيين والفرنسيين والروس مراراً وتكراراً على نحو يجعل منه عميلا للقوى الثلاث فان مريديه وأتباعه خاصة محمد عبده أصبحوا يميلون إلى الغرب(*).

وقد ارتدى جمال الدين الذي ولد في إيران عام ١٨٣٨ اسم الأفغاني لكي يعطي الانطباع بأنه ولد في أفغانستان. وادعى جمال الدين أصولا أفغانية واستطاع أن يخفي شخصيته الإيرانية الشيعية مما أعطاه قبولا واسعا في العالم الإسلامي السني. وكانت كذبة الأفغاني(**) بشأن مكان ميلاده أول قطرة في الغيث. وحسبما قال ايلي خدوري المستشرق البريطاني المعروف فان إتباع الأفغاني (بما فيهم محمد عبده ورشيد رضا) مارسوا ما يمكن وصفه باقتصاد الحقيقة.(٣) وفرق الأفغاني خلال حياته ولم يجمع. ورغم أنه يعود إليه فضل تطوير الأساس النظري للإسلام السياسي الجامع والحركة الاجتماعية التي انتشرت في العالم الإسلامي اجمع فقد كانت أفكاره مخالفة لإجماع الفقهاء وغامضة وينخرط بالسياسة ويؤمن بالوظيفة الاجتماعية للدين. (٤) وفي ذلك قال خدوري أن الأفغاني كان يتعامل مع الدين كأداة وكان يظهر الورع ويضع برنامجا مفصلا للسياسة مستمد مما كان عليه الوضع خلال القرن السابع عشر من المجتمع الإسلامي البسيط في مكة خلال حياة الرسول. لكن خدوري أشار كذلك إلى أن الأفغاني كان مغتربا عن أفكاره. وكتب يقول نقلا عن الأفغاني "لا نقطع رقبة الدين إلا بالدين وبالتالي فإذا رأيتنا الآن سترى عابدين ناسكين يركعون ويسجدون ولا يعصون أوامر الله ما حيوا ويفعلون كل ما يأمرون به".(٥)

* يتجلى هنا تناقض المؤلف حيث أنه بعد وصف عبده بأنه أحد أسس التشدد يعود ليصفه بأنه أصبح يميل إلى الغرب.
** هكذا يصفه المؤلف وقد أوردنا وصفه كما هو رغم بعده عن التناول العلمي الهادئ.

وكتب خدوري إن هذا الخطاب يوضح بما لا يدع مجالا للشك أن أحد أهداف الأفغاني التي أقره عليها تلميذه محمد عبده هو إحداث تغير في الأسس التي يقوم عليها الإسلام، وذلك من خلال أظهار التقوى وإن كانت تقوى استعراضية مزيفة. (٦)

والحقيقة أنه رغم أن الأفغاني دعا إلى الالتزام بالأصول الإسلامية أمام الجماهير فقد كان ملحداً تعدى ليس فقط على الإسلام بل على كل الديانات. وفي ذلك كتب الأفغاني يقول: "إن الأديان مهما كان اسمها تشبه بعضها البعض. ليس هناك تفاهم وليس هناك تصالح ممكن بين تلك الأديان والفلسفة. الدين يفرض معتقداته وقواعده على الإنسان فيما الفلسفة تحرره من الأديان جزئيا أو كليا."

غير أن الأفغاني ختم بقوله: "لكن الأسباب العقلانية لا تعجب الجماهير ولا يفهم تعاليمها إلا قلة مختارة".(٧) والفكر النخبوي في هذه الرسالة جزء لا يتجزأ من غموض الأفغاني. فقد كان لدى الأفغاني على مدى حياته رسالة للجماهير ورسالة أخرى للنخبة، رسالة الجماهير هي الجامعة الإسلامية، أما رسالة النخبة فهي النوع النخبوي من الفلسفة. وفيما ظهر الأفغاني على الناس في ثوب المناهض للاستعمار، عندما كان هذا يخدم أهدافه فانه ومن معه في الدائرة الداخلية ارتبطوا بتحالف تآمري مع اشد الاستعماريين استعمارا.

غير أن العديد من المؤرخين يأخذون قصة الأفغاني بشكل سطحي، فقط باعتباره ناشطا إسلاميا وساعد في خلق الحركة التي ستعيد إلى الإسلام أمجاده القديمة وتعيد الأيام الذهبية الغالية لحكم الرسول في مكة والمدينة. وتصور كثير من الآراء التقليدية الأفغاني على أنه مناضل ضد الاستعمار ومصلح يسعى إلى التنوير والعقلانية وإدخالهما في عالم التقاليد الإسلامية المظلمة عن طريق مجموعة منتقاة من رجال الدين. وللأسف تلك هي الصورة التي رسمها بعض المستشرقين من البريطانيين والأمريكيين. وفي ذلك قال اتش ايه ار جيب صاحب كتاب "الاتجاهات الحديثة في الإسلام" (١٩٤٧) إن الأفغاني آمن بدولة تحكمها الشريعة الإسلامية السليمة(٨) ممزوجة بنظرة تحديثية. وقال ولفريد كانتويل إن الأفغاني هو المسلم الكامل في عصره. وفي كتابه "الإسلام في التاريخ المعاصر" قال سميث عن الأفغاني غزلا في أنه كان مناهضا للاستعمار فقال:

"نظر الأفغاني للغرب على أنه شئ لابد من مقاومته لأنه يهدد الإسلام والأمة. وكان الأفغاني ملحا في التأكيد لمستمعيه على ضرورة الأخذ بالمزيد من العقلانية وتطوير التقنية على غرار ما هو عليه الغرب. والحقيقة أن حثهم على العمل من موقع السكون غير المسئول إلى العزيمة على توجيه الذات كان يتم بطريقة ليس فيها ضغط بل حركية تطوعية".(٩)

وأعجب سميث بالأفغاني حتى إنه كتب عنه يقول: "من الناحية الجغرافية شمل نشاطه إيران والهند والعالم العربي وتركيا وغرب أوربا أيضا. لقد كان الأفغاني سنيا وصوفيا ودعا إلى المصالحة مع الشيعة وساهم في تعرف المدرسة الإسلامية التقليدية على أوروبا والتقارب مع

أفكارها الحديثة. وألهم الأفغاني الثوريين السياسيين والعلماء الأفاضل. ودافع الأفغاني في الوقت ذاته عن الهويات المحلية والجامعة الإسلامية. وإليه ينسب الفضل فيما حدث لاحقا من تطور إسلامي كبير. والحقيقة إن معظم جذور ما تطور إليه حال الإسلام في القرن العشرين يعود إلى الأفغاني. (١٠) وفي ذلك قال سميث إن الأفغاني هو أول دعاة الإحياء الإسلامي الذين استخدموا مصطلحات "الاسلام" و" الغرب" كظاهرة عدائية في التاريخ. (١١) وهذا يجعل من الأفغاني الأصل الحقيقي لمفهوم الصدام بين الحضارات الذي ذاع صيته بعد أفغاني بقرن من الزمان على يد برنارد لويس وصموئيل هنتنجتون(*).

ويقول سميث سواء كان الأفغاني ناشطا لا يوجد خلاف بشأن دوره أو مجرد مستغل للفرص وانتهازي فلا جدال حول دوره كأب روحي للإخوان المسلمين والجماعات المماثلة في اليمين الإسلامي. ولا بد أن الإخوان المسلمون المتشددين الذين يتسمون بالورع اليوم سيشعرون بالصدمة عندما يعرفون أن ملهمهم الأول جمال الدين الأفغاني كان ملحداً وماسونيا. غير أن ريتشارد ميتشل صاحب كتاب "مجتمع الإخوان المسلمون" الذي يصف الجماعة بدقة شديدة، قال: إن جذور الجماعة المتشددة التي

* من الغريب أن يتم محاولة إلصاق تلك التهمة بالأفغاني – ليس دفاعا عنه – بقدر الكشف عن مغالطة تتمثل في حقيقة أن الأفغاني كان من بين الداعين إلى التلاقي بين الحضارات في إطار من التسامح.

سيطرت في مصر بعد الحرب العالمية الثانية، تعود الى الأفغاني. وقال ريتشارد أن الإخوان المسلمين ينظرون لأنفسهم بوضوح باعتبار أنهم جزءا من حركة إصلاحية حديثة يرتبط اسمها باسم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا. وقال أن الإخوان المسلمين شعروا اتجاه الأفغاني برابطة خاصة. وشعر الكثير منهم بأن الأفغاني هو الأب الروحي للحركة وقارنوا البنا به في كل مناسبة. (١٢)

الأفغاني وأتباعه

بدأت حياة الأفغاني العامة عام ١٨٦٩ عندما غادر أفغانستان. ولا يعرف أحد الكثير عن حياته قبل ذلك التاريخ. وادعى الأفغاني نفسه إنه شارك في الحياة السياسية الأفغانية في ستينات القرن الثامن عشر وقال أحد الباحثين إنه فعل ذلك وهو عميل روسي. (١٣) لكن تأثير الأفغاني الحقيقي بدأ في عام ١٨٦٩ فقط عندما قام بتنفيذ "الملحمة"(*) المعروفة التي استمرت لمدة ربع قرن.

وما يمكن أن يقال عن الأفغاني حتى باختصار شديد قد يثير الدهشة. فقد ذهب الى الهند أولاً وهناك رحب المستعمرون البريطانيون به وكرموه ومنحوه رحلة في سفينة حكومية على نفقة السلطات البريطانية إلى السويس. وبعد زيارة الأفغاني للقاهرة غادرها إلى تركيا حيث سببت أراؤه الدينية غير الحصيفة (**) رعبا في المؤسسة الدينية مما أدى بالحكومة التركية إلى طرده باعتباره شخصا غير مرغوب فيه. وعاد الأفغاني إلى القاهرة مرة أخرى واستقبله رئيس الوزراء رياض باشا المعروف برجعيته وعدائه للحركة القومية في مصر. وأقنع رياض باشا الأفغاني بأن يبقى في مصر وسمح له بالإقامة في الجامع الأزهر الذي يبلغ عمره ٩٠٠ سنة ويعتبر مركز التعليم الإسلامي في العالم أجمع. وحصل الأفغاني هناك على إعاشة وراتبا شهريا من الحكومة. وكان أول منصب يشغله الأفغاني رسمياً كعالم إسلامي وأول مرة في حياته (وليست الأخيرة) يتقاضى راتباً من إحدى القوى الاستعمارية أو من التابعين لها (مصر). وقضى الأفغاني

---

* يقصد المؤلف هنا جهده لغرس فكرة الجامعة الإسلامية.

** حسب رؤية المؤلف وان لم يشر إلى ماهية هذه الأراء.

ثماني سنوات وسط دهاليز السياسة المصرية حتى ليلة قصف البريطانيين لمدينة الإسكندرية وبداية الاحتلال البريطاني لمصر.

وضع الأفغاني اللبنات الأولى للجامعة الإسلامية بعد احتفاء بريطانيا به في الهند وتوصيله إلى مصر بمعرفة لندن ورعاية العملاء له إلى القاهرة. غير أن السياسة الاستعمارية في القاهرة لم تكن دائما مرحبة بالأفغاني لأن القومية اكتسبت قوة في مصر (حتى قضى البريطانيون عليها) وتراجع نفوذ وتأثير الأفغاني. وفي عام ١٨٧٩ تم طرد الأفغاني من مصر وبدأ رحلة اخذته إلى الهند ولندن وباريس وإيران. وفي إيران نصبه الشاه وزيراً للحرب ثم رئيساً للوزراء. لكن شهر العسل سرعان ما انتهى بين الشاه والأفغاني الذي بدأ النضال ضد الإمبراطور الإيراني. ولجأ الأفغاني إلى مسجد وعبأ رجال الدين لتأييده في جهد مماثل لما وقع بعد ذلك خلال ثورة آية الله الخميني في سبعينات القرن الماضي، حتى القي القبض عليه وتم ترحيله إلى تركيا. وفي عام ١٨٩٦ تم اغتيال الشاه على يد أتباعه لينتهي بذلك حكمه الذي استمر زهاء ٥٠ عاما وفي العام التالي توفي الأفغاني.. وكان نشاط الأفغاني السري هو الذي يقصيه. في سبعينات القرن التاسع عشر في مصر وفي ذات الوقت الذي برع الأفغاني فيه في تصوير نفسه على أنه العالم الإسلامي الورع كان يتردد بين المحافل الماسونية الأنجلو مصرية والفرانكو مصرية. وجعل الأفغاني نفسه من اتباع الصوفية. وعند ترحيله من مصر قال القنصل البريطاني العام في تقرير مخابراتي أن الأفغاني أقصي من المحفل الماسوني في القاهرة مؤخراً وكان عضوا فيه، لأنه لم يؤمن بـ "الإله الأعلى". وقال خدوري إن الأفغاني كان عضوا في المحفل الاسكتلندي(١٤) العام الذي تكون حول الخرافات المزعومة للأهرام المصرية وما يسمى "المعماري العظيم" وهو المفهوم الماسوني للإله. وقد سقط كثير من المسئولين البريطانيين والفرنسيين في القرن التاسع عشر فريسة الانبهار المرضي بالشرق والأهرام والإغراء الماسوني والنحل السرية للإخوان المسلمين واستغلوا ذلك الثالوث كقنوات للسلطة الاستعمارية وغالبا بتنافس بينها(*).

* يبدو هنا عدم وضوح مفهوم الإخوان المسلمين لدى المؤلف ومن المؤكد أنه يقصد الجماعات الدينية بشكل عام حيث لم تكن جماعة الإخوان بالمعنى المعروف لها الآن قد ظهرت بعد.

وقابل الأفغاني رجلا في سبعينات القرن التاسع عشر، أصبح فيما بعد تلميذه النجيب وهو محمد عبده. وجمع الأفغاني في الأزهر من حوله جماعة من المريدين ولم يكن اقرب إليه منهم أكثر من محمد عبده. وقد ولد عبده في مصر في عام ١٨٤٩ وتربى على يد مجموعة من العلماء المسلمين الورعين. وعندما بلغ عبده العاشرة من عمره كان قد حفظ القرآن وكان قادرا على ترتيله على ذات النحو الذي يقوم به كبار المقرئين. وانجذب عبده أيضا إلى صوفية الإخوان المسلمون كما فعل الأفغاني، وكانت تلك الصوفية تنبع من رؤيتهم للحياة الروحية. وتحدت الصوفية التي ازدهرت مع الإسلام، العديد من المعتقدات الإسلامية الأصولية لصالح التوحد مع الله .. مفهوم التأمل الداخلي من العصور الوسطى. ونتج عن هذه الحركة عدة "طرق" أو نحل أو جماعات، كان بعضها مرتبطا بشدة بجماعات سرية والبعض الآخر حركات هرطقة جماهيرية تنتشر في أماكن وبقاع مختلفة.

وانخرط عبده في أنشطة الأفغاني وأنشآ معاً "العروة الوثقى". ويقول خدوري مؤرخ السيرة الذاتية للأفغاني ومحمد عبده إنه عندما تقابل الإثنان كان عبده في الثانية والعشرين من عمره. كان عبده شاباً يافعاً يمر بمرحلة حرجة في حياته الروحية ولاشك أن هذا جعله سهل التأثر، لكن لابد أن يكون للأفغاني تأثير قوي جداً وسحري في شخصيته مارسه على عبده في ذاك الوقت ولعدة سنوات فكان له نفوذ غريب وعميق عليه. وكانت الرابطة بينهما قوية جدا إلى الحد الذي انعكس في إنشائهما جماعة خاصة (١٥) على حد ما جرى الإشارة إليه.

وطوال فترة ٨ سنوات تعاون الرجلان عن كثب وكونا تنظيماً ليس في مصر فقط بل انتشر إلى بقية المنطقة وكونا مجموعة من التابعين منهم الذين أسسوا جمعية "مصر الفتاة" في مصر ومجموعة من المسيحيين الصوفيين من سوريا جذبتهم رسالة الأفغاني الرنانة. وكون الأفغاني ومحمد عبده تدريجيا مجموعة أكبر من التابعين المريدين حول الأزهر. وفي عام ١٨٧٨ خرج رياض باشا رئيس الوزراء وحامي الأفغاني، عن أسلوبه المعهود وعين عبده في منصب رفيع كمدرس للتاريخ في دار العلوم وهي مدرسة إسلامية حديثة النشأة وكان يدرس اللغة والأدب في معهد آخر أيضا. وعندما خبا

نجم رياض باشا غادر الأفغاني ومحمد عبده مصر. وفي مصر كان القوميون في الجيش يعززون نفوذهم ويكتسبون قوة دفع بقيادة أحمد عرابي البطل المصري الشهير وزير الحربية الذي قاد الانتفاضة ضد الحكم البريطاني في مصر والذي تم نفيه فيما بعد إلى جزيرة سيلان. وعارض عبده مقاومة الجيش للحكم البريطاني وتمسك بموقف وسط يشجب العنف ويحاول تقديم حل وسط بين الإتجاه القومي المنتشر في الجيش والأطروحات الإستعمارية من قبل لندن.

وقال رشيد رضا في تأريخه لحياة محمد عبده إنه كان يعارض ثورة الجيش رغم كونه أحد المؤثرين الأساسيين على الحركة الفكرية في ذلك الوقت. لقد كره عبده الثورة وعارض قادتها.(١٦)

يلوح هنا نمط سوف يقرب اليمين الإسلامي إلى قلب خبراء الاستراتيجية الغربية الإستعمارية لأجيال مقبلة. فقد ألقت معارضة الأفغاني وعبده للقومية المصرية وتأييدهما لأفكار غامضة عن الدولة الإسلامية، بتاثيرها على معارضة الإخوان المسلمون للرئيس جمال عبد الناصر في الخمسينات. كما أدت إلى مقاومة حماس في فلسطين تحت تأثير الإخوان المسلمون للإتجاه القومي منظمة التحرير الفلسطينية، فضلا عن أن هناك مناسبات أخرى لا حصر لها عارض فيها الإسلاميون القومية والحركات اليسارية خلال الحرب العالمية الثانية.

ولم يتوقف الأفغاني وعبده عن التنظير الفكري والدعوة إلى الإسلام. وعندما طرد الأفغاني في النهاية من مصر وجهت إليه وإلى عبده اتهامات بتكوين جمعية سرية تتألف من الشباب ذوي الميول العنيفة في إشارة إلى "الجماعة الماسونية" التي قادها الأفغاني (١٧) مما خيم على التنظيم شبه العسكري الذي أسسه الإخوان المسلمون في الثلاثينات. واعتمد الأفغاني عندما غادر مصر، عبده خليفته فيها وقال: "اترك فيكم الشيخ محمد عبده وهو يكفي مصر بعلمه الديني." (١٨) وتم نفي عبده إلى قريته في مصر برغم أنه سينضم إلى الأفغاني في وقت لاحق في باريس ويعود إلى مصر منتصراً بتأييد كامل من ممثلي القوات الاستعمارية الملكية البريطانية.

وتوجه الأفغاني بعد مغادرة مصر في ١٨٧٩ إلى السعودية ثم إلى الهند. وبعد قليل التقى الأفغاني محمد عبده وهاجرا إلى باريس حيث بدأ الرجلان في تعاون أكبر بينهما. وفي منتصف ثمانينات القرن التاسع عشر في باريس بنى الأفغاني وعبده شبكة سوف تستمر حتى بعد موتهما. وفي عام ١٨٨٤ بدأ الرجلان نشر مجلة أسبوعية تسمى "العروة الوثقى". ورغم أن المجلة صدرت لمدة ١٨ أسبوعا فقط إلا أنه كان لها نفوذ كبير. وليس من الواضح كيف تم تمويل الصحيفة رغم أن خدوري يقول إنها كانت مدعومة سراً من الحكومة الفرنسية التي توجه إليها الأفغاني بعد رفض عرضه الرسمي في الهند ليكون عميلاً بريطانياً. (١٩) وقال سي سي ادامز الذي كتب سيرة ذاتية كاملة عن عبده في ١٩٣٣، إن العروة الوثقى كانت لسان حال منظمة سرية تحمل نفس الاسم أسسها الأفغاني وتضم مسلمين من كل من الهند ومصر وشمال أفريقيا وسوريا والهدف منها توحيد المسلمين من حوله وإيقاظهم من غفلتهم وتعريفهم بالأخطار المحدقة بهم وإرشادهم إلى وسيلة مقاومة تلك الأخطار ودحرها. (٢٠) كما أنشأ الأفغاني رابطة الجامعة الإسلامية في مكة والتي كان من بين أهدافها إقامة مؤسسة واحدة للخلافة تقود العالم الإسلامي ككل. ولم يكن واضحا ما إذا كان الأفغاني وعبده يقومان بهذا الجهد بناء على رؤيتهما الذاتية في ذلك الوقت أم أنهما يتعاونان مع لندن وباريس.

غير أنه بعد ذلك مباشرة أوقفت الحكومة الفرنسية صدور "العروة الوثقى" وتوجه الأفغاني وعبده إلى لندن بحجة (*) مناقشة أزمة السودان حيث طرحا فكرة إقامة الجامعة الإسلامية على بريطانيا العظمى. وقد طرح الاقتراح وسط تمرد إسلامي قبلي ضد بريطانيا في السودان بقيادة محمد أحمد صاحب الشعبية الكبيرة وهو شيخ سوداني ادعى أنه المهدي المنتظر وأنه المخلص المنقذ وقاد ثورة إسلامية. وهنا وقع شقاق بين اتجاهين للإسلاميين التابعين للمهدي بثورته الغاضبة وكانت القومية عندهم تتخفى في زي ديني، والتابعين للأفغاني في نسخة من التشدد الإسلامي المؤيد لبريطانيا ويرى أن المهدي عدواً له. وفي عام ١٨٨٥ هزمت قوات المهدي التي اطلقت على نفسها حماة

* يبدو هنا تصيد المؤلف وتحامله على الأفغاني وعبده في محاولة لتأكيد فرضيته المتعلقة بالسياق الإستعماري الذي كان يتحرك فيه الإثنين.

الرسول، وقتلت الجنرال البريطاني تشارلز جوردون واحتفلت بهذا النصر واستولت على الحكم في الخرطوم. وسعى الأفغاني إلى الحفاظ على خطة الجامعة الإسلامية عن طريق التملق إلى المهدي لكنه استمر في خدمه رعاته البريطانيين فعارض الثورة السودانية من وراء الكواليس. وكتب الأفغاني يقول: "اخشى كأي رجل حكيم، أن انتشار هذه النحلة (نحلة المهدي) وتزايد التابعين لها سوف يضر بمصلحة بريطانيا وأي من له حق في مصر". وكتب الأفغاني في موضع آخر تحت عنوان "البريطانيين على ساحل البحر الأحمر" إن المهدي كان يحصل على تأييد من البسطاء. وقال في مقالة أخرى إن ثورة المهدي يمكن أن تواجه فقط بتحد آخر يستغل الإسلام كمبدأ للتنظيم . وكتب يقول أن قوة الدعوة الإسلامية لا يمكن أن تواجه إلا بحل إسلامي ولا يستطيع إلا المسلمين أن يقاتلوا ضد هذا المدعي ويقللون من شأنه ووضعه في نصابه الحقيقي. (٢١)

بمعني آخر اقترح الأفغاني مواجهة النيران بالنيران وأن الحديد يفل الحديد أي مواجهة الإسلام بالإسلام. لكن البريطانيين لم يفهموه على هذا النحو وكان رفضهم سببا لغضب الأفغاني رغم أن عبده ظل مخلصا للندن. وتوجه الأفغاني إلى روسيا فيما توجه عبده إلى تونس في شمال أفريقيا. ومن هناك توجه عبده إلى عدد من الدول الأخرى فعزز تنظيم الجماعة التي أسساها معا. (٢٢) وكانت رسالة عبده والأفغاني، على الأقل للجماهير، هي الجامعة الإسلامية في أنقى أشكالها.

وانطلقا في ذلك من أن رابطة الإسلام هي التي تربط بين مسلمي جميع الدول وتغيب أي روابط عرقية أو قومية، وهو ما يؤكد عليه توحد المسلمون خلال فترة من الزمن تحت راية الإمبراطورية الإسلامية، كما أن إنجازاتهم في التعلم والفلسفة وكل العلوم ما تزال مفخرة للمسلمين. ومن الواجب على جميع المسلمين المساعدة في الحفاظ على سلطة وقوة الإسلام والحكم الإسلامي على الأرض التي كانت تحت إمرتهم ذات يوم. والعلاج الوحيد لتلك الأمم هو العودة إلى الحكم بقواعد الدين وتطبيق شريعتهم كما كانت في سيرتها الأولى أيام الخلافة الإسلامية، وهو ما يفرض أن تكون السلطة المطلقة للقرآن. (٢٣)

الآن يبدو أن مصادر الإسلام تعددت في مرجل التشدد الإسلامي ويمكن أن تؤخذ من الإخوان المسلمون أو القاعدة. لكن في ثمانينات القرن التاسع عشر كان هذا مفهوماً جديداً وثورياً. فلم تسمع بلاد المسلمين عن تحدي تجديد مجتمعاتها وفق طرق الخلفاء الأوائل عليها. والرسالة التي تنطوي عليها تلك الدعوة إلى التسلح ونشرت في "العروة الوثقى" عن استعادة الحكم الإسلامي على جميع أنحاء الأرض التي كانت مسلمة يوما ما، تشبه تعاليم الجهاد بالاستيلاء على أجزاء من إسبانيا ووسط أوربا والأراضي التي سقطت في ايدي المسيحيين أو أي ديانات أخرى.(*) كان هذا تحديا سافر على اهتمام تي. أي لورانس وضباط المخابرات البريطانيين في المكتب العربي في القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى عندما أخذت لندن باقتراح الأفغاني وعبده بتعبئة المسلمين من أجل الخلافة الإسلامية الجديدة، الخلافة التي يمكنها أن تقوض أركان الإمبراطورية التركية المتعثرة وتهدد روسيا.

وراقب عبده الوضع عندما عاد إلى مصر متخفيا خلال اسفاره في ثمانينات القرن التاسع عشر، في الوقت الذي تفرق فيه القوميون المصريون على يد البريطانيين. وفي أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر تحدث عبده على المكشوف مع اللورد كرومر والإدارة البريطانية في مصر. وفي عام ١٨٨٨ وبمساعدة كرومر، عاد عبده علنا إلى مصر وتولي أول مناصبه الرسمية في القاهرة. وتحدث عبده، كما فعل الأفغاني، بهدوء عن الفائدة الاجتماعية للدين. (٢٤) وقال خدوري في تحليل عدة محاضرات من بيروت نشرتها صحيفة "الرسالة": من الواضح، وأحياناً من الغامض، إن عبده كان مفكرا حرا في السر مثل أستاذه (الأفغاني). وأقام عبده بعد عودته إلى القاهرة علاقة شراكة مع اللورد كرومر الذي كان يرمز إلى الإمبريالية البريطانية في مصر. ولد كرومر في مدينة لندن وخدم في سبعينات القرن التاسع عشر كأول مفوض بريطاني في مكتب الدين العام في مصر ثم محافظ عام. وبعد أن قضت بريطانيا على ثورة عرابي عاد كرومر إلى مصر في ١٨٨٣ في منصب قنصل عام وعميل بريطاني وكان الحاكم الفعلي للبلاد حتى ١٩٠٧. وأصبح عبده وكرومر صديقين ومحل ثقة لكل منهما الآخر، صداقة بين

* يبدو المؤلف هنا حريصا على تشويه أفكار الافغاني وعبده واقتطاعها من سياقها في محاولة ثانية لتأكيد أنهما بذور التشدد.

إسلامي متشدد وارستقراطي ساهم في بناء الإمبراطورية البريطانية وأصبح كفيلا لمحمد عبده وبتوصياته أصبح عبده رئيساً للجنة تنظيم الأزهر وأصبح رئيس تحرير الجريدة الرسمية المصرية وعين في المجلس التشريعي المصري وأصبح من الأعضاء البارزين فيه حيث يستمع الجميع إلى رأيه بكل مناسبة باحترام شديد. وكان عبده رئيسا لمعظم لجان المجلس التشريعي. (٢٥)

وفي ١٨٩٩ وبعد عامين من وفاة الأفغاني أصبح عبده مفتي مصر وبناء على هذا المنصب يصبح عبده الشخصية الأولى التي لها حق تفسير قواعد الشريعة الإسلامية في البلاد، فكان مصدر الفتوى الوحيد والنهائي. (٢٦) كما منحه هذا المنصب سلطة كبيرة في ضوء ما منحه إياه من سلطة الإشراف على الأوقاف بما تتسم به من تنوع مصادرها المادية.

ومع تزايد نفوذ عبده في مصر كان الأفغاني يقضي أعواما في روسيا بعد أن رفضت لندن عرضه للمساهمة في بناء الجامعة الإسلامية.. ويقول خدوري إن الأفغاني كان عميلا على الأقل في وقت ما لروسيا،(٢٧) وحاول أن يقنع موسكو بفكرة إنه يستطيع إثارة الثورة في الهند التي كانت قلب الإمبراطورية البريطانية. وجاء في تقرير المخابرات البريطانية في ١٨٨٨ أن الأفغاني أثر في بعض المسئولين الروس وحاول إقناعهم بأن الثورة في الهند رهن إشارته وقتما يشاءون. (٢٨) ويبدو أن الروس لم يقتنعوا بما يقوله الأفغاني ومن ثم أعيد إلى لندن مرة أخرى.

كانت اتصالات الأفغاني في لندن عكس ذلك. فقد انخرط الأفغاني في عالم يشمل أصحاب الفكر الماسوني والغنوصي والصوفيين وآخرين ممن يمثلون تجارب أخرى وسايرهم في ذلك عدد من الكتاب والمستشرقين الذين انبهروا بما يسمى الشرق الأدنى، في ضوء ما كان قائما آنذاك من تداخل العديد من التيارات الفكرية. كانت لندن في أواخر القرن التاسع عشر بوتقة تعج بالأفكار والنشاط الديني. وانهمك العديد من المفكرين البريطانيين وكثير من الإستعماريين أيضا في الرغبة في التوصل إلى تحديد ماهية الروح القدس ونظرية موحدة للإيمان الديني. وفازت السنكريتية الدينية بالإتباع من النخب الراقية وانتشرت فكرة أن نحلة أو ديانة أو معتقد جديد على وشك الظهور وهي

فكرة يمكن أن توحد الثقافات العديدة المنضوية في إطار الإمبراطورية، وجاء ذلك في سياق تبلور نحلة جديدة هي "التجريبية الدينية" التي تعود جذور بعضها إلى مطلع القرن التاسع عشر وكان الأفغاني الذي لديه توجه عال نحو الباطنية والصوفية عند الإخوان المسلمين والماسونية ومنهج الشك الفلسفي منفتحا على كل ذلك.

ومن أهم الاتصالات التي قام بها الأفغاني في لندن اتصاله مع أدوارد جرانفيل براون المستشرق البريطاني. كان براون أستاذاً في جامعة كمبريدج متخصص في الحقبة الفارسية والدراسات الدينية ومارس نفوذاً كبيراً ليس فقط على الأكاديميين بل على صناع السياسة أيضا حتى موته عام ١٩٢٦. وكان أي جي براون مدرسا وصديقا لحفنة من النافذين منهم هاري سانت جون بريدجر فيلبي واي تي لورانس رجلي المخابرات البارزين فترة التدخل البريطاني العميق في الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الثانية.

وفي ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر سافر براون بكثرة إلى العالم العربي وتركيا وإيران وتخصص في الحركات الدينية والصوفية والديانات الغامضة البديلة التي بزغت وولدت في الشرق الأوسط. وكان ميرزا محمد باقر مدرس اللغة الفارسية للأستاذ براون. وكتب براون يقول إنه تجول في أرجاء نصف العالم وتعلم جيداً نحو ست لغات واستطاع انتحال المذهب الشيعي والدروشة والمسيحية واليهودية وإدعاء الإلحاد كذلك بنجاح ثم انتهى إلى نظام ديني ابتكره بنفسه وأطلق عليه "الإسلام المسيحي".(٢٩) وأصبح باقر وبراون مقربان واستلهم براون فكره من أعمال متخصص غريب في الديانات الوسط أسيوية هو جوزيف دو جوبينو ودخل في حركات مثل البهائية وانبهر طوال حياته بتلك النحلة الدينية الغريبة.

طور البهائيون معتقدات غريبة ولدت في إيران وامتدت إلى حيفا وأماكن أخرى. وكان الناس ينظرون إلى البهائيين بعين الشك لعدة سنوات في الشرق الأوسط واتهمهم الكثيرون من السياسيين أصحاب العقلية التآمرية والزعماء الدينيون بالماسونية والعلاقة مع المخابرات البريطانية. لكن البهائيين كانوا يعلنون تأييدهم للبريطانيين وأعطت الحكومة البريطانية لأحد مؤسسي البهائية وهو عبد الله بهاء لقب فارس بعد الحرب

العالمية الأولى. وأصبح براون أكثر الشخصيات ترويجاً للبهائية في الغرب واعتقد أن الحركة البهائية كان مقدراً لها أن تلعب دوراً محورياً في مستقبل الديانة في الشرق الأوسط.

وكان للأفغاني ومحمد عبده اتصالات وعلاقات مع براون وميرزا باقر والبهائيين. ويقول خدوري إن عبده والباقر دخلوا في مجادلات في الدين والقرآن في باريس في الوقت الذي كان الأفغاني وعبده ينشرون مجلة "العروة الوثقى". وارسل الأفغاني المجلة إلى زعماء البهائية في مقارهم في الشرق الأوسط. وكان ملكام خان من بين من لعبوا دوراً مهما في إزدياد تورط الأفغاني في إيران حيث سيصبح رئيسا للوزراء فيما بعد. كان خان سفير إيران في لندن لعدة سنوات وهو مؤسس الجمعية الإيرانية للماسونيين. وكان خان، مثله مثل الأفغاني والبهائيين والباقر يؤمن بأن إعادة تشكيل ديانة إنسانية تعد شرطاً رئيساً للعمل السياسي في الشرق الأوسط خاصة في إيران. ورغم ذلك لم يتخل الأفغاني أبداً عن تأييده البلاغي للصورة الأصولية للإسلام. وتحت نفوذ وتأثير الأفغاني أسس خان الجمعية الماسونية العربية. (٣٠) ويبدو أن الأفغاني الذي كان يتلون كالحرباء كان يؤمن بالجمع بين الصورة البسيطة للإسلام للبسطاء أو العامة وأخرى تعكس توليفة تتجاوزها تمثل دين للإنسانية.

لكن مستقبل الأفغاني انتهى بالفشل أو على الأقل جزئيا. وبتأييد من خان قضى الأفغاني معظم سنواته الأخيرة في إيران وكان وزيراً للحرب ورئيساً للوزراء لكن أفكاره لم تنجح في اكتساب الشاه إلى صفه أو النخبة الإيرانية. وقرر الشاه التصرف في النهاية بعد أن مل من مساعي الأفغاني لجذب شيوخ إيران (الملالي) حيث اقتحم حرمة المسجد وألقى القبض على الأفغاني رغم أنه كان طريح فراش المرض في ذاك الوقت، ورحله إلى الحدود التركية. (٣١) وسوف يعاود الأفغاني الظهور بين تركيا وأفغانستان وإيران خلال تسعينات القرن التاسع عشر. ويقول خدوري في هذا الصدد أن الأفغاني جذب انتباه دوائر الأمن والمخابرات. (٣٢) وفي نهاية حياة الأفغاني انقذه البريطانيون مرة أخرى. في عام ١٨٩٥ عندما كان الأفغاني في اسطنبول، قبل موته بعامين وادراجه على القائمة السوداء للسلطان عبد الحميد الذي هدد بتسليمه إلى إيران للانتقام منه، تقدم

الأفغاني بطلب إلى السفير البريطاني طالباً الحماية باعتباره مواطناً افغانياً. (٣٣) ووافق السفير البريطاني على مرور الأفغاني وخروجه من تركيا. لكنه في النهاية عاد إلى تركيا حتى مات في عام ١٨٩٧ متأثرا بمرض السرطان. وأكد براون أن شهرة الأفغاني ستستمر إلى فترة طويلة محتفيا به في كتابه "الثورة الفارسية" في ١٩١٠.

لكن اللورد كرومر الاستعماري العملي قدم توصيفا دقيقا عن الأفغاني وعبده عندما قال إنهما كانا منغمسان في البعد عن تقاليد الدين لدرجة الاختلاف الشديد مع المسلمين المحافظين. ولم يكن الأفغاني وعبده متفرنجان إلى الحد الذي يجعلهما يستطيعان تقليد الأسلوب الأوربي فلم يكونا مسلمين جيدين أو أوربيين جيدين. وكما لو كان عالماً أغلق الباب على تجربة أخفقت، خلص كرومر إلى أن فكرة الجامعة الإسلامية عند الأفغاني وعبده كانت تحتاج إلى تعديل جذري

وهو ما جعله يذهب إلى أن عدم اتفاق الحداثة المعولمة الممزوجة بالماسونية مع الدعوة إلى عودة نقاء إسلام القرن السابع وراء ما اعتبره فشلا لتجربة الأفغاني وعبده في كسب تأييد رجال الدين أو دعاة الحداثة.

وفي النهاية انتشرت أفكار الأفغاني ووجدت تربة خصبة لها على يد الصحفي رشيد رضا مؤسس المنار التي قدمت أفكار الأفغاني وعبده للسلفيين المصريين والإخوان المسلمين. وفي الوقت ذاته سيتوجه تركيز البريطانيين إلى صورة أقل غموضا من التشدد الإسلامي في المرحلة التالية من سياستهم الاستعمارية في الشرق الأوسط وهي صورة الوهابية السعودية.

إخوان عبد الله فيلبي

ومنذ ١٨٩٩ إلى الحرب العالمة الأولى بدأت بريطانيا العظمى واحدة من أكبر المغامرات الاستعمارية الواضحة في التاريخ. كانت الإمبراطورية العثمانية في النزع الأخير وكانت ملقبة برجل أوروبا المريض في القرن التاسع عشر. وشكل ظهور وتشكيل البحرية الاستعمارية والسكة الحديد وأخيراً تطور محرك الاحتراق الداخلي والسيارة طلباً غير مسبوق لا يتوقف على النفط. وبرغم نمو مصادر النفط في تكساس

ورومانيا وباكو وهي مراكز إنتاج النفط سابقا بدأ أيضا فجر الاستراتيجيات الاستعمارية التي تتمحور حول إيران والعراق والسعودية التي تمثل ثروة نفطية غير مسبوقة. ورأى الاستعماريون أصحاب الرؤوس اليابسة جنوب شرق آسيا رقعة شطرنج ضخمة وكانوا يلعبون عليها للاحتفاظ بها. وكانت مغامرة لندن هي العزف على وتر الولاء في العالم الإسلامي وليس كسب ود النخبة المسلمة المستنيرة الحداثية في العالم الإسلامي بل جذب الجماهير أصحاب العقول التقليدية والحكام الديكتاتوريين.

وفي الوقت الذي كان على بريطانيا أن تردع الفرنسيين في الشرق الأوسط كان عليها في الوقت ذاته أن تقاوم ثلاث قوى هي الروس الذين يضغطون من الشمال والألمان الذين تتسع قوتهم عالميا والأتراك الذين تأفل إمبراطوريتهم العثمانية. كانت الهند تحت سيطرة لندن بالكامل بما في ذلك باكستان المسلمة بالطبع. وبفضل اللورد كرومر أغلق البريطانيون مصر وقناة السويس شريان الحياة الموصل إلى الهند. وكان للبريطانيين نفوذاً كبيراً على أفغانستان وإيران، فضلا عن سيطرتهم على مناطق أخرى محيطة تمتد من قبرص إلى شرق أفريقيا إلى عدن ويمكن أن تستغل للسيطرة على الخليج العربي. ولكي يستطيعوا السيطرة على العراق والسعودية احتاج البريطانيون إلى قوة كبيرة لتحدي الهيمنة التركية على الأراضي الشاسعة الصحراوية في هاتين المنطقتين.

وكانت أولى الخطوات لتحقيق ذلك إقامة تحالف بين العرش البريطاني والملك المقبل في السعودية والحركة الوهابية الإسلامية القديمة جداً هناك. ولكي نفهم كيف تطور التحالف السعودي البريطاني لابد أن نعود إلى الوراء في القرن التاسع عشر وإلى كيفية تطور التحالف بين آل سعود العائلة الملكية المقبلة وآل الشيخ العائلة الوهابية من المتشددين الإسلاميين.

في منتصف القرن الثامن عشر بدأ داعية إسلامي في نسخة عربية لـ "ألمر جانتري"، في التنقل في الأطراف الشمالية بين شبه الجزيرة والهلال الخصيب ومكة والمدينة المنورة وواحة الأحساء شرقي البصرة، وكذلك في بغداد ودمشق. نتحدث الآن عن محمد بن عبد الوهاب الذي ولد في ١٧٠٣ ولم يكن من سكان المدن ولم يكن يكترث

بنوع التعليم في المراكز الحضرية في الوطن العربي. ومنطلقا من دعوة للإسلام ذات مقومات بالغة التشدد راح عبد الوهاب يؤكد على أن المسلمين في حاجة إلى تطهير أنفسهم من كل ما تعلموه فيما بعد أيام الرسول قبل مئات السنين. كانت حركة بن عبد الوهاب حركة إحيائية من النوع الكلاسيكي.

كان من أكثر المتأثرين بعبد الوهاب محمد بن سعود مؤسس الأسرة السعودية. يبدو أن ابن سعود رأى نفسه على أنه نسخة القرن الثامن عشر من رسول الله محمد، فبدأ يشن الغزوات وفرض الديانة الإسلامية على المناطق التي يغزوها(*). وكان لدى عبد الوهاب و ابن سعود وأتباعهم عادة قتل كل من يقف في طريقهم ويختلف معهم ويدمرون مدنهم ومساجدهم ورموزهم الدينية.

كان عبد الوهاب يسمى "الشيخ" ومن هنا اكتسب كل نسله من بعده لقب الشيخ. (٣٤) وتطور التحالف بين عبد الوهاب وآل سعود في السعودية في العشرينات غير أن الأمر لم يخل من الخلافات. ومنذ سبعينات القرن الثامن عشر حتى عشرينات القرن العشرين أسس آل سعود دويلات سوف تتعرض بدورها فيما بعد للغزو والسقوط إما على يد قوى خارجية، وإن كانت أقل تعصبا .. العثمانيين وحلفائهم في مصر، أو على يد القبائل العربية.

وكان يقال خلال سطوع نجم عبد الوهاب، وبقدر كبير من الاحترام، أن الوهابيين مصلحون ومحدثون، أي أنهم وحدوا شبة الجزيرة العربية حول فكرة التوحيد(يعتبر البعض أن تسمية الوهابيين إهانة ويفضلون استخدام تعبير "الموحدون" المستنبط من وحدة الإله. (٣٥) وغالبا ما يشار إلى عبد الوهاب على إنه مفكر وفيلسوف وأن عمله الفلسفي في تفسير القرآن الكريم عمل فذ ومبتكر. ليس الأمر كذلك. فقد قال حميد الجار في دراسة نقدية بعنوان "الوهابية" أن الصحراء العربية والفقه الوهابي بينهما عوامل مشتركة. وجاء في الدراسة "أن الطبيعة الطبوغرافية القاحلة للصحراء انعكست في تاريخها الثقافي. (٣٦) وقال فيه عن النتاج الفكري الديني لعبد الوهاب إن كتاباته وأقواله

---

* تتسم هذه الصياغة من قبل المؤلف بقدر من عدم المعرفة أو عدم الدقة في ضوء ان الإسلام كان هو الديانة الأساسية لسكان تلك المناطق بغض النظر عن مدى التزامهم بالدين، وما قام به محمد بن سعود إنما هو محاولة اعادتهم إلى الإلتزام بتعاليم الدين وفق رؤى محمد بن عبد الوهاب وفي إطار المشروع السياسي الديني المشترك الذي قامت على أساسه الدولة السعودية الحديثة.

سطحية ومصطنعة وما هي إلا أعادة صياغة لأحاديث الرسول ولا تحتوي على كثير من العلم أو التعليق. ويقول الجار: "حتى أكثر الناس قربا من عبد الوهاب شعروا بالإحراج من بساطته فهو لم يكن مفكراً عظيماً على الإطلاق(٣٧).

لكن عبد الوهاب كان بارعا في صب نيران غضبه وهجومه على المسلمين المعتدلين واتهمهم بالتلهي عن الإسلام والهرطقة والتردى إلى ما هو أسوأ من تلك المرتبة. واتحد عبد الوهاب مع آل سعود ووحد قواه معهم وجمعوا جيشاً قوياً من الأتباع قضوا سنوات طويلة يعيثوا فساداً في الجزيرة العربية. وكان هؤلاء، حسب وصف كاتب بريطاني في القرن التاسع عشر، يشتهرون بأنهم يفضلون الذبح على التفاهم خلال غزواتهم. (٣٨) ولم تنته المذابح قط. وفي مطلع القرن الثامن عشر بدأ التحالف الوهابي السعودي حملة القتل والغزو في أنحاء الجزيرة العربية، أولا في المنطقة الوسطى ثم في عسير في الجنوب وأجزاء من اليمن وأخيراً في الرياض والحجاز. (٣٩)

وفي عام ١٨٠٢ أغار الوهابيون وآل سعود على مدينة كربلاء المقدسة فيما هو الآن العراق وقتلوا أغلب سكان المدينة ودمروا قبة ضريح مؤسس الشيعة ونهبوا الممتلكات والعقارات والسلاح والملابس والسجاد والذهب والفضة والنسخ الثمينة من القرآن. (٤٠) وفي الحقيقة إن تدمير قبة الضريح سوف تلتصق بالوهابية على نحو غريب. (٤١) وسوف تتعرض قباب مكة أيضا للتدمير في مطلع القرن التاسع عشر وهي ممارسات مستمرة حتى الآن، في يوغوسلافيا السابقة حيث قامت السعودية بإحداث تغييرات جذرية في المواقع الإسلامية. وفي ذلك كتب جون اسبوزيتو يقول: "إن وكالات الغوث السعودية هي المسئولة عن دمار أو إعادة بناء العديد من المساجد التاريخية والكتاتيب ومدارس تحفيظ القرآن والمقابر في البوسنة و كوسوفو بسبب طرازها المعماري العثماني وزخارفها ومعمارها وشواهد قبورها التي لا تتوافق مع أخلاقيات الديانة والمذهب الوهابي. (٤٢)

ومع توسيع مدمرو قباب الأضرحة سلطتهم وسطوتهم على الجزيرة العربية التقوا في النهاية مع بريطانيا العظمى. بدأت روابط بريطانيا مع آل سعود في منتصف القرن التاسع عشر عندما أجرى جنرال بريطاني اتصالات مع بيت سعود في الرياض

المدينة الصحراوية المعزولة التي ستصبح عاصمة السعودية فيما بعد. وقال الجار: "تم أول اتصال (بين الطرفين) عام ١٨٦٥ وبدأ الدعم البريطاني يتدفق على خزائن آل سعود وزاد الدعم إلى أقصى حدوده مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. (٤٣)

وفي عام ١٨٩٩ أوجد اللورد كروزون الذي كان نائب حاكم الهند، محمية الكويت وبدأت الروابط بين لندن وعبد الوهاب وآل سعود تزداد قوة. ودعا البريطانيون آل سعود، الذين كانوا يكافحون لفرض سطوتهم على الجزيرة العربية، إلى إنشاء قاعدة لهم في الكويت الإمارة الصغيرة الواقعة جنوبي البصرة التي كانت تتحول بسرعة إلى معقل للسلطة والسيطرة الإستعمارية البريطانية. (٤٤) وبعد ثلاث سنوات فقط بدأ آل سعود ضربتهم الأخيرة لتأمين السيطرة على كامل الجزيرة العربية. وحسب أحد المصادر فإن أمير الكويت "ارسل ابن سعود الذي كان يبلغ من العمر ٢٠ عاما فقط، لمحاولة استرداد الرياض من الرشيد المؤيد للعثمانيين. (٤٥) وسقطت الرياض في يد بن سعود في عام ١٩٠٢ وخلال حياته أسس جماعة "الإخوان" ذات النفوذ المهيمن (٤٦). جمع بن سعود المقاتلين من القبائل البدوية وأشعل حماسهم بحمية دينية متعصبة وألقى بهم في خضم المعركة. وبحلول ١٩١٢ بلغ عدد الإخوان المسلمون ١١ ألف عضوا. وأخضع بن سعود نجد في وسط الجزيرة والإحساء في الشرق، لسيطرته.

وفيما بين عام ١٨٩٩ واندلاع الحرب العالمية الأولى تحولت الشائعات عن وجود النفط في الشرق الأوسط إلى حقائق. وتم توقيع أول اتفاقات تتعلق بامتيازات التنقيب عن النفط لكنها كانت من طرف واحد في شكل صفقات استعمارية فرضها رجال النفط على وقع ضغط من البوارج الحربية التي تغير على الدويلات الضعيفة وتأسر زعماء القبائل فيها. وأصبح الخليج العربي فجأة موقعاً استراتيجياً مهماً. واعتبرت بريطانيا العظمى أن السعودية والخليج احدى الحلقات في سلسلة تمتد من السويس إلى الهند، درتا الإمبراطورية البريطانية. وتدريجيا بدأت المؤشرات على صحة تلك الرؤية، فالسويس والهند كانتا القاعدتين اللتين تستطيع بريطانيا من خلالهما حماية المصالح النفطية المتنامية في جنوب إيران والعراق والخليج.

وأصبح ويليام شكسبير الضابط البريطاني المعروف الذي تولى منصب العميل السياسي في الكويت، أول مبعوث ضابط اتصال مع آل سعود من بين آخرين. وأبرم شكسبير أول معاهدة رسمية بين بريطانيا والسعودية في عام ١٩١٥. ولقي شكسبير حتفه في معركة إلى جانب آل سعود ضد أعدائه قبيلة الرشيد ليتوج انجاز تلك المعاهدة. لكن المعاهدة ربطت بين لندن والسعودية قبل أن تصبح السعودية دولة بسنوات طويلة. وكانت تلك المعاهدة اعترافاً من بريطانيا بأن بن سعود الحاكم المستقل على نجد وما يتبعها من مراكز تحت الحماية البريطانية. وفي مقابل ذلك يخضع بن سعود للاستشارات البريطانية. (٤٧)

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ وجدت بريطانيا فرصة ذهبية لطرد الأتراك من السعودية. ومع تداعي الإمبراطورية العثمانية دعمت فرقتان بريطانيتان مجموعتين من العرب المعارضين (للعثمانيين) في الصحراء القاحلة في الجزيرة العربية. كانت الفرقة الأولى بقيادة هاري سانت جون بريدجر فيلبي البريطاني المتعلم تعليما راقيا في الأروقة السياسية للمعتقدات الدينية الذي لا يفوقه في ذلك إلا أي جي براون. وكان منحدراً من أسرة بريطانية متواضعة ذات علاقات مع سيلان والهند لكنه كان خريج أفضل الكليات البريطانية الشهيرة ومنها وست مينستر للدراسات العسكرية وكمبريدج، وتتلمذ على يد أي جي براون. (٤٨) وفي فجر القرن العشرين كانت كلية كمبريدج المكان الذي تدرب فيه بناة الإمبراطورية البريطانية، والتقى فيلبي هناك مع أفضل الشخصيات من بريطانيا والعالم. ورغم أن فيلبي كان ملحداً إلا أنه أبدي تقديراً قوياً لتأثير الدين في السياسة ووصف المعتقدات الدينية بأنها "اعظم العهود والمواثيق .. وأنها شديدة في مقاومتها للمعارضة".(٤٩)

درس فيلبي الفلسفة واللغات الشرقية والقانون الهندي في كمبريدج ثم التحق بالخدمة المدنية الهندية. وسيتحول فيلبي فيما بعد إلى الديانة الإسلامية ويسمي نفسه عبد الله. وسوف يحمل ما تعلمه من براون معه إلى الهند حيث يتولى منصبا هناك قبل أن ينتقل إلى الجزيرة العربية حيث يخلف شكسبير كضابط اتصال بريطاني مع بن سعود. ودعمت فرقة فيلبي آل سعود، فيما كان منافسو فرقته يتمركزون في القاهرة في المكتب

العربي، وهو من أفرع المخابرات البريطانية، الذي خرج منه تي أي لورانس (العرب) الشهير. ودعم المكتب العربي الحسين شريف مكة رأس الأسرة الهاشمية وأولاده عبد الله وفيصل. كانت الأسرة الهاشمية تحكم الحجاز الواقعة في غرب الجزيرة العربية وتشمل مكة والمدينة المنورة. وسيطر آل سعود في ذاك الوقت على نجد في وسط الجزيرة انطلاقاً من الرياض. وفي النهاية سوف يغزو آل سعود بالطبع كامل الجزيرة العربية ويسمونها على اسم أسرتهم. ويخسر فيصل وعبد الله الحرب أمام آل سعود وسوف يتوليان مملكتين بديلتين رسم حدودهما ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا. وسيكون عبد الله ملكاً على الأردن وفيصل ملكاً على العراق.

وفي الحالتين، حالة الهاشميين وآل سعود، كان البريطانيون يبحثون عن تعبئة الإسلام. وفي هذا الخصوص راح الهاشميون يعلنون أن أصولهم تنحدر مباشرة من نسل الرسول محمد وهو إدعاء ادعاه عدد من الذين أصبحوا حكاماً في القرن الماضي. ورأى البريطانيون في الهاشميين مرشحين أكفاء للخلافة الجديدة المؤيدة لبريطانيا ومقرها مكة. وكان آل سعود، بدعم من مقاتلي الوهابيين، قوة إسلامية ضاربة اعتقد البريطانيون إنها سوف تعاونهم في السيطرة على الشواطئ الغربية للخليج العربي.

وفي عام ١٩١٦ تقريبا أصبح للهاشميين اليد العليا. وأعتقد البريطانيون أن الحسين وأولاده، بما توفر لهم من مكانة في مكة والمدينة المنورة، سوف يعبئون المسلمين من شمال أفريقيا إلى الهند لتأييد القضية البريطانية. وفي ذاك الوقت كان العثمانيون ذوي الوضع المترنح يسيطرون على الخلافة الإسلامية التي يمارسونها من بعد على جميع المسلمين في العالم. لكن العثمانيين وقعوا تحت الحصار من جميع الجوانب وسيطر البريطانيون وحاولوا استغلال الولاء الإسلامي كقوة في وجه الاتراك. كانت تلك السياسة من تصميم فريق الشرق الأوسط في لندن، المكون من اللورد كورزون الاستعماري المتشدد وزير الخارجية الحاكم السابق للهند، والارستقراطي روبرت سيسيل وابن عمه ارثر لورد بلفور الذي أعطى اليهود الوعد بأرض فلسطين بالتعاون مع روتشيلد، ومارك سايكس رئيس قسم الشرق الأوسط في الخارجية البريطانية، وديفيد جورج هوجارت رئيس المكتب العربي (مخابرات)، صاحب كتاب

"اختراق الجزيرة العربية" وعالم الأثريات والمستشرق والقائم على المتحف الاشمولي في أكسفورد. وكان من أعضاء الفريق أيضا ارنولد توينبي وكوكبة أخرى من الاستعماريين البريطانيين.

وفي شرح تلك السياسة قال لورانس: "إذا سقط سلطان تركيا فان الخلافة بإجماع المسلمين سوف تذهب الى أسرة الرسول التي يمثلها حاليا الشريف حسين حاكم مكة. إن نشاط الشريف حسين يفيدنا لأنه يتمشى مع أهدافنا العامة وهي تفتيت التكتل الإسلامي والإجهاز على الإمبراطورية العثمانية ولأن الدول التي سيقيمها لن تضرنا في شيء كما أضرنا الأتراك. وإذا عالجنا الأمر بالحكمة اللازمة ستظل الدول العربية في تشكيل سياسي تغار من بعضها البعض ولا تستطيع أن تترابط أو تتماسك وستكون دائما في حالة استعداد لمواجهة قوة خارجية".

تبدو الفكرة بسيطة. يقوم الهاشميون بثورة على الأتراك، ثورة شاملة، والصورة الرومانسية للعرب بقيادة لورانس عبر الرمال الصحراوية يحررهم من الحكم التركي. ومن وراء الكواليس تحاول بريطانيا إقامة تحالف بين الهاشميين واليهود بهدف إقامة دولة يهودية مدعومة من بريطانيا داخل فلسطين ويحكم الهاشميون سوريا ولبنان والعراق والأردن والحجاز على طول الساحل الغربي للجزيرة العربية. وسوف يكون عامل التوحيد خلافة عربية متمركزة في مكة وتتحكم فيها بريطانيا. وسوف تظل مصر والسودان بالطبع داخل المعسكر البريطاني أيضا.

وكان فيلبي من جانب آخر يعمل على الجناح الشرقي. وكان سير بيرسي كوكس، الممثل السياسي لمكتب الهند في الخليج العربي، مسئولا عن جهود بريطانيا لضمان السيطرة على الأراضي الغنية بالنفط التي بدأ نجمها يسطع لتوه. وعمل فيلبي، الذي كان ضابطاً شاباً في ذاك الوقت، مع كوكس ومع جيرترود بيل المستكشفة الأسطورية الجاسوسة النابغة الذي أدت معرفتها العميقة بالقبائل العربية وأصول عائلاتها وقدراتها الفذة في اللغات إلى أن تصبح عضواً مميزاً في الفريق. وأرسل كوكس زميله فيلبي لمقابلة بن سعود في عام ١٩١٦. وفي الوقت الذي كانت لندن تعبئ

فيه أهل مكة ضد الأتراك في غرب الجزيرة العربية، تم تكليف فيلبي بأن يعبئ آل سعود ضد عائلة الرشيد التي دفعها سوء حظها إلى التحالف مع الأتراك في شرق الجزيرة.

واعتباراً من يناير ١٩١٧ تم تخصيص ٥ آلاف إسترليني لآل سعود شهريا وكان يوصلها فيلبي بنفسه. (٥٠) وتطورت الأحداث بعد ذلك صعوداً وهبوطاً ويأتي فيلبي ليكون وسيط آل سعود مع البريطانيين ويلتقي به عشرات المرات. وفي عام ١٩١٩ رافق فيلبي الأمير البالغ ١٤ عاماً لابن سعود (فيصل) الذي سوف يصبح ملكا على السعودية بعد ذلك، في جولة إلى لندن شملت زيارة أي جي براون صديق فيلبي القديم وزيارة ويلفريد سكوين بلانت المدافع الأول عن التشجيع البريطاني لفكرة الرابطة الإسلامية. وقامت بريطانيا بإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط وبناء خلافة إسلامية جديدة. وظلت بريطانيا بالطبع اللاعب الرئيسي في المنطقة بحكم قوتها الإستعمارية المطلقة. لكن الاتفاق بين العرب واليهود لم ينفع ولم ينجح، وثبت أن العراق يمثل مشكلة كبيرة بلغت حد أن تكون قاتلة لجنود البريطانيين. والأكثر من ذلك أن الفرنسيين أصروا على المساعدة في طرد البريطانيين من سوريا ولبنان وسيطر البلشفيون على روسيا وكشفوا تفاصيل أسرار التفاهم البريطاني الفرنسي التي ثبت بعد ذلك إنها محرجة لبريطانيا. ورغم أن لندن وضعت معظم رهانها على الهاشميين بقيادة الحسين، فقد اكتسحت فيالق بن سعود الجزيرة العربية وغزتها بالكامل بما فيها محمية الحسين الصغيرة في الحجاز.

وقالت جرتيرود بيل عن العراق، لكن بأسلوب يشير إلى مجمل السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، "لقد فشلنا فشلا ذريعا هنا".(٥١) وحافظ فيلبي الذي كان لا يزال في الخدمة العسكرية البريطانية على علاقاته مع آل سعود ويبدو إنه كان مغرما به وإتباعه من البدو أو الإخوان. وكتب فيلبي يقول: "إن العرب لديهم ديمقراطية وأكبر وأقوى وأعظم حكامهم حالياً دليل على ذلك. تتركز قوة بن سعود، الأول بين أقرانه، في أنه قضى ٢٠ عاما يترجم بدقة ويمثل طموحات ورغبات شعبه".(٥٢)

ورغم أن فيلبي يبدو غالبا مدافعاً عن الديمقراطية والنظام الجمهوري العربي فإنه لم يتقاعس أبداً عن تأييد جبروت ووحشية عائلة آل سعود. (٥٣) وحتى بعض

الاستعماريين البريطانيين المتشددين بما فيهم دي جي هوجارت، كانوا ينظرون إلى آل سعود وخاصة المقاتلين الوهابيين أتباعهم، أو الإخوان، على إنهم أجلاف. وكتب مؤرخ سيرة فيلبي الذاتية يقول: "بالنسبة للبعض أمثال (هوجارت) ممن لهم خبرة بالإسلام في الهند ومصر وسوريا وتركيا والحجاز، فإن استقطاب "إخوان" آل سعود يمثل خطراً والتطرف الوهابي لا يناسب العالم العربي.(٥٤)

وفي عشرينات القرن العشرين ترك آل سعود غزاة الجزيرة العربية، الذين وصفهم فيلبي " بالديمقراطيين" خلفهم ٤٠٠ ألف من القتلى والجرحى وشنقوا نحو ٤٠ ألف شخص وأمروا بتقطيع أوصال ٣٥٠ ألف شخص بناء على تفسيرهم المتشدد لشريعتهم الإسلامية. (٥٥) ووفرت المعارك التي خاضها غزاة الجزيرة، الإخوان، لصالح آل سعود لبريطانيا مجموعة قوية من الدويلات والمستعمرات تمتد من البحر المتوسط إلى الهند. ورغم أن الدولة السعودية كانت تحت الإنشاء فقد كان البعض يرى في لندن وفي الدول العربية إن "الإخوان" سلاح ذو حدين. ووصف صديق لبناني لابن سعود الإخوان كالتالي: "اليوم السيف في يد الأمير وغداً الخنجر في ظهره".(٥٦) ولجأ الحسين شريف مكة حليف البريطانيين إلى لندن ليجبروا بن سعود على حل "الإخوان". وكتب الحسين للممثل البريطاني في جدة في عام ١٩١٨ يقول: "ما يقلقني، بغض النظر عن أي شئ آخر هو إن جلالة الملكة ينبغي أن تجبر بن سعود على حل وتسريح ما يسمى بـ "الإخوان"، الجماعة السياسية التي ترتدي عباءة الدين. لكن البريطانيين رفضوا النداء ببرود شديد. (٥٧)

حاول بن سعود أن يظهر أن "الإخوان" هم قوة مستقلة، لكن البريطانيين كانوا يعلمون العكس بالطبع. وأبرق مسئول بريطاني في عام ١٩٢٠ إلى القيادة يقول: "إنه لا يريد أن يعرف احد أنه هو نفسه (بن سعود) وراء كل الأمر برمته ويعزز ويؤيد الحركة من أجل تحقيق أهدافه. وقال مسئول بريطاني آخر أقل معرفة إن الإخوان يستلهمون أفكارهم من البلاشفة (ثوار روسيا). ويبدو هذا الكلام غبيا بالطبع الآن. (٥٨)

من الناحية النظرية على الأقل كان الخيار لا يزال متاحاً أمام ابن سعود لإقامة دولة علمانية، دولة لا يقوم التشدد الإسلامي فيها بدور رسمي. لكن بن سعود اندفع بفورة

المتحالفين معهم من الوهابيين "الإخوان" حسبما قال الضابط السياسي البريطاني الخبيث بيرسي كوكس عندما قال: في أواخر ١٩١٥ ومطلع العام التالي له وجد بن سعود إن مذهب "الإخوانية" يكتسب سيطرة على الأمور في نجد. ورأى بن سعود أن عليه أن يختار بين قرارين، إما أن يكون حاكما مؤقتا ويقضي على "الإخوانية" أو يكون القائد الروحي للوهابية الجديدة التي أوجدها. وفي النهاية اضطر لقبول مبادئ "الإخوانية" وأصبح زعيماً لها وإلا سيخسر كل شيء. (٥٩)

كانت الحركة الإسلامية الأصولية التي قادها بن سعود إلى السلطة أمراً ضرورياً حيوياً بالنسبة للسعودية. لقد استغل بن سعود الإسلام لكسر الولاء القبلي واستبداله بالالتزام بمبادئ العقيدة. وقال جون حبيب إن التخلي عن أمن الفرد وشخصيته ومشروعيته في المجتمع الصحراوي القبلي أمرا ليس هينا. ويوضح ذلك الدرجة التي استطاع بها بن سعود إحلال إخوانية الإسلام التي تولدت في الهجرة (٦٠)، بالحماية والأمن والشخصية التي تنازل الإخوان عنها عندما تركوا حبائل القبيلة. (٦١)

وبعد هدوء غبار الحرب العالمية الأولى وعقب المؤتمرات الاستعمارية العديدة التي تم خلالها وضع الحدود الجديدة في الشرق الأوسط وسقطت الإمبراطورية التركية، احكمت بريطانيا قبضتها على المنطقة وسيطر بن سعود على غالبية الجزية العربية. ويقول فيلبي إن "إخوان" بن سعود زاد عددهم على ٥٠ الف بحلول العشرينات من القرن العشرين. (٦٢) وإلى الغرب في منطقة الحجاز لا يزال حكم الهاشميين قائما لكن العد التنازلي لزوالهم بدأ. وفي عام ١٩٢٤ تولت حكومة جديدة في تركيا بقيادة كمال اتاتورك وعبرت عن توجهات اتسمت بعدم التقدير لكل ما هو إسلامي وصدمت المسلمين المحافظين في أنحاء العالم بإلغاء الخلافة الإسلامية. وحاول الشريف حسين استثمار تلك الخطوة التركية وربما تذكر خطة تي أي لورانس الكبرى فأعلن نفسه خليفة غير أن إعلانه لم يجد آذانا من أحد. وعندئذ تخلى البريطانيون عن الحسين واختاروا حلف بن سعود والمتشدد الإسلامي الحاج أمين الحسيني مفتي القدس. وكتب فيلبي إلى مونرو يقول: "بعودته من سوريا في تلك اللحظة الغامضة في حياة المسلمين، أفل نجم الحسين واقتصر نفوذه على ساحل الحجاز فقط. وقال إن إعلانه نفسه خليفة كان بلا

معنى اذا ما قورن بالضوء الساطع لنجم ابن سعود الذي يرتفع في الجزيرة العربية. (٦٣) وبعد قليل اكتسح أتباع بن سعود الحجاز وجرى طرد الهاشميين وذبح مئات الرجال والنساء والأطفال منهم ووحدوا الجزيرة العربية تحت لواء العاصمة الرياض وبدأت الدولة السعودية الحديثة. وحضر ذلك فيلبي المقرب من بن سعود.

ونصب بن سعود نفسه بسرعة ملك الإسلام غير المتوج لكن تلك العملية تطورت ببطء. ووقع بن سعود مع البريطانيين معاهدة رسمية تعترف باستقلال السعودية التام في ٢٠ مايو ١٩٢٧، وفق ما قاله برنارد لويس. وقال لويس أن الاعتراف بالمسلمين كان بطيئا ومكروها. وأضاف يقول: "زارت بعثة إسلامية من الهند مدينة جدة وطلبت من الملك تسليم سلطة الأماكن المقدسة إلى لجنة تعين أعضاءها الدول الإسلامية. ولم يستجب ابن سعود لهذا المطلب وأعاد البعثة إلى الهند عن طريق البحر. وفي يونيو من نفس العام عقد ابن سعود مؤتمراً إسلامياً جامعاً في مكة ودعا فيه الدول الإسلامية المستقلة ورؤساءها وممثلين عن المنظمات الإسلامية في الدول الخاضعة لحكم غير إسلامي. حضر المؤتمر ٩٦ شخصية من جميع أنحاء العالم الإسلامي وأعلن ابن سعود أنه أصبح حاكم الحجاز وتسبب ذلك في ردور فعل متباينة من ضيوفه. البعض غضب وغادر والبعض الآخر قبل الوضع واعترف بالنظام الجديد. (٦٤)

وكان على ابن سعود أن يواجه "الإخوان" اخيراً. وفي أواخر العشرينات كان عملهم قد انتهى لكنهم لم يشعروا بالإرتياح وسادهم قدر من الغضب من ملكية ابن سعود، فتناحر الطرفان وبحلول ١٩٢٩ حل ابن سعود "الإخوان" وحول ما تبقى من القوات البدوية إلى القوات المسلحة السعودية. ورغم أن ابن سعود حل "الإخوان" إلا أنه لم يتخل عن الوهابية. والحقيقة أن الملك أنشأ الشرطة الدينية من أجل تعزيز سلطته على مستوى عالمي لكن أقل من الناحية الدينية وعلى الحجاز. وكان هدف الشرطة الدينية الحث على أداء الصلوات الخمس يومياً والالتزام بالزى الإسلامي وتعاليم الوهابية الأخرى. وفي مطلع الثلاثينات أنشأ ابن سعود أيضا جمعية "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" التي تتكون من أعضاء أميين متشددين من البدو ليس لهم هم إلا إقامة

الصلوات وإغلاق المتاجر أثناء قيامها بالقوة فضلاً عن منع التدخين والعادات "الكريهة" الأخرى. (٦٥) ولا تزال تلك الجمعية قائمة حتى الآن.

ووفر قيام المملكة العربية السعودية للبريطانيين موطئ قدم في قلب الأمة الإسلامية، في مكة والمدينة. ويبدو أن قوات الملك سعود أثبتت وجودها وقيمتها بالنسبة لأصحاب الإستراتيجية الاستعمارية البرجماتية البريطانيين حيث ثبت أن قيمتها وقوتها أكبر من التيارات الدينية الغامضة التي دفع إليها الأفغاني ومحمد عبده والجمعيات السرية التي كوناها، حيث لم تكن تجربة بريطانيا مع الأفغاني وعبده بالتأكيد ناجحة بأي معنى من المعاني. وقد أثبت الأفغاني بشكل خاص إنه لا يمكن الاعتماد عليه بين القوى الاستعمارية. ورغم أن فكرته عن الجامعة الإسلامية بدت جذابة جداً للنخبة البريطانية إلا أنها فشلت في اختطاف خيال الجماهير ولقيت معارضة كبيرة من الحكام في تركيا وإيران.

ووفر إقامة الدولة السعودية على يد بريطانيا الفرصة للتشدد الإسلامي قاعدة يمكن أن يعمل من خلالها لعقود تالية. وبالنسبة لبريطانيا ثم للولايات المتحدة من بعدها كانت السعودية مرسى الطموحات الاستعمارية خلال القرن العشرين. لكن الوهابية بما لها من قوة وسطوة لا تزال حركة دينية وليست سياسية. وقد تكتسب الوهابية إخلاص المريدين في السعودية ويمكن أن يبتلع تعاليمها السنة إلى أقصى حد. غير أن حكم الإسلام السياسي الحقيقي بالمعنى الحديث لم يظهر بعد. فلم يكن هناك قاعدة جماهيرية للإسلام السياسي يمكن أن تتماسك ضد الايديولوجيات الجذابة الحديثة المضادة للاستعمار وهي الشيوعية والقومية. ولم تنبت البذور التي زرعها الأفغاني وعبده بعد. وكانت قوة إسلامية جديدة على وشك الظهور بعد أن رواها الوهابيون السعوديون والمخابرات البريطانية وقاموا على رعايتها بعد أن نشر بذورها محمد عبده. وستولد القاعدة الجماهيرية للتشدد الإسلامي لأول مرة في مدينة الإسماعيلية على ضفاف قناة السويس في مصر، ليس بعيدا عن السعودية .

الفصل الثاني

"إخوان" انجلترا

أبرمت بريطانيا معاهدات واتفاقيات مع العديد من الشياطين في كفاحها بعد الحرب العالمية الأولى للحفاظ على الإمبراطورية. وشكلت تلك الاتفاقيات اعتباراً من أواخر عشرينات القرن الماضي إلى الحرب الفاشلة على السويس في عام ١٩٥٦، دعماً لحركتين إسلاميتين مزدهرتين في مصر وفلسطين. في مصر وفي عام ١٩٢٨ أسس الشاب ذي الاتجاهات الدينية حسن البنا حركة الإخوان المسلمين وهي المنظمة التي ستغير مسار التاريخ في الشرق الأوسط في القرن العشرين. وكان نظيره الفلسطيني هو الحاج أمين الحسيني مفتي القدس الديماجوجي. وسيلعب كل منهما دوراً مهما في نمو التشدد الإسلامي في العقود التالية للحرب العالمية الأولى وكما كان الحال بالنسبة للعائلة المالكة السعودية، بدأ كل منهما بدعم بريطاني.

تأسست حركة الإخوان المسلمين على يد البنا بمنحة من شركة قناة السويس البريطانية وخلال الربع قرن التالي بدعم من الدبلوماسيين البريطانيين والمخابرات البريطانية. أما الملك فاروق المؤيد للبريطانيين فسوف يرى في الإخوان المسلمين درعاً واقياً ضد الشيوعيين والقوميين، ثم في وقت لاحق سيكونوا سلاحا ضد جمال عبد الناصر. وفي ذات الوقت اعتلى الحاج أمين صاحب الميل إلى النازية والمناهض للسامية السلطة والقوة في فلسطين اعتباراً من العشرينات بدعم كبير من البريطانيين الذين كانت فلسطين تخضع لحمايتهم. وسيكون البنا وأمين مسئولين عن انتشار التشدد الإسلامي في العالم. وقد انتهج الرجلان ذات التشدد الوهابي وربطوه بفكرة الجامعة الإسلامية التي خلفها جمال الدين الأفغاني. وبتمويل من السعودية كون الرجلان مشروعاً عالمياً يروج لليمين الإسلامي المتشدد بما في ذلك جناحاً اتخذ من الإرهاب سبيلا له.

كانت علاقة البريطانيين مع الإخوان المسلمين معقدة. ورغم أن المخابرات البريطانية دعمت الحركة عند مولدها وتأسيسها وفي السنوات التالية فإن الإخوان - والإسلام السياسي - كان القوة الواحدة والوحيدة في عالم متغير السياسات في مصر وفي الشرق الأوسط ككل.

ثقلاً كبيراً في عملية تحقيق التوازن ضد القوى المناهضة لبريطانيا وهي القوميين واليسار العلماني.

الإسلاميون المناهضون للقومية

تأسست حركة الإخوان المسلمين في عام ١٩٢٨ على يد حسن البنا وكانت بمثابة المولود الطبيعي لفكرة الجامعة الإسلامية التي روج لها الأفغاني وعبده. وكان الوسيط في نقل هذا التأثير هو رشيد رضا السوري الذي وصل إلى مصر عام ١٨٩٧. تلقى رشيد رضا التعليم الديني في طرابلس والذي يعتبر الآن معقل السنة في لبنان وكان متابعاً "للعروة الوثقى" المجلة الأسبوعية التي أصدرها الأفغاني وعبده. وسوف يصبح الرجل مفتي مصر والشخصية الدينية الأولى فيها. وفي عام ١٨٩٨ أسس رشيد رضا صحيفة "المنار" (١) وهي أسبوعية تصدر في ٨ صفحات وتهدف إلى الدعوة إلى تطبيق تعاليم الإسلام وتقاليده انطلاقاً من فكرة الجامعة الإسلامية. واختلف رضا عن الأفغاني وعبده، اللذين أدارا جمعيات سرية، وجماعات تحت الأرض وحركات ماسونية في إنه كان مدافعا عن إنشاء حركة إسلامية علنية مقرها مكة المكرمة ولها أفرع في كل البلدان الإسلامية. (٢)

ورغم أن رضا لم يستطع أبدا إنشاء المنظمة التي كان يرنو اليها، قبل أن يأتي حسن البنا، فقد كون جمعية "الدعوة والإرشاد" التي كانت المقدمة للإخوان المسلمين. وفي ذاك الوقت استمتع عبده برعاية اللورد كرومر الحاكم المطلق لمصر في بداية القرن العشرين ولم يستطع عمل رشيد رضا أن يأتي ثماره دون دعم ورعاية من البريطانيين.

ويقول سي سي ادامز إن "المنار" هاجمت الحركة القومية في مصر التي كانت تكن لها عدم الود في ضوء كونها ذات طبيعة علمانية. ورد القوميون على رشيد رضا بهجوم مضاد ورحبت "المنار" أيضا بتزايد القوة والسطوة السعودية فقالت: "بزغ نجم أمل جديد بظهور الأسرة الوهابية لابن سعود في الجزيرة العربية. إن حكومة ابن سعود هي القوة الإسلامية العظمى في العالم الآن منذ سقوط الإمبراطورية العثمانية وتخلي

الحكومة التركية عن الدين، والحكومة السعودية هي الوحيدة التي سوف تدعم السنة وتقضي على البدع الضارة ومعاداة الاديان".(٣)

كان رشيد رضا ينظر إلى القوميين في كل من مصر وتركيا على أنهم "وثنيين" وملحدين. وتأسست جماعة "الدعوة والإرشاد" (٤) والمعهد التابع لها في القاهرة بتمويل من العرب الأثرياء في الهند. وشمل الطلاب المسجلين فيها أناس من بلاد بعيدة مثل ماليزيا وإندونيسيا والهند ووسط آسيا وشرق أفريقيا. وكون هؤلاء الموجة الثانية من الكوادر الدولية للحركة الإسلامية بعد ارتباط الجمعيات السرية "بالعروة الوثقى".

وكون كبار الشيوخ في مصر وزعماء دينيين آخرين ما أصبح يعرف فيما بعد باسم "حزب المنار" الذي يتألف أتباعه من مريدي الأفغاني وعبده ورشيد رضا الذين تجمعوا حول الأزهر ومنهم عدد من قادة الإخوان المسلمين ذوي الاتجاهات الباطنية والصوفية. وفي مقابل الحزب القومي الجديد، ساهم هؤلاء في إقامة كيان سياسي مصري ثاني يسمى "حزب الشعب" شمل أتباع عبده ورضا. وكان معروفاً أن حزب الشعب تأسس بدعم من بريطانيا وكان يؤيد الاحتلال البريطاني لمصر علنا ولاقى تأييداً وإعجاباً من اللورد كرومر الذي وصف أعضاءه بأنهم "عدد قليل من المصريين لكن صوتهم مسموع". وقال كرومر في تقريره عام ١٩٠٦" الأمل الرئيس للقومية المصرية، بالمعنى الفعلي والعملي للكلمة، يتمثل في رأيي، في هؤلاء الذين ينتمون إلى هذا الحزب".(٥) كان حسن البنا المثل الأعلى الحقيقي لرشيد رضا. وليس من المبالغة التأكيد على أهمية الأثر الذي خلفه البنا، إلى الحد الذي يمكن معه القول أن الحرب على الإرهاب التي ستأتي في القرن الواحد والعشرين ستمثل حربا ضد سلالة حسن البنا وإخوانه. إنهم يظهرون في كل مكان، في مكتب المدعي العام في السودان وفي أرض المعارك في أفغانستان، وفي حماة في سوريا وعلى رأس الجامعات السعودية وفي مصانع القنابل في غزة وكوزراء في حكومة الأردن وفي مراكز الصرافة في مشايخ الخليج، وفي حكومة العراق بعد موت صدام (*).

* يبدو هنا تحامل المؤلف على كل ما هو إسلامي واصفا كل من يبدي قدرا من الإلتزام بالدين بأنه إرهابي وهي النغمة التي يحاول كثيرون وعلى رأسهم الإعلام الغربي الترويج لها وأصبحت تجد طريقها في حديثنا دون ان نشعر.

ومن أجل بزوغ حركة الإخوان المسلمين إلى الضوء والعلن، ساعدت قناة السويس حسن البنا على إنشاء مسجد في الإسماعيلية سيكون مقراً وقاعدة عمليات لها وفق ما قاله ريتشارد ميتشل في كتابه "جماعة الإخوان المسلمين".(٦) وتحمل حقيقة أن البنا أسس الجماعة في الإسماعيلية أهمية كبيرة في حد ذاتها، فهي الآن مدينة تضم ٢٠٠ ألف نسمة وتقع شمال قناة السويس وتأسست في عام ١٨٦٣ على يد فرديناند دي ليسيبس صاحب فكرة حفر القناة. وكانت قناة السويس بالنسبة لبريطانيا طريق لا غني عنها إلى درتها المكنونة .. الهند. وفي عام ١٩٢٨ استيقظت المدينة النائمة (الإسماعيلية) لتستضيف ليس فقط مكاتب شركة قناة السويس بل قاعدة عسكرية بريطانية رئيسية بنيت خلال الحرب العالمية الأولى. وفي العشرينات تحولت إلى مركز لتأييد الوجود البريطاني في مصر.

ويقول ميتشل إن البنا كان مرتبطا ارتباطا وثيقا مع رضا. (٧) كان أبو البناء العالم النافذ، من تلاميذ محمد عبده. وقرأ البنا نفسه صحيفة "المنار" عندما كان شابا ثم اطلق على رضا فيما بعد أن له أكبر تأثير في خدمة الإسلام في مصر. (٨) ورأى البنا العلاقة بين الأفغاني وعبده ورضا على إنها نوع من "الثالوث" المقدس. ويقول ميتشل: "كان البنا ينظر إلى الأفغاني على إنه "داعية" وإلى رضا على إنه مؤرخ .. الأفغاني يرى المشكلات ويحذر منها وعبده يعلم ويفكر - المعنى الذي يعبر عن ذلك بشكل أفضل هو الشارح الذي وقف وراء العديد من الإصلاحات في الأزهر - ورضا يكتب ويسجل. (٩) وتوقفت المنار عن الصدور بعد موت رضا بفترة وجيزة في عام ١٩٣٥ لكن البنا أحياها في عام ١٩٣٩ إكراما لمعلمه وقدوته. (١٠)

لم يكن البرنامج السياسي للإخوان المسلمين في البداية معقداً. ففيه أكد البنا على ضرورة العودة إلى الإسلام في صورته البسيطة التي كان عليها خلال حياة الرسول محمد وخلفائه من بعده ورفض التفسير العلمي الحديث للشريعة الإسلامية وما كان يراه تلوثاً غربياً في الفكر بدأ يبلبل أفكار المسلمين خاصة الشباب منهم. وكان القرآن كافياً بالنسبة للبنا. ورد الإخوان المسلمون على دعوات القوميين الذين طالبوا بالاستقلال عن الحكم البريطاني ودستور ديمقراطي خلال العشرينات بشعار ما يزال سارياً حتى الآن

هو "القرآن دستورنا".(١١) ومما أكد عليه البنا أن القرآن والسنة كافيان لإرشاد المجتمع والشريعة ويمكنهما أن يحلا مكان الفقه العلماني والقوانين الوضعية.

لكن البنا كان لديه مفهوم بالغ الضعف عن الدولة الإسلامية، وسوف ينتظر هذا المفهوم مجئ ورثته لبلورته وهم سيد قطب وأبو الأعلى المودودي من باكستان والخميني.. إلخ . ومما يذكره ميتشل عن البنا قوله: "التركيب السياسي للدولة الإسلامية لابد أن يرتبط بثلاثة عناصر أولاً: القرآن كدستور أساسي، وثانياً: حكومة تعمل انطلاقاً من مبدأ الشورى، وثالثاً: حاكم تنفيذي يلتزم بتعاليم الإسلام وإرادة الشعب. (١٢)

كان الإسلام عند البنا شاملاً جامعاً ونظام متكامل من المعتقدات. ووصف البنا حركته مشيراً إلى السلفية والعودة إلى الأفكار التي تتسم بالنقاء والصوفية والتعبد، فقال: "السلفية رسالة، والسنة طريق، والصوفية حقيقة والتنظيم السياسي جماعة قوية، ووحدة تعليمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية".(١٣)

وفي عام ١٩٣٢ انتقل البنا إلى القاهرة وشكل الإخوان المسلمين في العاصمة المصرية. وطوال العشرين عاماً التالية وحتى ثورة ١٩٥٢، ظلت جماعة الإخوان المسلمين ملاذاً لليمين المصري متحالفة مع القصر الملكي ومع الجناح اليميني للقوميين وهو حزب الوفد والضباط المحافظين في الجيش المصري. وفي عام ١٩٣٣ عقد البنا أول مؤتمر عام للإخوان المسلمين في القاهرة. وبعد فترة قليلة ارتبطت نوادي الشباب والاتحادات الرياضية بالجماعة وبدأت تشكيل وحدات شبه عسكرية أطلقوا عليها "الجوالة" في عام ١٩٤٦. وقد احتلت "الجوالة " التي تطورت بشكل واضح على غرار الحركات الأوروبية الفاشية وضعاً فريداً في مصر من ناحية الضبط والربط والخطورة التي تمثلها، فضلا عن التزامها بالولاء لحسن البنا، وتحولت بعد ذلك إلى "الكتائب".(١٤) وفي عام ١٩٣٧ ولدى تتويج الملك فاروق كان مناطا بكوادر الإخوان المسلمين الحفاظ على الأمن والنظام في حفل التتويج. (١٥)

وكان المنافس الرئيس للإخوان المسلمين هو حزب الوفد (القومي). وتكون الوفد من كوادر حركة سياسية معارضة للوجود البريطاني قبل الحرب العالمية الأولى. وكان اسم الوفد مشتق من وفد سعد زغلول الذي حضر مؤتمرات ما بعد الحرب التي قرر

ممثلو الدول الاستعمارية التي انتصرت في الحرب فيها مستقبل المنطقة وإنشاء دول جديدة وتوزيع ملكيتها أو تبعيتها على العواصم الأوربية. وكان الوفد باعتباره تآلف، يضم يسار ووسط ويمين وكرس نفسه لمناهضة أو تأييد الملكية والقوى السياسية الأخرى على مدى سنوات. وفي غمار هذه اللعبة انقسم الحزب بلجوء الجناح اليساري فيه إلى التحالف مع الشيوعيين بينما سيحافظ الجناح اليميني الأصغر في الوفد على علاقات سرية مع الإخوان المسلمين.

وفي العقد التالي لعب البنا لعبة معقدة في ثلاثة اتجاهات في السياسة المصرية. فقد انخرط في علاقات حميمة مع الحاشية الملكية التي تحيط بالملك فاروق وحصل على دعم مالي مساعدة سياسية جراء توفيره معلومات للملك وتعبئة قوات ضد اليسار. ويقول جويل جوردون الخبير في شنون الإخوان المسلمين: "بحلول الأربعينيات دخلت علاقة الإخوان مع القصر الملكي في حالة من المد والجزر وكان في حوزتهم الكثير من المال وقد شارك البريطانيون في تلك اللعبة." وأضاف جوردون يقول: "إن كل ما يفعله القصر مرتبط بالبريطانيين".(١٦)

وطور البنا كذلك علاقات وثيقة مع اثنين من كبار المسئولين في مصر هما رئيس الوزراء احمد ماهر الذي يؤيد بشدة الجامعة الإسلامية واللواء عزيز المصري قائد عام القوات المسلحة المصرية. وكان البنا على علاقة بالقصر من خلال عدة قنوات غالبيتها سرية، أحيانا من خلال الطبيب الخاص للملك أو من خلال مسئولين في الحكومة أو في الجيش. وكان الملك يستشيره في تعيين رؤساء الوزارات، وتلقي لمرة على الأقل دعوة رسمية لحضور مأدبة ملكية.

وقال ميتشل: "كان المفهوم إن جماعة الإخوان المسلمين كانت أداة ضد الوفد والشيوعيين. (١٧) واعتبر الوفديون من الجناح اليميني، وهم غالبأ من كبار ملاك الأراضي والرأسماليين أن الإخوان المسلمين حلفاء لهم فيما كان عموم الوفديين يعتبرون الجماعة قوة رجعية. (١٨)

الجهاز السري للإخوان المسلمين

أنشأ الإخوان المسلمون خلال الحرب العالمية الثانية جهاز التحريات الخاص بهم ووحدة سرية متمرسة في الإرهاب تسمى "الجهاز السري". وقال محلل في الخمسينات: "إن المخابرات كانت تجمع المعلومات من المنشآت العسكرية والسفارات الأجنبية والمكاتب الحكومية إلخ".(١٩) هذه الخدمة هي التي أعطت للإخوان المسلمون شهرتهم وسمعتهم بالميل إلى العنف. ستقوم الوحدة التي تأسست في عام ١٩٤٢ - وقضى عليها ناصر فيما بعد - باغتيال القضاة وضباط الشرطة ومسئولين في الحكومة وتحرق مشاريع اليهود في مصر وتشارك في هجمات خاطفة على النقابات العمالية والشيوعيين. وخلال تلك الفترة كان الإخوان المسلمون يعملون بالتحالف مع الملك في الأساس ويستغلون قواتهم شبه العسكرية نيابة عنه وضد خصومه السياسيين. وعندما بدأ الملك يفقد السيطرة ابتعدت الجماعة عن الملك فاروق مع الحفاظ على علاقات واهية مع الجيش ووكالات المخابرات الأجنبية وعارضت اليسار باستمرار.

ويقول ميتشل إن "الجهاز" كان يعمل تماما بوصفه مخابرات مصرية وأضاف" في عام ١٩٤٤ بدأ الجهاز السري أيضا في التغلغل في الحركة الشيوعية التي اكتسبت انتعاشة جديدة خلال الحرب واعتبرتها الجماعة من أعدائها من حيث المبدأ." (٢٠) ولاشك أن الغالبية العظمى من أعضاء الإخوان المسلمون كانوا يكرسون جهودهم بحماس لإقامة حكومة جناح يميني إسلامية فضلاً عن كونهم يعارضون الاستعمار بشدة.

لكن قيادة الإخوان المسلمون لعبت دورها السياسي على أعلي مستوى وتعاونت مع القصر والأحزاب السياسية العلمانية والجيش والقوى الاستعمارية. وليس من المعلوم بالتأكيد ما إذا كان قادة الإخوان المسلمون مؤمنين ورعين بالفعل قرروا القيام بصفقات مؤقتة مع أكبر شياطين العالم أو كانوا رجال سياسة وحتى عملاء لقوى أجنبية. غير أنه لا شك أن بعض قادة الجماعة كانوا من المخلصين وكان الآخرون عملاء مزدوجون(*). لقد ولدت جماعة الإخوان المسلمون في عالم متغير سياسياً وكان فرعها الخفي ونجومها

---

* لم يفيدنا المؤلف على أي أساس أقام حكمه ولا يعدو سياق ما يقدمه هنا سوى محاولة لما نراه إيقاع للقارئ في وهم ما يصفه البعض بمكيدة الموضوعية.

السياسيون وعلى رأسهم حسن البنا متحالفون مع الملوك والجنرالات فيما الفرع الخفي يقوم بأعمال التجسس والاغتيالات. ومادامت أعمال العنف التي تقوم بها الجماعة موجهة ضد خصوم الملك والبريطانيين فهي تستطيع أن تعمل في أمان. وعندما تجاوزت الجماعة الحدود كما كانت تفعل من حين لآخر تضربها الحكومة أو تحظر نشاطها مؤقتا.

وفي أحيان أخرى عندما تكون الجماعة مفيدة للقصر أو للجيش أو عندما تكون ذات نفوذ كبير ببساطة يتم التسامح معها وأحيانا يؤيدها النظام أيضا. لكن الجماعة كان لديها طوال تاريخها بطاقة تلعب بها وهي التأييد السياسي والمال اللذين تحصل عليهما من العائلة المالكة السعودية والمؤسسة الوهابية. وكان تنظيم الجماعة يقوم على تقسيم أفرادها إلى خلايا أو مجموعات عائلية من ٥-٧ أعضاء كانت تتلقى في بعض الأحيان تدريبا عسكرياً منظماً مطولاً في شتى فرع حروب العصابات لتتأهل كجماعة فعالة. وعندما ينتهي التدريب يتم ضم الأعضاء رسمياً في الجماعة وينضمون إلى تنظيم آخر فعال في مجال الدين أو النشاط الرياضي. (٢١)

وكان البريطانيون يعلمون قوة التشدد الإسلامي باعتبار أنهم قضوا قرنين من الزمان يتغلغلون في السياسات الدينية القبلية. ولاحظ ضابط مخابرات بريطاني له علاقة بالملك بقوة عودة التشدد الإسلامي في نهاية الحرب العالمية الثانية. كان هذا الضابط هو ديفيد ارشي بويل من المخابرات وكان ضابط الاتصال مع ابن حسنين باشا كبير ياوران الملك، وهو من أهم ضباط المخابرات البريطانية. شعر بويل بقوة ما اعتبره صحة إسلامية بدأت عام ١٩٤٦ على نحو ما جرى في عام ١٩١٩، وأنها بدأت تؤثر في دول الشرق الأوسط ككل. غير أن الجديد هذه المرة أن هذه الصحوة كان يصاحبها سباق من أجل النفط. (٢٢) وكان للسفارة البريطانية اتصالات منتظمة ومستمرة مع الإخوان المسلمين، ويليها في ذلك السفارة الأمريكية.

وبعد الحرب العامية الثانية أطلق نظام فاروق المترنح حملة ضد اليسار. وكانت الحرب الباردة في بدايتها. ومول إسماعيل صدقي رئيس وزراء مصر الإخوان

المسلمين مباشرة ووفر لهم معسكرات التدريب لاستيعاب قوتهم الضاربة، بعد تعيينه بتأييد من البنا. وأيد الإخوان المسلمون الحملة العارمة ضد اليسار.

وقال ميتشل: "انضم الإخوان المسلمون إلى تلك الحملة بإخلاص حيث كانوا يعادون الشيوعية بشكل بالغ الضراوة". ونقلت صحافة الإخوان حملة الحكومة في عامود يومي باسم "الحرب ضد الشيوعية". ونقل جهاز التحريات الخاص بالإخوان معلومات مفيدة إلى الحكومة التي قامت بحملات منتظمة مستمرة ضد الشيوعيين المشتبه فيهم خاصة في النقابات والجامعات".(٢٣)

وعلاوة على ذلك سيطر الإخوان على الاتحادات التجارية ذات التوجهات اليمينية، وأضرموا نيران الإضرابات وعارضوا بشدة القوميين من حزب الوفد (سراً في الغالب بالتحالف مع الجناح اليميني في الوفد). ويضيف ميتشل "اشترك القصر وزعماء الحكومة المحافظون والإخوان المسلمون في تلك اللحظة في الحملة ضد الشيوعية والوفد".(٢٤)

وكان أنور السادات، الذي سيصبح رئيساً لمصر، عضواً في الإخوان المسلمين في الأربعنيات. وخلال الحرب العالمية الثانية ارتبط السادات بالحركة التي افتقدت الاستقرار التي أسسها ناصر في عام ١٩٤٩ رسمياً وسميت "الضباط الأحرار" والتي ستقيل فيما بعد الملك في عام ١٩٥٢. وضمت حركة "الضباط الأحرار" أصحاب ايديلوجيات متنوعة من الشيوعيين والقوميين اليساريين والوفديين وأعضاء الإخوان المسلمين حيث توحدوا جميعا على معارضة الملك فاروق ورفض فساده وأنه غير قابل للإصلاح. وقد استثارهم المعاملة التي اتسمت بالغطرسة من قبل مايلز لامبسون السفير البريطاني للملك خلال الحرب (٢٥) حيث كان يطلق عليه وفي وجهه لفظ "الغلام" وظلت هذه الأطراف على تواصل في سنوات ما بعد الحرب.

وكان السادات، اليميني عضو الضباط الأحرار، ضابط الاتصال بين ضباط الجيش المنشقين والبنا وقام السادات خلال الحرب باتصالات منتظمة واجتماعات مع مؤسس الإخوان المسلمين. وكتب السادات في كتابه "البحث عن الذات" تفاصيل علاقته بالبنا (٢٦)، مشيدا به قائلا: "كان فهمه للدين عميقاً وآخاذاً". وقال عنه إنه كان يستحق

ومؤهل تماما ليكون زعيماً دينياً، فضلاً عن ذلك كان مصرياً حقيقياً ومتواضعاً ودمث الخلق ومتسامحاً. وأعرب السادات عن دهشته من حسن تنظيم الإخوان المسلمون والاحترام والتبجيل غير العادي الذي تلقاه المرشد الأعلى. (٢٧) وفي عام ١٩٤٥ حاول السادات ترتيب لقاء بين البنا والملك فاروق عن طريق يوسف رشاد همزة وصل السادات والطبيب الخاص للملك. ولم يتم هذا اللقاء لكن في الحديث الصريح بين السادات والبنا جرى اتفاق على التعاون من أجل بناء تنظيم الضباط الأحرار وبدأ البنا في تجنيد الضباط للانضمام إلى الجماعة. (٢٨)

لكن السؤال هل كان البنا يجند الضباط من أجل الضباط الأحرار فعلا أو من أجل أن يخترقها؟ . لم يكن هذا واضحاً. كان الإخوان المسلمون أكثر من حركة، فقد كانوا يشكلون "نحلة".. فقد كانت حزباً سلفياً ووحدة مخابرات ووحدة شبه عسكرية ومنظمة دولية تبني فروعاً لها بسرعة في العديد من بلدان الشرق الأوسط.

لكن الواضح إنه في الأربعينات جرى اختراق للجماعة من قبل البريطانيين والنازيين والسوفييت. وكان العديد من القوميين العرب من الجناح اليميني والعديد من ممثلي اليمين الإسلامي ومنهم الإخوان وجدوا العون والتأييد جراء علاقاتهم مع مخابرات ألمانيا النازية. ويقول مايلز كوبلاند ضابط المخابرات المركزية الأمريكية) الذي قضى سنوات في مصر خلال الحرب العالمية الثانية إن الإخوان كانوا عبارة عن وحدة مخابرات تابعة لألمانيا. (٢٩) ويبالغ كوبلاند بهذا القول ربما عن قصد رغم أن عددا لا يحصى من الإسلاميين كان لهم انتماءات نازية في الثلاثينات والأربعينيات.

وبعد الحرب العالمية الثانية عاد الكثير من الإسلاميين المرتبطين بالنازي إلى الحظيرة البريطانية مرة أخرى ثم إلى الحظيرة الأنجلو أمريكية وتم ذلك في بعض الأحيان تحت الإغراء المالي. وفي الخمسينيات عندما ألقى ناصر القبض على زعيم الإخوان المسلمين كشفت مخابراته مدى تشعب ارتباطات واتصالات الجماعة. وقال كوبلاند: "كشف القبض على زعماء ومنظمي الجماعة عن أنها تعرضت للاختراق تماما في القمة من جانب المخابرات البريطانية والأمريكية والفرنسية والسوفيتية.

واتضح أن أي شخص يمكنه استغلالها أو القضاء عليها حسب أغراضه(٣٠)"(*).
واتضح لكل من لندن وواشنطن تماما أن فاروق لن يستمر وبدأ البحث عن نظام بديل. وكانت الخيارات الأولى توليفة من الوفد والشيوعيين، وثانياً التحالف السري بين الإخوان والقوات المسلحة. لكن البريطانيين والأمريكيين لم يوافقوا على الخيار الوفدي الشيوعي. ويبدو أن البريطانيين أصروا على إحياء النظام الملكي فيما اختار الأمريكيون تأييد الضباط الأحرار بقيادة ناصر. ولعب الإخوان لعبة مزدوجة بعلاقاتهم مع الملك والضباط الأحرار في الوقت نفسه.

وكان حزب الوفد نفسه منقسم إلى معسكرين وترعى فيه قوى الفساد. لكن جزءاً هام من حزب الوفد كان يسعى إلى التحالف مع اليسار والشيوعيين مما سبب قلقا للقصر والبريطانيين والإخوان. وعمل الإخوان بشكل جدي للقضاء على أي فرصة لصعود محور الوفد والشيوعيين ورد الوفد بدوره على هذه المحاولة من قبل الإخوان وصور البنا على أنه عميل للبريطانيين وتابع لرئيس الوزراء إسماعيل صدقي المؤيد للبريطانيين.

واتهم الشيوعيون والوفد الإخوان بأنهم لعبة في أيدي القوى الاستعمارية وبأنهم ينفذون أعمالاً إرهابية فاشية. وطالب الوفد بحل الوحدات شبه العسكرية التابعة لجماعة الإخوان التي تمولها الحكومة وسجل العديد من المناسبات والمواقف التي استخدم فيها الإخوان سياسة البلطجة(٣١)، لكن الإخوان سوف يكتسبون قوة من اتجاه لم يكن متوقعا عام ١٩٤٨ هو الحرب في فلسطين.

البنا والمفتي

أدت الحرب العربية الإسرائيلية إلى تعزيز قوة الإخوان المسلمين بشدة. كانت اللحظة فوضوية في الشرق الأوسط حيث عززت الدولة اليهودية وجودها نفسها داخل فلسطين الخاضعة للاحتلال البريطاني. وقد غيرت الحرب وانتصار الميليشيات اليهودية

---

* لعل هذه القراءة تمثل محاولة من المؤلف لتعزيز صورة نمطية سلبية عن الإخوان توحي وكأنهم سبيل لكل من يريد استغلالهم رغم الطابع التنظيمي الجيد الذي اتسم به ويتسم به الإخوان في مختلف مراحل نشأتهم وحتى الآن.

على القوات العربية النظامية وإنشاء إسرائيل، الأمر الذي تكرس فيما بعد، من ديناميكية السياسات في الشرق الأوسط وعزز ذلك من انطلاق الإسلام السياسي بطرق مختلفة. فمن ناحية كونت جماعة الإخوان المسلمين وحدات شبه عسكرية بنفسها خلال الحرب وهي قوات حظيت بتأييد الدول العربية ومثلها مثل الجهاد الأفغاني في الثمانينات، كونت الجماعة فيالق من قدامى الحرب الإسلاميين الذين تدربوا على المعارك. من ناحية ثانية فقد أدت الهزيمة العربية إلى القضاء على هيبة الأنظمة العربية بما فيها الدول الملكية. وأتاحت الهزيمة مساحة لظهور قوى سياسية جديدة مثل الإخوان المسلمين واستغل الإسلاميون الناضجون الفرصة كاملة بقيمتها الدعائية التي ارتبطت بفقدان فلسطين. ومن ناحية ثالثة كون الإسلاميون رأس مال سياسي عن طريق دق ناقوس الخطر ضد التهديد اليهودي للقدس والمقدسات الإسلامية وجرى استغلال هذا التهديد كصرخة للتجميع من حولها.

كما عززت الحرب العلاقات بين الإخوان وناشط إسلامي آخر أيده البريطانيون هو مفتي القدس الحاج أمين الحسيني. وترجع العلاقات بين الإخوان والحسيني إلى عقد مضى حيث يرجع أول لقاء بينه وبين الإخوان في عام ١٩٣٥ عندما قابل عبد الرحمن البنا شقيق حسن البنا الذي ساعد أخاه في تأسيس الجماعة ورأس الجهاز السري لها. (٣٢) ولعب الشيخ أمين دوراً هاماً، مثل دور البنا، في تأسيس الحركة السياسية الإسلامية المتشددة في القرن العشرين.

وأدى إنشاء دولة إسرائيل إلى ما هو أكثر من التشدد الإسلامي بالطبع فقد وفر أسباب للقوميين العرب مثل ناصر الذي سعى إلى تخليص العالم العربي من الملكيات. وبالنسبة للقوميين كانت إسرائيل رمزاً للضعف العربي والخضوع للاحتلال الذي كرسه الملوك التابعين لبريطانيا في مصر والأردن والعراق والسعودية. لكن البنا والإخوان راحوا يؤكدون على أن القوميين العرب كانوا على خطأ وأنه ليس هناك حلول في القومية العلمانية وبناء الأمة وبالطبع ليس الحل في التغريب، والوسيلة الوحيدة لاستعادة مجد العالم الإسلامي السابق هو العودة إلى الإسلام السلفي.

كان الموقف يعبر عن صراع متعدد الأطراف يتطور سيحدد مستقبل الشرق الأوسط. كان الإسلاميون إحدى القوى التي تتنافس مع بعضها البعض فكان هناك القوميون واليسار (بما في ذلك الحزب الشيوعي العربي المتنامي) والمثقفون العلمانيون والطبقة العاملة الحضرية (في المدن) والتجار الأثرياء ورجال الأعمال المشاركون في التجارة العالمية والداخلية وكان هناك نخب تقليدية وزعماء قبائل وإقطاعيون من الارستقراطيين ثم الملكيات وجيوشهم. كان الإسلاميون المتزايدون نوعا من الورقة الرابحة يعارضون بضراوة القوميين واليسار، ويحافظون في الوقت ذاته على علاقات مع النخب التقليدية وحصلوا على تأييد العديد من الملكيات كما كان لهم تحالفات سرية مع ضباط الجيش والملوك. وبالنسبة للبريطانيين ثم الأمريكيون الذين جاءوا فيما بعد بدا أنه من الصعب تحديد الحصان الذي يمكن الرهان عليه؟. لقد عقدت الحرب الفلسطينية الحسابات الأنجلو أمريكية لأن كلا من القوى القومية اليسارية والإسلاميين ألقوا باللوم على الغرب في المحنة الإسرائيلية.

زادت قوة الإخوان المسلمين منذ الأربعينيات. وساعد سعيد رمضان زوج ابنة البنا، في توسيع نطاق التنظيم في فلسطين والأردن. وجمع الإخوان، تحت غطاء التعبئة والتسلح لمحاربة اليهود، وكان الجهاز السري الذي له علاقات مع الجيش المصري يوفر كميات من الأسلحة. وساعد التحالف بين البنا والحاج أمين، الذي تأسس على الحرب الفلسطينية، الإخوان على مد نطاق نشاطهم إلى سوريا والأردن ولبنان وفلسطين.

وهنا وفي معرض التطرق إلى الحاج أمين الحسيني فإن القول بأن مستقبله كان مزدهراً أمر يفتقد الدقة. لقد كان للحاج أمين رؤية تتسم بالازدواجية والتناقض تجاه الخارج وتتمحور حول كراهية اليهود وأدى به تأييده العلني لهتلر إلى أن أصبح عرضة للاستهزاء به من المؤرخين. لكن الحاج أمين من البداية كان صنيعة البريطانيين (*). مارس أمين سحره على أجيال من البريطانيين غريبي الأطوار مثل فريا ستارك الضابط

* المهمة ذاتها يواصلها المؤلف هنا مع شخصية أمين الحسيني والممثلة في تشويه الرموز الإسلامية التي قامت بجهد كبير في إرساء العمل الإسلامي على مدار القرن الماضي

المخابراتي البريطاني الأسطوري الذي وصف الحاج أمين بالقول: "المفتي المتشح بالبياض الجالس هناك لا يمكن العثور عليه مع انتشاره الواسع، رجل في بداية الأربعينات من العمر يرتدي عمامته الكبيرة. كان لون عيناه ازرق فاتح وساطع يخرج منها نوع من الإشعاع كما لو كانت شهابا ساقطا".(٣٣)

بدأ تاريخ الحاج أمين معتدلا على الأقل، فهو ينحدر أمين من عائلة فلسطينية عربية هامة ودرس في الأزهر في مصر لكنه لم يكمل دراساته لإخفاقه. وبعد الحرب العالمية الأولى عمل مع وكالة انباء رويترز في القدس كمترجم. وشيئا فشيئا دخل في دهاليز السياسة الفلسطينية لكن كانت تبدو عليه علامات العنف والتطرف والنظريات التآمرية ضد اليهود ومنها بروتوكولات صهيون. وألقي القبض عليه بسبب اتهامات بأعمال شغب ضد اليهود لكن في عام ١٩٢٠ اختاره سير هربرت صمويل المفوض البريطاني لفلسطين من دون غيره للعفو عنه ثم أوصله إلى قمة سلم السلطة. (٣٤) ورغم أن أمين لم يكن لديه أي مؤهلات تجعله عالماً إسلامياً فان سير رونالد ستورز حاكم القدس اجري انتخابات لصالحه ثم عينه مفتي القدس. وبعد عام واحد أقام صمويل المجلس الإسلامي الأعلى الذي تولى السيطرة على الأوقاف الإسلامية الفلسطينية الغنية وعين أمين رئيساً عليه. (٣٥) ووفر المنصبان للشيخ الديماجوجي سلطة سياسية قوية. (٣٦)

وبالتوازي مع قيام جماعة الإخوان المسلمين عقد أمين في عام ١٩٣١ مؤتمراً إسلامياً في القدس وسافر إلى الهند وإيران وأفغانستان والدول الإسلامية الأخرى لجمع المال والدعم من أجل البناء. وتمتع أمين بدعم بريطاني وحماية حتى رغم دخوله في تحالف سياسي مع ألمانيا. وعندما تم القبض على ٦٠ عربيا في فلسطين في عام ١٩٣٦ خلال تمرد ضد البريطانيين تم إخلاء سبيل الحاج أمين الذي كان بينهم. (٣٧) واضطر بسبب ولائه للألمان إلى الهروب أولاً إلى لبنان ثم إلى العراق ثم إلى إيران وأخيراً إلى برلين بعد أن أعلن ولاءه لأدولف هتلر في مختلف أنحاء الأرض. (٣٨) وفي ألمانيا أشرف أمين على دعاية محطات المحور الإذاعية الموجهة إلى الشرق الأوسط ووجه شبكة من الجواسيس ونظم الوحدات الإسلامية للنازي التي تتكون أساساً من أهالي

البوسنة ومع انهيار الرايخ الثالث غادر المفتي ألمانيا في هدوء عبر سويسرا واستقر في فرنسا حيث رفض الحلفاء القبض عليه أو اعتقاله. ولم يطلب البريطانيون بصفة خاصة تسليمه وقال وزير خارجية بريطانيا العظمى: "المفتي ليس مجرم حرب".(٣٩)

وفي عام ١٩٤٦ وصل أمين الحسيني منتصراً إلى مصر حيث تم الترحيب به على إنه ضيف الملك. ووصفت صحيفة نيويورك تايمز وضعه آنذاك في أغسطس عام ١٩٤٦ قائلة: "لقد أصبح المشعر الجديد للإسلام السياسي هو بيت المفتي في فيلا عايدة، بالقرب من محطة رشدي باشا في الشارع الموصل من الإسكندرية إلى ضاحية الرملة. وقال التقرير هناك جندي مصري في كل ثمانية أو عشر ياردات حول حديقة المنزل بالإضافة إلى حارس شخصي خاص للمفتي. (٤٠) وقال تقرير آخر إن العمل السياسي للمفتي يتم بمقتضى تمويل كريم من ملك السعودية عبد العزيز آل سعود وفاروق ملك مصر. (٤١)

يبدو أن البريطانيين لم يضمروا أي ضغينة ضد المفتي لأنهم عينوه بعد فترة وجيزة كمسئول دعاية. وأنشأت المخابرات البريطانية وكالة الأنباء العربية في القاهرة ومحطة اذاعة الشرق الأدنى التي كان أول رئيس لها الفريد مارساك قائد السرية وهو مسلم ورع عمل في الشرق الأوسط قبل الحرب وخصص أفضل مراحل حياته للشئون العربية واعتنق فيما بعد اعتنق الديانة الإسلامية. (٤٢) وعينت المخابرات البريطانية الحاج أمين ربما لأنهم انبهروا بدوره الاعلامي في المحطة النازية. وكان سير كينهان كورنوواليس المصرفي الارستقراطي البريطاني الذي رأس المكتب العربي هو المسئول عن محطة إذاعة الشرق الأدنى عن طريق المخابرات البريطانية. وكان المكتب العربي هو مقر المخابرات البريطانية في القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى ومركز عمليات تي أي لورانس. (٤٣)

وفي عام ١٩٤٦ نظم المفتي والإخوان المسلمين قوة شبه عسكرية في فلسطين تسمى "المنقذون" وتتألف من ١٠ آلاف مقاتل تحت السلاح. (٤٤) لكن السلطات البريطانية تغاضت عن فرقة "المنقذون" أو تجاهلتها. وأنشأ المفتي والبنا في مصر علاقات عمل وتعاون. وتم وضع احدى الوحدات شبه العسكرية التابعة للإخوان في

فلسطين، المتمركزة في غزة، تحت قيادة مساعد سوداني للمفتي. (٤٥) وفي القاهرة زكى حسن البنا الحاج أمين المفتي ليكون رئيسا لحكومة فلسطينية جديدة. وربما تكون أهم محطة في حياة المفتي لعملية هي عودته منتصراً من غزة في سبتمبر ١٩٤٧ حيث أعلن دولة فلسطين ونصب نفسه رئيساً لها. (٤٦) غير أن دولة الحاج أمين الفتية لم يكتب لها الوجود بهزيمة العرب أمام القوات اليهودية. لكن الحاج أمين سوف يبقى ويزدهر ويعود إلى المعركة في الخمسينيات.

وكان البنا في نفس الوقت قرب نهاية حياته المثيرة. كان نظام الملك فاروق يلفظ أنفاسه الأخيرة وكانت الصقور السياسية تحيط به من كل جانب. وأثرت أزمة فلسطين في عام ١٩٤٨ بشدة على نظام الملك فاروق مما جعل من الصعب على أي قوى سياسية في مصر أن تتحالف معه. كما أحاطت الأزمة الاقتصادية أيضا بالبلاد وصاحبها أعمال شغب وعصيان وتظاهرات وإضرابات وتزايدت أعمال العنف. وانكسر التحالف بين الإخوان المسلمين والقصر الملكي وسعى كل من القوميين والإسلاميين إلى الحصول على قدر من المصداقية السياسية بإلقاء اللوم والاتهام بالفساد على نظام الملك فاروق لأنه تسبب في الهزيمة في فلسطين. وأخيراً في ديسمبر ١٩٤٨ جمدت الحكومة المصرية نشاط الإخوان المسلمين وبعد أسابيع قتل أحد عناصر الإخوان رئيس الوزراء محمد فهمي النقراشي. وبعد شهرين في يناير ١٩٤٩ انتهت حياة البنا فجأة باغتياله أمام مسجد الشبان المسلمين في القاهرة على يد قوات الامن المصرية فيما يبدو(٤٧) (*)

وكانت عملية اغتيال البنا بداية النهاية للحقبة الأولى من مسيرة الإخوان المسلمين وبداية حقبة أخرى، في أعقاب اغتيال تنافست عدة فصائل تابعة للإخوان المسلمين من أجل السيطرة على الجماعة وتأرجحت الجماعة نفسها بين الشرعية وعدم الشرعية من جانب الحكومة، فعفت عنها أولاً ثم عادت إلى نشاطها المعتاد. وخلف حسن إسماعيل الهضيبي حسن البنا في موقع المرشد الأعلى للجماعة. وكان الهضيبي قاضياً وكان أخوه رئيس الديوان الملكي في عهد فاروق وكان تعيينه بمعرفة إقطاعي من صعيد

---

* من الغريب هنا أن يقرر المؤلف بثقة أن مقتل النقراشي تم على يد أحد عناصر الإخوان – يصفه في متن الكتاب بالإرهابي، فيما يحاول التشكيك في الجهة التي قتلت البنا بالقول بأن العملية تمت على ما يبدو على يد أجهزة الأمن رغم أن هذا الأمر يدخل في نطاق البديهيات بالنسبة لكل متابع لمسيرة وتاريخ حركة الإخوان.

مصر- بعد ٥٠ عاما سيكون ابن الهضيبي المرشد الأعلى للجماعة. وحافظت الفصائل المتنافسة للجماعة، كل من جهتها، على علاقات مع فصائل أخرى من تلك القائمة في إطار النظام السياسي المصري آنذاك، كما حافظت على الخطوط مفتوحة مع القصر الملكي وتغلغلت في صفوف الجيش والشرطة وأقامت اتصالات سرية مع حركة الضباط الأحرار متزايدة النمو والتي ستتولى السيطرة على البلاد في عام ١٩٥٢.

برغم الانقسامات بين الفصائل كان من الواضح أن جماعة الإخوان المسلمين ستتجاوز اغتيال البنا. وبفضل سعيد رمضان مدد الإخوان نفوذهم في أنحاء العالم وظلوا قوة لا يستهان بها في مصر بما لهم مئات الآلاف من الأتباع. وساعد التمويل المادي من السعودية في الإبقاء على الحركة فيما انقلبت عليها الحكومات العربية وخاصة المصرية. وبفعل الحرب الباردة سوف يستمد الإخوان المسلمون الطاقة من الحملة العالمية ضد الشيوعية. وساهم الجمع بين سياسات النخبة الداخلية وأعمال العنف المسلح السري في البداية الحقيقية لما نسميه "الإسلام السياسي". وكانت الأنظمة الإسلامية التي تولت الحكم في باكستان وإيران والسودان في أواخر السبعينات هي نتاج مباشر للعمل الذي قام به البنا ورمضان وحلفاؤهم.

ووسط أوزار الحرب العالمية الثانية سوف تقوم أمريكا بأولى خطواتها نحو الشرق الأوسط. ومن المقدر أن تصبح المنطقة الشاسعة بين اليونان وتركيا عبر باكستان والهند مسرحاً للمعارك خلال الحرب الباردة. وما فصل الشرق الأوسط عن حلبات الصراع الأخرى في تلك الحرب بين الشرق والغرب هو قرب المنطقة من الاتحاد السوفيتي السابق ووجود ثلثا احتياطي العالم من النفط في المنطقة الصغيرة المحيطة بالخليج العربي.

وعلق خبراء الاستراتيجيات الذين كونوا حلف الناتو وحلف بغداد وقوة الانتشار السريع والقيادة المركزية الأمريكية، أهمية كبرى على تأمين منطقة الخليج. ولسوء الحظ رفض نفس هؤلاء الخبراء التهديد المحتمل من الاتحاد السوفيتي والقوى النامية للقومية في البلدان العربية والخليجية، التي رأت موارد النفط تندرج تحت ثروتها الوطنية. وسوف تتجه أمريكا إلى اليمين الإسلامي لكي تتمكن من هزيمة القوميين وبناء

تكتل من مجموعة من الدول تتفق وتتآلف على العداء ضد الاتحاد السوفيتي. وكان الإخوان المسلمين قابعين منتظرين ما سيحدث.

الفصل الثالث

الإسلام في مواجهة الحرب الباردة

يقول هيرمان أيلتس الدبلوماسي الأمريكي الشاب في جدة، إنه التقى البنا أول مرة في السعودية. ويقول أيلتس إنه عرف البنا حق المعرفة. وقال عنه: "اعتاد البنا في الواقع أن يأتي إلى السعودية للحصول على المال. التقيته في منزل نائب وزير المالية السعودي آنذاك وكان رجلاً ورعاً تقياً ويتعامل مع البنا. كان اسمه الشيخ محمد سرور صبحان وكان عبداً وأعتق. وكان سرور هو المسئول عن الأمور المالية مع الإخوان المسلمين. كان الرجل أسوداً من السودان".(١) كان العام ١٩٤٨ قبل أشهر قليلة من اغتيال البنا في القاهرة. وسوف يرى أيلتس البنا في منزل سرور. وقال أيلتس: "كان البنا زائراً منتظماً لأن السعودية كانت مصدر المال له".

لقد كانت جماعة الإخوان المسلمين منذ تأسيسها من ٢٠ سنة قوية ونافذة وقوة مخيفة في مصر ولديها ذراع عسكري سري يقوم بالأعمال "الإرهابية"، والتخلص من الخصوم السياسيين وتغلغلت في المخابرات المصرية. وقال أيلتس إنه وجد البنا ودوداً جداً. وسوف يتحول أيلتس فيما بعد إلى أحد الأمريكيين المحبين للعرب وسفيراً في مصر والسعودية . وقال عن البنا إنه لا يتردد في الالتقاء مع الشخصيات الغربية. ولم يتحدث أيلتس عن الإخوان مع البنا لكن الضباط السياسيين الأمريكيين في القاهرة كانوا يناقشون هذا معه في الأربعينيات في القاهرة باستمرار. وقال أيلتس: "اعرف أن احد زملائي في السفارة الأمريكية في القاهرة كان يلتقي بانتظام مع البنا في ذاك الوقت وجد إنه متعاطفا. وظللنا على اتصال معهم خاصة لأغراض التقارير لأن الإخوان في ذاك الوقت كانت من العناصر التي تعتبر مهمة سياسيا لذلك لابد أن نحافظ على الاتصالات معهم. ولا أعتقد أنه كان يساورنا القلق بشأنهم رغم أنه كان هناك قلق عندما اغتال الجهاز السري لهم رئيس وزراء مصر. كنا قلقين بشأن الاستقرار في الأساس وكنا نعتقد أن تلك الاغتيالات مقلقة لكنها لا تنبئ بتوتر أو عدم استقرار سياسي."

ولا يثير الدهشة أن الدبلوماسيين الأمريكيين في مصر والسعودية يحافظون على اتصالات في الأربعينات مع الإخوان المسلمين برغم جنوحها إلى العنف والتطرف. كان نظام الملك فاروق في مصر يلفظ أنفاسه ولم يكن من الواضح من الذي سيحل مكانه. وكتب سعيد أبو الريش يقول: "كان الإخوان المسلمون الذين يتجاوز أعضاء حركتهم الـ

١.٥ مليون عضو، التحدي المحتمل الوحيد لمؤسسة الحكم".(٢) غير أن العديد من الممثلين الأمريكيين في المنطقة جذبهم ما بدا على الإخوان ظاهرياً من العداء للشيوعية.

وكان الإخوان المسلمون، والذين يمثلون الغالبية العظمى من اليمين الإسلامي، والمؤسسات الإسلامية التقليدية في المنطقة موضوع جدال مستمر في واشنطن . كان هذا الجدل حول: هل الإسلام برمته ضد الشيوعية الملحدة؟ أو هل الإسلام المنظم الذي يبدو متخلفا وشديد المحافظة ورث نظرة معادية للغرب جعلته يتقبل سياسة اليسار التي تقوم على الصراع مع الغرب؟ وهل تستطيع أمريكا ان تساعد في تشكيل مؤسسات إسلامية يمكن أن تكون العمود الفقري لمجتمع مدني جديد في الشرق الأوسط؟ أو هل ينصب اهتمام أمريكا على التحالف مع أنصار التحديث العلمانيين في المنطقة؟ (*) كانت أمريكا لا تزال تتحسس طريقها في الشرق الأوسط. ولم يكن لدي كثير من الأمريكيين أي خبرة في المنطقة وكانت الجامعات الأمريكية ضعيفة في دراسات الشرق الأوسط ورغم الدور الرئيس الذي لعبه الجيش الأمريكي في تحقيق النصر في الحرب العالمية الثانية فلم يكن له وجود يذكر في شمال أفريقيا أو الخليج العربي.

بدأت المخابرات الأمريكية الفتية تستقطب خريجي رابطة "ايفي" وأي شخص يمكنه الحديث بالعربية، رغم أن أفضلهم على أقصى تقدير لم يكن له خبرة بالمنطقة. وكانت المخابرات الأمريكية التي استغرق تأسيسها من عام ١٩٤٧ حتى الخمسينات، دائما في الصفوف الخلفية بالنسبة للمخابرات البريطانية. وقال مايلز كوبلاند، أحد ضباط المخابرات الأمريكية الذي عمل في المنطقة في تلك السنوات "كان موقفنا هو الانتظار لنرى ماذا نفعل".(٣)

كان الشرق الأوسط منطقة نفوذ بريطانية وكان البريطانيون حساسون بخصوصها. وكانت مصر وإيران والعراق، رغم إنها دول مستقلة، تدور في الفلك البريطاني في الواقع. وكانت فلسطين والأردن تحت الحماية البريطانية رسميا. والدول التي أصبحت فيما الكويت والإمارات الخليجية الأخرى كلها مستعمرات بريطانية كما

* يلاحظ أن هذه الأجندة ما زالت تمثل جوهر السياسة الأمريكية في المنطقة وأنها لم تختلف كثيرا رغم أنه من المفترض أن تكون استقرت على تصور معين بشأن التعامل مع المنطقة في ضوء خبرة الزمن الطويلة التي تربطها بها.

كانت الهند وباكستان. غير أن قبضة بريطانيا على المنطقة ونفطها، كانت تتداعى وكان التدخل الأمريكي في الشرق الأوسط بعد الانتصار في الحرب العالمية الثانية في ازدياد مستمر. بدأ الأمر بالسعودية، البلد الذي سوف يصبح نقطة العبور ومركز الوجود الأمريكي في المنطقة. لكن سياسة السعودية في تأييد وتمويل الإخوان المسلمين سوف تورط أمريكا مع السلفية الإسلامية. كانت علاقة أمريكا مع السعودية والشرق الأوسط تنصب على اهتمامها بالنفط واحتواء الحرب الباردة. لكن نقص الخبرة الأمريكية في المنطقة بما فيها معرفتها بالإسلام، أعاقت السياسة الأمريكية من البداية.

وتقول كتب التاريخ إن الدخول الرسمي لأمريكا في المنطقة بدأ منذ عام ١٩٤٥ من خلال وقوف يخت في البحيرات المرة في قناة السويس (مصر) في شهر فبراير، كان على متنه الرئيس روزفلت في رحلة العودة من مالطا إلى واشنطن. وعلى متن اليخت التقى فرانكلين ديلانو روزفلت مع الملك عبد العزيز آل سعود في أول لقاء بين رئيس أمريكي وملك سعودي . وبدأ هذا اللقاء مرحلة عمرها نصف قرن من العلاقات بين البلدين.

لكن هناك حادثتين هامتين وقعتا قبل لقاء روزفلت - بن سعود، الأولى في عام ١٩٣٣ وهي توقيع اتفاقية امتياز لأمريكا في السعودية التي سوف تصبح أكبر دولة مصدرة للنفط في العالم من خلال شركة أرامكو. والرجل الذي توسط في تلك الاتفاقية هو هاري جون فيلبي الضابط البريطاني الذي ساعد بن سعود والحركة الوهابية على تولي السلطة خلال وبعد الحرب العالمية الأولى. في أواخر العشرينات ترك فيلبي، اعتماداً على اتصالاته بالحكومة السعودية، منصبه الحكومي وبدأ يقوم بأعمال تجارية لحسابه. وزاد ارتباط فيلبي مع آل سعود وابتعد عن السياسة البريطانية، على الأقل في العلن. وأمام أصدقائه وزوجته وأسرته تحول فيلبي إلى الإسلام وأطلق على نفسه اسم عبد الله. وكتب في مذكراته إنه استمتع جداً بتحوله إلى الإسلام لأنه يمكن أن يكون له أربع زوجات. (٤) وكان فيلبي ملحداً منذ دراساته في جامعة كمبريدج وكان من الواضح إن عبد الله فيلبي كان في حاجة إلى الإسلام ليس كديانة بل ليستريح، وصرح لأصدقائه بذلك بالفعل. (٥) لكن فيلبي انخرط وتعمق في الإسلام وأدى فريضة الحج

وتزوج أكثر من زوجة منهم عبدة أهداها إليه الملك بن سعود. غير أن اهتمامه الأساسي كان تكوين ثروة حتى أنه كان من الجمل المأثورة التي كانت تقال عنه في جدة أن فيلبي لابد ألا يسمى عبد الله بما تمثله الكلمة من دلالات بل "عبد القرش".(٦)

وأدار فيلبي أعمالا تجارية وأصبح الممثل الرسمي لشركة فورد موتورز في السعودية رغم أنه قال إنه يكره شكل وصوت السيارات. (٧) ثم أصبح فيلبي وكيلاً لشركة ستاندارد اويل كاليفورنيا وباستغلال صداقته مع الملك توسط فيلبي في صفقة شركة النفط التي ستصبح الأولى في الدورادو وحقق لها الامتياز بسعر مخفض جداً بلغ ٥٠ ألف إسترليني دفعة أولى وخمسة آلاف من الذهب إيجاراً سنوياً. وكان الامتياز لمدة ٦٠ عاما ويغطي مساحة ٣٦٠ ألف ميل مربع أي نصف مساحة تكساس. (٨) لقد وقع الملك على التنازل عن نصف ثروات بلاده إكراماً لصديقه. ثم وضعت أمريكا قدمها في البداية من خلال شركة كاليفورنيا وشركات تكساكو ثم أيكسون، الذين سيصبحون الشركاء الأربعة في شركة أرامكو. (٩)

والتطور الثاني الهام هو إعلان روزفلت إن السعودية خاضعة للحماية الأمريكية، وهو ما جاء في قول الرئيس الأمريكي: "أعلن هنا أن الدفاع عن السعودية أمر حيوي للدفاع عن الولايات المتحدة".(١٠) وجاءت هذه الخطوة من روزفلت على خلفية عدة أهداف أولهما هو الأوضح وهو نفطها الثمين. وهناك سبب استراتيجي هو التهديد السوفيتي المحتمل للخليج العربي - رغم أنه كان بعيداً في ذاك الوقت. وهناك هدف تكتيكي بخصوص حلفاء أمريكا خاصة بريطانيا. فرغم سيادة لندن على المنطقة بما فيها جنوب إيران والعراق كان هناك أحيانا منافسة حادة بين أمريكا وبريطانيا وإلى حد أقل بين فرنسا وإيطاليا أيضا، على النفط الموجود في الشرق الأوسط. وكان الجميع يسعى إلى حماية مصالح شركاته.

وقبل ٤ سنوات من لقاء روزفلت و بن سعود بدا أن روزفلت كان يريد أن يترك السعودية تحت التصرف البريطاني لأن لندن كان لها نفوذ قوي في المنطقة ولم يكن لأمريكا خبرة فيها. وقال روزفلت لأحد مساعديه: "هل تخبر البريطانيين أنني ارجو أن يتولوا أمر السعودية؟ المنطقة نائية نسبيا بالنسبة لنا"(١١) لكن شركة كاليفورنيا

وتكساس للنفط الشركاء فيما بعد في أرامكو لم يكونوا يرغبون في ذلك. لقد أقنعت تلك الشركات وزير الداخلية هارولد ايكس الذراع الأيمن للرئيس روزفلت بأن أمريكا لا ينبغي أن تقف أمام البريطانيين الذين يريدون أن يسيطروا على السعودية. (١٢) وفي منتصف الحرب العالمية الثانية توصل الحليفان إلى اتفاق يقسم نفط المنطقة بينهما. قال روزفلت للورد هاليفاكس السفير البريطاني في أمريكا "نفط إيران لكم، ونشارككم في نفط الكويت والعراق، ونفط السعودية لنا".(١٣) وابرق روزفلت إلى رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل يقول: "ارجو أن تتأكدوا أننا لا نطمع في نفطكم في العراق وإيران". ورد عليه تشرشل، الذي بنى الإمبراطورية النفطية البريطانية وحده" أرد عليكم بالتأكيد الكامل بأننا لا نريد أن نتدخل في مصالحكم أو ممتلكاتكم في السعودية." (١٤) وكان كل منهما يكذب بالطبع. لقد استغل البريطانيون النفط السعودي لفترة طويلة وسوف تزاحم أمريكا فيما بعد وبقوة على الامتيازات النفطية في إيران والعراق.

وكان لقاء روزفلت وبن سعود إيذانا ببدء الشراكة السعودية الأمريكية. ونقل الأمريكيون الملك سعود وعائلته وحاشيته وخدمه وخرافه التي تم القدوم بها للذبح على السفينة "مورفي" وأقاموا له خيمة صحراوية على متن السفينة لينام فيها. وكان الملك لم يغادر الأراضي السعودية من قبل في حياته. ووصف اليوت ابن الرئيس روزفلت اللقاء بين أبيه وبن سعود على متن السفينة كوينسي بقوله: "كانت أختي أنا قد حصلت على إذن والدي للذهاب في عطلة إلى القاهرة على عكس التقاليد الإسلامية التي تمنع ابتعاد الابنة عن أسرتها. وانتهى أبي (روزفلت) بقطع وعد لابن سعود بأنه لن يصرح لأي أمريكي بالقيام بعمل عدائي ضد العرب. واندهش بن سعود ونظر بحسد إلى الكرسي ذي العجلات الذي يجلس عليه أبي (روزفلت) فأهداه إياه. (١٥) في "الحقيقة أن روزفلت أهدى الملك كرسياً آخر إضافياً لكنه كان صغير جداً بالنسبة لحجم الملك، إلا أنه كان كافياً ليرى الملك نفسه نداً لروزفلت. ومثل ذلك بداية التحالف الأمريكي السعودي.

ولم يكن سي إل سالوزبرج الكاتب الصحفي في نيويورك تايمز واثقاً من أمكان سيطرة أمريكا على نفط السعودية. وكتب يقول: "كمية النفط الهائلة في هذا البلد تجعله

مهماً جداً في الدبلوماسية الأمريكية أكثر من أي بلد آخر".(١٦) وكان روزفلت أيضا يهتم بالنفط أكثر من اهتمامه بالإسلام.

وسوف يؤكد كل رئيس أمريكي بعد ذلك على إعلان روزفلت بأن أمريكا سوف تدافع عن السعودية، خاصة مرسوم ايزنهاوزر في عام ١٩٥٧ ومرسوم كارتر عام ١٩٨٠. وفي عام ١٩٤٤ أرسلت أمريكا أول بعثة عسكرية لها إلى السعودية ووقع البلدان في ١٩٤٥ اتفاقية تعاون عسكري أدت إلى إقامة قاعدة جوية أمريكية في الظهران. وسوف تستمر تلك القاعدة حتى الستينات. وتبع تلك الاتفاقية معاهدة أخرى في عام ١٩٤٩ وفرت لفريق مسح أمريكي الغطاء لمسح شبه الجزيرة العربية بالكامل مع توصيات بنشر قوة جوية أمريكية وقوة برية قوامها ٤٣ ألف جندي، ومهدت لاتفاقية عام ١٩٥١ بتمركز بعثة تدريب عسكرية أمريكية دائمة في السعودية. (١٧) ومنذ البداية كانت علاقة أمريكا بالسعودية لها أهدافها التي تشمل رفع إنتاج النفط بسرعة وإبرام اتفاقيات دفاعية ثنائية والتدفق الكبير من شركات تكساس وأوكلاهوما ولويزيانا على المملكة. وبدأت أمريكا، إلى جانب بريطانيا العظمى المنافسة والشريكة الأصغر، تكبل السعودية باتفاقيات عسكرية.

في عام ١٩٥١ اقترحت أمريكا وبريطانيا إنشاء قيادة الشرق الأوسط التي تربط أمريكا وبريطانيا وفرنسا مع تركيا وإسرائيل والأردن. وبدأوا التفاوض مع مصر لكنهم تخلوا عن الفكرة عندما رفض الملك المصري بأدب بضغط من القوميين وجراء حالة النقمة التي شعر بها إثر قيام الدولة اليهودية. ثم سبق البريطانيون في توقيع معاهدات مع تركيا والعراق وإيران وباكستان مما مهد فيما بعد لقيام حلف بغداد. وكانت أمريكا التي سعت إلى تعزيز علاقاتها مع تلك الدول تنوي في الوقت نفسه مزاحمة بريطانيا وإخراجها من الخليج العربي الغني بالنفط، ولم تشارك في حلف بغداد. وأشار كاتب أمريكي تابع لمجلس العلاقات الخارجية إلى أن بريطانيا هي التي كونت الحلف لإنقاذ موقفها في العراق ودعم نفوذها المتراجع في الشرق الأوسط. (١٨) وسقط حلف بغداد بعد فترة وجيزة عندما قامت الثورة في عام ١٩٥٨ في العراق.. مركزه الرئيس. وقام تحالف من القوميين في الجيش والحزب الشيوعي العراقي بإقالة الملك الذي نصبته

بريطانيا في العراق وإعدامه، على نحو لم يعد معه هناك وجود لحلف بغداد. وحل مكان الحلف المركزي الذي يربط بين الولايات المتحدة وبريطانيا وتركيا وإيران وباكستان، التي كانت ترتبط بالغرب أيضا بعضويتها في منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا.

وقد اعتمد التحالف الأنجلو – أمريكي في الشرق الأوسط على القوى التقليدية لنفوذها الخارجي ممثلة في القوة العسكرية والتأثير الاقتصادي والدبلوماسية. ومع تطور الحرب الباردة أضيف عامل آخر يعزز الوجود البريطاني والأمريكي وهو السلطة الدينية والثقافية للإسلام السياسي. والأهم بصفة خاصة في هذا الصدد هو الدور الذي ستلعبه السعودية باعتبارها مركز الإسلام. وعندما ظهرت السعودية لتقوم بدور عنصر التوازن أمام ناصر في مصر والقومية العربية ظهر عدد من عناصر الإخوان المسلمين ليقوموا بدور الدعاة لليمين الإسلامي في أنحاء المنطقة وقد يكون دورهم أهم من دور سعيد رمضان. كان رمضان الذي يعتبر أحد العناصر الأساسية في فكر وتنظيم الإخوان هو السفير السعودي غير الرسمي للأسلمة.

وفي الوقت الذي كان الإخوان يناضلون للحفاظ على وجودهم في مصر بفعل العداء ضد نظام عبد الناصر، كانت السعودية تغدق العطاء المادي عليهم كما عرضت أن يستغلوا أراضيها كملاذ آمن للهروب إليه. وقد شعر عدد من ملوك السعودية بتهديد من الشيوعية ورأوا في الإخوان المسلمين وغيرهم من اليمين الإسلامي حركة مناهضة للشيوعية. وكان عبد الناصر في مصر يشكل تهديداً لا يقل أهمية بالنسبة للسعودية لأن ناصر الذي يحكم مصر الفقيرة يرنو إلى نفط السعودية.(*) لذلك ومن أجل مناهضة الشيوعية والقومية العربية شجعت السعودية على نمو الإخوان المسلمين في مصر وفي الشرق الأوسط قاطبة.

* من المغالطات البينة للمؤلف حيث لا يوجد أي مصدر تاريخي عربي او غربي يشير أو يلمح إلى وجود مطامع من ناصر في النفط السعودي، بغض النظر عن الاتفاق مع سياساته أو الاختلاف معها.

رمضان في البيت الأبيض

في أواخر صيف ١٩٥٣ كان المكتب البيضاوي في البيت الأبيض مسرحاً لمقابلة لم يلحظها الكثيرون بين الرئيس دوايت ايزنهاور وسعيد رمضان الشاب بالغ الحيوية والنشاط من الشرق الأوسط. وتوضح الصورة الأبيض وأسود (١٩) التي تسجل اللقاء الرئيس الأمريكي البالغ من العمر ٦٣ عاما في حلة رمادية منتصبا وكوعيه منحنيين ويضم قبضة يده كما لو كان يؤكد على شيء وإلى يساره يقف الشاب المصري في حلة داكنة اللون وهو يطلق لحيته المنمقة ويحمل بضع أوراق خلف ظهره. كان الشاب المصري يبلغ من العمر ٢٧ عاما لكن خبرته تتجاوز العقد من الزمان فيما يتعلق بأوضاع العنف في العالم الإسلامي. وكان بجواره أعضاء وفد من الباحثين والشيوخ والناشطين من الهند وسوريا واليمن وشمال أفريقيا بعضهم يرتدي الملابس الغربية والآخر يرتدي ملابس عربية تقليدية.

كان الشاب المصري الواقف بجوار ايزنهاور في أحد أيام سبتمبر من ذلك العام هو سعيد رمضان المسئول العسكري والإيديولوجي في الإخوان المسلمين. وكان رمضان يلف نفسه في رداء نصف ملكي في دوائر الإخوان المسلمين لأنه تزوج وفاء البنا ابنة حسن البنا مما يجعله صهر مؤسس الجماعة. وكان رمضان يبدو باعتبار موقعه بجوار ايزنهاور رجلاً محترماً ومسالماً. رغم أن المشهور عن الإخوان المسلمين منذ نهاية الأربعينيات على الأقل إنها منظمة من المتطرفين والإرهابيين، قتل اتباعها العديد من المسئولين في مصر ومنهم رئيس وزراء.(*) وقبل لقاء رمضان مع ايزنهاور بخمس سنوات أعلن نظام الملك فاروق الذي كان يترنح في تلك الفترة، الجماعة خارجة على القانون. لكن الجماعة لم تختف وخلال السنوات الخمسين التالية ستعاود الظهور عدة مرات لتعزز وضعها وتنشر نفوذها ورؤاها ببطء، وتقيم فروعا لها في الأردن وسوريا والكويت وغيرها. وسوف يكون سعيد رمضان المنظم الدولي الرئيس للجماعة حتى وفاته في سويسرا عام ١٩٩٥.

---

* مرة أخرى يمارس المؤلف وظيفته التي لا يمل منها وهي الكيل للإخوان في كل مناسبة معززا الأحكام النمطية العامة دون أسانيد.

ورغم غضب رمضان وميله للعنف ونواياه المعلنة لإعادة تشكيل الشرق الأوسط وفق الموصفات الإسلامية السلفية إلا أنه لم يكن يمثل تهديداً. والحقيقة كانت أمريكا تنظر إلى رمضان، بناء على تقييم السفير الأمريكي في القاهرة، على أنه حليف محتمل. كانت المكارثية والحرب الباردة في أوجهما والإخوان المسلمين في عداء شديد ضد الشيوعية. وليس هذا فقط بل أن حلفاء رمضان في الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية في باكستان (٢٠) ومنظمات أخرى مشابهة في المنطقة، كانوا يعارضون الماركسيين والناشطين من اليسار في الجامعات والنقابات العمالية والقوميين العروبيين والاشتراكيين العروبيين وحزب البعث والعلمانيين من كل نوع ومنهم شخصيات مثل جمال عبد الناصر الذي كان ولاءه للجانب الأمريكي في الحرب الباردة محل شك حتى في عام ١٩٥٣ بعد عام واحد من قضاء الضباط الأحرار على الملكية الفاسدة الممجوجة.

ولد سعيد رمضان في عام ١٩٢٦ في شبين الكوم التي تبعد ٧٠ كيلومترا تقريبا شمالي القاهرة. (٢١) وقابل رمضان حسن البنا في شبابه وانضم إلى الإخوان على الفور. وبعد تخرج رمضان من جامعة القاهرة في عام ١٩٤٦ أصبح السكرتير الخاص للبنا وذراعه اليمنى. وبعد عام واحد أصبح رمضان مدير تحرير صحيفة الشباب الأسبوعية التي يصدرها الإخوان. كما أصبح كذلك سفيراً متجولاً للإخوان إلى جانب مساعدة الزعيم في الأعمال التنظيمية وكان يبسط شبكة من الاتصالات الدولية لم يستطع البنا نفسه أن يبسطها لأنه كان متمركزاً داخل مصر. وفي عام ١٩٤٥ سافر رمضان إلى القدس التي كانت تحت الحماية البريطانية مثل فلسطين حيث بدأت تلوح سحب الحرب بين العرب واليهود .

وفي الفترة التالية قضى رمضان وقتا طويلا في السفر بين القدس وعمان ودمشق وبيروت ليبني فصائل الجماعة. وفي أكتوبر ١٩٤٥ فتح رمضان أول مكتب للإخوان في القدس (٢٢) ليؤسس ما سيكون في الثمانينيات جماعة المقاومة الإسلامية "حماس". وبحلول عام ١٩٤٧ كان للإخوان ٢٥ فرعاً في فلسطين تضم ما بين ١٢ و

٢٠ ألف عضو. (٢٣) وفي عام ١٩٤٨ ساهم رمضان في تأسيس القوة الإسلامية التابعة للإخوان التي حاربت اليهود وقامت دولة إسرائيل في ذاك العام.

وقام رمضان بأول زيارة ضمن عدة زيارات إلى باكستان في أواخر الأربعينيات وشارك في أول اجتماعات المؤتمر الإسلامي العالمي في كراتشي في عامي ١٩٤٩ و ١٩٥١ وأصبح أميناً عاماً للمنظمة (٢٤) - أدان اليسار الباكستاني هذا المؤتمر باعتباره من تنظيم الإمبريالية الأنجلو أمريكية. (٢٥) واستقلت باكستان عن بريطانيا قبل ذلك بعام وأصبحت نقطة جذب لإيديولوجيات ومنظمي وعلماء الإسلام السلفي باعتبارها أحدث دولة إسلامية. وحول أبو الأعلى المودودي الذي شكل حركة على غرار الإخوان المسلمين في باكستان، حركته الإسلامية إلى حزب سياسي. وخلال العقد التالي تحولت باكستان إلى وطن ثاني بالنسبة لرمضان و أعطته مساحة في الإذاعة الباكستانية وكان له علاقات طيبة مع الحكومة ذات التوجه الغربي بما فيها رئيس الوزراء لياقات علي خان الذي كتب مقدمة أحد كتب رمضان. (٢٦)

لم تكن إقامة رمضان في باكستان طوعية كلياً. فقد تم حظر الإخوان في مصر وتم اغتيال البنا. وعاد رمضان إلى مصر عام ١٩٥٠، الوقت الذي كانت الجماعة تواجه فيه أحد انتكاساتها المتعددة، لكنه سيقضي فترات طويلة في باكستان حيث يعمل مع المودودي وجماعته الإسلامية. كما عمل رمضان مع الرابطة الإسلامية في باكستان وبدعم رسمي من باكستان سافر إلى أنحاء العالم العربي ليلقي محاضرات. في ذاك الوقت كانت السياسة في باكستان منقسمة بين المتطرفين الإسلاميين والإسلاميين المعتدلين والقوميين العلمانيين واليسار. وفي الوقت نفسه كانت الدولة تندفع إلى تحالفات عسكرية مع الغرب. وساعد رمضان المودودي لعدة سنوات في تنظيم الطلاب المتشددين الإسلاميين الذين سيحاربون اليسار الباكستاني خاصة في الجامعات. وكانت جمعية الطلاب المسلمين تشبه الفرق الفاشية (٢٧) التابعة لموسوليني وهي مشروع أعده وأخرجه رمضان وكانت الجمعية متأثرة بالإخوان المسلمين المصرية رغم إنها تأسست تحت لواء الجماعة الإسلامية الباكستانية.

وبين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٥ ساعد رمضان زعماء جمعية الطلاب المسلمين على تكوين كيان إداري وفي تقديم الاستشارات الإستراتيجية التنظيمية. وكان أكبر تأثير للإخوان المسلمين على الجمعية ما نراه من الحلقات الدراسية والجلسات الدراسية التي تستمر طوال الليل وكانت تهدف إلى ضم أعضاء جدد وبث الإيديولوجية فيهم وتعزيز الروابط التنظيمية (*)، وفق ما قاله فالي رضا نصر الخبير في الشئون الإسلامية. وقد اصطدمت جمعية الطلاب المسلمين عدة مرات مع طلاب "اليسار" في الجامعة. وكتب نصر يقول: "وأدت المواجهات بين الطرفين إلى مزيد من المعارك الخطرة خاصة في كراتشي ومولتان. وأضاف: أصبح النشاط الطلابي المناهض لليسار عنوان حركة الطلاب المسلمين ويحدد مسار أعمالها. وأصبح أعضاء الطلاب المسلمين كتيبة من الجنود التي تحارب من أجل الإسلام ضد الأعداء من العلمانيين واليساريين داخل الحكومة وخارجها. (٢٨) ويبدو أن رمضان عمل مع المتشددين في الدول العربية أيضا بين رحلاته إلى باكستان، خاصة بين الفلسطينيين والأردنيين الذين أسسوا ما سمي حزب التحرير الإسلامي (٢٩)- نقل الحزب مقره فيما بعد إلى ألمانيا ثم انتشر إلى وسط آسيا المسلمة. ودعمت السعودية هذا الحزب بشدة. وبحلول التسعينيات أصبح الحزب قوة تستخدم العنف متحالفة مع الحركة الإسلامية الاوزبكستانية والقاعدة.

وساهم رمضان في الخمسينيات خلال وجوده في الأردن، في تأسيس فرع للإخوان المسلمين هناك وكان الزعيم هناك هو أبو قورة التاجر الأردني الثري الذي تربطه علاقات وثيقة مع الملك عبد الله والأسرة الهاشمية الملكية المدعومة من بريطانيا. ويقول ماريون بولبي: إن البنا أرسل رمضان إلى عمان بهدف تحويل الحركة الإسلامية السرية إلى علنية وضمن الملك للحركة وضعاً قانونياً باعتبارها منظمة رعاية خيرية على أمل أن تعاونه ضد المعارضة العلمانية أي ضد اليسار. وفي باكستان أصبح "الإخوان المسلمين" أداة لقمع اليسار والقوميين العروبيين. وراح رمضان وقورة يطرحان أن مصر، وبقية العالم الإسلامي، في القرن العشرين ستواجهان تهديداً خطيراً من الشيوعية والقومية اللتين تنكران تطبيق الشريعة الإسلامية على المجتمع. (٣٠)

---

* لعله يقصد هنا جماعة التبليغ والدعوة والتي حدث تأثير متبادل بشأنها بينها وبين الجماعات الإسلامية في مصر وباكستان.

ولم يكن وجود رمضان في المكتب البيضاوي في عام ١٩٥٣ محض صدفة. فقد كان السبب الرئيسي لوجود رمضان في أمريكا هو حضور منتدى عن الثقافة الإسلامية في جامعة برينستون إلى جانب رحلة لواشنطن ضمن البرنامج. واشتركت مكتبة الكونجرس مع جامعة برينستون في تصميم جدول الزيارة التي استمرت ٩ أيام. وكان المنتدى الذي عقد في قاعدة ناسو التابعة لجامعة برنستون يتسم بالحيوية والنشاط. وكان من بين الحضور والمتحدثين كبار المستشرقين في تلك الفترة وشخصيات مثل فيليب هيتي وكويلر يانج وبايلي ويندر من الجامعة ذاتها وويلفريد كانتويل من جامعة مكجيل وريتشارد نيلسون من جامعة هارفارد وكارلتون كون من جامعة بنسلفانيا وكينيث كريج مدير تحرير صحيفة العالم الإسلامي من مؤسسة هارتفورد.

وكان منظم المنتدى بايرد دوج الرئيس السابق للجامعة الأمريكية في بيروت. وحسب السجل الرسمي للمنتدى فقد وصف من حضر من الشرق الأوسط بأنها شخصيات مرموقة. لكن الزائرين لم يكونوا يأتون اعتباطا. كان المنتدى من تنظيم الحكومة الأمريكية التي أسسته من البداية واستدعت مشاركين ترى أنهم يمكن أن يكونوا متعاونين معها على نحو يعود بالفائدة. وقد زار هيتي، عميد المستشرقين، القاهرة والبحرين وبغداد وبيروت ونيودلهي ومدن أخرى لاستقطاب المشاركين، وجمع تمويل تكميلي من شركات الطيران الأمريكية بما فيها "بان أمريكان" و"إيه أم" و"تي دبليو إيه" ومن شركة "أرامكو" التي تمثل مجموعة شركات النفط الأمريكية في السعودية". وكان رمضان، يحضر المنتدى انطلاقاً من طبيعته الأيديولوجية المتشددة وليس بصفته دارساً للإسلام أو أحد علمائه، مثله مثل الآخرين من المشاركين، وعلى نفقة الولايات المتحدة. ولم تكن الحكومة الأمريكية غافلة عمن هو رمضان.

وكانت إدارة المعلومات الدولية التابعة للخارجية الأمريكية والتي لها جذور في المخابرات المركزية، من بين الممولين للمؤتمر بما في ذلك تكاليف نقل المشاركين من الشرق الأوسط. كانت إدارة المعلومات الدولية حديثة النشأة، وقامت عام ١٩٥٢ ثم ألحقت في ١٩٥٣ بالمخابرات المركزية وكانت تشرف، من بين مهامها، على التبادلات الثقافية الأمريكية الرسمية مثل المؤتمر الذي يعقد في برينستون. وكان من الواضح أن

الهدف من هذا المنتدى الإسلامي، سياسي. وجاء في وثيقة رسمية سرية عن إدارة المعلومات الدولية: يبدو على السطح إن هذا المؤتمر نوع من التعليم والتعلم المحض. هذا هو الانطباع المطلوب أن يؤخذ عنه. لكن المؤتمر كان يهدف إلى جمع شخصيات لها نفوذ كبير في تشكيل الرأي العام الإسلامي في مجالات مثل التعليم والعلوم والقانون والفلسفة وكذلك في السياسة. كان هدف المؤتمر شاملا. ومن النتائج المتوقعة منه المساهمة في دفع وتوجيه حركة الإحياء الإسلامي التي تنطلق من داخل الإسلام ذاته".(٣١)

كان السفير الأمريكي في القاهرة في ذاك الوقت الدبلوماسي المخضرم جيفرسون كافري المحامي من لويزيانا الذي قارب على نهاية حياته العملية التي استمرت أربعة عقود. وكان كافري في القاهرة منذ ١٩٤٩ وخدم لمدة ست سنوات فيها. وفي يوليو ١٩٥٣ كتب كافري برقية يقترح فيها دعوة رمضان لحضور مؤتمر برينستون. وتشير البرقية إلى مدى المعلومات الاستخباراتية التي كان يجمعها الأمريكيون عن الإخوان المسلمين وقيادتها وميولها ونشاطها. وشملت برقية كافري نبذة عن شخصية وتاريخ رمضان ومعلومات عن الإخوان المسلمين غير أن مشاركة الجماعة في الإعمال "الإرهابية" والعنف لم يكن مذكوراً في البرقية في أي مكان كما لم يذكر كافري أن الجماعة كانت تقوم على أساس العمل على إنشاء دولة إسلامية تحكم بالشريعة الإسلامية. لم يكن كافري الدبلوماسي المحنك ساذجاً ومن الواضح من كتاباته أنه (أو المخابرات المركزية) كان يريد تجاوز أي أعمال عنف مرتبطة بالإخوان المسلمين وكان يريد توظيف رمضان ليكون حليفاً أو عميلاً.

كتب كافري عن سعيد رمضان يقول: "سعيد رمضان من أكثر علماء الإسلام تعليما و ثقافة بين الإخوان المسلمين فقد تخرج من كلية الحقوق بجامعة القاهرة في عام ١٩٤٥ لكنه لم يترافع إلا في عدد قليل من القضايا لأنه يخصص جل وقته لدراسة الإسلام. ولد رمضان في ١٩٢٥ فهو شاب لكنه واسع الخبرة. وكان رمضان يشارك في تحرير مجلة المسلم الشهرية التي تنشر مقالات عن الثقافة والشريعة الإسلامية يكتبها علماء من أنحاء العالم الإسلامي. وتوزع المجلة نحو ١٠ آلاف نسخة وتصل إلى قراء

في تونس وإندونيسيا. كما كان رمضان كثير الأسفار إلى الدول الإسلامية بحكم منصبه كأمين عام للمؤتمر الإسلامي العالمي وكان قد عاد مؤخراً من رحلة إلى باكستان. وعندما يكون رمضان في مصر يقدم برنامجاً أسبوعياً عن الثقافة الإسلامية، وتفسير للقرآن.

في عام ١٩٤٠ بدأ رمضان دراساته الإسلامية على يد حسن البنا المرشد العام الأعلى السابق للإخوان المسلمين. وأصبح رمضان مديراً لتحرير مجلة الشهاب التي تصدر عن الجماعة منذ ١٩٤٧. المجلة كانت شهرية وتنشر مقالات كذلك عن الثقافة والشريعة الإسلامية لكنها توقفت عن الصدور بعد خمسة أعداد بضغط من حكومة الملك فاروق. وبعد فترة قصيرة أعلنت الحكومة حظر الجماعة وتم إلقاء القبض على ٢٠٠٠ من أعضائها. وغادر سعيد رمضان إلى باكستان في الوقت المناسب لينجو من القبض عليه. وعاش رمضان في باكستان نحو عام كان يقدم خلالهما برنامجين إذاعيين أسبوعيا موجهين إلى الدول العربية بما فيها مصر. وفي أواخر عام ١٩٤٩ طلبت الرابطة الإسلامية في باكستان من رمضان أن يلقي محاضرات عن الثقافة الإسلامية في العديد من دول الشرق الأوسط بدءاً بالسودان وألقى العديد من المحاضرات في الجامعات في مصر وانتهى به المقام إلى تركيا." (٣٢)

كان هناك عميل غير معروف الاسم يتصل بكافري نيابة عن محمد البقعي من الأزهر. ووصف البقعي الذي زار برينستون، سعيد رمضان بأنه عضو مميز في الإخوان المسلمين واقترح دعوته لحضور مؤتمر برنستون وأضاف أن حركة الإخوان المسلمين ترغب في المساهمة في تكاليف الزيارة (٣٣)، وفق ما كتبه كافري.

ورأت السفارة الأمريكية أن مؤهلات رمضان العلمية كافية لحضور مؤتمر الثقافة الإسلامي في برينستون، وأن مركزه في الإخوان المسلمين يجعل منه شخصية هامة وأن تؤخذ دعوته للحضور في الاعتبار في ضوء التأثيرات الممكنة لمناصبة في هذه المنظمة المهمة التي تناصب الولايات المتحدة العداء. (٣٤)

وفي العقود الأربعة التالية سوف يصبح رمضان عنصراً فاعلاً في كل محافل الإسلام السياسي المتشدد من "أعمال الإرهاب" في مصر على يد الإخوان المسلمين في

الخمسينات والستينات إلى ظهور آية الله الخميني في إيران في السبعينيات إلى الحرب الأهلية في الجزائر في التسعينات.(*) وليس هناك دليل قطعي على أن رمضان كان مجنداً في المخابرات الأمريكية في الخمسينات لكنه من الواضح أن دعوته لحضور مؤتمر برينستون يعني إنه مرشح للتجنيد من جانب المخابرات الأمريكية. وسوف يصبح فيما بعد حليفا مهما للعائلة المالكة السعودية في تعبئة الكتلة الإسلامية من الدول والحركات المناهضة للشيوعية والتوسع السوفيتي خارج الحدود الجنوبية له. وتشير ملفات سرية في الأرشيف السويسري تحدث عنها سيلفين بيسون في صحيفة "لو تمب" في جنيف أن السلطات السويسرية في الستينات استضافت المركز الإسلامي الذي أسسه رمضان وتم توجيه عناية كبيرة بالرجل بفضل توجهاته المناهضة للشيوعية. وقالت السلطات السويسرية من واقع تلك الوثائق "أن سعيد رمضان عميل مخابراتي بريطاني وأمريكي من بين أشياء أخرى. والأكثر من ذلك أن المعتقد أنه يقدم خدمات وفق الخطة المخابراتية للشرطة الفيدرالية السويسرية. وقالت صحيفة "لو تمب" أن ملف رمضان يشتمل العديد من الوثائق التي تشير إلى ارتباطه "بمخابرات دول غربية معينة".(٣٥)

الإسلام في مواجهة الشيوعية

هل كان رمضان والإخوان المسلمين واليمين الإسلامي حلفاء مفيدين في الكفاح أثناء الحرب الباردة ضد الشيوعية؟(**) هل كان الإسلام ذاته مناهضاً للأيديولوجية الغربية الملحدة؟ الإجابة من أحد الجوانب لا. فقد استطاعت القومية والشيوعية بالفعل اجتذاب أعداد من الجماهير المسلمة بسهولة. في العراق مثلا فاز الحزب الشيوعي العراقي أكبر الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي بولاء ملايين الشيعة العراقيين خلال فترة الحرب العالمية الثانية وبحلول الخمسينيات كانت قوة الحزب كافية لتنظيم تظاهرات في بغداد شارك فيها أكثر من مليون عراقي. كما جمع عبد الناصر من حوله أعداداً غفيرة وحظي بتأييد كبير، حيث نشرت "صوت العرب" من القاهرة رسالته

* هكذا وفي عبارة واحدة نسب المؤلف جملة من التطورات المفصلية والمدموغة بالإرهاب لسعيد رمضان.
** يفترض المؤلف صحة السؤال في ضوء ما يراه من أنه أثبت صحة هذه المقولة على مدار صفحات الكتاب الماضية.

القومية إلى سوريا والعراق والأردن ولبنان والسعودية. وفي الخمسينيات والستينيات كان ناصر أكثر الزعماء العرب شعبية بين القادة السياسيين العرب. وكما التحق المسيحيون في أوربا بالأحزاب الشيوعية بأعداد غفيرة فإن المسلمين في العالم الإسلامي غير راضين عن مستوى معيشتهم وكان من يعارض الاستعمار الغربي والنفوذ الأنجلو سكسوني منهم في الشرق الأوسط يميل إلى الشيوعية أو على الأغلب إلى القومية العربية.

وحتى إذا كان المسلمون اتجهوا إلى الإيديولوجيات اليسارية فان بعض المستشرقين وصناع السياسة الأمريكيين شعروا بأن هناك ما يبرر الاعتقاد بأن اليمين الإسلامي يمكن تعبئته بشكل مناهض للشيوعية. في الشرق الأوسط اتخذ الإسلام المنظم أشكالا مختلفة بالطبع. كان الشكل الأكثر شيوعاً هو السلفية والدين القائم على رجال الدين والالتفاف حول المساجد والمؤسسات الدينية أو الأوقاف والمحاكم الإسلامية ومؤسسات أخرى كان لكل منها نفوذ اجتماعي قوي غير إنها لم تكن في حلة سياسية معلنة. ثم كان هناك الدولة الإسلامية مثل التي توجد في السعودية منذ تأسيسها في العشرينات أو في باكستان منذ استقلالها (خاصة منذ السبعينات) وكانت الأمة بالكامل في ظل هذا الشكل تتجمع حول شخصية دينية والشريعة الإسلامية وكان من الصعب تحديد الخط الفاصل بين الإسلام والدولة. وأخيراً كان هناك اليمين الجديد الصاعد في العالم الإسلامي ويشمل الإخوان المسلمين ومنظمات سياسية معلنة أخرى أو أحزاب تعلن التزامها بالسعي لتحقيق هدف قيام دولة إسلامية. وكان هذا جذاباً بالنسبة للغرب الذي يريد البحث عن قوى إيديولوجية في الشرق الأوسط، يمكن أن يوفر توازنا في القوى مضاداً للشيوعية وجاذبيتها الإيديولوجية. لقد كانت تلك الأشكال الثلاثة جذابة في نفس الوقت أو بالتبادل وكان هناك تداخل بينها.

في الولايات المتحدة دق ناقوس الخطر بأن النخبة العربية وهي المثقفين والسياسيين والصحفيين وما شابه كانوا ينجذبون إلى الحركات والأحزاب اليسارية. لكن بين الجماهير هناك كراهية للبعد عن القرآن خاصة بين المزارعين الذين يفتقرون إلى التعليم والبدو من القبائل والتجار المؤيدين للرأسمالية وزعماء السوق مما جعل من

الصعب تعبئتهم لصالح الماركسية والاشتراكية العربية. لذلك كان السؤال ما هو نوع الإطار الإيديولوجي الذي يمكن أن يجذب الجماهير العربية والمسلمة على قلب رجل واحد ويجذب فئة مهمة من النخبة العربية. اعتقد بعض المحللين أن تلك الإيديولوجية هي"الإسلام الجديد" بقيادة المثقفين ورجالات السياسة مثل البنا ورمضان والمودودي. كانت جماعة الإخوان المسلمين تحقق نجاحاً نسبياً في الجامعات وتجذب الطلاب خاصة طلبة الهندسة والطب والإدارة والتجارة. فهل تستطيع تلك الجماعة مواجهة الكتلة الماركسية القومية خاصة إذا حظيت بتأييد من العائلة المالكة السعودية؟ وهل تستطيع الدعاية الأمريكية التي تركز على القيم الدينية الأمريكية في مواجهة الاتحاد السوفيتي الملحد، أن تجذب جماهير المسلمين إلى المعسكر الأمريكي أو على الأقل بعيداً عن موسكو؟ بدا في ذلك الوقت أن الأمر يستحق المحاولة.

كان بين من يعتقدون ذلك برنارد لويس الذي ابتدع تعبير"صدام الحضارات". كان لويس هو المنظر ذا النفوذ الوحيد في مجال الدراسات الإسلامية ولمدة خمسة عقود. وهو الآن يعمل أستاذاً متقاعداً في جامعة برينستون. غير أنه خلال كل تلك الفترة كان الجدل يثور من حوله لأنه كان يتبني وجهة نظر حزبية محافظة ثم وجهة نظر محافظة جديدة وبسبب ولائه الشديد لإسرائيل.. وتعتبر مقالة لويس في عام ١٩٥٣ بعنوان "الشيوعية والإسلام" مثالاً مهماً على التفكير السائد آنذاك بشأن معركة الايدولوجيا.

أشار لويس إلى أنه يبدو أن جماهير العالم الإسلامي تعتزم إقامة مجموعة من الحكومات الشمولية وأن هذا ليس بالأمر السئ إذا كان هدف الغرب معارضة انتشار الشيوعية. وقال لويس إذا اضطر المسلمون أن يختاروا بين التخلي عن تقاليدهم لصالح الشيوعية أو الديمقراطية البرلمانية فسوف نكون وقعنا في "حيص بيص". وكتب يقول: "من المفيد لكل من الإسلام والغرب ألا يقتصر الخيار على هذين البديلين البسيطين لأن هناك إمكانية إمام المسلمين لاستعادة تقاليدهم السابقة، ربما في شكل معدل، أو تطوير شكل من أشكال الحكومة والذي رغم ما قد يكون عليه من شمولية أو أوتوقراطية إلا أنه سيكون بعيد كل البعد عن الطغيان والظلم في الدكتاتورية الأوربية. (٣٦)

وبعد اعتماد احتمال الأنظمة الشمولية الإسلامية راح لويس يؤكد على أن الإسلام لن يكون في النهاية تربة خصبة للأفكار الماركسية. وكتب لويس "الشيوعية ليست ولا يمكن أن تكون ديانة بينما الإسلام، بالنسبة للجماهير العريضة المؤمنة، لا يزال الديانة وهذا هو قلب المقاومة الإسلامية للأفكار الشيوعية. ورغم أن تفكير المسلمين في الحرية ضعيف جداً قد لا يتواصل فإن إيمانهم بالله قد يكون قوياً بالدرجة الكافية. إن الشعوب الإسلامية ما تزال قوية الإيمان دينياً بأعمق وأبسط ما في الكلمة من معنى. الإسلام كديانة ليس أقل عداء للشيوعية من المسيحية، والواقع كما قلت من قبل، قد يكون أشد عداء. لكن الإسلام ضعيف كقوة تؤثر في حياة وأفكار من يعتنقونه. المسلمون الورعون، وغالبيتهم من الورعين، لن يتسامحوا مع أفكار ملحدة أو أفكار تنتهك تقاليدهم الدينية ومبادئهم الأخلاقية. إن الثورة الإسلامية الحالية في مواجهة انعدام الأخلاق والانتهازية المتواجدة بينهم وعند بعض قادة الغرب قد تفيد الشيوعيين مؤقتا لأنهم يظهرون بمظهر من ينكرون الذات ويخلصون للمثاليات، لكن الأمور لن تنتهي على هذا النحو حيث سينقلب المسلمون ضد الشيوعية عندما يرون الواقع الذي تخفيه الدعاية. لنأمل ألا يستغرق المسلمون وقتاً طويلاً حتى يكتشفوا ذلك".

وفي ذات الوقت الذي عقد فيه منتدى برنستون وكتب فيه لويس مقالته المشار إليها، ظهر العالم الإسلامي الباكستاني مظهر الدين صديقي الباحث في معهد الدراسات الإسلامية في لاهور. كان صديقي مسئول حكومي سابق وكاتب متعلم تخرج من جامعة مدراس في الهند. وكتب صديقي مقالات "الإسلام والشيوعية" و"الماركسية والإسلام" و "المادية التاريخية والإسلام". وقال صديقي في خطابه في المؤتمر الإسلامي إنه يمكن مقاومة الشيوعية فقط إذا كانت المقاومة تنطلق من الإيمان وتقوم على أساسيات الإسلام. هاجم صديقي الشمولية الإسلامية لكنه انتقد بشدة العلمانيين في العالم الإسلامي ووصفهم بأنهم أنصاف علماء وأنصاف مثقفين يدافعون بخيالية وعلنية عن التآكل التدريجي للديانات ويقولون أن الدين مجموعة من الخرافات والأفكار الجامدة والمعتقدات تتعلق بما وراء الطبيعة وعلى النحو الذي يقلل من قوة السببية. وقال إن العلمانيين وليس الشيوعيين هم أكبر خطر يهدد استقرار باكستان وبالتالي الشرق الأوسط ضمنا.

وقال صديقي: "إن الإلحاد الشيوعي له قوة الإلهام غير المتوفرة للعقلانية الخالصة. إنه اعتقاد وعلم، إنجيل اجتماعي ونظام ميتافيزيقي. إنها البديل الوحيد للعقيدة الدينية التي يسعى إلي تقويضها أبطال العلم والتقنية في باكستان. وأضاف أن الأهمية الاجتماعية والاقتصادية للإسلام هي التي تجعله درعا ضد الشيوعية. الجماهير الإسلامية متعلقة بالفكرة الإسلامية لأنها توفر لهم الوعد بالمساواة الاجتماعية والاقتصادية وحرية التعبير. وإذا كان هناك أي محاولات لإنكار الفحوى الاجتماعية الاقتصادية للتعاليم الإسلامية فإنه من المؤكد أن الشيوعية ستدخل في الفراغ الناجم عن ذلك. وكما أشرت فإن الشيوعية توفر كلا من الرضا العاطفي والنفسي الذي توفره العقيدة الدينية والوعد بالأمان الاجتماعي والاقتصادي. في العالم الإسلامي الخيار ليس بين الشيوعية والإسلام المتحرر... الخطر الأكبر على اشتراكية باكستان لا يأتي من رجال الدين الرجعيين ولا من الشيوعيين الذين لا يستطيعون تقديم شيء أفضل للمسلم بل من هؤلاء الذين، بدون أي معرفة عميقة بالإسلام، يحاولون خلق فراخ روحي في حياتنا سوف يؤدي بسهولة إلى الشيوعية".(٣٧)

ووجه كينيت كريج مدير تحرير صحيفة "العالم الإسلامي" رسالته المشابهة أيضا. ونشر كريج بحثه بعنوان "الأثر الفكري للشيوعية على الإسلام المعاصر" التي عرضت على المؤتمر الإسلامي في برينستون، بعد أشهر قلائل في "ميدل ايست جورنال".(٣٨) وقدم في رسالته نقاشاً راقياً حول إحياء الإسلام وقال: "نحن في مقاومتنا للشيوعية نفهم أن العالم الإسلامي لابد أن يطور رد فعل ثقافي للتحدي الشيوعي، على مستوى روحاني وميتافيزيقي وأخلاقي من أجل مكافحة الماركسية التي تسعى إلى إنشاء جنة الشيوعية على الأرض. وقدم كريج مثالا على تلك الماركسية فقال: "مع وجود الإسلام، كما أوضح عدد لا يحصى من الكتاب المعاصرين، فإن المجتمع المثالي هو المجتمع الإسلامي - وقد يقول البعض الدولة الإسلامية الحقيقية. وخلص إلى رؤية مليئة بالأمل تقول: "ندعو أن تستطيع قوة الإسلام والمسيحية بما بينهما من علاقة مثمرة كعقيدتين دينيتين أن تواجها الشيوعية". واستلهم كريج تعليقا من مؤتمر برنستون مشيراً إلى تاريخ مشاركة القوات التركية في الحرب الكورية فقال: "الآن بعد مرور

١٣٠٠ عام من الجدل العقيم يكافح جماهير الديانتين التوحيديتين جنباً إلى جنب ضد المادية الملحدة". غير أنه في الخمسينيات ثبت أن نظرية اتحاد الإسلام مع الغرب المسيحي في الجهاد ضد المادية الملحدة، هي نظرية أقلية. فمن ناحية يشعر العديد من خبراء الاستراتيجيات ذوي الرؤي المتصلبة الذين قد يطلق عليهم اسم "الواقعيين" الآن بأن التشدد الإسلامي ليس بالقوة الكافية أو قد يكون قوة غامضة بحيث لا يمكن الاعتماد عليه. ومن ناحية أخرى، فقد جاء قطب المعارضة الثاني من الذين يؤمنون بأنه الإسلام من المستحيل أن يخدم الإسلام قضية مناهضة الشيوعية لأنه شديد العداء بالوراثة للغرب.

وأكد هيرمان ايلتس أن الاعتقاد بأن الإسلام قد يساهم في الحرب ضد موسكو مسألة مبالغ فيها. ويقول ايلتس أن هناك فكرة سادت بوجود تعارض بين الإسلام والشيوعية. وكان ايلتس قد بدأ خدمته في إيران والسعودية في ذاك الوقت من الأربعينيات. ويوضح ايلتس قائلا: "هناك قليل من الناس في الحكومة بالكاد فكروا في الإسلام . وكان هناك من يقول لنأمل أن نستبعد الشيوعيين لكن لم يوجد من أخذ المسألة بجدية. والرأي السائد في الحكومة الأمريكية والأوساط الأكاديمية هو أن الإسلام كعنصر سياسي بدأ يتآكل وأن الشريعة الإسلامية ترتبط بالوضع الشخصي. ويضيف: "وأتذكر خبراء اقتصاد أمريكيين يخرجون إلى الدول التي خدمت فيها ويروجون لفكرة أنه كلما أسرعت بالتخلص من الإسلام كلما أسرعت بالتطور والتقدم لأنهم يعتقدون أن الإسلام حاجز ضد النمو الاقتصادي".

وقاد جون كمبل، كبير خبراء استراتيجيات الشرق الأوسط لعدة عقود في مجلس العلاقات الخارجية، فريقاً تابعاً للمجلس بدأ عمله في عام ١٩٥٤ وكان يتألف من كبار الشخصيات التي ترسم السياسة الخارجية الأمريكية. بالنسبة لكمبل قد يكون الإسلام عائقاً أمام النمو الاقتصادي، وقد لا يكون كذلك إلا أنه ليس عائقا ضد تطور الاتحاد السوفيتي. ويقول كمبل: "من المؤكد أنه لا يمكن الاعتماد على الإسلام ليكون حاجزا من هذا النوع. ونظرية أن النفوذ الشيوعي والسوفيتي لا يمكن أن ينفذ عبر العالم الإسلامي لأنهما ماديين وملحدين ليس لها وجود بعد. الدين له مكانة قوية في مجتمع الشرق

الأوسط فهو يلون المواقف الشعبية والسياسية لكنه لا يمثل مناعة مطلقة أمام الفيروس السياسي مثل الفاشية أو الشيوعية. النظرية الشيوعية لها عناصر دوجماتية متوازية مع الأفكار الإسلامية والوعد بالحياة المادية السعيدة لا يتعارض مع الإسلام. والأكثر من ذلك كله أن تأثير العالم الحديث على الإسلام أوجد اتجاهين رئيسين يميلان إلى فتح الباب أمام النفوذ الشيوعي. أولاً: عدم قدرة المبادئ التقليدية وعدم قدرة المؤسسات على الحفاظ على ولاء القادة المفكرين وتسعى الأجيال الجديدة إلى العثور على طريق للخروج من التخلف المادي. والاتجاه الثاني: الثورة ضد الغرب، الذي يفرض شعوراً بالولاء للإسلام كما يوجد إحساساً بالتناغم مع أي نظريات أو قوى سياسية معادية للغرب. في الوطن العربي وإيران انطوت الحركة القومية المناهضة للغرب على خليط قوي من الشعور الديني وحتى التطرف."

ويعتقد كمبل أن التحيز الموروث ضد الغرب في اليمين الإسلامي لابد أن يسبق أي فكرة عن فائدة الإسلام في الإستراتيجية الأمريكية. (٣٩) وبرغم تلك التحذيرات (من كمبل) فقد جربت السياسة الأمريكية التشدد الإسلامي بين ١٩٤٥ و ١٩٥٧ وغالباً بشكل غير حصيف.

وحتى من مطلع عام ١٩٤٥ عندما بدأ المخططون البريطانيون والأمريكيون في التفكير في بناء تحالفات ونظام للدفاع ضد الاتحاد السوفيتي (سابقا) عبر حدوده الجنوبية، أقحموا الإسلام في الموضوع. اعتبروا رابطة الدول العربية التي قامت بايعاذ بريطاني مثلا ضعيفة لأنها لم تشتمل على تركيا وإيران وباكستان. وعندئذ طرح اقتراح لتحويل جامعة الدول العربية إلى رابطة لعالم إسلامي لتشمل على الأقل إحدى الدول الشمالية. (٤٠) وفشلت الفكرة وركزت السياسات التالية بدرجة أقل على الإسلام وبشكل أكبر على النفوذ الأنجلو أمريكي. وخلال فترة حكم ترومان و إيزنهاور استمرت الولايات المتحدة تنفذ سياسات وتقوم بجهود لتعبئة العالم الإسلامي في الحرب الباردة واستغلال الإسلام كسلاح ضد النفوذ السوفيتي. وكان البعض جاداً في ذلك والبعض الأخر اخرق بل حتى مضلل.

خذ برنامج الخنزير الأحمر كمثال. كان البرنامج جزءاً من الفكر الأمريكي نحو الإسلام السياسي في الخمسينات محاولة كسب نقاط دعانية عن طريق التركيز على أن أمريكا دولة إيمان وورع وأن الاتحاد السوفيتي يضطهد الأديان. وفي عام ١٩٥١ أعلنت المخابرات الأمريكية في العراق بفخر عن إطلاق حملة دعانية تهدف إلى كسب قلوب وعقول المسلمين في العراق عن طريق المقارنة بين وضع الدين في أمريكا وفي الدولة الشيوعية (*) ورسموا ملصق إعلاني يوضح الاتحاد السوفيتي على أنه وحش كاسر يسيء معاملة إنسان كتب عليه "الدين". والملصق الثاني يحكي قصة خنزير أحمر جشع وكيف انتهت القصة نهاية مأسوية. الخنزير يرتدي نجمة حمراء حول رسغه ويتدلي من خلفيته مطرقة ومنجل بدلا من الذيل العادي. وقال البعض أنهم صوروا الوحش الشيوعي على أنه خنزير نظراً لكراهية الخنزير لدى المسلمين. وقال ادوارد كروكر مسئول الشئون الخارجية الذي صمم الملصقات والحملة إنهم شعروا أن سلسلة من الملصقات الكرتونية يمكن أن تتطور باستغلال الخنزير الأحمر كشخصية رئيسية. (٤١) وصمم كروكر ٣٢ ملصقا للخنزير الأحمر.

كما جربت المخابرات الأمريكية وسائل خلاقة إبداعية رغم أنها لم تكتمل للتواصل مع الحركة الإسلامية. بعض تلك الوسائل وردت في كتاب "العبة الامم" الساخر الذي كتبه مايلز كوبلاند عميل المخابرات الأميركية الذي خدم في الخمسينات كضابط اتصال مع عبد الناصر وقضى سنوات عديدة في أروقة السياسة العربية.

تقاعد كوبلاند في وقت مبكر من المخابرات لكنه حافظ على اتصالات وثيقة مع عدد من الذين يعملون في نفس المجال من السابقين وممن كانوا في الخدمة خاصة كيرميت وارتشي روزفلت حفيداً تيدي روزفلت. واستغل كوبلاند سحره ونفوذه ليدعي فهماً عميقاً بالعالم العربي ليعود من جديد. وقد أشار إلى أنه في نفس الفترة التي تم فيها إطلاق برنامج الخنزير الأحمر فإن السي أي أيه أطلقت مشروع بيلي جراهام المسلم. وفي عام ١٩٥١ استعار دين اتشيسون وزير الخارجية كيرميت روزفلت من المخابرات

* من الواضح أن معركة كسب العقول والقلوب معركة قديمة لم ولن تأتي بنتائج ذات قيمة سوى من خلال سياسات أمريكية رسمية تأخذ في الاعتبار مصالح العالم الإسلامي كذلك.

حديثة النشأة ليرأس لجنة عالية المستوى من المتخصصين بعضهم من الخارجية والبعض من وزارة الدفاع والبعض مستشارين من الشركات والجامعات (وليس فيهم من هو من المخابرات إلا روزفلت ذاته) وكان هدف اللجنة هو دراسة العالم العربي كما قال كوبلاند وتم إطلاق عملية بيلي جراهام المسلم التي تهدف إلى تعبئة المشاعر الإسلامية، خلال اجتماع اللجنة. وقال كوبلاند إن أحدهم روج لفكرة تعبئة المشاعر الدينية في حركة كبيرة باسم "بيلي جراهام المسلم" ضد الشيوعية وذهب إلى حد اختيار رجل عراقي يتمتع بنوع من القدسية أو التبجيل للقيام بجولة في الدول العربية. ولم يتم الكشف عن شخصية الرجل العراقي. لكن كوبلاند اعتبر العملية بالكامل تجربة للتعلم. وقال أن المشروع لم يضر وعلمت إدارته اللجنة المعنية الكثير من الأفكار الخاطئة في تخطيطهم الأصلي وهي دروس استفادوا منها عندما وضع مستشارو الملك فيصل أمام مشروع مماثل على أن يكون فيصل ذاته الرجل المبارك. (٤٢)

ومن المشاريع الأخرى التي قامت بها المخابرات الأمريكية، لكنه أقل طموحا، الترويج لنوع من الدعاية يهدف إلى محاربة النفوذ السوفيتي في مصر. وقد أخرجت المخابرات بعض الشعارات المناهضة للإسلام التي كانت تجري على الألسنة قبل الحرب العالمية الأولى مثل "ليس هناك نبي اسمه محمد" و "العواقب الوخيمة للصيام في رمضان" و"لا للحجاب" وأعادت إحياؤها ونسبتها تلك المرة إلى السفارة السوفيتية في القاهرة. (٤٣)

وجربت المخابرات أيضا استغلال مصر كمركز للوصول إلى الناشطين الإسلاميين في الشرق الأوسط وأفريقيا. وكان الوسيط في تلك الجهود هو أنور السادات. منذ الحرب العالمية الثانية كان السادات مقرباً من الإخوان المسلمين وكان همزة الوصل بين الجماعة والضباط الأحرار في الأربعينيات ومطلع الخمسينيات. دخل السادات على جمال عبد الناصر بفكرة إنشاء المؤتمر الإسلامي وعندما وافق ناصر عليها عين السادات رئيساً له.

وطبقا لمايلز كوبلاند تم ارسال مندوبين مسلمين إلى بعثات دبلوماسية مصرية في الخارج وكانت مهمتهم مراقبة الفرص المواتية لاستغلال المصالح الدينية المشتركة

لتحقيق إتحاد تكتيكي على الأقل. ولم تشجع الحكومة الأمريكية البرنامج بقوة في البداية. (٤٤) وفي وقت لاحق عندما وصلت العلاقات بين أمريكا وناصر إلى نقطة حاسمة، سحبت المخابرات تأييدها للمشروع. الأخطر من ذلك أن أمريكا بدأت تدرس مع السعودية إمكانية إنشاء رابطة إسلامية جاءت نواة التفكير فيها على يد بعض المسئولين الأمريكيين والدبلوماسيين بداية الأربعينيات. وكان الوقت مبكراً بالنسبة لإقامة تحالف أمريكي سعودي إسلامي بشكل كامل كما سيحدث فيما بعد. لكن مسألة أن الإسلام يمكن أن ينفع في مقاومة الشيوعية والأفكار الماركسية والقومية العربية المتطرفة احتلت مرتبة متقدمة في فكر العديد من الأكاديميين وصناع السياسة والعاملين في الخارجية.

وفي عام ١٩٥١ كتب ويليام ادي القنصل الأمريكي العام في الظهران في السعودية تفاصيل محادثات أجراها مع عدد من الزعماء الإسلاميين منهم الملك السعودي ومفتي القدس ومسئول إسلامي في مصر ومسئول في جامعة الدول العربية من أجل تعاون الغرب المسيحي الديمقراطي مع العالم الإسلامي والوقوف في خندق أخلاقي واحد ضد الشيوعية. ويقول ادي أن الحاج أمين الحسيني مفتي القدس، الفلسطيني ذو العلاقات مع بريطانيا الذي أيد النازي في الثلاثينات والأربعينيات كان يتحدث عن روسيا والشيوعية بكراهية شديدة وأصر على أننا في الجانب الخطأ في الحرب الأخيرة (العالمية الثانية) وكان يجب أن نتحالف مع ألمانيا ضد روسيا. وكان أمين يتحدث بلطف عن التعاون الذي سيقدمه المسلمون لتعزيز الدعاية مع المسيحيين من أجل عرض أبعاد الخطر الشيوعي. وأشار **ادي** ضمناً إلى الحركة الوهابية السعودية عندما قال: "عندما كان يحضر اجتماعا بحضور ملك السعودية عبد العزيز آل سعود في ذلك الأسبوع عبر الملك عن نفس الرأي بقوة. وأكد الملك إن المسيحية والإسلام يواجهان تهديد الشيوعية وهي العدو المشترك بينهما. والمسلمون في الشرق والمسحيون في الغرب لابد أن يتحالفوا وينسون مشاكلهم من أجل الدفاع عن العقيدة التاريخية. وباعتباره زعيما للحركة الوهابية الدينية الرامية إلى استعادة الإيمان والتقاليد الإسلامية فإنه وهو الملك المتدين بلا شك يعتبر أكثر المسلمين نفوذاً وأفضل من يمثلهم في عالم اليوم".(٤٥)

وأرسل ادي، الذي كان ضابطاً مخابراتياً تابعاً لمكتب الخدمات الإستراتيجية، نسخة من تلك الرسالة إلى ثلاثة مسئولين في شركة أرامكو، المكونة من شركات اكسون وموبيل وتكساكو وشيفرون، وإلى العقيد روبرت مكلور مدير الحرب النفسية في وزارة الدفاع.

كان ادي أكثر من مجرد مسئول صغير في القنصلية. فقد كان خلال الحرب العالمية الثانية ضابطاً في المخابرات حيث اكتسب خبرة في استغلال الإسلام السياسي لصالح أمريكا. ولد ادي في سوريا لأبوين من التبشيريين وكان يتحدث العربية بطلاقة وكان طالباً نابغة وأبلى بلاءاً حسنا في الحرب وفقد أحد قدميه في الحرب العالمية الأولى. وقام ادي بعمليات في أجزاء من شمال أفريقيا تحت الاحتلال الالماني. وشكل ادي مجموعات من العملاء لجمع المعلومات ونشر الدعاية المغرضة وتنظيم حركة مقاومة. غير أن تلك المقاومة ستشمل جماعة إسلامية سرية بقيادة متعاونين يطلق عليهم اسماً حركياً هو"الخيوط" و"الشراشيب". وكانت الخيوط ممثلة في زعيم جماعة الإخوان المسلمين القوية في شمالي المغرب. (٤٦)

وبعد عام واحد أي في ١٩٥٢ كان هناك تقرير دبلوماسي بعنوان "محادثة مع الأمير سعود" كتب عليه سري للغاية: "معلومات أمنية" يقول- كانت أرامكو تدفع لمطبعة ومحطة إذاعية في الرياض لإذاعة برامج دعاية دينية. وأعلن الأمير سعود الذي سوف يصبح ملكاً فيما بعد، أن السعودية زعيمة الدول العربية بسبب وجود المدن المقدسة فيها. وكتب الدبلوماسي الأمريكي عن الأمير سعود في ذلك الوقت: في يوم من الأيام سيعطي الأمير لتلك الزعامة قوامها. قال أن لديه مخططات لا يريد أن يناقشها بالتفصيل حالياً، تهدف إلى اطلاق شرارة حركة إسلامية شاملة. وقال إنها سوف تكون ذات فائدة عظيمة للدول الإسلامية لأنها سوف توحدهم لكنه كرر مرة أخرى إنه لم يكن مستعداً لمناقشة الخطة بالتفصيل. وقلت له إن معلوماته عن الوحدة الإسلامية قيمة جدا ومثيرة وسوف نكون سعداء لمعرفة المزيد عنها عندما تتبلور خطته..... وقلت له سوف نرحب بتلك الحركة تحت تلك القيادة لأننا متأكدون إنها سوف تكون صديقة لنا." (٤٧)

في الوقت الذي كان الخبراء في السياسة الخارجية لديهم شكوك في هذا الأمر، فقد تم بذل جهود لتشجيع الملك فيصل على تنفيذ خطته دون إحكام النظر سياسياً أو ثقافياً إلى العالم الإسلامي.

وقال ديفيد لونج المتقاعد من الخارجية الأمريكية الأخصائي في شئون السعودية والخليج إن الولايات المتحدة في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية كانت تعمل بلا بصيرة. وقال: "لم نكن نعلم شيئا. وعندما صحونا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية كان الإسلام يستغل لحل قضايا سياسية في بعض الأوقات، لكن السياسة الأمريكية كانت تفتقر إلى فهم السوابق التاريخية. وأضاف يقول: "كنا نحاول أن نعيد ما حصل منذ آلاف السنين"، مشيرا بذلك إلى فترة الخلافة.

وأوضح لونج أن إيديولوجيتهم كانت بالية ونحن لم نسمع عن هذا عندما دخلنا معمعة عمرها ١٣٠٠ سنة ببساطة لأننا كنا أكبر اللاعبين في اللعبة. وقال لونج إن بعض الأمريكيين كانوا يعرفون الشرق الأوسط والثقافة الإسلامية، حسنا. "وكان يقال غالبا إن العاملين في شركة النفط وأعضاء الإرساليات الدينية لا يعرفون الكثير. لكنني تحدثت إليهم وإلى الكثير منهم على مدى سنوات". كان هؤلاء، حسب لونج، يعيشون في عالم صغير خاص بهم وما كانوا يعرفونه في الواقع محدود جداً. كنا نريد النفط ونريد محاربة الشيوعية لكننا لم نكن بالفعل نهتم بكل تلك القصص عن الإسلام. لقد كنا محدثين ومتخلفين كثيراً عما قطعه البريطانيون والفرنسيون خلال الوقت الطويل الذي قضوه في المنطقة. ورداً على سؤال حول ما إذا كانت أمريكا أيدت بالفعل الإسلام السياسي كبديل للشيوعية في تلك الأيام قال لونج: "شجعنا على ذلك لكننا لم نخلقه (الإسلام السياسي) ".

وقال لونج: "كانت الصفقة تقوم على احتمالات تعرض السعوديين للهجوم . سوف نوفر لهم الأمن وهم يوفرون لنا النفط. وعندما بلغ الأمر ناصر عدل فيصل العرض وأعرب عن معارضته للقومية العربية. وقرر فيصل أن هؤلاء اشتراكيون وأنهم ضد الإسلام. لذلك كنا نحن والإسرائيليين نشوه صورة ناصر ونصوره على أنه "بعبع". لقد كان فيصل يعارض ناصر ويشعر بقلق من تحول الشباب المسلم إلى الاشتراكية والابتعاد عن الإسلام. لم نكن نفهم ذلك. لم نفهم دوافع فيصل. حاولنا إقامة

تحالف بين السعودية وتونس ونسينا أن بو رقيبة كان علمانياً. وقلنا إنكم جميعا معتدلون. لكن بالنسبة لفيصل كان بورقيبة يفتقد للالتزام بالدين. لذلك كنا نذهب في نفس الاتجاه، لكننا لم نفهمه. حاولنا أن نعطي الأمر شكلا آخر، هو قوة السياسات. غير أن الأمر بالنسبة للسعوديين كان يقوم على إنهم المدافعون عن الإيمان وعن المقدسات الإسلامية. لكننا رأينا الأمر من منظور سياسي." (٤٨)

وكما قال لونج تعثر الأمريكيون المحدثون في تحالف مع الأصولية الإسلامية دون أن يلاحظوا ما يحدث. درس القليل جدا من الدبلوماسيين والباحثين الأمريكيين العلاقة بين الإسلام والسياسة غير أن من درسوها لم يكونوا على مستوى كفء. في عام ١٩٥١ عقد معهد الشرق الأوسط مؤتمراً لمدة يومين حول الإسلام والعالم الحديث. وألقى فيليب ايرلاند المسئول الكبير في الخارجية الأمريكية القائم بالأعمال في بغداد، خطاباً حول العلاقة بين الإسلام والديمقراطية والشيوعية وتساءل إذا كانت الاتجاهات (الحالية) سوف تدفع بالإسلام إلى معسكر الشيوعية أم إلى معسكر الديمقراطية. في الحقيقة عندما تحدث عن الشيوعية كان يقصد القومية التي كانت تحقق تقدما في كُل من سوريا والعراق والاردن. وقال ايرلاند: ثبت أن الشخصية الإسلامية التي هي على الفطرة في السعودية واليمن وحضرموت، من الناحيتين العملية والنظرية، تشكل حاجزاً ضد الشيوعية".(٤٩)

لم يركز ايرلاند على الصورة الإسلامية للحكومات وأعرب عن أمله في أن يستطيع المسلمون بطريقة ما صهر الإسلام مع النظريات السياسة الحديثة. وكان كبار صناع الاستراتيجيات الأمريكيون يشعرون بالقلق من أن الإسلام الحديث سيجعل المسلمين يتخلون عن معتقداتهم لصالح العلمانية وأن هذا الاتجاه سيفتح الباب لانتشار الفكر الماركسي في الشرق الأوسط.

وقال بيارد دودج الذي كان رئيس الجامعة الاميريكية في بيروت من ١٩٢٣ إلى ١٩٤٨ في نفس المناسبة: "القومية من النوع المادي اليوم تتحول إلى عنصر قوي في الفكر والمجتمع الإسلامي. وهذا بالطبع يمثل نوعاً من التناقض مع الفكرة القديمة عن الجامعة الإسلامية كفكرة تعكس نوعا من الشعور بالترابط الإسلامي فيما بين المسلمين.

وقد أخذت القومية إلى حد كبير مكان الحركة الإسلامية الجامعة. ومن نافلة القول أن المسلم الشاب الذي لا يهتم بالإسلام بوصفه نظام عظيم، يمكن أن يتحول إلى الشيوعية. إن رد فعل المسلمين من الجيل الصاعد ليس مواتيا لأن الكثير منهم يتخلون عن ديانتهم وأخلاقياتهم أو ولاءهم للدين.. هم يعيشون حياة ماجنة ويشربون ويقامرون ويسلون أنفسهم في المراقص والحانات وبيوت الدعارة. وإذا تعرض الإسلام للخطر وإذا دخلت المادية والتطرف، مع احتمال الاختراق من الفكر الشيوعي فسوف يكون من المؤكد أن النتيجة ستكون مأساوية على مستوى العالم".(٥٠)

" الولاء للدين؟ يعيشون حياة ماجنة.. في بيوت الدعارة؟" يبدو هذا الحديث من جانب دودج مثل أحاديث الإرساليات الدينية إلى الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر ويبدو أنه يماثل بقدر كبير كلام "الإحيائيين الانجيليين" أكثر من كونه كلام محلل سياسي. والحقيقة أن دودج امتدح في حديثه الإخوان المسلمين والسلفية الإسلامية في تركيا المناهضة لأتاتورك والفرس في ظل حكم رضا شاه الذين يعتقدون أنهم ينبغي أن يعودوا إلى الدين إذا كان لهم أن يحاربوا الشيوعية. (٥١) أعرب دودج هنا تماما عن التحالف الإسلامي المسيحي الذي يسعى إليه ويحلم به العديد من صناع السياسة الأمريكيين بغض النظر عما إذا كانت الفكرة غير عملية وغير قابلة للتطبيق. والأسوأ من ذلك أن هذا التحالف لا يحتاجه الشرق الأوسط على الإطلاق، في إطار صراعه مع التحديث، وفي الوقت الذي يسعى فيه القادة العلمانيون في كل مكان في المنطقة (عدا السعودية) إلى تقليص دور الإسلام أو إلغاؤه ودور رجال الدين والوهابيين والإخوان المسلمين. إن ما كان يخشاه دودج، والعديد غيره، هو أن تفوز الشيوعية، وليس الرأسمالية الغربية، بقلوب وعقول العرب والأتراك والفرس والهنود الذين تحرروا من أصفاد المعتقدات الدينية.

وهناك الكثير بالطبع من الدبلوماسيين الأمريكيين شغلوا أنفسهم بالترويج للمصالح الأمريكية في الخارج ومحاربة الشيوعية. وقد تبنوا رؤية تنطلق من ضرورة تركيز أمريكا على التنمية الاقتصادية في الشرق الأوسط وتسهيل عملية انتقال المنطقة

من "التخلف" الديني الأصولي (*) إلى الحداثة وتبني الأفكار الغربية وأفكار تنظيم المجتمع، ليس بالضرورة في مصلحة الاتحاد السوفيتي (سابقا). والكثير منهم أيضا اعتقدوا بأن الإسلام لا ينبغي أن يزيد على كونه معتقد شخصي وليس نظاماً سياسياً واجتماعياً.

لكن الخمسينات انصرمت وكانت أصوات هؤلاء منخفضة وأقل نفوذاً. وبدا أن حركة ناصر تحت اسم "عدم الانحياز" أو "الحياد الإيجابي" هي حصان طروادة الشيوعي بالنسبة لإخوان "دالاس" وأمثالهم من الذين يفكرون بعقلية الحرب الباردة. كما اعتقدوا أن قومية رئيس الوزراء الإيراني مصدق تمثل نفس الخطر أيضا. وفي كلتا الحالتين، عندما تحركت حكومة إيزنهاور لمواجهة هذين النظامين، وصلت إلى نقطة مواجهة أخطر ما صنعته يداها، إلا وهو التشدد الإسلامي.

* لعله من نافلة القول أن هذه ليست نظرة المؤلف وحده وإنما نظرة قطاع كبير من المفكرين وصانعي القرار الغربيين بل والمواطن الغربي ذاته، الأمر الذي يشي بمدى الجهد الذي ينبغي بذله لتصحيح هذه الصور المغلوطة.

مع مطلع الخمسينات شهدت منطقة الشرق الأوسط تطور جوهري تمثل في ظهور زعيمين قوميين في كل من مصر وإيران. وتبدو أهمية هذا الأمر في كون الدولتين من أقوى الدول في المنطقة آنذاك. فقد أطاح الضباط الأحرار بالملك الفاسد في مصر وهددوا بإطلاق الثورة في السعودية قلب موارد الطاقة في العالم.(*) وفي إيران نجح محمد مصدق الذي يميل إلى الاشتراكية، في انتخابات ديمقراطية حرة وتحدى الشاه حاكم إيران واضطره إلى الهرب من البلاد وأكد على حق بلاده في السيطرة على صناعة النفط بدلا من الشركة البريطانية الإيرانية.

وفي كلتا الحالتين تحركت المخابرات البريطانية والأمريكية وأطاحتا بمصدق وحاولتا نفس الشيء مع ناصر لكنهما فشلتا. واستغلت المخابرات البريطانية والأمريكية في الحالتين اليمين الإسلامي كمخلب قط لتحقيق أهدافهما. في مصر استغلت المخابرات الإخوان المسلمين وفي إيران عبأوا مجموعة آيات الله التي تشمل الأب الروحي لآية الله الخميني.

وربما تكون الفرصتان الضائعتان وهما أكبر خسارة لأمريكا في الشرق الأوسط خلال نصف القرن الماضي فشلها في احتواء جمال عبد الناصر ومحمد مصدق عندما ظهرا في الخمسينيات باعتبارهما قائدين يمثلان آمال شعبيهما. هذا الخطأ خلف رواسب من الحقد والمرارة والغضب في الشرق الأوسط وغذى انتشار المشاعر المناهضة للأمريكيين حتى الآن ووفر الوقود لإشعال نيران الأعوان الذين جندتهم القاعدة. وصاحب ذلك خطأ جسيم آخر هو قرار أمريكا بتأييد السعودية لتكون القطب المضاد للقومية العربية والإيرانية وربط نفسها بشبكة عالمية من المتشددين الإسلاميين الذين ترعاهم السعودية. وقد أدت تبعات هذا القرار بشكل غير مباشر إلى ظهور الحكم الديني لآية الله الخميني وتدمير أفغانستان وظهور الإرهاب الدولي ممثلا في أنشطة أسامة بن لادن.

---

* لا يمكن القول أن ذلك الأمر صحيح في شكله الذي يقدمه المؤلف حيث لم يكن ذلك هدف من أهداف الثورة وإنما قد يقصد في ذلك القول بأن ثورة الضباط الأحرار كان لها تداعياتها على المنطقة والتي شملت فيما شملت تهديد النظام القائم في السعودية.

"الإخوان المسلمين" ضد ناصر

حاز عبد الناصر على تأييد أسطوري غير مسبوق في مصر والعالم العربي منذ عام ١٩٥٤ عندما كثف قواه ضد منافسيه وحتى ١٩٧٠ عندما وافته المنية. وكتب الفرنسي اندريه مالرو عن ناصر يقول: سوف يدخل التاريخ كممثل لمصر كما هي حال نابليون في فرنسا. (١) وقال ويليام بولك المسئول في مجلس الأمن القومي في الستينات عن ناصر: كان جون كنيدي العالم العربي. (٢) خرج خمسة ملايين شخص للسير في جنازته بالإضافة إلى عشرات الملايين من العرب الذين حزنوا على وفاته دون حضور الجنازة، ومنهم الذين انتحبوا في المقاهي وفي المنازل وفي جماعات في صمت أو علنا أوخلال الصلوات أو في السيارات حتى في كاليفورنيا أو الذين عانوا الألام من موته وتجمدت أوصالهم من الحزن. (٣) ورغم ذلك في الخمسينات وتكرارا في الستينات دججت أمريكا ناصر بالسلاح وأسوأ من ذلك من خلف الكواليس كانت المخابرات تعمل على اقصائه.

وقال ايد كين ضابط المخابرات الأمريكية المتمركز في القاهرة في أواخر الخمسينات ومطلع الستينات "كنا نحاول الإطاحة بناصر.. كانت المخابرات تقوم بعملية سرية جدا واستطيع القول بالاعتماد على عدد من أعضاء النظام القديم الذين ليس لديهم أي سلطة. كنا نحاول العثور على عناصر يمكنها الإطاحة بناصر غالبا شخصيات من النظام القديم من الاقطاعيين ورجال الصناعة وأعداء أخرين لناصر. كان المشروع فاشلا".(٤) منذ نصف قرن من الزمان عبأ ناصر الثورة العربية وتقرير المصير والاستقلال. جاء استيلاء الضباط الأحرار على السلطة في مصر خلال الفترة التي كان فيها العالم العربي بكامله من المغرب إلى العراق يقبع في غياهب العصر الجليدي سياسيا. كانت المغرب والجزائر وتونس تحت الاحتلال البريطاني والكويت وقطر والبحرين والإمارات وعمان واليمن مستعمرات بريطانية. كانت العراق والأردن والسعودية ممالك يحكمها ملوك نصبتهم لندن. وكانت مصر تحت حكم الملك فاروق المركز السياسي والاقتصادي للعالم العربي، وقد مكن الاستيلاء على السلطة في مصر ناصر من كهربة الطبقة السياسية في العالم العربي وألهم الآخرين أن يفعلوا بالمثل وتولد

الأحزاب السياسية الليبرالية وتقوم الجيوش بالثورات. قاد ناصر الحركات التحررية والاستقلالية في الشرق الأوسط من ١٩٥٤ وما بعدها، من خلال التأييد السياسي والعملاء وقوة إذاعة صوت العرب في القاهرة وبفعل الالتفاف حوله وما يتمتع به من تأييد.

وفي العامين من ١٩٥٦ إلى ١٩٥٨ اهتزت لبنان والأردن والعراق بالثورات والتمرد وسقط ملك العراق وأقامت سوريا وحدة مع مصر باسم الجمهورية العربية المتحدة، وهي تجربة لم تدم طويلا، وإن كانت أثارت مشاعر الوحدة بين الدول العربية. وحصلت الثورة الجزائرية على تأييد معنوي وأخلاقي ومادي من القاهرة حتى استقلال البلاد في عام ١٩٦٢ وهو نفس العام الذي قامت فيه الثورة في اليمن بإلهام من جمال عبد الناصر مما أطلق حربا خفيه من السعودية ضد مصر. وحتى أواخر عام ١٩٦٩، قبل موت ناصر بعام واحد، تمت الإطاحة بملك ليبيا والنظام اليميني في السودان الذي أقاله الضباط الموالين لناصر.

وقد انتقدت لندن وواشنطن وتل أبيب الرئيس المصري الراحل ناصر في إطار الحرب الباردة. وكانت المخابرات الأمريكية مشغولة بالتخلص من الرؤساء والزعماء من جواتيمالا إلى الكونغو والهند وإندونيسيا وإيران، ليس لأنهم من الشيوعيين بل بسبب مواقفهم المستقلة التي جعلتهم يظهرون منحازين إلى جانب ما ولا يمكن الثقة فيهم في الحرب الباردة بين القوتين الأعظم ولم يكن ناصر استثناء من هذا. غير أن ناصر اختلف عن زعماء أمريكا اللاتينية وأفريقيا في نظرته الثورية التي تهدد استراتيجية أمريكا لما بعد الحرب العالمية الثانية في الصميم وهي ضمان السيطرة على حقول النفط في السعودية. وكانت مصر خصما عسكريا محتملا للسعودية وتراشقت معها في الحرب اليمنية وألهم ناصر العرب في السعودية بالأفكار الجمهورية فضلا عن أن ناصر انتصر على العائلة المالكة السعودية عندما شكل بعض الأمراء ما يسمى بـ "الأمراء الأحرار" الذين فروا إلى مصر بقيادة الأمير طلال وطالبوا بتحويل الملكية السعودية إلى جمهورية.

وبعد أن كونت أمريكا تحالفاتها في الشرق الأوسط اعتمادا بشكل أكبر على دول غير عربية بما فيها تركيا وإيران وإسرائيل راحت تدشن ما يسمى بالحرب العربية الباردة التي كان طرفاها مصر والسعودية. وكان الصراع يعكس، لكن بصورة غير حقيقية، مجموعتين من الدول العربية الأولى التي تؤيد الاتحاد السوفيتي والثانية حلفاء أمريكا، غير أن الواقع أن الاتحاد السوفيتي لم يكن له حلفاء بين الدول العربية بل اصدقاء قلائل في المنطقة العربية. والمحرك الرئيسي الذي اعمل قواه بين ١٩٥٤ و ١٩٧٠ كان بين الأجنحة المستقبلية المتنافسة في الشرق الأوسط. تمثلت تلك الأجنحة في شطر من العالم العربي وهو عالم تسوده العلمانية والحداثة والصناعة ويتكون من دول عربية مستقلة متعاونة تتبع النظام الجمهوري تتزعمه مصر بقيادة ناصر. أما الطرف الآخر فكان مجموعة من الدول العربية الملكية وضعت مواردها الطبيعية تحت تصرف الغرب ودولها شبه اقطاعية وتحكمه عائلات ملكية سلاحها الأساسي الإخوان المسلمين واليمين الإسلامي وتتزعمه السعودية. وقد رفضت مجموعة من المستعربين الأمريكيين استراتيجية عزل ناصر وذهب البعض منهم إلى أن ناصر هو مخلص الوطن العربي.

ويقول كين مشيرا إلى الفترة بين ١٩٥٢ و ١٩٥٤(٥): كان ناصر يحظى في البداية بتأييد قوي من المخابرات والسفارة. وقال مايلز كوبلاند في كتاب "لعبة الأمم" إن المخابرات شجعت الضباط الأحرار في ثورتهم بعد المحاولة الأولى لدفع الملك فاروق لتحديث مصر. وقام كيرميت روزفلت الذي سينسق الانقلاب الذي دبرته المخابرات الأمريكية لاستعادة عرش شاه إيران في عام ١٩٥٣، بزيارة سرية إلى مصر في ١٩٥٢ وقال عن عبد الناصر: "كانت مهمته بالتحديد أول محاولة لتنظيم "ثورة سلمية" في مصر بحيث يقوم الملك فاروق نفسه بالإشراف على إلغاء النظام القديم وإحلال نظام جديد وبالتالي القضاء على القوات الثورية التي حددها عملاء المخابرات قبل عامين".(٦)

لكن كوبلاند قال إن فاروق كان ذو عقل صغير (٧) وشديد الفساد لدرجة أنه لم يستجب لتلك المحاولات وفضل الانخراط في الحفلات واللهو وأن يتجول في أنحاء القاهرة بنظاراته الشمسية بدلا من تحمل مسئولية مصر. وبالتالي، كما قال كيم (كيرمت)

روزفلت، وافق على مقابلة الضباط الذين حددت المخابرات إنهم زعماء جمعية عسكرية سرية تتآمر للقيام بانقلاب. وقد فعل ذلك في مارس ١٩٥٢ قبل أربعة أشهر من انقلاب ناصر. وعقدت ثلاثة اجتماعات من هذا النوع وحضر الاجتماع الثالث أحد ضباط ناصر الموثوق فيهم. (٨)

وعاد كيم زوفلت الى واشنطن لاقناع الحكومة الأمريكية بأنها ينبغي أن تقبل إقالة فاروق. وليس هناك ما يؤكد على شهادة كوبلاند. والملفات السرية التي فتحت لا توفر أي دليل على صحتها ولم يكن هناك شخصية أخرى يمكنها أن تؤكد ما قاله أو كتبه كوبلاند. غير أن أمريكا كان لها علاقات جيدة بصفة عامة مع الحكومة المصرية الجديدة. وقال جويل جوردان في تقاريره من واقع الملفات السرية التي كونت كتابه "حركة ناصر المباركة" إن العلاقات بين السفارة الأمريكية في القاهرة والنظام الجديد كانت طيبة. وكان البريطانيون من جانب آخر يختلفون مع واشنطن في ذلك ويخشون أن يمثل تولى ناصر السلطة تهديدا لقناة السويس وقواعدهم هناك ومرورهم إلى الهند. (٩)

غير أن بقايا الإمبراطورية البريطانية لم تكن هي الوحيدة المعرضة للخطر بفعل تولي ناصر السلطة. فقد كان النظام الجديد بقيادة ناصر تهديدا لممالك النفط خاصة السعودية والعراق والممالك والمشايخ الخاضعة للسيطرة البريطانية في الخليج. عارض البريطانيون، ثم انضم إليهم الأمريكيون فيما بعد، تولي ناصر الحكم، ليس لأنه شيوعي أو لأنه يحتمل أن يخضع للنفوذ الشيوعي، فقد قمع ناصر اليسار المصري والعديد من الأحزاب الشيوعية. ومن ناحية أخرى كانت الأحزاب الشيوعية المصرية متشرزمة ومنقسمة وغير منظمة جيدا ويأتي تأييدها في الأساس من النخبة المثقفة ولم يكن لديها الفرصة للاستيلاء على السلطة إلا من قلة قليلة منهم من خلال حكومة وطنية بقيادة حزب الوفد. لكن الشيء الذي لم تكن لندن أو واشنطن يمكن أن تتسامح فيه (باريس أيضا حتى ١٩٥٦) هو رفض ناصر الخضوع للسيطرة وقيامه بضرب القوى العظمى ببعضها وإلهام العرب خارج مصر الولاء له بما فيهم الذين يسيطرون على النفط. وما سبب القلق فعلا للعاصمة البريطانية لندن وواشنطن هو فكرة أن يستطيع ناصر توحيد مصر والسعودية وبالتالي إقامة قوة عربية كبرى.

ومن المثير للسخرية في الوطن العربي أن مصر وسوريا ولبنان وفلسطين، التي كانت على مدى التاريخ مراكز التعليم و الحركات السياسية في الوطن العربي، لم تكن تملك نفطا. فيما كانت تملكه مجموعة من الدول الأخرى مثل السعودية والكويت والإمارت العربية المتحدة والبحرين وقطر، والتي لا تضم سوى عدد قليل من السكان وليس لديها تقاليد ثقافية (باستثناء الثقافة الإسلامية) ويحكمها عائلات ملكية دينية ليس لها شرعية ويعتمد وجودها على الحماية العسكرية الخارجية. ويعي غالبية العرب أن كلا من الملكيات ذاتها والحدود المزيفة التي تفصل بين بلادها من تصميم الاستعمار الذي سعى إلى بناء الأسوار حول آبار النفط في العشرينات. ومن منظور استراتيجي فإن العرب سيكسبون كثيرا بالتزاوج بين تقدم وسكان الدول العربية المتحضرة (بما فيها العراق) والثروة النفطية في الممالك الصحرواية. وتأتي مصر في مركز ومحور تلك الفكرة حيث يبلغ سكانها عشرات الملايين، والسعودية من الجانب الآخر، حيث تملك ٢٠٠ مليار برميل من النفط. وتوحيد القاهرة والرياض سوف يخلق مركزا عربيا واسعا مهما له ثقل كبير وله نفوذ عالمي مما يعزز الخطاب القائل بالعروبية العلمانية الجامعة.

وانضمت أمريكا إلى لندن في محاربة القومية العربية بعد مجاملة ناصر في البداية وذلك بمعرفة جون فوستر دالاس وزير الخارجية وأخيه الأن دالاس مدير المخابرات. وبحث انتوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا تنفيذ انقلاب في القاهرة برعاية بريطانية في مطلع ١٩٥٣. وكان ايدن ضد ناصر على طول الخط. وكانت القوة الوحيدة التي تمثل تهديدا لناصر في مصر، باستنثناء الجيش، هي الإخوان المسلمين التي لها عشرات الآلاف من الأتباع. وكان بعض الضباط المصريين أيضا متعاطفين مع الإخوان المسلمين ومنهم اللواء محمد نجيب مؤيد الإخوان من فترة طويلة وكان أيضا عضوا محافظا في الضباط الأحرار. وفي عام ١٩٥٢ وبعد الانقلاب ضد الملك وإقالته، أصبح نجيب رئيسا لمصر ورئيس الوزراء وناصر نائبا له. ومن خلف الكواليس كان ناصر هو الحاكم الفعلي. وكتب مايلز كوبلاند يقول: "لاحظ ويليام ليلكلاند الضابط السياسي في السفارة الأمريكية إن نجيب لم يكن وحده واجهة ناصر . وفيما كان الشعب المصري والعالم الخارجي يحيي نجيب ويشجعه بدأت السفارة من خلال ليكلاند التعامل مع ناصر

باعتباره القوة الحقيقية وراء اتخاذ القرارات".(١٠) لكن نجيب الذي كان يتمتع بسلطات أقل من سلطات ناصر، كان له صلات مع حسن إسماعيل الهضيبي الذي خلف حسن البنا في زعامة الإخوان المسلمين. وتطور الصراع على السلطة بين نجيب وناصر.

واستخدمت بريطانيا نجيب في الاتصال بالإخوان المسلمين باعتباره حليفها الأول. وكانت علاقة ناصر مع الإخوان من البداية غامضة وغريبة. (١١) فعندما تولى الضباط الأحرار السلطة في ١٩٥٢ كانوا حذرين جدا حتى لا يقصوا الإخوان عن الصورة. وكان عدد من الضباط الأحرار أعضاء في الإخوان المسلمين وكان لغالبيتهم، بما فيهم ناصر، اتصالات مكثفة مع الإخوان منذ الأربعينيات. وواجه العسكريون (الضباط الاحرار) في البداية تحالفات من الخصوم منهم الوفد واليسار والملكيين (مؤيدو الملك) وحزب مصر الفتاة الفاشي والإخوان المسلمين. وقرر ناصر أن يحيد الإخوان في البداية بدلا من مواجهتهم وكان يشرف شخصيا على علاقات الجيش الحساسة مع الجماعة. وعندما حظر النظام المصري الحاكم التنظيمات السياسية في ١٩٥٣ استثنى الإخوان المسلمين من الحظر.

غير أنه لم يكن هناك فرصة تذكر للمواجهة بين ناصر والإخوان. كان الإخوان يريدون مجتمعا إسلاميا ويريد ناصر أن يكون المجتمع علمانيا. والأهم أن ناصر كان يريد إجراء إصلاحات تشمل الإصلاح الزراعي وتغيرات في التعليم عارضها الإخوان كلها. وفي حوار مع السفير الأمريكي جيفرسون كافري، الذي أوصى بأن يحضر سعيد رمضان القيادي في الإخوان مؤتمر جامعة برنستون ويزور البيت الأبيض في عام ١٩٥٣، إنه سوف يكون سعيدا إذا تم إقصاء العديد من الضباط الأحرار. (١٢) وفي نفس الوقت تقريبا عقد تريفور ايفانز الدبلوماسي البريطاني في القاهرة اجتماعا واحدا على الأقل مع حسن إسماعيل الهضيبي المرشد الأعلى للإخوان، وهو الاجتماع الذي اعتبره ناصر فيما بعد بمثابة خيانة وسببا كافيا للإقدام على عملية ضرب صفوف الإخوان المسلمين. واحتفظ البريطانيون والأمريكيون بعلاقاتهم مع الإخوان. ووقعت المواجهة المؤجلة بين ناصر والإخوان في عام ١٩٥٤. و توافق توقيت المواجهة مع الاحباط البريطاني من الزعيم المصري الجديد خلال المفاوضات البريطانية المصرية

بشأن تسليم قناة السويس والقواعد البريطانية في مصر وكان اليمين البريطاني، وعلى رأسه استعماري لم تتغير أفكاره مثل ونستون تشرشل، متخوفا من صعود قوة مصر في الوقت الذي كان السياسيون في اليسار وحزب العمال يرغبون في عقد صفقة مع ناصر.

ومن عام ١٩٥٤ فصاعدا كان مطلب انتوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا هو رأس جمال عبد الناصر. ويرجع الفضل في قصة الصراع بين ايدن وناصر، التي بدأت في ١٩٦٥، إلى ستيفن دوريل. ويقول دوريل صاحب كتاب "قطع ذيل الأسد" إن محمد حسنين هيكل مستشار ناصر(*) نشر نسخة من برقية من جيمس ايشلبرجر رجل المخابرات الأمريكية في لندن إلى مديرها آلان دالاس يحكي فيها محاوراته مع جورج يانج من المخابرات البريطانية. وجاء في الحديث إنهما تحدثا علنا عن اغتيال ناصر بدلا من استخدام تعبيرات أكثر تهذيبا مثل "تصفيته" وقال أن رجاله كانوا على اتصال بعناصر مناسبة في مصر (لتنفيذ المهمة) وفي بقية العالم العربي. وسرب ايشلبرجر، مثل كوبلاند البقية الباقية من المؤيدين لناصر في المخابرات الأمريكية، ما قاله يانج لناصر. (١٣) وبعد شهر قال ايدن "ما كل هذا الهراء عن عزل ناصر أو تحييده كما تقولون. أريد تدميره تماما ألا تفهمون. أريده قتيلا، ولا يهمني إذا حدثت فوضى في مصر".(١٤)

في الأشهر الأولى من ١٩٥٤ بدأت الفوضى ودبت الحرب بين ناصر والإخوان المسلمين. بدأت الحرب في شهر يناير عندما هاجم الإخوان الطلاب القوميين المؤيدين لناصر في جامعة القاهرة. وكتب أنور السادات الذي كان ينتمي فيما مضى للإخوان المسلمين الذي انحاز إلى ناصر ضد جماعته سابقا، مقالة يهاجم فيها الإخوان واتهمهم بالتخفي وراء الدين. وبعد يومين أصدر ناصر مرسوما يعلن الإخوان جماعة إرهابية واتهمهم أيضا بأنهم مخلب للبريطانيين. وجاء في المرسوم الذي يحظر الإخوان "الثورة لن تسمح بعودة الفساد متخفيا في ثوب الدين".(١٥) وتوضح الوثائق السرية التي أفرج عنها أن المخابرات البريطانية كانت تسجل تقارير عن نشاط الإخوان وجاء فيها أحاديث

---

* هكذا يرد في النص.

عن المواجهات بين الإخوان والشرطة في الدلتا والاجتماعات السرية التي عقدت في الإسماعيلية.

ويقول روبرت بير ضابط المخابرات الأمريكية السري أن المخابرات تبنت أيضا فكرة استغلال الإخوان ضد ناصر. ووصف بير في كتابه "النوم مع الشيطان" الخطوط العريضة للمؤامرة الأمريكية فقال: "كان الأساس فيها السر القذر الصغير في واشنطن- البيت الابيض يعتبر الإخوان حليفا ساكنا وسلاح سري ضد الشيوعية. بدأت تلك الجهود السرية في الخمسينات على يد الأخوين دالاس.. آلان في المخابرات وجون فوستر في الخارجية عندما وافقوا على تمويل السعودية للإخوان في مصر ضد ناصر في ضوء قلق واشنطن من كل ما كان يشير إلى أن ناصر كان شيوعيا إزاء تأميمه الصناعات الكبيرة في مصر ومنها قناة السويس. وأدى منطق الحرب الباردة إلى نتيجة واضحة مفادها، إذا كان الله في جانبنا فالحمد لله، و إذا سمح الله بأن الاغتيال السياسي ممكنا فالحمد لله أيضا مادام الحديث عن الأمر بين مجموعة من المؤدبين. وكان هذا العمل خارج السجلات الرسمية مثل أي عمل سري آخر. ليس هناك وثائق للمخابرات تدل عليه وليس هناك مذكرة تفاهم مقدمة إلى الكونجرس. ولم يأت أي مليم من خزانة الدولة لتمويل هذا العمل. بمعنى آخر كل ما على البيت الابيض أن يوافق ويبارك الدول التي تأوي الإخوان المسلمين مثل السعودية والأردن".(١٦)

وفيما كانت كل من بريطانيا وأمريكا تلعب بالنار لتعبئة فرق الاغتيال من الإخوان المسلمين ضد ناصر كان هناك أدلة أيضا على أن الإخوان يتعاونون مع جماعة إسلامية "إرهابية"(*) في إيران تعرف باسم مريدي الإسلام وكان أحد مؤسسيها زعيم ديني إيراني الذي تعاون مع المخابرات الأمريكية لإقالة مصدق. وقال برنارد لويس ضابط المخابرات البريطانية السابق والمستشرق المعروف إن قرار الإخوان المسلمين بالجهاد ضد ناصر يرتبط في جزء منه بعلاقاتهم مع الجماعة الإسلامية الإيرانية. وقال لويس إن زعيم الجماعة الإسلامية الإيرانية زار القاهرة في عام ١٩٥٤ وكانت تلك الزيارة بداية انتفاضة الإخوان المسلمين ضد ناصر. وكتب لويس يقول: "نفس الخليط

---

* هكذا يصفها المؤلف.

من العنف والمثالية والورع والإرهاب يمكن تلمسهما في المنظمة الإيرانية المعروفة باسم فدائيي الإسلام والتي تعني الإخلاص والتضحية بالنفس من أجل الإسلام. ورغم أن الجماعة شيعية فإنها تؤمن بأراء إسلامية عامة تشبه إلى حد كبير ما تؤمن به الإخوان المسلمين في مصر وتربطهما اتصالات. (١٧) وفي مارس ١٩٥١ قتل أحد أعضاء الجماعة الإيرانية رئيس الوزراء الإيراني الجنرال رازمارا. وكانت زيارة زعيم الجماعة الإيرانية نواب صفوي إلى مصر في يناير ١٩٥٤ وراء بدء أول مواجهة خطيرة علنية بين الإخوان ونظام ناصر العسكري." (١٨)

وتكشف الاتصالات بين الإخوان المسلمين والجماعة الإيرانية في ١٩٥٤ إلى أي حد إتخذت السلفية والتشدد الإسلامي طابعا عالميا حتى في الخمسينيات. لقد عبر التطرف الحدود السياسية في العالم العربي وربط بين المتشددين العرب والباكستانيين وربط بين السنة المجاهدين والشيعة في إيران وفي أماكن أخرى. وحتى بعد مرور نصف قرن من الزمان ليس من الواضح إذا كانت المخابرات الأمريكية قد فهمت الاتساع الدولي والسلطة التي تتمتع بها القوى التي تتعامل معها. فهل فهمت المخابرات أن اليمين الإسلامي في مصر وفي السعودية وفي إيران وأماكن أخرى تعمل عبر الحدود السياسية الواهية وهل اعتقدوا بأنهم يمكنهم اختيار وانتقاء مكان وزمان تأييد اليمين الإسلامي على أساس كل حالة على حدة؟ الحقيقة أنه بحلول الخمسينيات كون الإسلاميون كيانا عضويا ممتدا يبدو أن وجوده الحقيقي كان خافيا على المخابرات الأمريكية لعدة عقود. وفضل الدبلوماسيون الأمريكيون ورجال المخابرات أن يشاهدوا الناشطين الإسلاميين فيما يخص فقط البلد الذي لهم فيه وجود.

وخلال عام ١٩٥٤ توترت العلاقات بين الإخوان المسلمين وناصر. ورغم أن الإخوان كانوا محظورين إلا أنه كان لهم وجود قوي في أنحاء البلاد (*). تحرك ناصر أولا ضد نجيب. في صراع مرير وطويل وخلال فبراير ومارس همش ناصر محمد نجيب ونحاه جانبا وحيد الإخوان المسلمين خلال نفس الجولة. وفي إبريل أحال ناصر

* ما أشبه الليلة بالبارحة وهو مايؤكد صحة وجهة النظر التي تشير إلى أن التعامل مع الحركات الفكرية ومنها الإخوان لا يتم بالعنف والذي قد يؤدي الى تواري نشاطهم لفترة ولكن ليس القضاء عليه.

للمحاكمة أول مجموعة من المسئولين في الإخوان المسلمين ووجد أن المواجهة مع الجماعة أمر لا مفر منه. وبدأت الشرطة المصرية مراقبة أعمال الإخوان وحتى الإغارة على مساجدهم وفرض قيود على أنشطتهم التي يمارسها قادتهم المتطرفين. وفي سبتمبر حرمت الحكومة المصرية خمسة من الإخوان المسلمين من جنسيتهم المصرية وهم في مهمة في سوريا، من بينهم سعيد رمضان المنظر الأول للجماعة. كان الأعضاء الخمسة يحضرون مؤتمرا في دمشق عبئوا فيه أعضاء من العراق والأردن والسودان لإدانة ناصر. (١٩) واختبأ الأعضاء الكبار والزعماء ومنهم الهضيبي.

وأخيرا في ٢٦ أكتوبر أطلق أحد أعضاء الإخوان ست طلقات نارية على ناصر. الظروف المحيطة بمحاولة الاغتيال غامضة للغاية لكن أغلب الظن أن الطلقات النارية الموجهة إلى ناصر كانت من مسافة قريبة وأطلقها أحد أعضاء الإخوان وتم إلقاء القبض عليه على الفور. هل هناك مؤامرة أكبر؟ هل دفع البريطانيون الإخوان إلى قتل ناصر؟ بالتأكيد تبين السوابق أن الفكرة لم تكن بعيدة عن إيدن (رئيس وزراء بريطانيا).

وفي منتصف الخمسينات وضع البريطانيون العديد من الخطط لاغتيال الزعيم المصري ناصر في محاولات غطت على تلك التي تهدف إلى اغتيال الزعيم فيدل كاسترو في كوبا من جانب المخابرات الأمريكية. أغدق البريطانيون العطاء في مصر حتى يقوم الطبيب المعالج لناصر بتسميمه ودسوا السم في أحد أنواع الشيكولاتة المرسلة إلى بيت ناصر وصمموا صندوق سجائر على شاكلة الاختراعات التي كانت تصنع لجيمس بوند ليبث دخانا مسمما في وجه ناصر وحاولوا تسميم قهوته أيضا. ويقول كوبلاند الذي علم بالمخطط الأخير إنه تبادل النكات مع ناصر بشأنه. فقال كوبلاند لناصر "أدر رأسك لنرى إذا كنت استطيع دس السم في فنجان قهوتك".(٢٠) غير أن كل المحاولات البريطانية لم تفلح.

وهناك أدلة على أن البريطانيين استغلوا خبراء الاغتيالات في الإخوان المسلمين أيضا. وكان الانتقام من الإخوان سريعا وقاتلا. ألقت الحكومة القبض على أكثر من ألف من أعضاء الإخوان وحكمت على الكثير منهم بالسجن لفترات طويلة وتم شنق ستة منهم. وصادرت الحكومة أصول الجماعة ومكاتبها ومراكز الرعاية التابعة لها. وتم

إقصاء محمد نجيب كليا من الحكومة في نوفمبر حيث ضعف رصيده وسط ضباط الجيش وتفرق حلفاؤه في الإخوان المسلمين، مما أدى إلى أن يصفه سلوزبرجر في مقالة في صحيفة نيويورك تايمز بأنه "كيرنيسكي المطربش"(٢١) (كيرنيسكي هو أحد زعماء الثورة البلشفية في روسيا في عام ١٩١٧).

ولعب ناصر ورقته السرية لكي يقضي على الإخوان تماما فاستخدم نوعا من المناورات مثل التي استخدمت ضد النازي والتي تأصلت في مصر بعد الحرب العامية الثانية فقد كان لعدد من الإسلاميين من الجناح اليميني والإخوان المسلمين الناشطين بما فيهم الحاج أمين مفتي القدس الذي استقر في القاهرة لفترة، علاقات حميمة مع النازي والمخابرات الألمانية خلال فترة الحرب. وبعد انتهاء الحرب هرب كثير من النازيين السابقين من محاكمات نورمبرج وفروا إلى أماكن آمنة في إنحاء العالم. وكانت مصر في الأربعينات ترحب بهؤلاء. في ذاك الوقت كانت المخابرات الأمريكية والبريطانية منشغلتين بتجنيد النازيين السابقين للعمل في الحرب الباردة لمكافحة الاتحاد السوفيتي. وساعدت المخابرات الأمريكية والجيش الأمريكي، بالتعاون مع رينارد جيهلين رئيس مخابرات النازي السابق، في إنشاء منظمة جيهلين الشهيرة والتي تضم الجواسيس السابقين من النازي الذين استغلهم جيمس جرتشفيلد من المخابرات الأمريكية لتكوين نواة المخابرات في ألمانيا الغربية (في ذاك الوقت). وقد اخترق بعضهم مصر بلا شك لصالح المخابرات البريطانية أو الأمريكية وهاجر آخرون ببساطة إلى ما يعتقدون أنها أماكن آمنة ترحب بهم.

كان فرانز بوينش أحد النازيين السابقين الذين انتهى بهم الحال إلى مصر. كان الرجل ألمانيا وسبب شهرته هجومه على السامية من خلال كتاب "العادات الجنسية عند اليهود". وكان بوينش هو الذي استغله ناصر لكشف مخططات الإخوان المسلمين. ويقول مايلز كوبلاند إن بوينش اقترح على ناصر برنامج لاستغلال النازيين السابقين لتنظيم جماعة إسلامية سرية بالاتصال مع الإخوان المسلمين. ووجد ناصر أن الفكرة مثيرة وجعل مدير الأمن لديه يستغلها للالتفاف حول الإخوان المسلمون.

لقد طور بوينش مشروعا جذب الاهتمام والانتباه المصري بسرعة وكان عبارة عن خطة لجمع أبطال حقبة النازي من الأماكن التي يختبئون فيها في أنحاء العالم (الأرجنتين والبرازيل وايرلندا وإسبانيا إلخ) وتسميتهم باسماء إسلامية وضمهم إلى العناصر السرية التي كونتها مصر خلال الحرب العالمية الثانية وإنشاء مخابرات تجمع بين أفضل العناصر الألمانية والمصرية ووضعها تحت تصرف عبد الناصر في حربه العالمية ضد الشيوعية والإمبريالية. وعرضت الخطة على سعد أفرق Saad Afraq الجنرال في المخابرات وكان مسئولا في ذاك الوقت عن الإدارة ومراقبة الألمان. كان سعد من أذكى الضباط المصريين واهتم اهتماما شديدا بالخطة لكنه أصر على أن يسمع المزيد عن العناصر السرية. وشعر بوينش أنه لقى التقدير أخيرا وأنه قد يكون أمام عمل كبير بعد أن كان يعاني من عدم الاهتمام المصري به. وقدم بوينش بتشجيع من الجنرال أفرق كل المعلومات التي يمكنه أن يتذكرها عن الموضوع ثم دفع أعضاء الطابور الألماني إلى تذكر كل ما يمكن أن يتذكروه أيضا. وكانت نتيجة ذلك الوصول إلى أدلة كافية لإعدام نصف أعضاء الإخوان المسلمين فضلا عن توفير أعمال يقوم بها ضباط الأمن المصريين في العامين التاليين في ممارسة النفوذ على المنظمة ليس فقط في مصر بل في أنحاء الوطن العربي. (٢٢)

وفي عام ١٩٥٤ وقعت مصر وبريطانيا اتفاقية حول قناة السويس والحقوق العسكرية البريطانية. لم تستمر الاتفاقية كثيرا حيث دبرت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في ١٩٥٦ مؤامرة ضد مصر تهدف إلى الإطاحة بعبد الناصر وانتزاع السيطرة على قناة السويس واستغلوا الإخوان المسلمين في تلك المؤامرة. عندما بدأت الحرب بين مصر وبريطانيا في ١٩٥٦ كان الإخوان المسلمين قد انحلت كحركة وألقي بأعضائها في السجون أو نفوا خارج البلاد أو أجبروا على الاختفاء داخل مصر بعيدا عن الأعين. لكن هذا لم يمنع بريطانيا من التوصل الى الإخوان الحلفاء القدامى. لقد رويت قصة قناة السويس عددا لا نهائيا من المرات وكيف سعى عبد الناصر إلى معونة مالية من أمريكا لإنشاء سد أسوان ورفضوا تقديم المساعدة وكيف أن أمريكا رفضت بيع السلاح لمصر وكيف مد السوفيت يد العون إلى المصريين للسيطرة على قناة السويس وكيف تآمرت

لندن وباريس مع إسرائيل لشن الحرب ضد مصر. وبلغت كراهية ايدن لناصر حدا لا يوصف. غير أن ما هو غير معروف هو أن المؤامرة فشلت وأجرى البريطانيون اتصالات مع الإخوان في جنيف. ويقول دوريل أن إثنين من جنرالات بريطانيا هما الكولونيل نيل مكلين وجوليان امري ساعدا المخابرات البريطانية على تنظيم وتعبئة معارضة سرية ضد ناصر في جنوب فرنسا وسويسرا. كما ذهبت المخابرات البرطانية إلى حد إجراء اتصالات في جنيف مع الإخوان المسلمين عندما كان رئيس المخابرات هو نورمان ديربشر.

وكانت الاتصالات في جنيف سرية ولا يعلم بها حتى مجموعة السويس (التي تدير العملية العسكرية). وعرض امري عدة أسماء على سيلوين لويد وزير الخارجية البريطاني. (٢٣) وكانت طبيعة الاتصالات بين المخابرات والإخوان في أوربا في ذاك الوقت غير معلومة لكنها ربما تراوحت بين التنظيم والاغتيال وتكوين حكومة في المنفى لإقالة ناصر بعد حرب السويس. وتبدو المؤامرة البريطانية الفرنسية التي اندلعت في عام ١٩٥٦ كما لو كانت خطة من القرن التاسع عشر. رتبت لندن وباريس لإسرائيل الهجوم على مصر بلا مبرر. وتشير خطوط المؤامرة إلى أن البريطانيين والفرنسيين سوف ينتظرون فترة وجيزة ربما أيام ثم يتدخلون عسكريا لفرض هدنة على مصر وإسرائيل ومن ثم انتزاع السيطرة على قناة السويس. وتمنى الطرفان أن يسقط ناصر خلال تلك العملية أو تتم إقالته. وكان الإخوان رغم ضعفهم ينتظرون النتيجة. وفي النهاية خاف الرئيس الأمريكي أن يستغل السوفيت نتائج العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي ويتدخلون مع دول أخرى لفض الحرب. ويبدو أن الولايات المتحدة وجدت الفرصة مرة أخرى في إقامة علاقات جيدة مع ناصر. غير أن الفرصة ذهبت أدراج الرياح بسرعة وعاد الإخوان دالاس إلى النمط السابق لمواجهة كل من ناصر والقومية العربية.

كان هناك مسئولون في المخابرات الأمريكية والخارجية يخشون رد فعل الحكومة من موقف مضاد لناصر. كان أحد هؤلاء هو كوبلاند الذي كان لا ينفك يبدي إعجابه بناصر. كتب كوبلاند في حديثه عن ناصر يقول: "إنه أكثر القادة الشجعان

الجريئين ذوي طهارة اليد أصحاب المبادىء والإنسانية والوطنيين الذين قابلتهم في حياتي".(٢٤) لكن عندما انقضت الخمسينيات أصبح كوبلاند وحيدا في موقفه هذا حيث عد لوردات الحرب الباردة في أمريكا ناصر من بين الشياطين. وكان المؤيدون للعرب في الخارجية الأمريكية يشعرون بالتعاطف مع ناصر كما يقول كوبلاند، الذي يضيف إن هذا الموقف كان ضعيفا أمام معارضة رجال الأعمال لناصر خاصة شركات النفط الكبرى والبنوك. واشتدت الأمواج ضد رأي كوبلاند في ناصر حتى أنه انسحب جانبا وحل مكانه آخر في القاهرة. وقال كوبلاند إن رئيس المخابرات الأمريكية (الجديد) في القاهرة كتب برقية إلى واشنطن تقول أنه يجب عليها أن تقنع إسرائيل بالتركيز على قدرة الإخوان المسلمين على الإطاحة بناصر. (٢٥)

ويقول جون فول المتخصص في الشئون الإسلامية إن تأييد المخابرات الأمريكية للإخوان المسلمين خلال الحرب الباردة كان التصرف الصائب. وقال "كان عملا ذكيا". وأوضح أن "الإخوان كانوا البديل الوحيد لناصر فالحزب الشيوعي في مصر لم يكن مكتملا بعد ولم يكن من الذكاء أو الفطنة ألا يكون لنا علاقات معهم"(٢٦) (*)غير أنه عندما نسترجع الأحداث نجد أن هذا التأييد كان من الغباء بمكان. فلم تكن أمريكا بحاجة إلى بديل لناصر وكان لابد أن تحتويه وتساعده في القضاء على اليمين الإسلامي. لكن بدلا من ذلك ازدادت السياسة الأمريكية عداء تجاه ناصر وانضمت إلى الأسرة الملكية السعودية وحلفائها المتشددين وبذلت جهودا استمرت عقودا لاستغلال اليمين الإسلامي كحجر زاوية في مد النفوذ الأمريكي في الشرق الأوسط.

الأكثر من ذلك إن الصلابة الأيديولوجية في رجالات السياسة الخارجية الأمريكية لم تقتصر على مصر فقط. فقد اخذت أمريكا معها، في غمار محاولاتها للقضاء على ناصر، قوميا آخر هو محمد مصدق في إيران. وسوف تؤدي تلك السياسة إلى أشهر عملية سرية للمخابرات الأمريكية هي انقلاب ١٩٥٣ في إيران وسوف يلعب فيه اليمين الإسلامي الدور الرئيسي كما كان الحال في مصر.

---

* يقصد الإخوان

المخابرات الأمريكية والأب الروحي للخميني

من المثير للسخرية في كل من ناصر ومصدق أن كل منهما حصل على تأييد أمريكي عند ظهوره وتوليه السلطة حتى جاءت الحرب الباردة وانقلبت السياسة الأمريكية رأسا على عقب فانقلبت ضدهما. في البداية أيدت أمريكا القوميين في إيران بقيادة مصدق لأسباب منها اعتقاد واشنطن بأن القوميين الليبراليين في العالم الثالث قد يستطيعون تحديث بلادهم وفي ذات الوقت يظلون في فلك الغرب. لكن حكومة ايزنهاور لم تؤمن بتلك الفكرة وكانت ترى فقط "إما معنا أو علينا" ويعني ذلك أن يوافق قادة العالم الثالث على وجود قواعد عسكرية أمريكية وينضمون إلى تحالفات ويقدمون تنازلات اقتصادية مع تنفيذ سياسة السوق الحرة وإلا يكونون ضد أمريكا. ولو عاش مصدق في عالم أقل قطبية، مثله مثل ناصر، ربما استطاع أن يتوصل إلى اتفاق طويل المدى مع واشنطن.

وكما كان الحال في مصر التي تم تعبئة الإخوان المسلمين فيها ضد ناصر، فإن القوى السياسية المتشددة في إيران خضعت للاستغلال ضد مصدق. نفس المتشددين بقيادة رجال الدين من اليمين الإسلامي الذين دفعت لهم المخابرات الأمريكية في ١٩٥٣ لتأييد الشاه، هم الذين أقالوه في ١٩٧٩ .

كان مصدق محاميا إيرانيا تعلم في باريس وسويسرا وكان شخصية بالغة التعقيد تغلغلت في السياسة الإيرانية لعدة عقود قبل ١٩٥٣. وخدم مصدق في البرلمان الإيراني قبل حقبة بهلوي قاجار في ١٩١٥ وكان وزيرا للخارجية في ١٩٢٤. وكانت علاقاته مع عائلات ملوك إيران السابقين سببا في العداء مع رضا بهلوي وابنه محمد رضا بهلوي. وفي عام ١٩٤٤ انتخب مصدق عضوا في البرلمان مرة أحرى وكان من أكثر مؤيدي تأميم صناعة النفط الإيرانية التي كانت تحت إدارة ما هو الآن شركة "بريتيش بتروليم". وأصبح مصدق رئيسا للجنة النفط في البرلمان وكون ائتلافا سياسيا باسم الجبهة الوطنية. وبعد اغتيال الجنرال علي رازمارا عام ١٩٥١ وجد الشاه نفسه مضطرا إلى تعيين مصدق محله في منصب رئيس الوزراء. لكن مصدق عمل على تأميم شركة النفط الأنجلو إيرانية وكانت ضربة موجعة لبريطانيا حيث كانت الشركة من أهم الأصول التي

تفخر بها بريطانيا الاستعمارية وبدأت منذ الحرب العالمية الأولى كمشروع خاص من صنع ونستون تشرشل الذي كان يعتبر الخليج العربي المصدر الرئيسي للوقود للبحرية البريطانية.

وأصبح مصدق محط كراهية لندن واختلف بشدة مع الشاه الذي كانت مشاعره الوطنية تأتي في المرتبة الثانية بعد رغبته في الحفاظ على عرشه من خلال علاقات طيبة مع بريطانيا وواشنطن. في البداية شارك كثير من آيات الله في إيران في الجبهة الوطنية لكنهم تركوها فيما بعد وانضموا إلى الحملة المناهضة لمصدق بقيادة المخابرات الأمريكية ونتج عنها انقلاب عسكري في أغسطس ١٩٥٣. واستعاد الشاه عرشه مثل الطاووس المتفاخر بعد أن كان هاربا من البلاد وألغي تأميم صناعة النفط الوطنية. وخلال تلك العملية وضعت أمريكا أيديها على مصادر النفط الإيرانية حيث حصلت ٥ شركات أمريكية على ٤٠% من امتياز النفط الإيراني على حساب بريتش بتروليم البريطانية.

وقصة الانقلاب الذي دبرته المخابات الأمريكية معروفة. غير أن ما لم يرو هو أن المخابرات البريطانية والأمريكية تعاونت عن كثب مع رجال الدين (العلماء) الإيرانيين لإضعاف مصدق ثم إقالته في النهاية. ولعب غوغاء الشوارع دورا مهما بعد أن دفعت لهم المخابرات الأمريكية وعبأهم تابعون لرجال الدين الذين طالبوا بإقالة رئيس الوزراء وعودة الشاه. (٢٧) وكان آية الله سيد أبوالقاسم كاشاني هو الشخصية المحورية في الحملة وهو الذي سوف يكون معلما لآية الله روح الله خميني فيما بعد وكان الممثل الرئيسي للإخوان المسلمين في إيران.

وقال مسئولون حكوميون إيرانيون إن الخميني الذي لم يكن أكثر من رجل متوسط في أواسط العمر وتابعا لكاشاني، شارك في مؤامرة المخابرات الأمريكية الهادفة إلى تنظيم احتجاجات مناهضة لمصدق وعودة الشاه. ياله من أمر مثير للسخرية.. فبعد ٢٥ عاما وفي عام ١٩٧٨ بالتحديد سوف يقود الخميني مرة أخرى الغوغاء الغاضبين لإقالة الشاه تلك المرة وإقامة الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

كان آية الله أبوالقاسم كاشاني (١٨٨٢- ١٩٦٢) الأب الروحي للخميني. كان رجلا سياسيا من الدرجة الأولى وبدأ حياته السياسية في العشرينيات بالخدمة في البرلمان، وكان رجال الدين في إيران يتمتعون بالشهرة إلى الحد الذي يمكنهم من أن يفعلوا أي شئ لحماية وضعهم ومكانتهم. وكان هذا يعني في العشرينيات أن مؤسسة العلماء سوف تعترض بشدة على إقامة الجمهورية الإسلامية. وأعجب رضا بهلوي رجل الجيش القوي الذي تولى السلطة في إيران في العشرينيات، بكمال أتاتورك العلماني التركي زعيم الجمهورية التركية وكان يريد إعلان الجمهورية في إيران على غرار ما فعله أتاتورك في تركيا. لكن الملالي بما فيهم كاشاني خشوا أن الجمهورية العلمانية سوف تزعزع سلطتهم ولذلك طالبوا بعودة الملكية. وكتبت الأميرة أشرف بهلوي أخت الشاه التوأم مذكراتها عن مقاومة رجال الدين للجمهورية وقالت: "أيد أبي الجمهورية على غرار تركيا وعرض الفكرة أمام الملالي الشيعة. لكن في اجتماع في مدينة قم قال الملالي المؤيدون بشدة للنظام الإقطاعي والملكية، وكل التقاليد القائمة في ذاك الوقت والحفاظ على الوضع على ماهو عليه، إنهم سوف يعارضون أي خطة لإقامة الجمهورية. (٢٨) وتخلى رضا عن الفكرة لأنه لم يكن مستعدا لتحدي المؤسسة الدينية القوية وأعلن نفسه ملكا. وكان كاشاني الشاب أحد الذين صنعوا الملك.

وفي العشرين سنة التالية سوف يكون لكاشاني عدوان هما الشيوعية والشاه. خشى رجال الدين كما هي الحال عند الإسلاميين في كل مكان، من الشيوعيين وحزب توده الذي يمثلهم واستغلوا كل نفوذهم واستعرضوا عضلاتهم ضد اليسار. أما الملالي فقد كان التهديد الحقيقي ضدهم يأتي من الشاه الذي لا يحترم رجال الدين ويعتبرهم من العصور الوسطى لأنهم يعارضون جهوده لتحديث البلاد. وفي بداية الثلاثينيات بعد أن ظهر نموذج أتاتورك استخدم الشاه القوة ضد رجال الدين ووضع محاكم الشريعة تحت سلطة الدولة وحد من القوة المالية لرجال الدين عن طريق تأميم الأوقاف الدينية وحرمهم من مصدر مهم من الدخل. وابتكر الشاه نمطا غربيا من الملابس وحرم الزي الإسلامي الإيراني وسيطر على مراسم الزواج والطلاق وحارب الإسلاميين من أجل تحرير المرأة. وأمر الشاه بفتح الأماكن العامة أمام السيدات وحرم ارتداء غطاء الوجه

والشادور الإيراني الشهير. وفي عام ١٩٣٩ حرم الشاه ممارسات تعذيب الذات التقليدية التي يقوم متشددو الشيعة بها. (٢٩) ورحب دعاة التحديث بتلك الإجراءات لكن رجال الدين استشاطوا غضبا. وعلى هذه الخلفية بنى كاشاني نفوذا وقوة سياسية رغم أن الشاه كان يستبعده دائما.

وفي الوقت الذي كان الإخوان المسلمون يقومون بأعمال تهز استقرار الأوضاع في مصر في الأربعينيات كان كاشاني ومن هم على شاكلته يقومون بعنف إرهابي ضد الشاه. وفي عام ١٩٤٥ ساعد كاشاني في إنشاء فرع الإخوان المسلمين غير الرسمي في إيران وأسماه "النساك المسلمون" بقيادة متشدد ملا يدعى نواب صفوي. وشملت الأعمال الإرهابية التي قامت بها جماعة كاشاني في عام ١٩٤٩ محاولة اغتيال الشاه التي قام بها أحد أعضاء جماعة إسلامية سرية تدعى "راية الإسلام". وفي عام ١٩٥٠ اغتال أحد أعضاء الجماعة المتطرفين عبد الحسين هاجر وزير البلاط الملكي للشاه وفي العام التالي له قام متطرف آخر باغتيال رئيس الوزراء الجنرال علي رازمارا في الوقت الذي كانت إيران تعيد فيه التفاوض بشأن حقوقها النفطية مع لندن. وقال الشاه في مذكراته إن "رازمارا كان يحمل الاتفاقية التي توصل إليها مع الشركة الأنجلو إيرانية للنفط في جيبه عندما اغتيل".(٣٠) وكان غالبية الإيرانيين المتعلمين من الشاه إلى ما بعده يشكون في أن بريطانيا كان لها علاقات مع رجال الدين والحركة الإسلامية إذا لم يكن أيضا بالأعمال الإرهابية.

وقال فريدون هوفيدا السفير الإيراني في الأمم المتحدة حتى ١٩٧٩ والذي كان أخوه أمير عباس هوفيدا رئيس وزراء إيران في السبعينيات وأعدم على يد نظام الخميني، إن البريطانيين يريدون الإبقاء على إمبراطوريتهم وأفضل طريقة لتحقيق ذلك هي سياسة "فرق تسد". وقال إن البريطانيين كانوا يخدعون جميع الأطراف ويلعبون على جميع الأحبال. كانوا يتعاملون مع الإخوان المسلمين في مصر والملالي في إيران وفي الوقت ذاته يتعاملون مع الجيش والعائلات الملكية. ويضيف هوفيدا إن البريطانيين كانوا يعتقدون أن الإسلاميين مجرد أداة أخرى يمكنهم تمديد سلطانهم من خلالها. وقال عن البريطانيين: "كان لهم اتفاقيات مالية مع الملالي ويتعاملون مع أهم شخصياتهم

ويساعدونهم. وكان الملالي أذكياء فعرفوا أن البريطانيين هم أقوى سلطة في العالم. وكان الأمر يتعلق بالمال أيضا. كان البريطانيون يأتون بحقائب مليئة بالأموال لهؤلاء الناس. وعلى سبيل المثال فإن التجار الأثرياء في البازار الإيراني يمولون الملالي التابعين لهم، وهو ما فعله البريطانيون. (٣١)

وقالت الأميرة أشرف في مذكراتها عن الروابط غير المقدسة بين بريطانيا والملالي في إيران "كون العديد من الملالي تحالفات مع ممثلين عن قوى أجنبية غالبيتها بريطانية وكان هناك نكتة سائدة في إيران تقول "إذا امسكت بلحية رجل دين ستري أنها كتب عليها صنع في بريطانيا" مارس هؤلاء الملالي الشيعة نفوذا وسلطة على عقول الجماهير. وأحيانا كان من يوصف ممثل الله يتحدث بلكنة بريطانية أو روسية. كان من الصعب على الفلاح تفسير أين ينتهي الدين وأين تبدأ السياسة؟.(٣٢)

وأضافت الأميرة أشرف أنه بعد الحرب العالمية الثانية عززت بريطانيا من قوة اليمين الإسلامي في إطار حربها الباردة من أجل السيطرة على المنطقة. وقالت "بتشجيع من البريطانيين الذين اعتبروا أن الملالي قوة فعالة في مواجهة الشيوعيين، بدأت عناصر دينية متطرفة تظهر مرة أخرى بعد سنوات من دحرها".(٣٣)

وقال الشاه نفسه في مذكراته التي كتبها قبيل موته في المنفى أن الرجل الذي قتل رئيس بلاطه في عام ١٩٥٠ فخر أراي كان له علاقات مع جماعة تدعي إخلاصها الشديد للإسلام والبريطانيين في الوقت ذاته. وكتب الشاه أن أراي كان عضوا في جماعة دينية شديدة المحافظة (متطرفة) تتألف من عناصر دينية متطرفة جاهلة. وأضاف الشاه أن أراي يحتمل أن يكون له علاقات أيضا مع السفارة البريطانية في طهران وأن البريطانيين وضعوا أصابعهم في كل شق وكان لهم علاقات مع رجال الدين الرجعيين في البلاد. (٤)

تعرض نفوذ بريطانيا النفطي في إيران للخطر في مطلع الخمسينيات حيث كانت تسيطر سيطرة كاملة على موارد النفط الإيرانية منذ الحرب العالمية الأولى، ولم يكن مستغربا أن ترى أمريكا أن مصدق شخصية مواتية. كان مصدق يسعى إلى إعادة التفاوض مع بريطانيا حول الاتفاقية النفطية بحيث يتوصل إلى شروط أفضل لإيران.

وكان البريطانيون يهددون ويتوعدون. أما واشنطن التي تختلف مع لندن حول نفط الشرق الأوسط فقد وفرت المساعدات وباعت السلاح لحكومة مصدق الذي زار واشنطن في ١٩٥١. وقال أحد المؤرخين البارزين أن الرئيس ترومان أرسل برقية تنفي نية بريطانيا غزو إيران. (٣٥) لكن عندما رفض مصدق خطة أمريكية تسمح للشركات الأمريكية بالدخول في إيران تحول التأييد الأمريكي لمصدق وانقلبت عليه. وفجأة تضامنت المخابرات الأمريكية مع البريطانية للتآمر من أجل إقالة مصدق.

وصول كاشاني

كان كاشاني حليفا لمصدق في الجبهة الوطنية حتى عام ١٩٥٢ والجبهة الوطنية هي الائتلاف الوطني الذي حكم إيران في ظل الشاه. لكن عندما انقلبت الولايات المتحدة وبريطانيا ضد مصدق تخلى عنه كاشاني وتحول إلى المعارضة. وحافظ كاشاني على علاقات سرية مع الجماعات التي كانت تسلك سبيل الإرهاب السري وتنسب نفسها إلى الإسلام لكنه في العلن كان بعيدا عن جماعة النساك المسلمين وما يتعلق بهم. وكانت المخابرات الأمريكية على علم بسلطة كاشاني. وقالت المخابرات في تقرير في أكتوبر ١٩٥٢ بعنوان "احتمالات نجاة نظام مصدق في إيران" : "منذ تولي مصدق السلطة في يوليو ١٩٥٢ هناك تقارير عديدة عن مؤامرات لإقالته. وجاء ذكر اسم كاشاني وضباط جيش في تلك التقارير. وستكون المواجهة في الشوارع بين القوى المؤيدة لمصدق والمؤيدين لكاشاني مريرة ومدمرة".(٣٦)

ومن بين القوى التي يمكن أن يعبئها كاشاني غوغاء السوق وقطاع الطرق التابعين لإبنه وجماعة فدائيي الإسلام الإرهابية (*) التي تضم متطرفين مسلمين. وفي الوقت الذي كان يكتب فيه التقرير من قبل ممثلي السي أي أيه كانت وحدة سرية تابعة للمخابرات تعمل فعلا مع كاشاني لتعبئة قواته لإثارة تلك المواجهة في الشوارع. وفي مذكرة عام ١٩٥٢ لوزارة الخارجية يقول أحد حلفاء كاشاني توقعا للعنف "قد يكون ذلك ضروريا لمعاقبة الشيوعيين بدنيا".(٣٧)

---

* يبدو المؤلف حريصا بشكل مبالغ فيه على وصم كل ما هو إسلامي بالإرهاب.

وأجرت المخابرات الأمريكية والبريطانية اتصالات مع كاشاني في ١٩٥٢ و ١٩٥٣ فضلا عن عدد من القادة الدينيين في إيران وعرضت أموالا ومزايا أخرى للانفصال عن مصدق وتأييد الشاه. وقال دوريل: "تم تشجيع القادة الدينيين بالأموال لاتخاذ موقف أكثر تطرفا وتشددا والانفصال عن مصدق. (٣٨) وقاد البريطانيون العملية باستغلال شبكة استخباراتية واسعة في إيران منها عناصر من الشركة الأنجلو إيرانية للنفط التي كان لها مخابرات خاصة بها في سرية تامة ومكتب المعلومات المركزي. وكان البريطانيون نشطون بالطبع في العمليات السرية ضد مصدق من قبل أن تدخل أمريكا في اللعبة لكن التقارير أفادت بأن الأمريكيين كان لديهم القناة الرئيسية مع كاشاني. ولعبت آن لامبتون أستاذ الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة اكسفورد دورا مهما من خلف الكواليس من أجل إقالة مصدق. وأشارات تقارير بأنها قالت إن كاشاني تلقى أموالا كثيرة من مكان ما وأن المكان قد يكون المخابرات الأمريكية. (٣٩)

ومن ١٩٤٦ إلى ١٩٥٣ كان الرجل الذي أدار العمليات السرية الأمريكية في إيران هو جون والر الضابط القديم المخضرم في المخابرات الأمريكية الذي انضم إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية في الحرب العالمية الثانية وظل مع المخابرات حتى السبعينيات. وقضى والر غالبية وقته في القاهرة وطهران في الحرب العالمية الثانية وكان شابا يافعا ويتولى مسئوليات كبيرة بالنسبة إلى سنه. ويقول وارل: "كنت هنا" مشيرا إلى ترؤسه المخابرات المضادة في الشرق الأوسط وهو في سن التاسعة عشر. وفي عام ١٩٤٦ عندما كان والر في بداية العشرينات فتح أول محطة استخباراتية أمريكية بعد الحرب العالمية الثانية في إيران واستغل جواسيس المان سابقين لمساعدة أمريكا في الحرب الباردة والعمل مع قادة القبائل الإيرانية ومنهم القاشقاي والبختياري والأكراد. ويقول والر بعد أن بلغ الثمانيات من العمر"كنا كضباط نحب مصدق" وأضاف أن ابنة أخ مصدق تزوجت ضابط مخابرات أمريكي. لكن الأمريكيين بدأوا بعد قليل ينحازون إلى بريطانيا التي تكره مصدق. وقال والر: "كان لدينا التزام مع حليفنا القديم بريطانيا وكان النفط مشكلة. وأشار والر إلى أن أحد نقاط قوة مصدق كانت

الملالي والتجار وكان الإثنان مقربين من بعضهم جدا. وكان الملالي يسيطرون على الناس خاصة الطبقات الفقيرة منهم. (٤٠)

وقال والر الذي كان رئيسا لمكتب المخابرات الأمريكية وطور علاقات طيبة مع آيات الله خلال سبع سنوات قضاها في إيران إن أهم الزعماء الدينيين كان كاشاني. ويضيف والر إنه رسم صورة لكاشاني ثم يكرر "أو يجب أن أقول آية الله كاشاني". ويقول والر أن كاشاني جلس أمامه ليرسمه لكن والر رسمه من صورة فوتوغرافية. ويؤكد والر أن كاشاني لم يصبح عميلا للمخابرات بشكل كامل" لكن المخابرات الأمريكية والبريطانية كان لهما عملاء مهمين في التحالف المناهض لمصدق وكان بعضهم يتعاملون مع التجار وآيات الله. وكان واضحا أن رجال الدين مهمين جدا. وقال لي كاشاني عن سبب خروجه من تحالف مصدق أن مصدق كان متساهلا مع حزب توده. وكان هؤلاء مرادفين للروس ورجال الدين لا يحبون الشيوعية. حبا الله كاشاني سلطة سياسية. إنهم مثل اليمين المسيحي في أمريكا. كان كاشاني هو خميني تلك الأيام. كان له سلطة على الكنيسة (*). وكان له سلطة على الفقراء الذين يشكلون الغالبية العظمى في الجنوب. وكان رجال الدين مقربون جدا من التجار".

هل مولت المخابرات الأمريكية كاشاني بشكل مباشر؟ نعم؛ وفق كلام والر الذي قال إن المخابرات مولت كاشاني ومن حوله وكانوا يغدقون الأموال على قنوات اتصاله وعلى من هم في جنوب طهران. وأكد والر إن آيات الله كانوا فاسدين، مضيفا إنه يعتقد أن كاشاني كان متدينا لكنه فاسد. مضيفا: أن كونك متدين لا يعني ألا تكون على ارتباط مع الواقع الذي تعيشه سواء الإقتصادي أو السياسي أو حتى ممارسة الجنس.

ووجدت المخابرات الأمريكية والبريطانية أنه من الأسهل مع وجود كاشاني التحريض على مظاهرات في الشارع ضد مصدق وضد الشيوعيين. وكانت سلطة ونفوذ كاشاني على سكان طهران وفقراء الأحياء القذرة كبير. وتصادف الانقلاب العسكري الذي أطاح بمصدق مع مظاهرات مولتها المخابرات الأمريكية باستغلال جماهير موالين لكاشاني نظمهم رجال الدين وعصابات مدفوعة الأجر. وعاد والر إلى واشنطن

* لعل المؤلف يقصد هنا المسجد على غرار سلطة قادة الدين المسيحيين في الغرب.

للإشراف على الانقلاب من المقر الرئيسي وأدار كيرميت روزفلت العملية من الموقع على الأرض. وانضم الإخوان بوسكوس الإيرانيان تحت سيطرة المخابرات الأمريكية وثلاثة إخوان آخرين هم إخوان الرشيد، تحت سيطرة المخابرات البريطانية، إلى شعبان جعفري الرياضي والممثل الإيراني الشهير للعمل مع كاشاني في جمع المتظاهرين. ويقول والر إن أحد رجاله كان يدعى "عديم المخ The Brainless one ". وكان الرجل بطلا رياضيا في العدو وكان ضمه للعمل معنا مثل انضمام نجم سينمائي، فهو يستطيع جمع الدهماء بسرعة كبيرة ودفعنا لكل هؤلاء.

وقال دوريل إن المخابرات الأمريكية والبريطانية أقامت اتصالات مع رجال الدين المحافظين عن طريق إخوان الرشيد ومن الذين أجروا معهم اتصالات آيات الله بورجيردي وبهبهاني الذين كانوا يخشون أن يلقي المد اليساري عن طريق مصدق بتأثيرات سلبية على الأمن القومي، فضلا عن آيات الله الغاضبين من الجبهة الوطنية وكاشاني ومكي الذي ادعى أن الوزارات كانت مليئة بمستشارين من الملحدين من الكرملين السوفيتي. (٤١) ولم يكن الإسلام في ذاك الوقت قد رفع رأسه بطريقة منظمة لكن الشيوعية والإسلام لم يتفقا أبدا كما يقول والر. (٤٢)

والجزء الهام من عمل المخابرات الأمريكية في إيران في مطلع الخمسينات تضمن جهودا لتعبئة المشاعر الدينية الإيرانية ضد الاتحاد السوفيتي. وجاء ذلك في وقت جربت فيه أمريكا ذلك مع المشاعر الإسلامية المناهضة للشيوعية في مصر وباكستان وأماكن اخرى. وفي إيران كان تركيز المخابرات الأمريكية على حزب توده رغم أن الحزب لم يكن يمثل تهديدا جادا أبدا. ولم يكن مصدق شيوعيا وجاء إلى السلطة بدعم أمريكي. لكنه عندما دخل في قائمة أعداء واشنطن لجأت المخابرات إلى تشويه سمعته عن طريق تصويره على أنه خاضع لسيطرة الشيوعية خاصة في الإعلام الموجه إلى الملالي. وتم تنسيق الجهود الإعلامية عن طريق ضابطين من المخابرات الأمريكية سوف نقابلهم في وقت لاحق هما دونالد ويلبر وريتشارد كوتام.

ويقول دوريل: "كانت الخطوة التالية الاستفادة من خبرتنا في الحرب النفسية. ارسل آية الله بهبهاني الذي يتقاضى أموالا من الأمريكيين، رسائل تحمل ختم حزب توده

وتحتوي تهديدات شديدة بالحبر الأحمر بشنق جميع الملالي على أعمدة النور في مختلف المدن الإيرانية (٤٣)وذلك في محاولات لتشويه سمعة اليسار تماما".

ويضيف دوريل إن المخابرت الأمريكية استغلت صحفيين مثل كينيت لوف من نيويورك تايمز ودون شويند من الاسوشيتدبرس كعملاء للترويج لتلك الدعاية. (٤٤) واستغلت المخابرات الأمريكية آيات الله أمثال بهبهاني لنشر تهديدات خطيرة من توده بشأن شنق الملالي فضلا عن أنها دفعت العملاء المستفزين لتعبئة رجال الدين الإيرانيين. ودفعت المخابرات الأمريكية والبريطانية بالمستفزين والغوغاء على أنهم من أتباع حزب توده إلى الشارع للقيام بتظاهرات يشوبها العنف لمهاجمة المؤسسة الشيعية الإيرانية.

وقال دوريل "خرج الغوغاء إلى الشوارع وكان عنصرا هاما في المؤامرة تصوير الغوغاء على أنهم من مؤيدي حزب توده لتوفير سياق مناسب للانقلاب واستعادة الشاه للسلطة. واستأجر عملاء المخابرات البريطانية أعضاء مزيفين في توده ومن جميع الفئات الإيرانية ودفعت لهم ٥٠ الف دولار أمريكية سلمها ضابط في المخابرات الأمريكية. وأشرف روبرت كوتمان على هؤلاء العملاء الذين يعملون لصالح المخابرات البريطانية ورأى الفرصة سانحة فأرسل الذين يعملون تحت أمرتنا إلى الشوارع على أنهم أعضاء في حزب توده. وكان هؤلاء كثر من مثيري الشغب والاستفزاز فقد كانوا قوات خاصة يتصرفون على أنهم من حزب توده ويلقون بالحجارة على المساجد وعلى الملالي." وقال كاتب آخر إن الهدف من ذلك هو إرهاب الإيرانيين وجعلهم يعتقدون بأن انتصار مصدق سوف يكون انتصار لحزب توده والاتحاد السوفيتي ومعاداة الدين".(٤٥)

وبعد عودة الشاه كثفت الجهود لإعادة المارد الإسلامي إلى الزجاجة. لكن قوة الإسلام السياسي التي ظهرت في إيران منذ العشرينات كانت قد استيقظت الآن بفعل المخابرات الأمريكية والبريطانية. ولن يكون من السهل تهدئة تلك القوة مرة أخرى وبتعبير دقيق فإن القوى التي أطاحت بالشاه في عام ١٩٧٩ هي نفس القوى التي أعادته إلي السلطة في عام ١٩٥٣. وفي الخمسينات بذل الشاه و مخابراته السرية (السافاك)

جهودا جبارة لإخضاع الإسلاميين للسيطرة و شراء الذمم والفساد أو تحييد الملالي الذي ينتمون بفكرهم إلى العصور الوسطى. ويقول فريدون هوفيدا السفير الإيراني لدى الأمم المتحدة سابقا، وكان أخوه رئيس وزراء الشاه لعدة سنوات، إنه خلال حكم الشاه كانت الحكومة تدفع لرجال الدين أيضا. ويضيف هوفيدا إن بعض الأموال جاءت من أخيه (رئيس الوزراء) والبعض الآخر من السافاك. وكان هناك عملاء للسافاك بين رجال الدين أيضا (٤٦) لكن الشاه فضل أن يعتبر الدين أمرا من الماضي. وعندما بدأت الحركة ضد الشاه في السبعينات لم يلاحظ هو ولم يلاحظ مساعدوه بدء التحرك أو ماهيته. فبعد ١٩٥٣ تلاشى كاشاني من الوجود تقريبا لكن جماعته سوف تطلق فيروسا من نوع جديد من الإسلام السياسي. وقد كان في بداية اعتلائه السلطة.(*)

كانت الأربعينيات والخمسينيات سنوات التشكيل بالنسبة للخميني. كانت رؤاه السياسية تتطور رغم أن كتاباته خلال الحرب العالمية الثانية كانت بمثابة كارثة للديكتاتورية السوداء لرضا شاه الذي انتهى حكمه عند إقالته في عام ١٩٤١. (٤٧) كان الخميني بالسليقة يميل إلى إدانة المؤسسة الشيعية الدينية في إيران. فقد كان منجذبا تجاه كاشاني ونواب صفوي وجماعة شديدة الولاء للإسلام وبدأ يطورآراءه المتشددة. وقال باقر معين الذي كتب قصة حياة الخميني إنه كان في موقف سياسي خلال تلك الفترة بين المؤسسة الدينية والجماعة الدينية المتشددة. وقال باقر معين: "كان الخميني يعارض العلمانية ويؤمن بقوة بضرورة الحكم بالشريعة الإسلامية وكان له ميول للعب دور نشط وفعال. بمعنى آخر استوعب الخميني بعض أفكار الجماعة الإسلامية المتشددة في إطار محادثاته مع نواب صفوي الذي كان يزور منزل الخميني بانتظام".(٤٨)

بدأ كاشاني يقوم بدور المعلم للخميني عند تلك المرحلة. ولعل من بين المؤشرات على تطور أفكار الخميني السياسية في ذلك الوقت إعجابه بآية الله أبو القاسم كاشاني (١٨٨٢- ١٩٦٢) الذي كان مرتبطا منذ ١٩٤٥ بجماعة الفدائيان الإسلامية. كان الخميني يزور منزل كاشاني بانتظام وأعجب بشجاعته وقوة احتماله، وشاركه الرأي في

* هكذا يستخدم المؤلف لغة احتقارية في وصف من يعتبر خصومه وهم الإسلاميون تجعلنا نتساءل عن صفة الموضوعية التي يحاول أن يبدو بها على صفحات كتابه.

العديد من القضايا مثل معارضة الاستعمار وعولمة الإسلام والنشاط السياسي وحكم الشعب. (٤٩)

خلال انقلاب ١٩٥٣ كان الخميني مشتركا مع جماعة "المخلصين" الإسلامية الإرهابية (*) وحتى بعد قرار كاشاني أن يظل بعيدا. لكن الخميني وكاشاني ظلا مقربين وتبع الخميني نصيحة الأول بالانفصال عن مصدق وتأييد عودة الشاه. ولا يزال الخميني مرتبطا بالمخلصين الإسلاميين وتدخل في الجهود الرامية لمنع إعدام نواب صفوي في منتصف الخمسينات. لكن آية الله تعلم الكثير من خبراته في عام ١٩٥٣. وشعر الخميني أن كاشاني وجماعة المخلصين الإسلامية كانوا مسيسين وفقدوا كل ارتباط مع العلماء في مدينة قم المقدسة. وكان بوروجيردي من جانب آخر، رغم إعجاب الخميني به بسبب علمه الديني بعيدا جدا عن السياسة. وقضى الخميني السنوات العشر التالية يسعى إلى توحيد العناصر السياسية والدينية في الحركة الشيعية الإيرانية، إلى أن ظهر فيما بعد فجأة على الساحة بين ١٩٦٣ و ١٩٦٤ ليشكل تحديا للشاه.

وستنسى أمريكا كل شيء عن الإسلام في إيران في هذا الوقت. لقد أعيد الشاه وتم تأمينه. وفازت واشنطن بحصة جيدة من النفط الإيراني للشركات الأمريكية وانشغلت بمساعدة الشاه في بناء جيشه وقوات الشرطة والمخابرات الإيرانية أو السافاك. ورغم مساعدة بعض الملالي في إقالة مصدق فان الشاه ذو الميول الغربية لم يكن في حالة مزاجية تسمح بمشاركة السلطة مع أي أحد سواء كانوا الليبراليين أو رجال الأعمال أو رجال الدين. لذلك توارى الإسلاميون في غضب شديد وترصدوا له دون أن يلاحظهم أحد. انتقلت الآن قصة الإسلام السياسي وتحالفه مع أمريكا إلى الوطن العربي. فقد كان جمال عبد الناصر يمثل خطرا داهما على ايديولوجيات الحرب العالمية الثانية التي وضعتها حكومة ايزنهاور، بعد خروجه منتصرا من حرب ١٩٥٦ وعدم انكساره. وتم دحر الإخوان المسلمين في مصر واضطروا إلى الهرب للخارج. واتجهت أمريكا إلى السعودية لوقف ناصر ودعم القوى المناهضة للشيوعية والقومية في أنحاء الوطن العربي.

* لعله ليس غريبا على القارئ الآن أن يكون قد اعتاد على وصف المؤلف لكل ما هو اسلامي بالإرهاب.

الفصل الخامس

ملك الإسلام

"ذكاؤكم أيها الأمريكيون هو أنكم لم تقوموا بأي حركات غبية، فالحركات الغبية المعقدة فقط تجعلنا نتساءل عن إمكانية أن يكون فاتنا شيء". جمال عبد الناصر – ١٩٥٧

كان دوايت ديفيد أيزنهاور جنرالا جيدا ورئيسا متواضعا وضعيف المعلومات عن الإسلام. بعد حرب السويس عام ١٩٥٦ بفترة وجيزة وبعد تدخل أيزنهاور لإجبار إسرائيل على الانسحاب من سيناء وإفشال المؤامرة الأنجلو فرنسية ضد مصر تحت حكم جمال عبد الناصر، كانت الفرصة قائمة أمام أمريكا لتحسين العلاقات مع ناصر والقومية العربية. لكن أيزنهاور لجأ بدلا من ذلك إلى التحالف مع السعودية مما جعل معركة الإسلام المتشدد تنتقل إلى حليف أمريكا الأول في العالم العربي، أي السعودية. وسوف تكون السعودية، حتى وفاة ناصر عام ١٩٧٠، أكثر الدول الخاضعة للنفوذ الأمريكي في العالم العربي. أقام أيزنهاور علاقات طيبة مع السعودية مثل سابقيه من رؤساء أمريكا، على أساس أهمية الثروة النفطية التي تملكها المملكة. لكن أيزنهاور وسع من نطاق تلك العلاقات لتشمل تحالف شمولي مع ما يمكن وصفه بنسخة من الإسلام تتسم بطابع سعودي. ووضع أيزنهاور الخريطة التي سارت عليها من بعده حكومات كل من كنيدي وجونسون ونيكسون.

كان حجر الزاوية في سياسة أمريكا في الشرق الأوسط هو مبدأ أيزنهاور وأعلن ايك هدف أمريكا الاستعماري القائم على إدخال الشرق الأوسط ضمن دائرة النفوذ الأمريكية. وقال ايك: "لابد من ملء الفراغ في الشرق الأوسط بواسطة أمريكا قبل أن تملأه روسيا. (١) ووعد الرئيس في رسالة إلى الكونجرس في يناير ١٩٥٧ بأن أمريكا سوف توفر المساعدة العسكرية والمالية لدول الشرق الأوسط التي تطلب تلك المساعدات لصد أي هجوم من جانب أي دولة تدور في الفلك الشيوعي. (٢) ودعا أيزنهاور الملك سعود، دعما هذا المبدأ، إلى زيارة رسمية إلى واشنطن وركز على أهمية السعودية بذهابه شخصيا إلى المطار لاستقبال الملك الزائر. وتبنى الملك ذاته مبدأ أيزنهاور ردا على هذا الكرم الزائد. كان منطقيا أن يعتقد أيزنهاور أن السعودية هي هدية أمريكا لأن

ربع نفط العالم يقع تحت أرضها ولابد من حمايته. لكن أيزنهاور رأى السعودية أكثر من كنز لأنها تلعب دورا مركزيا في العالم الإسلامي وأيزنهاور يعتقد أن أمريكا والإسلام يمكن أن يقفا سويا ضد الاتحاد السوفيتي وضد قوميين يساريين مثل ناصر.

وسعى أيزنهاور ومدير المخابرات الأمريكية وجون فوستر دالاس وزير الخارجية إلى إنشاء تحالف مع الحركة الوهابية الإسلامية السعودية وشجعوا السعودية على إعادة بناء الإخوان المسلمين لمواجهة ناصر. كان إيزنهاور يخشى أن يستغل السوفيت ناصر ليكون زعيما لاتحاد إسلامي ضخم. وقال إيزنهاور: "أردنا أن نختبر إمكانية تحويل الملك سعود إلى قوة مناظرة لناصر في محاولة لتحييد أي حركة في هذا الإتجاه (أن يجعل السوفيت ناصر زعيما على الأمة الإسلامية). وكان الملك اختيارا مثاليا في تلك الظروف فهو على الأقل معاد للشيوعية ويتمتع بمكانة عالية بين الدول العربية على أساس ديني".(٣)

لكن الفكرة لم تكن جيدة. أولا خوف أيزنهاور من أن السوفيت على وشك تحقيق مكسب كبير في الشرق الأوسط كان مبالغا فيه وفكرة أن يلجأ الاتحاد السوفيتي إلى استغلال الإسلام فكرة غير صائبة بالمرة. حقيقة أن الاتحاد السوفيتي كان يحاول القفز إلى دول مثل تركيا وإيران وباكستان المعادية للشيوعية وفعل ذلك بالسعي إلى فرض نفوذه على الشرق الأوسط خاصة بإقامة علاقات مع ناصر وبعد ١٩٥٨ كان يأمل السوفيت في أن الحركة الثورية في العراق سوف تنتشر في العالم العربي بالتحالف مع مصر. لكن الحكومة المصرية والحكومة العراقية لم تكونا من المؤيدين للشيوعية ولم يحدث أبدا تحالف مصري عراقي. (٤) فضلا عن ذلك، رغم أن السوفيت قد يكونوا بحثوا عن توحيد قومي عربي مع التركيز على القومية، فان موسكو كانت تخشى من أن صعود الإسلام يمكن أن يصل إلى تخومها في وسط آسيا ولم يكن لديهم نية أى تعزيز فكرة الوحدة الإسلامية في الشرق الأوسط. غير أن كل تلك الأسباب لم تمنع ايك من الاستمرار في التحالف مع الرياض.

الأكثر من ذلك أن فكرة التحالف الأمريكي السعودي القائم على الإسلام أغفلت أن الملك سعود لا يتمتع بهذه الشعبية الكبيرة بين المسلمين. ويقول جيمس اكينز

الدبلوماسي الأمريكي المخضرم الذي خدم كسفير في السعودية في السبعينات(٥)، إن الملك سعود كان ضعيفا... ولا يعرف شيئا عن العالم الحديث... وكان الملك أيضا متزوجا من عشرات الزوجات والمحظيات أنجبن له مئات الاطفال(٦) فكان بالمعنى الحرفي للكلمة "أبا" للدولة التي يحكمها(*) والخلاصة أنه كان من الصعب أن يكون الملك سعود الأساس الذي تقوم عليه إمبراطورية في الشرق الأوسط خاصة إذا كان يرجى أن يكون الأساس شخصية لها شعبية إسلامية.

ولم يكن الملك سعود يتميز إلا بأنه راعي الحرمين الشريفين اللذين يقعان على أرض بلاده. وسوف يتضح لأميركا أن دور السعودية كرمز للإسلام على مستوى العالم يستحق التفكير بشكل استراتيجي أكبر مع بلوغ الحرب الباردة مرحلة النضج. وكان الملك سعود في ذاك الوقت يحاول تصوير نفسه على أنه ملك الإسلام، أو العالم الإسلامي بأكمله، الأمر الذي انطلى على إيزنهاور. وكتب الرئيس الأمريكي يقول عن السعودية أنها "تضم بين جنباتها الحرمين الشريفين" وبرر موقفه بأن الملك السعودي يمكن أن يكون الزعيم الروحي. (٧) وقال ناثان ستينو صاحب الدراسات عن العلاقات الأمريكية السعودية خلال حكم أيزنهاور إن تنصيب الملك سعود زعيما للإسلام جزء من استراتيجية تبنتها أمريكا وبريطانيا معا تسمى "استراتيجية أوميجا" . وأصر أيزنهاور في تبرير سياسته على هذا الصعيد على التأكيد على أن الجهود الأمريكية ترمي إلى فصل السعودية عن مصر والمصريين. (٨) وتشجع الرئيس والمخابرات الأمريكية عندما طلب الملك من الوهابيين فتوى شرعية تحرم قبول المساعدات للمسلمين من السوفيت والكتلة السوفيتية. وبدات جهود لرسم إستراتيجية إسلامية في بداية عام ١٩٥٧. وقال ستينو في كتاباته عقب الاجتماع بين أيزنهاور والملك سعود استغلت أمريكا الإسلام ضد الشيوعية وسعت الحكومة الأمريكية إلى انتهاز الفرص لمواجهة انتشار الاشتراكية في الشرق الأوسط. وأضاف ستينو يقول شكل أعضاء مجلس الأمن القومي في أواخر يناير لجنة لدراسة المنظمات الإسلامية وكان لديها قائمة

* يورد المؤلف هنا استشهادا يحوي مجموعة من التوصيفات بالغة السلبية للملك سعود التي تدخل في عداد السب والقذف ورأينا عدم نشرها.

بالجماعات الاجتماعية والثقافية والدينية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، مثل الجماعات الصوفية التي سوف تستهدفها الآلة الاعلامية الأميريكية بالدعاية. (٩)

وكان زعيم خبراء الإسلام في المخابرات الإسلامية في ذلك الوقت هو دونالد ويلبر الذي ساعد في تدبير الانقلاب في ايران عام ١٩٥٣. ويقول جون والر المسئول المستقيل من المخابرات الذي اشرف على الانقلاب الايراني من مقره هناك إن ويلبر كان يعرف كل شيء عن الإسلام. (١٠) لكن ويلبر وصف عمله في مجال الإسلام في مذكراته بعنوان" مغامرات في الشرق الأوسط" بقوله: "أحد الأمور التي كنت ناشطا فيها هي الإسلام والمسلمين في الشرق الأوسط. وأصبحت الأكثر تخصصا في تلك الأمور في المخابرات لأنه لم يكن هناك خبيرا حقيقيا في الإسلام. وفي ربيع ١٩٥٧ كنت عضوا في لجنة المخابرات الأمريكية حول الإسلام ثم شاركت في كتابة تقرير اللجنة عن الإسلام. وراجعت ملفات وجمعت مطبوعات ومعلومات عن الرحلات عندما كنت في القيادة وفي العمل الميداني. وكتبت عددا من الدراسات منها الإسلام في إيران والإسلام في باكستان والإسلام في أفغانستان إلخ. وكانت تلك الكتابات الضوء الهادي للعمل مع الجماعات الإسلامية." (١١)

وضمن ويلبر في ابحاثه كتابات بلغت حد القول بأن المسلمين في وسط آسيا يمكن تعبئتهم ضد الاتحاد السوفيتي ونسق الجهود الدعائية التي تهدف إلى "فضح الموقف الشيوعي من الإسلام".(١٢)

كما سعى أيزنهاور إلى أراء من خبراء في الإسلام من خارج المخابرات منهم علماء أكاديميين. وقال ستينو إن الرئيس سعى إلى بعض المستشرقين المهمين من أجل ذلك ومنهم من شارك في مؤتمر برينستون عن الإسلام الذي حضره سعيد رمضان من الإخوان المسلمين. وقال ستينو: "قامت حكومة أيزنهاور برعاية مؤتمر في واشنطن دعت إليه كبار المؤرخين في الشرق الأوسط ومنهم مؤرخ الإمبراطورية العثمانية والأستاذ بعد ذلك في جامعة في شيكاغو خليل إينالسيك. وحضر الموظفون في مجلس الأمن القومي مؤتمرات أكاديمية بصفة دورية وجمعوا دراسات عن الشرق الأوسط المعاصر. وقال برنارد لويس في أحد الدراسات إن الصوفيين النقشبندية الذين يعيشون

في المنطقة القوقازية يمكن استغلالهم كطابور خامس داخل الإمبراطورية السوفيتية. وكانت تلك إحدى الدراسات عن الشرق الأوسط التي تطرقت إلى الحرب الباردة ووجدت بين أوراق موظفي مجلس الأمن القومي." (١٣)

أجرى مستشاران مقربان للملك سعود هما يوسف ياسين ومحمد سرور سبحان محادثات مع وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس. (١٤) ياسين كان من اللاذقية في سوريا وكان على صلة وثيقة بحاشية الملك وزار السعودية لأول مرة بتوصية من رجال السياسة اليمينيين في سوريا. وكان ياسين يرعى المصالح المالية لملك السعودية في سوريا. واستغل ياسين أموال الملك وعلاقاته في سوريا لقلب نظام الحكم. وقامت المخابرات الأمريكية أيضا في ١٩٥٦ /٥٧ بعملية تهدف إلى الإطاحة بالحكومة السورية. (١٥) وفي عام ١٩٥٨ عمل ياسين على تنفيذ مؤامرة سعودية للقضاء على الرئيس المصري ناصر عندما كان يقوم برحلة إلى دمشق. وأعلن رئيس المخابرات السورية عن المؤامرة وكشف أن السعودية عرضت عليه رشوة قيمتها ١.٩ مليون استرليني للمساهمة في تنفيذ المؤامرة. ولم تكن تلك آخر محاولة أمريكية سعودية للقضاء على زعماء القومية العربية. ودور محمد سرور سبحان هو الأكثر إثارة.

كان سرور عبدا عند نائب وزير المالية السعودي في الأربعينيات ونال حريته وكان المندوب المالي الذي يوصل مساعدات الملك إلى الإخوان المسلمين في مصر. في الخمسينات أصبح سرور وزيرا للمالية وأقرب المستشارين إلى الملك سعود. وفي الستينات سيتولي منصبا ذي نفوذ كبير ويشرف على الجهود السعودية في العالم لتعزيز مكانة الإخوان المسلمين وجماعات إسلامية متشددة أخرى من أفريقيا إندونيسيا. وبحث سرور مع دالاس قضية الإخوان المسلمين. وكانت أمريكا تعد قوائم بأسماء أعضاء الإخوان المسلمين خلال الحرب الباردة وتؤيد قيام تحالف بين الإخوان والسعودية التي كانت أكبر ممول للإخوان.

وردا على سؤال حول قرار تأييد إنشاء محور إسلامي بقيادة السعودية ضد ناصر قال مسئول سابق في المخابرات الأمريكية خدم في الشرق الأوسط خلال الحرب الباردة "من هو القطب الذي كان موجودا في ذاك الوقت؟ الملك حسين؟ الموضوع هو

الحرب الباردة. لقد كانت تلك الحرب أهم معركة في ذاك الوقت. كنا نرى أن ناصر اشتراكيا ويعادي الغرب ويعادي حلف بغداد وكنا نبحث عن قطب يواجهه. الجهود السعودية لأسلمة المنطقة كانت تعتبر قوية وفعالة ويحتمل أن تنجح. أعجبنا بتلك الفكرة. أصبح لدينا حليف مضاد للشيوعية".(١٦)

وكان من نتائج جهود أيزنهاور لجعل السعودية في الخمسينات حجر عثرة في طريق الشيوعية، ظهور أسرة بن لادن. وخصص ايك نصف مليون دولار للسعودية لدراسة إنشاء خط سكة حديد لحمل الحجاج إلى مكة في إطار الجهود الرامية إلى تعزيز وضع مكة لتكون مركزا العالم الإسلامي في إطار السعي إلى استعادة المكانة السعودية واستغلالا للحرمين الشريفين. وعين الملك سعود الشيخ محمد بن لادن لإعادة بناء الحرم في مكة. وكان من أثر ذلك المساهمة في إثراء بن لادن وتراكم ثروته اعتبارا من هذا العقد .

الملاذ السعودي للإخوان

في البداية كانت السعودية تمد الإخوان المسلمين بالمساعدات المالية. وبعد ١٩٥٤ أصبحت السعودية نفسها القاعدة الرئيسية لعمليات الإخوان. وعندما ضرب ناصر على أيدي الإخوان في مصر وفرت السعودية لهم ملاذا مهما وهرب العديد من أعضاء الجماعة إلى المملكة. ووقعت تلك الهجرة في الوقت الذي كانت أمريكا تتخلى عن ناصر وتتجه إلى السعودية. استقر الإخوان في الإردن واشتغلوا في التجارة هناك، الأمر ذاته الذي خاضوا فيه في الرياض ومكة والمدينة وساهموا في تحويل الحركة الوهابية نحو التشدد(*). وخلال نصف القرن التالي سوف تتحول المملكة لتكون الملاذ والمورد الرئيسي للإخوان المسلمين وتوفر لهم المأوى والمال والمساعدة بشكل غير محدود.

ويقول ديفيد لونج الذي خدم في مكتب الخارجية للمعلومات والأبحاث (أمريكي) من أسوأ الخطوات التي اتخذها الملك فيصل دعوة الإخوان إلى المملكة. لكن الأمر كان

* لا ندري من السبب في تشدد الأخر فوفق سطور سابقة فإن الوهابية تمثل قمة التشدد، وكذلك الإخوان.

حتميا في ذاك الوقت حيث كان الجميع يحاربون الشيوعية وكنا نحاربها أيضا وكان فيصل يريد أن يحاربها. (١٧) كان فيصل وليا للعهد وسوف يصبح ملكا في الستينات عندما يطيح بالملك سعود في انقلاب داخلي. لكن الجميع كان ينظر إليه على أنه أكثر تحضرا وتقدما وذكاء وحنكة من الملك سعود. كان الإخوان المسلمون حليفا للمملكة لكنهم يشكلون خطرا عليها في نفس الوقت فقد كانت حركة تسعى بشكل حثيث إلى عودة الخلافة الإسلامية.

ويقول جون فول الأستاذ في جامعة جورجتاون أن السعوديين لم يكونوا سعداء بالإخوان، غير أنه إذا كنا وهم نخشى موت ناصر، فإن الإخوان كانوا الورقة الرابحة. (١٨) وقد استغلت السعودية الإخوان ضد مصر وسوريا والعراق في السياسة الخارجية وخارج البلاد وشيدت نفوذها وقوتها في السودان وشجعت الحركة في أفغانستان وباكستان حيث تحالفت مع جماعة أبو الأعلى المودودي الإسلامية وتلاعبت حتى بالإخوان عندما دعمتهم في وسط آسيا. لكن في الداخل لم تكن العائلة الملكية السعودية تسمح بنشاط الإخوان. ويقول راي كلوز عميل المخابرات الأمريكية في السعودية من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٧ (١٩) أن السعوديين كانوا يتسامحون جدا مع الإخوان المسلمين ويشجعوهم في مصر والسودان وبلاد أخرى لكنهم كانوا لا يسمحون بنشاطهم داخل السعودية.

وقال هيرمان ايلتس أحد أكثر الأمريكيين دراية المتخصصين في الشئون العربية والسفير السابق في السعودية إن السعوديين يعارضون الأحزاب السياسية كما هو معلوم. وكان للنظام السعودي تجربة في العشرينات مع الإخوان، ليس بالضرورة الإخوان المسلمين، لكن رجال القبائل الذين تحولوا إلى التشدد الإسلامي. وما يفعله الإخوان المسلمون وحسن البنا في مصر وسوريا يتفق مع الفكر السعودي حول أهمية الإسلام في معارضة القومية العربية وكعنصر قوة للتوحيد. غير أن السعوديين لم يتوقوا إلى وجود الإخوان المسلمين في بلادهم، أي قوة سياسية. السعوديون يكرهون أي قوة سياسية أو أحزاب سياسية. (٢٠) ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن السلطات السعودية رفضت بشدة مسعى حسن البنا خلال عام ١٩٤٦ إنشاء فرع للإخوان المسلمين في مكة. (٢١)

ورغم أن السعودية بذلت كل جهد لمنع وجود الإخوان المسلمين كقوة في المملكة كان الإخوان يعملون هناك بشكل نصف سري. فقد أقام العديد منهم أعمالا تجارية وأقاموا مصارف إسلامية ومؤسسات تعمل حسب الشريعة جعلتهم أثرياء جدا. وأصبح البعض الآخر عناصر مؤثرة في الإعلام. ويذكر كلوز رئيس وحدة المخابرات الأميريكية في السعودية أن ريتشارد ميتشل صاحب كتاب "جمعية الإخوان المسلمين" قدمه إلى إحدى الشخصيات الرئيسية التي قال عنها: "كان مدير تحرير صحيفة المدينة وهو العضو الوحيد في الإخوان الذي قابلته في حياتي. كان مولودا في السودان وقضى بعض الوقت في مصر وكان يعرف كل الإخوان المسلمين. وكانوا يسمحون بوجوده مادام يكتب في صحيفته ضد الشيوعية. واتجه البعض الآخر من الإخوان المسلمين إلى العمل في الجامعات السعودية. لكنهم كانوا يعملون وكأنهم جماعة سرية وكانت عضويتهم في الجماعة سرية (لا يعلنون عنها) وحافظوا على وجودهم السري في العديد من المؤسسات السعودية.

ووجد الإخوان المسلمين في الجامعات السعودية أكثر الملاذات أمانا. لم يكن لدى السعودية نظاما للتعليم العالي وكان كل ما لديها مجرد مدارس دينية تدرس التعاليم الوهابية بين الشباب السعودي. وفي الستينات أنشأت السعودية مؤسستين هما الجامعة الإسلامية في مكة (١٩٦١) وجامعة الملك عبد العزيز (١٩٦٧) وأصبحت المؤسستان مراكز علمية ثقافية لليمين الإسلامي. وبدأت جامعة المدينة المنورة الإسلامية على يد أبو الأعلى المودودي الإسلامي المتشدد وكان من الأمناء فيها وكان يريد أن يجعلها بديلا للتشدد الأكاديمي في مواجهة الأزهر في القاهرة الذي يحمل ثقافة دينية عمرها ألف سنة. (٢٢) واقنع الإخوان المسلمين وحلفاؤهم من الوهابيين العائلة المالكة السعودية بأن الأزهر قريب من ناصر لذلك مولوا إنشاء جامعة المدينة الإسلامية. وعمل عشرات من علماء الدين الإسلامي المصريين المنتسبين إلى الإخوان المسلمين أو المتعاطفين معهم، في جامعة المدينة الإسلامية.

وكان نائب رئيس الجامعة رجلا سوف يتبوأ مركز كبيرا في السياسة الإسلامية في السعودية في العقود التالية هو الشيخ عبدالعزيز بن باز الشاب الأعمى في ذاك

الوقت. كان ابن باز وهابيا متشددا يقاوم التحديث في السعودية ويتبنى العنف والتشدد والإرهاب (*). وفي عام ١٩٦٦ أصر بن باز على أن النظرة العلمية للكون تعتبر هرطقة وأن الشمس تدور حول الارض وأن الارض ذاتها مسطحة. وقال بن باز إن أي شخص يعترض على هذا الكلام يكون آثما وينكر وجود الله وينكر القرآن والرسول. (٢٣) وقد أغضبت هذه الآراء الملك فيصل لكن في عام ١٩٧٤ سوف يعين بن باز رئيسا لمديرية البحث الديني والفتاوى الشرعية ونشر الإسلام والإرشاد. (٢٤)

كان محمد بن ابراهيم الشيخ مفتي السعودية الأكبر يسيطر على جامعة المدينة الإسلامية وهو عميد آل الشيخ الوهابيين. وكان ٨٥% من طلابها من غير السعوديين جاءوا من مختلف البلدان العربية والإسلامية من جميع أنحاء العالم. ومن خلال تلك الجامعة والجامعات الأخرى في السعودية تمكن الإخوان المسلمين من نشر أيديولوجيتهم في كل مكان. (٢٥) وعلاوة على ذلك انخرط عشرات الألاف من الشباب السعودي في نظام التعليم العالي السعودي والذي توسع بشكل غير مسبوق إلى حد زاد معه عدد الطلاب من ٣٦٢٥ في عام ١٩٦٥ إلى ١١٣ ألف طالب في ١٩٨٦. كان نصف الجامعات الست في السعودية جامعات دينية وفق إحدى الدراسات وتخصص ثلث الطلاب في السعودية في الدراسات الدينية. وكان ثلث المناهج الدراسية للنسبة الباقية يركز على الجوانب الدينية. (٢٦)

وشعر جيمس اكينز السفير الأمريكي لدى السعودية في السبعينات بالضيق من شدة التركيز على الدراسات الدينية لكن العائلة السعودية قالت له آلا يتدخل في هذا الأمر. وقال اكينز: "قالوا لي ليس هذا من شأنك". ولم يكن بوسع اكينز أن يفعل شيئا حيال ذلك لكنه إلى جانب سعوديين تقدميين كانوا مستاءين من أن النظام التعليمي السعودي لا يخرج متخصصين في الإدارة والطب والعلوم والهندسة. وقال السفير: "تحدثت إليهم عن تخريج مزيد من الأطباء والصيادلة والمهندسين وتقليل عدد الشيوخ الدينيين لكنهم قالوا لي ليس هذا من شأنك أيضا وإنني أتدخل فيما لا يعنيني. اعتقدت أن

* حتى الشيخ بن باز لم يسلم من توصيفات المؤلف فأصبح هو الآخر يتبنى العنف والإرهاب كيف لا ندري. قد يكون من الصحيح القول أنه قاوم التحديث وقدم آراءا بالغة البعد عن العصر الذي نعيش فيه ولكن أن يتم وصمه بالإرهاب فهذا مما يثير التساؤل عن حدود الموضوعية لدى المؤلف.

هذا أمر يفتقد للمنطق، إنها مأساة محققة، هل معقول تخريج كل هذا العدد من الشيوخ بلا طائل؟". كانت وزارة التعليم تحت سيطرة الشيخ ونفوذه على الوزارة لم يكن لأحد أن يزعزعه.

كانت العلاقة بين آل سعود وآل الشيخ والإخوان المسلمين معقدة. كان بعض أعضاء العائلة المالكة يتسمون بالورع والتدين ويعتقدون بأن الوهابيين على الصراط المستقيم. وكان البعض الآخر بالطبع مثل الملك سعود والملك فهد وعشرات من الأمراء الذين لايسعون سوى إلى المتعة يعيشون بحرية تامة وعلاقاتهم مع الوهابيين مقطوعة على أفضل تقدير.. بدأ آل الشيخ الذين يعتبرون من دماء متميزة، يتزاوجون من العائلة المالكة ويقيمون روابط عائلية جذبت كلتا العائلتين في اتجاهين مختلفين الاتجاه الملكي والاتجاه الديني - أم الملك فيصل مثلا من عائلة آل الشيخ مما يعطيه هالة من التقوى والورع لا يتمتع بها أبناء آخرون للملك عبد العزيز. ويقول ايلتس كانت هناك حرب وشيكة الوقوع بين العائلة الملكية والعائلة الدينية.

وأوضح يقول: "مع مرور الوقت حدث أن أعدادا متزايدة من عائلة آل الشيخ كانت تغادر ولا تتبوأ مناصب دينية بل تدخل الجيش ومناصب من هذا النوع لذلك بدأ نقاء وورع آل الشيخ يتغير لدرجة أن الملك فيصل في ١٩٧١ عندما توفى المفتي ألغى هذا المنصب لفترة وأنشأ وزارة العدل التي كانت تعتبر شوكة في خاصرة هذه العلاقة الطويلة التي استمرت قرنين بين السعوديين والقيادات الدينية. وظلت وزارة العدل لكن الملك أنشأ بعد ذلك دار الإفتاء وعين أحد أعضاء عائلة آل الشيخ رئيسا عليها. كان نفوذ العلماء (رجال الدين أو الشيوخ) كبيرا وتستطيع عائلة آل الشيخ السيطرة عليهم. لكن نفوذ عائلة آل الشيخ ضعف لأن عددا قليلا منهم كان يتجه إلى المناصب الدينية والشباب الجديد أصبح يصبو لأن يكون من العلماء وانكسرت العلاقة بين العائلة المالكة وآل الشيخ إلى حد ما. ثم نصل إلى الوضع الحالي حيث عدد كبير من الشباب يعارضون الأكبر سنا ويعارضون العلماء والعائلة المالكة ويسعون إلى تنفيذ أفكارهم الخاصة وغالبا بالقوة".(٢٧)

ومع ظهور الخلافات بين العائلة المالكة وآل الشيخ بدأ الأخيرين يظهرون صلاتهم بالإخوان المسلمين. وفيما اتسمت توجهات آل الشيخ بأنها دينية خالصة أكثر منها سياسية، فضلا عن حرصهم على الإستقرار بكافة السبل (خاصة الحفاظ على عرش السعودية)، كان الإخوان المسلمين أصحاب توجهات سياسية لكنهم لا يفكرون في الثورات أيضا. وبعد عام ١٩٥٤ ومع استقرار أعداد أكبر من الإخوان في السعودية تحول آل الشيخ إلى مزيد من التشدد. وإذا كان آل الشيخ لهم مصالح نابعة من مصالح العائلة المالكة فإن الإخوان المسلمين كان لديهم نفس المصالح وبقوة أكبر.

وتقول مارتا كيسلر محللة المخابرات الأمريكية في الشرق الأوسط التي درست الإخوان المسلمين، إن وفاء الوهابيين للمؤسسة السعودية والولاء للعائلة المالكة كان مبالغا فيه وينطبق هذا على الإخوان المسلمين في المملكة أيضا. وتقول كيسلر إن الإخوان المسلمين المصريين في السعودية فقدوا الولاء للعائلة المالكة أكثر من آل الشيخ، وليس من الواضح إذا كانوا يريدون الإطاحة بآل سعود والنظام لكن داخل الإخوان كان هناك دائما جدل بين هؤلاء الذين يريدون الإطاحة بالنظام باعتباره من الأنظمة التي تعتبر في نظرهم فاسدة، وأولئك الذين كانوا يريدون فقط تنظيم وتطوير قاعدة إسلامية في المجتمع. (٢٨)

وسوف تستمر العلاقة الحساسة المعقدة بين العائلة السعودية والإخوان المسلمين والمؤسسة الوهابية وحتى الجماعات الإسلامية المتشددة الإرهابية في التطور.(*) وسوف تتغير التوازنات بناء على قوة كل طرف وقوة النزاع داخل العائلة المالكة والسياسة الإقليمية. ويصبح هذا التوازن أكثر تعقيدا بفعل دور المساعدات الإسلامية الخيرية التي ترتبط دائما بأحد الأمراء السعوديين الذي يقوم بضخ الأموال إلى الجماعات المتشددة بطريق مباشر أو غير مباشر. وتفاقم الوضع بفعل أن الأمراء كانوا يتصرفون كل على حدة وكأن كل واحد منهم الملك أو الحكومة وبعيدا عن بقية الأعضاء في العائلة المالكة. وهنا يمكن التأكيد على أن العائلة السعودية ليست جسد واحد متجانس

(*) يمتد المؤلف في اتهاماته ليصل إلى حد إتهام المملكة السعودية بمساندة الإرهاب وهو الأمر الذي لا يتفق عاقلان عليه رغم إمكانية الإتفاق على أنها قد تكون ساهمت بشكل أو بآخر في تطور مواقف بعض الإسلاميين إلى ذلك دون قصد منها، غير أن ذلك يختلف بالطبع عن توجيه الإتهام المباشر للسعودية بتهمة الإرهاب.

بأي حال من الأحوال فهناك دائما من يعطي أموالا لشخص ما وهناك دائما مشاريع خاصة داخل العائلة لا يدري الآخرون عنها شيئا. ومع اكتساب الإخوان المسلمين نفوذا كبيرا في المملكة استطاع الملك فيصل والملك سعود من قبله استغلال الإخوان جيدا في السياسة الخارجية. وفي الستينات وقعت حادثتان رئيستان تثبتان ذلك هما إنشاء رابطة العالم الإسلامي عام ١٩٦٢ وإنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي عام ١٩٦٩. وعملت السعودية تحت حكم الملك فيصل بجهد جهيد على إنشاء كتلة إسلامية بدعم أمريكي كامل نجحت في النهاية في إقصاء الرئيس جمال عبد الناصر.

رابطة الملك فيصل الإسلامية

استمر ما بدأه الرئيس أيزنهاور للحركة في الخمسينات في السير والتقدم بعد ذلك بعقد من الزمان. كان الملك فيصل الذي حكم من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٥ ملكا على الطراز الحديث مقارنة بالملك سعود (١٩٥٣- ١٩٦٤) وكان على دراية أكبر بالسياسة الخارجية. ويقول تشارلز فريمان الذي عمل سفيرا لأمريكا في السعودية ومن رجال الخارجية المخضرمين إن فيصل اتخذ قرارا بأن يكون الإسلام هو العلاج الناجع لناصر. (٢٩) وقد نظرت واشنطن لهذا الأمر بحماس. ورغم أن بعض الدبلوماسيين والمثقفين الأمريكيين من أصحاب العقلية العلمانية سجلوا اعتراضات من وقت لأخر فان التحالف السعودي الأمريكي استمر ورغم ما كانت تمثله السياسة السعودية الخارجية القائمة على اعتماد الإسلام واجهة لها في الخارج من عنصر قلق بالنسبة للبعض. وحتى الذين أيدوا التحالف الأمريكي الإسرائيلي الذي اكتسب قوة دفع كبيرة في الستينات كانوا يشعرون بمزيد من القلق بشأن ناصر أكثر من قلقهم من السعودية.

ويمثل إنشاء رابطة العالم الإسلامي في عام ١٩٦٢ البداية الرسمية للإسلام السياسي اليميني المتشدد. وقد تأسست الرابطة في جدة. وبإنشائها أصبح يوجد للحركة ولأول مرة جهاز عصبي مركزي أكثرتنظيما من حركة الإخوان المسلمين السرية أو المحظورة. ووفرت قدرة السعودية على التمويل بلا حدود قوة هائلة للرابطة. وكان من

بين المؤسسين للرابطة (٣٠) عدد من قادة الإحياء الإسلامي ومنهم: سعيد رمضان زوج ابنة حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين المنظم الدولي الأعلى لها الذي قضى سنوات في كل من سوريا والأردن وباكستان وأماكن أخرى قبل افتتاح المركز الإسلامي في جنيف عام ١٩٦١ بدعم سعودي، أبوالأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية اليمينية المتشددة في باكستان وهو المهندس الوحيد لفكرة الجمهورية الإسلامية والذي لعب دورا حيويا في كسر المعارضة الباكستانية اليسارية العلمانية ودفع باكستان إلى معسكر اليمين الإسلامي المتشدد في ظل حكم ضياء الحق الدكتاتور الذي استولى على السلطة في عام ١٩٧٧، الحاج أمين الحسيني مفتي القدس المؤيد للنازي الذي كان عميلا للمخابرات البريطانية منذ العشرينات وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح مسئول الدعاية المضادة لعبد الناصر بدعم من السعودية، محمد صادق المجددي من أفغانستان الذي حافظ على اتصالاته بالمخابرات الأمريكية في عقد الستينات المشؤوم والذي سيشكل ورثته جوهرالجهاد الأفغاني ضد السوفيت بدعم من المخابرات الأمريكية والسعودية ومصر وباكستان، محمد بن إبراهيم الشيخ مفتي السعودية الأعلى المعين من جانب الحكومة و زعيم الحركة الوهابية الذي يتمتع بصلات وثيقة مع العائلة المالكة السعودية، عبد الرحمن الإرياني المتشدد الإسلامي الأصولي الذي سيستولى على السلطة في اليمن عام ١٩٦٧ ويقود تلك الجمهورية التي كانت تؤيد ناصر إلى المعسكر السعودي بعد حرب أهلية مريرة. وبشكل عام ضمت الرابطة عددا من الشخصيات الإسلامية القيادية العالمية تحت مظلة واحدة. (٣١)

وفي تعليق على مثل هذا التطور كتب جون اسبوزيتو من جامعة جورجتاون يقول: "أصبحت الرؤية الوهابية دولية في الستينات ردا على التهديد الذي تمثله القومية العربية والاشتراكية. وتعرضت السعودية ومملكات أخرى لتهديد خاصة من الناصرية والحكومات العربية الاشتراكية بصفة عامة. واستغل السعوديون سياسة الجامعة أو الرابطة الإسلامية ضد القومية العربية الناصرية العلمانية الاشتراكية عن طريق الربط بينها وبين الشيوعية الكافرة الملحدة. كما طورت الحكومة السعودية علاقات مع الإخوان

المسلمين والجماعة الإسلامية الباكستانية برغم الاختلافات الجوهرية بينهما إلا أن عدوهما كان مشتركا وهو الشيوعية العلمانية الناصرية".(٣٢)

ارسلت رابطة العالم الإسلامي بعثات وطبعت موادا دعائية وأغدقت الأموال على بناء المساجد التي تروج للوهابية والجماعات الإسلامية. وكتب اسبوزيتو يقول: "حددت الرابطة الشخصيات ذات القيمة المستفيدة ودعتهم لزيارة السعودية وزكتهم بحيث يحصلون على التبرعات السخية من القطاع الخاص مثل الشخصيات والأمراء من العائلة المالكة أو رجال الأعمال العاديين. وكان يدير الرابطة أعضاء من المؤسسة الدينية السعودية وتتعاون مع العرب الآخرين الذين ينتمون إما إلى الإخوان المسلمين أو قريبين منها فضلا عن العلماء (الشيوخ) من شبه القارة الهندية المرتبطين بمدارس الديوباند أو الحزب الذي أسسه المودودي". (٣٣)

ولم تكن المخابرات الأمريكية على يقين كامل بأهداف رابطة العالم الإسلامي وكانت واشنطن حريصة على الفوز في الحرب الباردة بغض النظر عن طبيعة حلفائها ولم تطلب من المخابرات التحقق من هؤلاء الحلفاء. ويقول مسئول بالمخابرات الأمريكية عمل في السعودية في السبعينات وحاول زرع عميل في الرابطة: "لم نكن ننظر إلى النتائج بعيدة المدى. كنت مسئولا عن اختراق الرابطة ونجحت". القيادة كانت تهتم بالحروب والانقلابات والمنازعات المسلحة في الخليج العربي وليس بنشاط الرابطة. ويقول المسئول السابق في المخابرات "وجدت الأمر مثيرا ومهما. لم انظر إلى الرابطة على إنها توسع لنفوذ السعودية عالميا بل على إنها وسيلة لتوسيع نطاق نفوذ الإسلام في العالم العربي وخارجه. لم تكن السعودية كيانا مثل الفاتيكان مثلا. كان الأمر وكأنه يجري برغم أنف السعوديين."

ورغم ذلك يقول المسئول السابق، الرابطة لم تكن تمثل تهديدا أو قلقا سياسيا ولم تكن واشنطن مهتمة بذلك "كان صوت الزئير يصم الآذان، لقد ألغيت العملية السرية".(٣٤) ويقول تشارلز واترمان خبير المخابرات المتخصص في الشئون العربية الذي قضى سنوات في الشرق الأوسط ثم أصبح رئيس مركز المخابرات في السعودية إن رابطة العالم الإسلامي كانت تبدو بريئة بدرجة كافية في الستينات والسبعينات.

ويضيف إنها كانت مثل أي منظمة الإسلامية أخرى يجب مراقبتها لكنها لا تمثل قلقا. فإذا انتهى بهم الأمر إلى دعم بعض الحركات الإسلامية الطلابية في مكان ما وتورطوا في بعض النزاعات مع طلاب يساريين فسوف يكون رد فعلنا الموافقة وسنقول: "حسنا عمل حميد آخر يهدف إلى السيطرة على اليسار أو تحجيمه. فهل كان خطأ من المخابرات في ذاك الوقت أنها لم تركز على تلك الجماعات والشخصيات؟ لقد كانت تبدو مجرد جماعات إسلامية خيرية ليس أكثر. (٣٥)

ويتفق معه في الرأي راي كلوز الرئيس السابق للمخابرات الأمريكية وردا على سؤال عما إذا كانت المخابرات تشعر بالقلق بشأن العلاقة بين الإخوان المسلمين والوهابيين قال كلوز: "لم نتابع ذلك وإذا كان هناك أي خطأ فهو من جانبي لم نرهم على أنهم تهديدا لم يكونوا هدفنا وإلا لكان لدينا أهدافا مسجلة، لكن لم يكن أحد في واشنطن يسألني أن أتابعهم. لم يكونوا في مخيلتنا".

كان ٩٩% من تمويل رابطة العالم الإسلامي يأتي من السعودية وكانت علاقاتها مع المؤسسة السعودية وثيقة جدا. وكان أحد الأمناء العموم للرابطة وهو محمد على الحركان وزيرا سابقا للعدل في السعودية ومن قادة الوهابيين وسوف يصبح فيما بعد مفتي السعودية الأعلى. وتداخلت الرابطة مع وزارة التعليم السعودية ووزارة الحج والأوقاف الإسلامية قوية النفوذ التي تشرف على الحج والتي تتمتع بموارد هائلة للأغراض الخيرية وغيرها، فضلا عن تغلغلهم في وزارة العدل ومع الوهابيين. والتحم هذا التغلغل مع النظام الجامعي خاصة الجامعات الإسلامية. وكانت الرابطة تعمل عن كثب مع رابطة الشبان المسلمين العالمية المتشددة التي تأسست في ١٩٧٢ والتي سوف تصبح فيما بعد الذراع الطولى للأعمال "الإرهابية" الخارجية. (٣٦)

وخلال فترة الستينات اتسع نطاق النزاع بين مصر والسعودية، التي كانت في الواقع تخوض معركة مع القاهرة نيابة عن الولايات المتحدة، إلى اتجاهين الأول هو عودة ظهور الإخوان المسلمين في مصر والثاني المعركة التي كانت بين ناصر وفيصل على أرض اليمن في الجنوب الغربي للمملكة. في كلتا الحالتين (الإتجاهين)

وفرت الروابط بين الإخوان المسلمين ورابطة العالم الإسلامي والممالك العربية المحافظة للسعودية جهازا إقليميا قويا لتوجيه الضربات ضد ناصر.

رمضان وعودة الإخوان المسلمين

كان المهندس الأساسي للكتلة أو الرابطة الإسلامية التابعة للسعودية هو الرجل الذي اجتمع معه أيزنهاور في المكتب البيضاوي في عام ١٩٥٣ وهو سعيد رمضان. ويقول تقرير سويسري إنه كان من المعتقد خلال تلك الفترة أن رمضان عميل أمريكي. وكان رمضان يحصل أيضا على مساعدات من ألمانيا الغربية وكانت السعودية وقطر تدعماه ماليا وكان ممثلا للأردن في الأمم المتحدة في جنيف. وفي نفس الوقت كان رمضان العقل الدولي المدبر للإخوان المسلمين وفي عام ١٩٦٥ يقال أنه تورط في عملية اغتيال أخرى ضد ناصر، وجاءت هذه المحاولة ضمن ثورة من جانب الإخوان المسلمين في مصر هذه المرة بمعاونة جهاز رمضان جيد التنظيم من المنفى. كان جزء من تلك **الآلة** مقيم في السعودية والجزء الآخر في جنيف حيث استقر رمضان.

وكانت حركة الإخوان المسلمين في مصر في أسوأ أوضاعها مقارنة بما كانت عليه عام ١٩٥٤ فقد إضطرت إلى العمل سرا أو "تحت الأرض" كما يقال منذ الخمسينات. وحاولت إنشاء منظمات واجهة وشعارات سياسية للحفاظ على وجودها التنظيمي لكن مخابرات ناصر كانت فعالة في قمعها. ومع ذلك تم إطلاق سراح العديد من السجناء السياسيين الذين ألقي عليهم القبض عقب الضربة الموجهة إلى الحركة في عام ١٩٥٤ بحلول منتصف الستينات. ومرة اخرى حاول الإخوان المسلمون لم شتاتهم في مواجهة عبد الناصر.

من جنيف كان رمضان يتحكم في كثير من خيوط الحركة وفي عام ١٩٥٤ اسقط ناصر عن رمضان الجنسية المصرية ونفاه. وبمساعدة حكومة ألمانيا الغربية التي كانت غاضبة على مصر لاعترافها بألمانيا الشرقية، استطاع رمضان السفر إلى ألمانيا الغربية حاملا جواز سفر ألماني قبل أن يتوجه إلى جنيف. وفي سويسرا استطاع رمضان بأموال سعودية ، إنشاء مركز إسلامي في عام ١٩٦١ ليكون مقرا للإخوان المسلمين هناك.

ويعيش رمضان في سويسرا طيلة السنوات الأربع والثلاثين التالية حتى وفاته عام ١٩٩٥.

أصبح المركز الإسلامي في جنيف بمثابة المقر الرئيسي ودار النشر ومكان الالتقاء لليمين الإسلامي ونشطاء الإخوان المسلمين من أنحاء العالم العربي. ويقول ريتشارد لابفييه الصحفي الذي كتب عن الإخوان المسلمين و"علاقاتهم الإرهابية": إن رمضان أدار أموال الجماعة فضلا عن مساهمته في إنشاء بنك التقوى التابع لهم بالتعاون مع المدير المالي للمنظمة يوسف ندا. (٣٧)

وفي عام ١٩٦٢ ساعد رمضان السعودية في إنشاء رابطة العالم الإسلامي كما يقول هاني رمضان ابن سعيد رمضان المدير الحالي للمركز الإسلامي في جنيف. ويضيف هاني إن فكرة إنشاء الرابطة كانت من بنات أفكار أبيه لتكون قناة موازية يستطيع من خلالها نقل أفكاره. ويقول هاني إن المركز الإسلامي لقى استحسانا في سويسرا عندما تأسس ولم يكن هناك خوف مرضي من الإسلام كما هو الحال الآن. ويضيف إن أول رد فعل على نشاط أبيه ووجود المركز الإسلامي في جنيف كان إيجابيا داخل سويسرا وفي أوربا عموما. لكن هاني يعترف بأن الهدف الأساسي من المشروع بالكامل هو الترويج للإخوان المسلمين. وقال إن إنشاء المركز الإسلامي كان يفترض أن يحقق رغبة أبيه (سعيد رمضان) في بناء مركز يستطيع من خلاله نشر تعاليم حسن البنا ويأتي إليه الطلاب من أنحاء العالم العربي ليلتقوا ويتعلموا رسالة الإسلام. (٣٨)

تحولت الإخوان المسلمين إلى مزيد من التشدد في الستينات بعد أن انتشرت في المنفى وأصبحت محظورة في مصر. في القاهرة كان الإخوان المسلمين يستجمعون قواهم من أجل القيام بمحاولة أخرى ضد نظام عبد الناصر. وفي أماكن أخرى كان الإسلام السياسي ينمو ويزدهر. وكانت محاولات السعودية العدوانية تزداد لتصبح زعيم العروبة والإسلام. وبدأ آية الله خوميني يستعد للعودة إلى إيران، كما كون متشددو الشيعة في العراق حزبا سياسيا متآمرا هو "الدعوة".(٣٩) وفي الوقت ذاته اكتسب حركة المودودي في باكستان قوة دفع جديدة.

وعندمات تفجرت أزمة ١٩٦٥ بين الإخوان في مصر كان محور الأزمة هما رمضان المنظر الرئيسي للحركة وسيد قطب الزعيم المتشدد اللذين كانا وراء محاولة اغتيال ناصر. كان ناصر في ذاك الوقت أكثر استعدادا وطلب من الأصدقاء والمؤيدين من رجال الدين المسلمين في مصر أن يدعموه فيما صور رمضان والإخوان المسلمين على أنهم عملاء لأمريكا.

وكتب جيل كيبل أحد كبار المحليين للإسلام السياسي في العالم يقول "يوم ٣٠ اغسطس علم الرأي العام المصري من خطاب ناصر الذي ألقاه في موسكو أن منظمة الإخوان المسلمين كانت وراء المؤامرة التي حاكتها المخابرات الأجنبية. وقال ناصر إن المتآمرين كان بينهم مصطفى أمين الصحفي المعروف الذي ألقي القبض عليه يوم ٢ سبتمبر بتهمة التخابر مع أمريكا. وبعد شن مجموعة من العمليات ضدهم تعبئة رجال الدين التابعين للنظام والمتحدثين باسمه والكتاب المدافعين عنه لإدانة تلك العناصر الهدامة وإدانة الإخوان المسلمين الذين جرى توصيفهم باعتبارهم "إرهابيو العصور الوسطى".

وأضاف كيبل يقول إن الصحف نشرت الاتصالات الأجنبية لأعضاء الجماعة ومنهم سعيد رمضان زوج ابنة البنا الذي يقال أنه أجرى اتصالات من عمان عاصمة الأردن بناء على أوامر من المخابرات منظمة "سنتو".(٤٠) وقد يكون رمضان عميلا للمخابرات أو لا يكون لكن لا شك أنه صف نفسه مع محور الأمم الذي يشمل باكستان العضو في منظمة سنتو إلى جانب الأردن والسعودية التي كانت تدعمها أمريكا ضد ناصر.

وقالت صحيفة "لوتمب" إن مصر ليست الدولة الوحيدة التي اعتبرت رمضان عميلا للمخابرات الأمريكية لكن سويسرا أيضا اعتقدت أن رمضان كان يعمل مع أمريكا(*). وفي عام ١٩٦٦ في ذروة الأزمة في مصر عقد اجتماع على مستوى عال جمع مسئولين سويسريين منهم دبلوماسيون والشرطة الفيدرالية وقوات الأمن لمناقشة

---

* هذه هي المرة الثالثة أو الرابعة التي يعيد فيها المؤلف على التأكيد على أن سويسرا كانت تنظر لرمضان باعتباره عميلا، وهو الأمر الذي يلاحظ كذلك في سياق حديثه عن أمين الحسيني وإشارته أكثر من مرة إلى كونه عميلا للنازية وغير ذلك وهو ما يعتبر نوعا من الإلحاح الواضح للتأكيد على أفكاره وحصار القارئ برؤاه.

قضية رمضان. وتكشف الوثائق المحفوظة في السجلات السويسرية أن السلطات السويسرية اعتبرت أن رمضان ليس عدوا بل موال للغرب ويمثل إتجاها محافظا ويخدم مصالح سويسرا. وتكشف السجلات أيضا أن السويسريين اعتبروا أن رمضان عميلا للمخابرات الأمريكية والبريطانية. و قالت صحيفة "لوتمب" عن رمضان أنه "لم يكن سوى بوق دعاية ضد الشيوعية". وقال محلل سويسري إن رمضان عميل مخابراتي للبريطانيين والأمريكيين من بين أشياء أخرى. وقالت "لوتمب" إن علاقات رمضان مع بعض المخابرات الغربية مثبتة في وثائق محفوظة في ملفه. (٤١)

وإستطاع عبد الناصر خلال عامي ٦٥ ـ ١٩٦٦ الإجهاز على ما بقي من حيوية لحركة الإخوان المسلمين مرة أخرى حيث تم القبض على العديد من زعماء الحركة السريين فيما تمكن آخرون من الهرب وأمر ناصر بإعدام سيد قطب منظر الحركة شنقا وهو الذي كان منفيا من قبل في السعودية. (٤٢) وفي هذا يقول هيرمان أيلتس أن الملك فيصل تدخل لدى عبد الناصر للعفو عن سيد قطب لكنه رفض. (٤٣)

كينيدي وناصر واليمن

تحول الصراع بين ناصر وفيصل إلى حرب مفتوحة من ١٩٦٢ إلى ١٩٧٠ عندما خاضت مصر والسعودية حربا دموية في اليمن ممثلا في تأييد كل طرف منهما لطرف يمني. كانت مصر والسعودية في أوج قوتهما في الستينات. كان ناصر رمزا عربيا له اتباع ومؤيدين في جميع الدول العربية وكانت السعودية تستغل أموالها ورابطة العالم الإسلامي والحركة الوهابية لدعم التحالف المحافظ. وناصب ناصر المملكة الصحراوية العداء لأنها تنفذ أوامر الإمبريالية الأمريكية فيما اعتبر الملك فيصل أن العروبة والقومية العربية الاشتراكية التي يتبناها ناصر "شيوعية ملحدة".

ورغم أن تطورات الحرب وأبعادها كانت واضحة بجلاء للأمريكيين فقد كان لها تأثير كبير على السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط وعززت العلاقات الأمريكية مع الأنظمة العربية المحافظة وخاصة السعودية والرابطة الإسلامية.

ويرد الحديث عن تأثير الحرب اليمنية على السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ببعض التفاصيل في كتاب وارن باس بعنوان "أيد أي صديق" عن مغازلة حكومة كينيدى لناصر. فبعد رحيل أيزنهاور وموقفه المتصلب من عدم الانحياز عرضت حكومة كينيدي غصن الزيتون على مصر. وقبل بعض المسئولين الأمريكيين في حكومة كينيدي فكرة اعتبار ناصر مستقلا بعيدا عن المخالب الروسية وأن واشنطن ينبغي أن تتوصل إلى تسوية معه. واعتقد المتفائلون أن ناصر قد يقطع علاقاته مع الاتحاد السوفيتي. والواقع أن ناصر لم يكن شيوعيا حيث حاصر أعضاء احزب الشيوعي في مصر ويساريين آخرين وحبسهم. وشعر محللون أكثر واقعية أن ناصر يمكن أن يتوصل إلى اتفاق وسط مع الأمريكيين لكن آخرين كانوا يعتقدون أن ناصر هو الشيطان بعينه خاصة المؤيدون لإسرائيل وكما صورته السعودية أيضا.

ويقول تلكوت سيلي رئيس البعثة الدبلوماسية في الجزيرة العربية خلال فترة حكم كينيدي "علاقاتنا مع ناصر كانت صعبة. كنا نرى أن تحركاته تمثل خطرا وتهديدا على النظام السعودي وكان هناك رد فعل سعودي أيضا. الأمير طلال هرب إلى مصر بالإضافة إلى طيارين سعوديين أيضا. (٤٤) وأعدت المخابرات تقريرا يسمى "ناصر ومستقبل القومية العربية" وعرض على البيت الأبيض وجاء فيه أن التيار القومي المتشدد سيظل القوة المحركة للشئون العربية السياسية ويحتمل جدا أن يظل ناصر الزعيم الأوحد ورمز المستقبل القريب. وحذر التقرير من أن الرئيس الشاب يجعل النظرة بعيدة المدى للأنظمة المحافظة والمنحازة إلى الغرب غامضا وغير واضح وأنه يحتمل الإطاحة بالنظام السعودي. (٤٥)

واعتقد كينيدي أن الأمر يستحق الإستكشاف وفتح قناة اتصال مع ناصر لمصلحة السعودية وإسرائيل وبدأ سلسلة من الاتصالات مع الزعيم المصري من خلال القنوات الدبلوماسية والخطابات واللقاءات الشخصية. وكتب ناصر إلى كينيدي يقول: "لماذا تعارض الولايات المتحدة الدولة التي بنيت على أساس من الحرية عن طريق الثورة، الدعوة إلى الحرية والحركات الثورية وتصطف إلى جانب القوى الرجعية وأعداء التقدم؟".(٤٦) كان ناصر يعني بالقوى الرجعية السعودية طبعا وكان سؤاله جيدا. وكان

كينيدي، على خلاف أيزنهاور الذي اعتبر دول العالم الثالث مستقلة الفكر مجرد دمى في أيدي الشيوعية، يرغب في استكشاف أمكانية أن تكون تلك الدول وما تعكسه من توجهات ليست بالضرورة على خلاف مع الولايات المتحدة ومصالحها. والحقيقة أنه عندما كان كينيدي سيناتورا في الخمسينات اتهم حكومة أيزنهاور بأنها تضع رأسها في الرمال بخصوص القومية العربية. (٤٧)

لكن الثنائي كينيدي وناصر أخفقا وفشلا كليا. في سبتمبر ١٩٦٢ أقالت القوات الموالية لناصر حكومة اليمن البلد الذي يحتل رقعة استراتيجية على الحدود الجنوبية للسعودية وعلى ساحل البحر الأحمر وخليج عدن. وكان مما قاله كينيدي في ذاك الوقت: "لا أعرف حتى أين تقع اليمن". (٤٨) كان زعيم اليمن في ذاك الوقت الإمام أحمد وهو ديكتاتور يزن ٣٠٠ رطلا وكان معروفا عنه قسوته الشديدة وكان يصف نفسه بأنه حامي حمي دين الله ويدين نظام ناصر الاقتصادي ويعتبره غير إسلامي. (٤٩) وعندما مات الإمام أحمد أطاحت القوات الموالية لناصر والمدعومة منه بابن الإمام محمد البدر. ويقول أحد المؤرخين أن ناصر كان وراء الإطاحة بنظام اليمن وكانت السعودية غاضبة جدا من ذلك. (٥٠) وشكلت الثورة اليمنية التي تبعها وصول عشرات الألاف من القوات المصرية، تهديدا وخطرا على الوجود السعودي. وحذر روبرت كومر أحد مسئولي البيت الأبيض بشأن سياسة الشرق الأوسط كينيدي من أن النظام السعودي يعرف جيدا أن الدور عليه المرة القادمة. (٥١) وأعارت السعودية السلاح والمال لليمن. ونتج عن الحرب اليمنية مقتل ٢٠٠ ألف شخص خلال عقد من القتال.

وتلقى كينيدي تحذيرا بالفعل من المخابرات الأمريكية وغيرها من أن النظام السعودي قد لا يستمر طويلا وأن ناصر سيكون مستقبل الوطن العربي. وفي البداية حاول كينيدي أن يكون متوازنا واعترف بالحكومة اليمنية الجديدة وأرسل **الزورث بانكر** للتوسط في تسوية بين مصر والسعودية. لكن الضغط تزايد على كينيدي من كل الجهات. كان البريطانيون غاضبون على ناصر لأنهم لا يزالوا يريدون الاستمرار في السيطرة على الخليج وعدن. وأراد رئيس الوزراء هارولد ماكميلان الذي كان في الوزارة البريطانية أيام حرب السويس أن "ينزع فروة رأس ناصر بأظافره".(٥٢) ووضع

البريطانيون مخططا غلى الفور بالتعاون مع الموساد (المخابرات الإسرائيلية) لمساعدة القوات المناوئة لناصر في اليمن عن طريق تزويدها بالسلاح والمال. واتصلت الموساد بجورج يانج نائب رئيس المخابرات البريطانية السابق للعثور على شخصية بريطانية مقبولة لدى السعوديين لإدارة حرب عصابات ضد الجمهوريين اليمنيين ومعاونيهم من المصريين، وفق ما كتبه دوريل مكلين إلى يانج.

ثم قدم يانج البريطاني مكلين إلى دان حيرام الملحق العسكري الإسرائيلي الذي وعد بتوفير السلاح والأموال والمدربين الذين يستطيعون التخفي في زي العرب. وقد أعجبت السعودية بتلك الخطة. (٥٣)

وعولت إسرائيل على اليهود اليمنيين الذين هاجروا إليها ويستطيعون التخفي على أنهم عرب من اليمن وأرسلتهم إلى جبهة القتال حيث عملوا كمدربين عسكريين. وقال دوريل: "ساعدت المخابرات الأمريكية الإسرائيليين على التغلغل إلى اليمن وإدخال بعض اليهود لتدريب قوات حرب العصابات على استخدام الأسلحة الحديثة. وحرص اليهود على إخفاء شخصياتهم الحقيقية. وساهمت المخابرات الإيرانية (السافاك) والسعودية في العملية الموجهة ضد ناصر في اليمن. ووفرت إسرائيل أيضا الأسلحة للمتمردين في اليمن ومنها الأسلحة سوفيتية الصنع استولت عليها في حربها مع العرب.

وقال هوارد تيشر المسئول الأمريكي المؤيد لإسرائيل إن المخابرات الأمريكية والبريطانية اعتمدت على أصحاب العقول العملية من العائلة المالكة السعودية في تطوير تحالف بين إسرائيل والمملكة وإيران والأردن. (٥٤) وتدخلت القوات الإسرائيلية نيابة عن السعودية ضد مصر خلال الحرب اليمنية. وأضاف تيشر إن الطائرات الإسرائيلية حلقت فوق جنوب البحر الأحمر لتحذر القوات المصرية بوضوح من الاقتراب من الأراضي السعودية. (٥٥)

وفي واشنطن حث البريطانيون الرئيس كينيدي على اتخاذ موقف ضد ناصر. وكان هناك ضغوط كذلك من إسرائيل في هذا الاتجاه. وخلال الحرب اليمنية حاول الإسرائيليون إجبار السياسيين في واشنطن الذين يعتقدون أن ناصر دمية في يد

السوفيت، على السيطرة على الخليج العربي وصورت إسرائيل نفسها على أنها وكيل أمريكا المعتمد لمحاربة الشيوعية في المنطقة. وكانت هناك كذلك ضغوط أكبر من ذلك من شركات النفط الأمريكية التي شعرت بالخطر من التهديد الذي يشكله ناصر على البقرة السعودية التي تدر الحليب النفطي.

وقام مساعدو كينيدي بالضغط عليه بدافع من شركائهم في شركة أرامكو والخليج للنفط التي كان يمثلها كيرميت روزفلت الذي أبلغ البيت الأبيض أن هناك تعارضا واضحا بين المصالح الأمريكية وناصر. وأرسل كينيدي رئيس أرامكو السابق تيري ديوس للقاء الملك فيصل نيابة عنه. (٥٦) وبدأ كينيدي في إدارة عمليات ضد مصر داخل وخارج اليمن. ويقول تشارلز فريمان السفير السابق إن كينيدي كان يدير كل أنواع العمليات السرية وعمليات قوات أغطية الرأس الخضراء في السعودية. (٥٧)

وانتهى تعاطف كينيدي مع ناصر والأهم من ذلك أن أمريكا نصبت نفسها العدو الرئيسي ضد القومية العربية والقوميين على أساس توحيد مصر ودول عربية أخرى ليس لديها نفط كثير، مع السعودية الغنية بالنفط.

وكتبت شيرين هنتر إن السعودية كانت دائما تقلق من أي برنامج لتوحيد العرب فالقوميون العرب مثلا يؤمنون بأن نفط السعودية والدول العربية الأخرى الغنية بالنفط ملك للأمة العربية وليس فقط الدول التي يوجد بأرضها وينبغي أن يستخدم في التنمية الاقتصادية للدول العربية ولخدمة تحقيق أهداف أخرى. ولذلك شكل القوميون المتشددون تهديدا للسعودية. (٥٨) ومن الجانب التاريخي يمكن طرح السؤال: ماذا كان سيحدث إذا أيدت أمريكا ناصر أو تعاطفت معه وسمحت بسقوط السعودية في أيديه؟ في الستينات وفي معمعة الحرب الباردة لم يكن هذا الخيار مطروحا.

وعززت حكومة جونسون التحالف الأمريكي السعودي. وبدأت أمريكا وبريطانيا برنامجا لتسليح السعودية بقيمة ٤٠٠ مليون دولار فضلا عن برنامج مكثف لبناء قواعد عسكرية هناك وبنية تحتية أخرى وبرنامج أمريكي بقيمة ١٠٠ مليون دولار لتوريد مركبات نقل عسكري وشاحنات إلى المملكة. (٥٩)

وساهمت المساعدت الأمريكية للسعودية في تعزيز برنامج دولي كان الملك فيصل يقوم به لحشد تأييد إسلامي خلال الحرب الباردة. وفي عام ١٩٦٥ بدأ الملك فيصل جولة في الدول الإسلامية لكسب الحلفاء وصف الماركسية خلالها بأنها "عقيدة مدمرة ابتدعها يهودي أثيم" (٦٠) مبديا عزمه على محاربة تلك العقيدة والقضاء عليها. وانضم الملك فيصل إلى شاه إيران لتكوين تحالف إسلامي ضخم وقام بزيارة الأردن والسودان وباكستان وتركيا والغرب وغينيا ومالي في عام ١٩٦٦ للحصول على تأييدها.

وقال الملك في زيارته للأردن: "إن قوى الشر قررت محاربة الإسلام والمسلمين أينما كانوا وتحاول قتل كل رمز لنفوذ الإسلام." (٦١) وقال في زيارته إلى السودان: "الشيوعيون يهاجموننا لأن الحركة الإسلامية سوف تدمر كل ما تدعو إليه الشيوعية خاصة عدم الإيمان بالله العظيم". وأشار إلى أن الاتحاد السوفيتي استولى على أراضي المسلمين. وقال الملك: "الشيوعيون يخافون من حركتنا لأنها سوف تصل إلى البلاد الإسلامية التي وقعت تحت النفوذ الشيوعي".(٦٢) وفي باكستان طالب العاهل السعودي بإنشاء رابطة إسلامية بزعم أن الإسلام "يواجه العديد من التيارات السرية التي تحول المسلمين إلى اليمين واليسار. (٦٣) وكانت باكستان وهي دولة إسلامية من الجناح اليميني عضوا في تحالفين مع الغرب وأرسلت قوات للحفاظ على استقرار السعودية وحمايتها من التهديدات الداخلية والخارجية وذلك منذ بدايات عقد الستينات حيث تولي الضباط الباكستانيون، مناصب في الجيش السعودي عملوا خلالها كمدربين وقادة عسكريين. وكان من بين هؤلاء الجنرال ضياء الحق الذي سيقوم في عام ١٩٧٧ بانقلاب ضد ذوالفقار على بوتو. (٦٤)

ورغم أن حملة الملك فيصل تمكنت من حشد التأييد بين الدول الإسلامية اليمينية وحتى من الشاه، إلا أنها لم تلق تأييدا من المتشددين الإسلاميين كما بدا في رد الفعل من جانب هؤلاء في مصر وسوريا والعراق التي رأتها تشكل تهديدا. لكن لندن وواشنطن أعجبتا بالرابطة التي كونها الملك فيصل. وفي عام ١٩٦٦ بارك مسئول سياسي بريطاني في السفارة البريطانية في السعودية على جهود فيصل وقال إن أمريكا تباركها أيضا. وقال المسئول البريطاني: "انظر إلى جهود الملك فيصل بارتياح والسفارة

الأمريكية هنا، التي ناقشت معها الأمر على عدة مستويات، تشاركني الرأي. ويعني ذلك أن مفهوم الإسلام باعتباره قوة جريئة اختفى تماما إلا بين السعوديين العجائز".(٦٥)

وكتب المسئول يقول إن العداء السعودي موجه فقط ضد الشيوعية والصهيونية وحفنة من الإرساليات المسيحية. ومع ارتفاع نجم فيصل أفل نجم ناصر. وجاءت الضربة القاسمة لناصر في عام ١٩٦٧ عندما هزمت إسرائيل مصر وسوريا والأردن وحلفاءهم في ستة أيام فقط، واستولت على القدس وأجزاء من الدول الثلاث بما فيها شبه جزيرة سيناء. وعاش ناصر ثلاث سنوات أخرى لكن حرب ١٩٦٧ دمرت القومية العربية. وقال ديفيد لونج: "كان ناصر قادرا على إعادة استغلال حملته المناوئة للاستعمار وأن يشحن الناس لكن حرب ١٩٦٧ دحرت هذه "الخرافة" نهائيا. وكنت في جدة في ذاك الوقت وقال لي رئيسي المستشار السياسي إن تلك نهاية ناصر".(٦٦)

وضاعف فيصل من جهوده لتعبئة الدول الإسلامية بدعم أمريكي ووسع جولاته لتشمل إندونيسيا والجزائر وأفغانستان وماليزيا. وجاء في كتاب "بيت سعود" إن فيصل أصبح أكثر عدائية ضد المؤامرة الصهيونية البلشفية. (٦٧) وأثمرت جهود فيصل في عام ١٩٦٩ ومن دواعي نجاحه ما فعله الاسترالي المختل عقليا الذي حاول إشعال النار في المسجد الأقصى في القدس. وقد استغل فيصل الفرصة سواء كانت نوع من الاستفزاز أو مقصودة لتعبئة التشدد الإسلامي. واستدعى فيصل زعماء الدول الإسلامية في مؤتمر قمة، ولأن مكانة المسجد الأقصى كبيرة جدا فإن مصر أيضا وافقت على حضور المؤتمر(٦٨) رغم أن سوريا والعراق قاطعتاه لكن ٢٥ دولة شاركت فيه.

وأفضى المؤتمر إلى إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي الذي يعد منظمة أمم متحدة مصغر للدول الإسلامية وحول قضية الإسلام بسرعة إلى رأس قائمة الأولويات في دولة تلو الأخرى ومنها باكستان وأفغانستان وتركيا ولدى العرب أيضا. وكان هدف فيصل الحقيقي، ظاهريا ضد إسرائيل، هو تكوين جبهة مضادة للسوفيت. وقال ديفيد لونج: "في أواخر الستينات كنا لا نزال نحارب الشيوعية فعززنا تأييدنا لفيصل الذي يؤيد بدوره الإخوان المسلمين والجامعة الإسلامية. كنا في حاجة إلى تلك الدول ضد أي حلفاء يمكن

لموسكو أن تجمعهم حولها. فإذا استطاعت السعودية المساعدة في تكوين إجماع إسلامي مؤسسي سيكون الأمر أفضل".

ويقول لونج المحلل المقنع صاحب روح الدعابة والسخرية القوية رغم وضوح الأمر فإن صناع السياسة الأمريكية ومحلليها لم يكونوا على دراية أو أي تقدير للطبيعة الانفجارية للصحوة الإسلامية. وقال: "لم نكن نرى الإسلام، رأينا السعودية. والإسلام الجامع لم يكن بالنسبة لنا يمثل تهديدا استراتيجيا. كان هناك أشرار يقومون بأعمال شريرة ضد اليسار وضد ناصر. كانوا يحاربون الشاردين. لذلك لم نكن نرى أن الإسلام يمثل تهديدا لنا".

وفي عام ١٩٧٠ فكر لونج الذي كان محللا في مكتب الخارجية للأبحاث والمعلومات أن فكرة الجامعة الإسلامية يمكن استغلالها لتوجه ضد أمريكا في يوم من الأيام لكن لم يستمع إليه أحد. وقال لونج: "كنت في المكتب في عام ١٩٧٠ وحاولت الكتابة عن الإسلام. لكن لا أحد يستهويه هذا النوع من الكتابة. شعرت أنه لا يزال هناك مجموعة من الناس يركزون على مناهضة الإمبريالية حتى رغم أن حرب ١٩٦٧ قضت على أسطورة ناصر. رأيت توهما كبيرا بالقومية العربية لكن بعض الناس لم يروا ذلك. و شعرت بأن هؤلاء سوف يفعلون شيئا إن آجلا أو عاجلا وأن هذا الشيء قد يكون الإسلام لأنهم لا يزالون غير متأثرين. شعرت أن الإسلام سيكون الصرعة "العقائدية" الجديدة لكن الاتجاه لايزال يتبع الرياح القديمة. شعرت بانجلاء الأوهام بشأن القومية العربية والناصرية . وخالجني شعور بأنه لن يكون هناك متابعة لناصر في سعيه لإنشاء حركة تتجاوز النطاق القطري. لم أر أي شيء قادم إلا الإسلام".(٦٩)

شجعت هزيمة العرب في ١٩٦٧ على صحوة الإسلام. وأثارت الهزيمة العربية المنكرة أسئلة حول مستقبل الوطن العربي وغضبا مستطيرا بين شعوب الدول المعنية وأدت إلى اضطرابات في السياسة العربية. في الفترة من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٠ سقط عدد من الأنظمة العربية لصالح القوميين اليساريين. استولى حافظ الأسد على الحكم في سوريا واستولى معمر القذافي على الحكم في ليبيا بعد الإطاحة بالملك. واستولى جعفر النميري على السلطة في السودان وتولى حزب البعث السلطة في العراق واقترب

الفلسطينيون كثيرا من الإطاحة بالملك حسين عاهل الأردن في انتفاضة أطلق عليها أيلول الأسود في عام ١٩٧٠. واعتبر بعض هؤلاء القادة أن ناصر بطل ونموذجا يحتذي. لكن إيديولوجية أخرى كانت تستعد لتأخذ مكان الناصرية إلا وهي الإسلام.

كان ضعف العرب وعجزهم عن مواجهة إسرائيل وفقدان أراضي عربية استولت عليها الدولة اليهودية (شبة جزيرة سيناء وغزة ومرتفعات الجولان والضفة الغربية) ضربة قاسمة استغلها اعتداء ناصر ومنهم الإخوان المسلمين ضده واتهموا الناصرية والقومية العربية بالفشل الذريع. وبدأوا يبشرون بعودة الإسلام باعتباره الحل والدواء الشافي لأمراض الأمة العربية. كانت الرسالة صالحة لكل زمان قالها في الماضي جمال الدين الأفغاني وحسن البنا. لكن في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ وصل صداها إلى آذان ملايين العرب الغاضبين الثائرين.

سقط الحكم في العراق وليبيا والسودان في أيدي المتمردين وبالتالي كانت السعودية وأمريكا بلا حول ولا قوة في احتواء التغيرات العارمة في العالم العربي لاسيما القوة المتنامية للحركة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية. وراهنت السعودية على الإسلام المحافظ وعلى أنه ترياق الناصرية وسايرتها أمريكا في ذلك.

وبعد مرور ثلاث سنوات توفي ناصر في ذروة الحرب الأهلية في الأردن في أيلول الأسود، وتولى الحكم في مصر أنور السادات وظل في الحكم ١١ عاما كانت من وجهة نظر الرياض وأمريكا فترة مباركة حقيقة. شكل السادات العضو السابق في الإخوان المسلمين ومساعد عبد الناصر السابق، تحالفا مع السعودية ودحر قوى اليسار في مصر وأعاد الإخوان المسلمين منتصرين، ثم تحالف مع أمريكا ووقع اتفاقية سلام مع إسرائيل. لقد غير السادات مجرى التاريخ ولذلك سيتم اغتياله بأيدي متشددين إسلاميين.

الفصل السادس

تلميذ الساحر

أعاد أنور السادات الإخوان المسلمين إلى مصر في السبعينات بإيعاز من كمال أدهم رئيس المخابرات السعودية. ولم تكن أمريكا التي اعتادت التعاون مع السعودية، مستاءة من عودة الإسلام في نسخته المتشددة إلى مصر. والحقيقة أن واشنطن كانت تواقة إلى التعاون مع السادات حتى تنحاز مصر إلى الجانب الأمريكي في الحرب الباردة لدرجة أن صناع السياسة والدبلوماسيين ومسئولي المخابرات اعتبروا أن إعادة السادات لليمين الإسلامي أمر مشجع ومحمود جدا. لكن أنور السادات فتح القمقم، الإخوان المسلمين بمجرد خروجهم إلى النور انطلقوا بلا حدود. وعمل الإخوان في وطنهم الأم بجد وجهد لنشر نفوذهم عالميا. وكانت النتائج عميقة الأثر ومميتة لاسيما على الرئيس المصري نفسه.

وساعد السادات في التوسع الأمريكي الكبير في الشرق الأوسط بالتوازي مع نمو اليمين الإسلامي في مصر أيضا. في ظل حكم ناصر كانت مصر دولة على خلاف مع أمريكا. وكان هناك ٢٥ ألف من الخبراء والقوات والفنيين والمستشارين الروس يعاونون القوات المسلحة المصرية وكان هناك حرب استنزاف بين مصر وإسرائيل ولم يكن هناك علاقات دبلوماسية بين مصر وأمريكا. لكن السادات أقام علاقة مستترة مع أدهم والمخابرات الأمريكية وهنري كيسنجر مستشار الأمن القومي الأمريكي. وفي عام ١٩٧١ وهو نفس العام الذي تولى السادات فيه السلطة أقال اليسار من الحكومة وفي عام ١٩٧٢ أذهل موسكو بطرد المستشارين الروس. وبعد حرب رمضان ١٩٧٣ تعاون السادات مع السعودية في تنظيم الأفكار الإسلامية بدلا من القومية العربية وعادت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وأمريكا. وفي عام ١٩٧٧ زار السادات القدس مما قسم العالم العربي إلى مؤيد ومعارض وبدأ المفاوضات مع إسرائيل وأدى ذلك إلى اتفاقية كامب ديفيد بين البلدين. وفي عام ١٩٨٠ أصبحت مصر الحليف الأمريكي الأول في الشرق الأوسط وساندت الجهاد في أفغانستان ووفرت قاعدة للنفوذ الأمريكي في الخليج العربي الغني بالنفط. وكان التغير الذي حدث في مصر والتحول من عدو إلى حليف مذهلا حتى لأكثر المتخصصين الأمريكيين تفاؤلا.

في بداية الأمر لم يتوقع الكثيرون أي شيء من السادات. ولمدة ٣٠ عاما كان يعمل كظل لعبد الناصر. وكان عضوا في الإخوان المسلمين ولعب دورا في الوساطة بين القصر والإخوان والضباط الأحرار. وبعد انقلاب ناصر (ثورة ١٩٥٢) كان السادات ضابط الاتصال مع الإخوان المسلمين ثم تولى منصب السفير غير الرسمي للإخوان في أنحاء العالم. لكن بالنسبة للمصريين والمسئولين الأمريكيين لم يكن السادات أكثر من مجرد الرجل الثاني. وبعد وفاة ناصر في سبتمبر ١٩٧٠ بدا السادات مجرد شخصية بديلة سرعان ما سيتم الإطاحة بها بفعل النزاع على السلطة الذي يتم خلال الكواليس في القاهرة. ويقول ديفيد لونج المسئول السابق في الخارجية الأمريكية إن التوقعات من السادات في أمريكا لم تكن إلا صفر .. فقد كان مجرد نائب رئيس "لا يهش ولا ينش".(١)

وقال السادات في كتابه: "البحث عن الذات" عندما عاد المبعوث الأمريكي اليوت ريتشاردسون إلى بلاده بعد زيارة القاهرة للعزاء في ناصر "توقع أن السادات لن يبقى في السلطة لمدة أكثر من ٤ - ٦ أسابيع. (٢) وواجه السادات في مصر معارضين أشداء منهم القوميين من ذوي الإتجاه الناصري الذين كانوا يشعرون بالشك في السادات، والمسئولين المؤيدين للاتحاد السوفيتي أو الذين يميلون إلى الشيوعية. ولم يكن للسادات نفسه قاعدة سياسية. لكن السادات بقى بل ونجح في إدارة السياسة الداخلية والخارجية لمصر. وفي الوقت الذي كان هناك علاقات تربط ناصر بكل من سوريا والعراق والجزائر، أقام السادات علاقات مع ملوك السعودية في الخليج. وفيما كان ناصر يعتمد على السوفيت في إمداده بالسلاح وسوق فكرة عدم الانحياز عالميا، قطع السادات العلاقات مع الاتحاد السوفيتي و ادخل مصر في صف أمريكا في الحرب الباردة. وفي الوقت الذي روج ناصر لمصر على أنها زعيمة في العالم الثالث إلى جانب يوغوسلافيا والهند ودول أفريقيا وأمريكا اللاتينية رسم السادات لمصر سياسة خارجية مستقلة تماما.

عزز السادات موقفه المهتز بإطلاق سلطان اليمين الإسلامي ليكون مطرقة على رأس اليسار بمساعدة سخية من السعودية. ورغم أن ناصر قمع الإخوان المسلمين وناضل من أجل تقليص سلطة اليمين الإسلامي في مصر، رحب السادات بالإخوان

المسلمين الذين كانوا في المنفى وأعاد الروح إلى المنظمة وبنى وجودها المؤسسي في الجامعات والنقابات المهنية والإعلام. وكان الإسلاميون قبل السادات يعيشون على الهامش ويعتبروا متشددين مهمشين، لكن بعد مجيء السادات أصبحت حركة الإخوان المسلمين وحتى المسلمين الشبان التابعة لها جزءا من الخطاب السياسي في مصر.

وقد شعر الذين زاروا مصر بشكل عارض خلال السبعينات بالصدمة جراء هذا التغير، حيث كان تنامي الأصولية الإسلامية ملموسا. ويقول مايكل دون مدير تحرير صحيفة: "الشرق الأوسط" إنه لم يملك إلا الدهشة من التحول الذي حدث في مصر في السبعينات. وقال: "تغيرت الأمور جذريا في مصر. الناس أطلقوا لحاهم في كل مكان وكان هناك مجلات وصحف للإخوان المسلمين. كان الجميع يرتدون الجلباب الأبيض. كانت المساجد تعج بالحاضرين وتخرج منها جموع غفيرة إلى الشوارع.(٣) واندفع الطلبة للانضمام إلى الجماعات الإسلامية وتم بناء ألاف من المساجد الجديدة وازدهرت البنوك والشركات المرتبطة بالإخوان المسلمين ويبدو أن التلويح بالأفكار الإسلامية كان يرهب الخصوم السياسيين."

أما بالنسبة للسادات فقد كانت نهايته. في البداية كان اليمين الإسلامي حليفا للسادات. وتدريجيا تحولت أعداد متزايدة منهم ضد السادات خاصة بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد. ولم يقدر السادات عمق وخطورة نمو المعارضة الإسلامية خاصة بين الفصائل "الإرهابية" في مصر. وفي أمريكا أخفقت الخارجية والمخابرات في توجيه الاهتمام الكافي للخطر الذي يمثله اليمين الإسلامي في مصر واعتمدتا بدلا من ذلك على تطمينات مصرية بأن الأمر تحت السيطرة. وعندما اغتيل السادات في ١٩٨١ على يد مجموعة "إرهابية" تابعة للإخوان المسلمين(*) كان العنف الإسلامي السري يزدهر وينمو. وتم اغتيال مسئولين مصريين آخرين وتعرض السياح للموت الجماعي (**)

---

* هنا يبدو التبسيط المخل من قبل المؤلف حيث أن مغتالي السادات ليسوا من الإخوان الأمر الذي يعرفه القاصي والداني لكن يبدو أن المؤلف لا يستطيع التفرقة بين التنظيمات الإسلامية رغم أن ذلك من المفترض أنه يقع في صميم المهمة التي يقوم عليها من خلال مادة كتابه.

** دون تهويل أو تهوين نتوقف مع توصيف المؤلف هنا والذي نراه يفتقد الدقة كذلك حيث أن صياغته تحمل معنى أن العمليات ضد السياح كانت على أوسع نطاق رغم أن الواقع ينفي ذلك.

وتعرض المسيحيون للهجمات وتم قتل مثقفين علمانيين مصريين أو إخراس أصواتهم. ومرة أخرى أصبحت مصر قاعدة عمليات الإخوان المسلمين.

السادات يفرج عن الإخوان

لم يكن أحد أقرب إلى إعادة هيكلة السادات للسياسة المصرية أكثر من كمال أدهم، رئيس المخابرات السعودية، الذي كان يعمل عبر القنوات الخلفية لهنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي مستشار الأمن القومي، الذي كان يعمل بجد وجهد لإقامة قاعدة أمريكية في الشرق الأوسط للحرب الباردة.

وحتى قبل موت ناصر تدخلت السعودية والكويت ودول أخرى عقب هزيمة مصر في ١٩٦٧ لعرض مساعدات مالية على الدولة المهزومة كوسيلة لتقوية العلاقات السياسية. وبدأت السعودية في هدوء تعيد الإخوان المسلمين إلى مصر. وألقى الإخوان المسلمين باللائمة في الهزيمة على افتقار ناصر إلى الإيمان والورع وقمع الإسلام وبدأوا الاستعداء ضد عبد الناصر.

وقال رونالد شولتس إن الحملة السعودية أصبحت واضحة من انتفاضة الطلبة في القاهرة في صيف ١٩٦٩ ولأول مرة من سنوات يظهر المعارضون علنا في زي الإخوان المسلمين ويطالبون بمزيد من "الجهاد" ضد الجناح اليساري والنشاط الشيوعي. (٤)

وبعد موت ناصر ظل فيصل يشعر ببعض الشك من ناحية السادات لكن أدهم عمل بجد لإقناع الملك، بأن السادات ليس مثل ناصر. وكانت تربط أدهم علاقات وثيقة بكل من السادات والملك فيصل. وقام أدهم أخو عفت زوجة الملك، بقيادة مجموعة من كبار المستشارين لإقناع الملك (بأن السادات يختلف عن ناصر) على خلفية أن السادات كان عضوا في الإخوان المسلمين وعلى الأقل موالي لليمين.(٥) ومن جانب آخر كانت هناك علاقات عمل تربط أدهم بالسادات ولاحظ أن الأخير يتذوق الأشياء الجميلة الفاخرة في الحياة وساق أدهم إلى علم السادات أن السعودية يمكن أن توفر له تلك

الأشياء(*). في الستينات شكل رئيس المخابرات السعودية مجموعة من الأعمال التجارية الناجحة المشتركة مع جيهان السادات زوجة السادات مما أعطى للرئيس المصري نصيبا أفضل من العلاقات بين القاهرة والرياض.(٦) وأرسل الملك فيصل أدهم كوسيط بعد أقل من شهر من موت ناصر إلى القاهرة. ويبدو أن أدهم حمل معه وعودا بالمساعدات السعودية فضلا عن تطمين سري من أمريكا بأن واشنطن سوف تساعد مصر على استرجاع أراضيها من إسرائيل إذا قطع السادات علاقاته مع موسكو وأمر بانسحاب الخبراء والعسكريين الروس من مصر.(٧)

وبحلول ١٩٧١ أصبح وجود أدهم في القاهرة شينا روتينيا. وقال محمد حسنين هيكل الصحفي الناصري الذي استقال من وزارة الإعلام في عام ١٩٧٤ إثر خلاف مع السادات "لم تكن هذه بادرة طيبة بالنسبة للروس".(٨) وكان أدهم يعمل كوسيط للملك فيصل كما كان في السر يعمل كوسيط بين السادات وكيسنجر.(٩) ووصف كيسنجر تلك الوساطة في مذكراته بأن دور السعودية أتاح للسادات ونيكسون الإبقاء على الاتصالات من خلف ظهور وزارتي الخارجية في البلدين.(١٠) ولم يكن لأمريكا سفارة في القاهرة في ذاك الوقت لأن مصر مثل كثير من الدول العربية قطعت العلاقات الدبلوماسية مع أمريكا بعد حرب ١٩٦٧ لكن السعودية لم تفعل. وفي الواقع كانت السعودية هي الوسيط في العلاقات المصرية الأمريكية في مطلع السبعينات.

وفي مايو ١٩٧١ اتخذ السادات الخطوة الأولى في تعزيز سلطته وتطهير الحكومة من الناصريين. ووجه السادات ضربته مدعيا أن لديه دليل على مؤامرة لاغتياله على يد مسئولين من الحقبة الناصرية أطلق عليهم السادات عملاء للاتحاد السوفيتي. وألقى السادات القبض على رئيس مجلس الشعب ووزير الحربية ووزير الإعلام ووزير شئون القصر الجمهوري وأعضاء اللجنة المركزية وعدد آخر من كبار المسئولين وقال عنهم إن "شعاراتهم الاشتراكية تتعارض مع عقيدتنا الدينية". وقام السادات بذلك بعون من أشرف مروان البيروقراطي المصري الذي كان صديقا مقربا

* يبدو طرح المؤلف هنا مثيرا للتساؤل والشك! رغم عدم تناقضه مع شخصية السادات القائمة على حب الظهور والإقبال على ما هو حديث.

لأدهم. وأطلق السادات على تلك العملية "الثورة الثانية" (*). وبعد عام أمر السادات بطرد القوات السوفيتية بالتنسيق مع أدهم.

وقال رايموند كلوز مسئول المخابرات الأمريكية الذي تعاون مع أدهم عن كثب "أقنع كمال أدهم السادات بطرد القوات الروسية من مصر(١٢) وكان السادات يتوق إلى ذلك من قبل لكن أدهم وفر المال والدعم الإسلامي.

وبدأ زعماء الإخوان المسلمين في المنفى يتوافدون على مصر بدعوة من السادات ودعم من كمال أدهم والملك فيصل. وفضلا عن ذلك وبعد ١٩٧١ أفرج السادات عن العديد من السجناء من الإخوان المسلمين. وكان كثير منهم غاضبون بل ويصرون على العنف والعمل السري(**) وانتشروا بسرعة لبناء منظمتهم. أما البعض الآخر خاصة كبار السن فقد سعوا إلى أن يصبحوا حلفاء سريين للرئيس المصري. وكان عمر التلمساني الذي أطلق سراحه من السجن عام ١٩٧١ محاميا ثم أصبح رئيس تحرير مجلة الدعوة، صحيفة الإخوان المسلمين، وسوف يصبح المرشد الأعلى للجماعة فيما بعد. وتوجه التلمساني بعد الإفراج عنه فورا إلى السادات في القصر الرئاسي ليعرب عن شكره وبصحبته مجموعة من أعضاء الجماعة المعروفين.(١٣)

الجماعة الإسلامية

خلال هذا العقد تفرعت الإخوان المسلمين إلى فصائل متنوعة وتيارات متنافسة. وبدأ الحرس القديم ظاهريا على الأقل يتجهون إلى التحديث. عاد الكثير من الأعضاء القدامى المنفيين في السعودية إلى مصر مزدهرين ماليا ورجال أعمال لهم علاقات جيدة. أما الأعضاء الشباب على العكس خاصة من طلبة الجامعات فقد كونوا نوادي وتنظيمات مصغرة عن الإخوان المسلمين. وازدهرت تلك الجماعات بسرعة بتأييد ودعم من السادات والأجهزة الأمنية المصرية. وأصبحت تلك الجماعات تعرف باسم "الجماعة الإسلامية".(١٤) وتمددت الإخوان المسلمين بشكل سريع دون أن يكون لها قيادة

* ثورة التصحيح
** لا يفسر المؤلف كيف يصرون على العمل السري فيما هو متاح لهم العمل العلني وعلى أسس شرعية.

مركزية في ضوء خطوة السادات عدم إضفاء الطابع الشرعي عليها رسميا. وكان دعم تلك الجماعات الإسلامية في الجماعات بالنسبة للسادات وسيلة لاستغلال الإسلام لدعم سلطته. وقال جون اسبوزيتو "غازل السادات الإسلام حتى لا يكون ظلا لجمال عبد الناصر". وأشار إلى أن السادات أضاف إلى اسمه لقب الرئيس المؤمن في إشارة إلى الخليفة إمام الإسلام. وكان السادات يبدأ خطاباته وينهيها بآيات من القرآن. وحرصت وسائل الإعلام على تصويره وهو يرتاد المساجد وركزت آلات التصوير على علامة الصلاة في جبهته.(١٥)

وتلقت الجماعات الإسلامية دعما من الشرطة الخاصة من وراء الكواليس. وقال كيبل: "بعد ديسمبر ١٩٧٢ تحسن مستقبل الطلبة الإسلاميين الأعضاء في الجماعات الإسلامية. ووجدوا مفتاح النجاح أخيرا. وتعاونوا مع النظام تكتيكيا في السر لكسر هيمنة اليسار على الجامعات. واستخدمت الجماعات الإسلامية(١٦)، كما هي الحال مع تلك الجماعات في كل مكان العنف والسيطرة بالقوة والترهيب ضد خصومهم وكانوا يحصلون على التأييد والدعم من السعودية ومن الجناح اليميني من رجال الأعمال في مصر". وقال كيبل: "كانت الجماعات الإسلامية تتكون أساسا من طلبة الجامعات التي تحولت إلى قوة مسيطرة على الجامعات خلال فترة حكم السادات. وكونوا جماعات ذات طبيعة جماهيرية. وبعد قليل تعارضت شعارات الديموقراطية مع شعار "الله أكبر" في التظاهرات الطلابية. وبعد سنوات قليلة سيطرت الجماعات الإسلامية على الجامعات في مصر كلها واضطرت جماعات اليسار إلى الانزواء.(١٧)

ولعب أحد مساعدي السادات وهو محمد عثمان إسماعيل، دورا حيويا في إطلاق يد الجماعات الإسلامية. عمل إسماعيل المحامي السابق في عام ١٩٧١ مع الرئيس المصري عندما قام بمناورته وحبس معارضيه من اليسار وكان إسماعيل الأب الروحي للجماعة الإسلامية في القاهرة من ١٩٧١ ثم وسط مصر في عام ١٩٧٣(١٨)، العام الذي تم تعيينه خلاله محافظا لأسيوط التي تعتبر معقل الإسلاميين من فترة طويلة. ومن هذا المنصب كان إسماعيل يحث الجماعات الإسلامية على محاربة الشيوعيين. وكونت الجماعة الإسلامية في السبعينات بدعم من الحكومة المعسكرات الصيفية وهي من بقايا

الإخوان المسلمين عندما ازدهرت الكشافة والجهاز السري انطلاقا من المعسكرات الرياضية للبنين والبنات. وأقيم أول معسكر صيفي في جامعة القاهرة في عام ١٩٧٣ حيث أرسل السادات كبار المسئولين للأعراب عن تأييد النظام.

وكانت المعسكرات تقام تباعا على مدى السنوات التالية. وفي عام ١٩٧٤ أعاد السادات تنظيم القواعد التي تحكم اتحاد الطلبة المصري للسماح للجماعة الإسلامية بالسيطرة على هذا النشاط الجامعي المهم. وجاء في مرسوم حكومي أن الهدف الرئيسي من اتحاد الطلبة هو تعميق القيم الدينية بين الطلبة. وكان الاستيلاء على اتحاد الطلبة خطوة أولى بين خطوات تالية هي الاستيلاء على نقابات الأطباء والمحامين والمهندسين وغيرها وبالطبع سوف يستولي اليمين الإسلامي على الأزهر مرة أخرى لينتهي دور الأزهر كمركز إسلامي متوازن غير متشدد(*). وفي عام ١٩٧٣ أبرمت رابطة العالم الإسلامي، أداة السعودية لأسلمة الدول، اتفاقية مع الأزهر فقادت تلك المؤسسة الإسلامية إلى فلك الوهابية.(١٩) وفي نفس العام اختلق السادات أيضا منصب نائب رئيس الوزراء للشئون الدينية وشكل اللجنة العليا لوضع القوانين حسب الشريعة الإسلامية. وقدم الإسلاميون مشاريع قوانين إلى مجلس الشعب لحظر المشروبات الكحولية وتطبيق الحدود وجعل التربية الدينية إلزامية في المدارس.(٢٠)

وكمراقب لتطورات تلك الفترة ذهب عبد المنعم سعيد مدير مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية والسياسية إلى أن "نفوذ السعودية في مصر خلال مطلع السبعينات كان مدمرا. وتوجه العديد من المصريين إلى العمل في السعودية وعادوا يحملون مبادئ محافظة وعقائد وهابية. كما مولت السعودية المعاهد المصرية ببذخ التي كانت تتوق إلى التمويل. ويقول سعيد أن السعودية حولت الأزهر إلى معسكر اليمين وجعلته ينشر أراء شديدة المحافظة. وتبرعت العديد من المنظمات السعودية غير الحكومية للمساجد المصرية وحولها ذلك إلى معسكر اليمين. وكان هناك كثير من الصحفيين المصريين يتلقون رواتب من السعودية في السر طبعا".

(*) يبدو المؤلف هنا لا يعجبه أي نوع من الإسلام .. سواء كان ذلك الذي تعبر عنه جماعة الإخوان أو الأزهر أو غير ذلك.

ويضيف سعيد: "إن نفوذ السعودية في مصر كان له أثره على القانون المصري. وتغير الفكر القضائي المصري فمن العشرينيات إلى الستينات كان مستقلا معتدلا ومستنيرا لكنه في السبعينات تغير بعد أن بدأ الذين ذهبوا إلى الخليج في العودة. وجاءوا بتفسيرات عقيمة للقانون. وتغير المفهوم المصري عن السعودية أيضا. كانت السعودية دائما تخشى تأثير مصر عليها لكن الآن أصبح العكس هو الصحيح. بدأت العادات المصرية تتغير وكذلك طريقة الحياة والتفكير بشأن فصل النساء عن الرجال. (٢١)

حرب رمضان

شن أنور السادات في رمضان ١٩٧٣ هجوما مباغت على الأراضي التي تحتلها إسرائيل في سوريا ومصر وبالتنسيق مع سوريا. وفشل الهجوم عسكريا لكنه حقق نجاحا سياسيا (*) وحفزت الحرب الروح الإسلامية في مصر لأنها بدأت في شهر الصوم وتحت شعارات دينية - الله أكبر -. وبعد بعض المعارك الناجحة عبرت خلالها القوات المصرية قناة السويس وتقدمت نحو القوات الإسرائيلية في شبه جزيرة سيناء، عانت مصر من انتكاسات عندما رد اريل شارون الضربة، حيث حاصر الجيش الإسرائيلي جيشا مصريا كاملا وقطع عنه الإمدادات على الجانب الغربي من القناة مما أوحى باحتمال مواجهة بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا وإعلان حالة التأهب النووية وأزمة كادت تقترب من المعركة الكبرى في الحرب الباردة.

لكن الحرب كان لها نتائج هامة جدا بالنسبة للسادات. أولا: أدت إلى تدخل الولايات المتحدة لترتيب وقف إطلاق النار ثم التوصل إلى اتفاقات فض الاشتباك التي عززت التحالف المصري الأمريكي في السبعينات. وثانيا: أكدت الروابط بين مصر والسعودية التي قادت الحظر النفطي العالمي في ١٩٧٣ و ١٩٧٤. ووجدت السعودية أنهارا من الأموال تنهال عليها تستطيع أن تنفق منها على الأصولية الوهابية بسبب ارتفاع أسعار النفط بعد ذلك باعتبار أن السعودية زعيم منظمة الدول المصدرة للنفط.

---

* يأبي المؤلف إلا أن يشوه الحقائق بإشارته إلي ما يعتبره فشل عسكري ونجاح سياسي حيث العكس هو الصحيح فقد حقت مصر إنتصارا كبيرا على إسرائيل في الأيام الأولى للحرب استدعت تدخلا أمريكيا وهو ما أدى بالسادات إلى الدخول في العملية السياسية التي تراجعت بما حققته مصر من نجاحات.

وثالثا: أكدت حرب ١٩٧٣ أوراق اعتماد السادات الإسلامية وعززت قدرته على ارتداء عباءة المسلم المقدس الذي يشن حربا مقدسة. وتعد الحرب العربية الإسرائيلية في ١٩٧٣ من عدة جهات إعادة ميلاد للحركة الإسلامية. أشارت مصر إلى الحرب باسم "حرب رمضان" الشهر المقدس عند المسلمين. وكان تحفيز الجنود يتم عن طريق شعارات مثل "تحرير المسجد الأقصى في القدس". ويقول هيرمان أيلتس السفير الأمريكي أن الجنود كانوا يصيحون أثناء العبور بقول "الله أكبر".(٢٢)

وكان الهدف الرمزي من حرب ١٩٧٣ هو الانتقام لهزيمة ١٩٦٧. وقال مستشارو الدعاية للسادات إن تلك الحرب ترمز إلى فشل الناصرية والقومية العربية. وكان أئمة المساجد يتحدثون كثيرا عن هزيمة ١٩٦٧ على أنها بسبب افتقار ناصر إلى الإيمان والورع وابتعاده عن الإسلام. وعلى العكس من ذلك كانوا يعززون الدعاية لليمين الإسلامي وصور السادات الأمر على أنه نصر مبين خيالي ودليل على قوة الإسلام. ورغم أن إسرائيل لم تهزم في حرب رمضان ورغم أن مصر عانت خسارة معظم جيشها أو كامله فإن عبور القناة صور على أنه علامة انتصار فارقة (*). وقارن المسلمون المحافظون في أنحاء العالم الذين يتوقون إلى تحقيق نصر، حرب رمضان بالانتصارات العسكرية المذهلة للإسلام في القرون الأولى عندما امتد حكم المسلمين إلى وسط آسيا وإسبانيا ووصلت جيوش المسلمين إلى حدود فرنسا والنمسا. ويمكن القول بأن السادات لم يتوقع أن يهزم إسرائيل أو حتى يحرر سيناء. فقد كانت الحرب مصممة على أن تكون محدودة لتحقيق أهداف سياسية فقط. وحتى يومنا هذا ليس من المعروف إذا كان بعض المسئولين الأمريكيين تآمروا مع السادات عن قصد أو على الأقل غضوا الطرف عن استعداده لها لاستكمال توجه مصر إلى الجانب الأمريكي في الحرب الباردة على حساب إسرائيل. لكن المؤكد هو أن المخابرات الأمريكية كانت على علم تام بالمخططات الحربية قبل قيام الحرب وكذلك كان كما أدهم رئيس المخابرات السعودية على علم بها. والواقع أنه قبل شن الحرب بأشهر وصف أدهم ومسئولون في المخابرات السعودية خطة حرب رمضان بما فيها قرار السعودية باستخدام ما يسمى "بسلاح

(*) استمرار للتشويه الذي يعمد إليه المؤلف على مستويات مختلفة.

النفط". وأرسلت قيادة المخابرات الأمريكية في السعودية تقريرا إلى واشنطن بذلك.(٢٣)

وتقول مارتا كيسلر أحد أفضل محللي المخابرات الأمريكية للإسلام السياسي إن الحرب كانت نقطة فاصلة. وأوضحت إن حرب ١٩٧٣ العربية الإسرائيلية كانت تحت لواء الإسلام ورمزت تلك الفترة إلى تراجع الوهم في العالم العربي بشأن الأفكار الأوروبية بما فيها الشيوعية فضلا عن البعثية والناصرية. ولم تكن أي من تلك الأفكار واردة من قبل والأهم من ذلك إنها لم تفلح. ولذلك فان فكرة شن الحرب تحت شعار الإسلام كان مدبرا. وتم إعادة تسمية الوحدات العسكرية وإشارات النداء وهكذا بحيث يشير كل شيء إلى معاني إسلامية. وهنا أشير إلى بدء ازدهار الإسلام السياسي على الأقل في تلك الفترة المصاحبة للحرب.(٢٤) لكن عودة الإسلام السياسي إلى مصر تحت سطح الورع والتقوى والملابس المحافظة والأحكام بالشريعة الإسلامية ثبت أنه سلاح ذو حدين وسواء كان ذلك معلوما للسادات أو المخابرات الأمريكية أم لا، كانت هناك عناصر جديدة خطيرة تستجمع قواها.

دور "سيد قطب"

مع حلول نهاية السبعينات خاصة بعد زيارة السادات للقدس وبدء الحوار مع إسرائيل تحول اليمين الإسلامي إلى التشدد وانتقل الكثير من العناصر الإسلامية إلى معسكر معارضة السادات أو تآمروا عليه سرا. ورغم أن دعم الإسلاميين بدا فكرة جيدة للسادات في ذاك الوقت فقد كانت مبالغ فيها. وحتى مع أن عناصر الجماعة الإسلامية دحرت اليسار السياسي لصالح السادات فقد سقطت في براثن الأئمة المستقلين المتشددين الجدد الذين كانوا ينفرون من الشيوعية واتخذوا مواقف مناوئة للغرب في الوقت ذاته.

وكانت أول بادرة على أن هناك شيء خاطئ ظهرت في عام ١٩٧٤ عندما قامت زمرة من الإسلاميين غالبيتهم من المصريين تحت قيادة فلسطينية بعملية دموية في الكلية الفنية العسكرية. وقتل العديد وألقي القبض على عدد أكبر وألقى السادات باللوم في تلك الثورة المصغرة على ليبيا. كان قائد الثورة صالح سرية من مدينة صغيرة بالقرب

من حيفا في إسرائيل هي مسقط رأس مؤسس حزب التحرير الإسلامي وهي جماعة يمينية متشددة تهدف إلى استعادة الخلافة الإسلامية وكان لها علاقات وثيقة مع سعيد رمضان والإخوان المسلمين. كان الاحتمال الأكبر أن سرية كان من أتباع حزب التحرير.(٢٥) ويقول جيل كيبل: "عاش سرية في الأردن حتى ١٩٧٠ ثم قضى عاما في العراق لكنه اضطر إلى الهرب من بغداد حيث حكم عليه غيابيا في عام ١٩٧٢ بسبب عضويته في الحزب. وانتقل سرية بعد ذلك إلى القاهرة وعندما وصل إليها بدأ زيارات إلى الإخوان المسلمين خاصة إلى المرشد العام الهضيبي وإلى زينب الغزالي الأم الروحية للجماعة. وحاز سرية على ثقتها وكان يجري مناقشات معها بانتظام." (٢٦)

ويقول عبد المنعم سعيد عندما حلل المحققون أحداث الكلية الفنية العسكرية وجدوا إشارات على تغيرات عميقة بين الطلاب. ويضيف "عندما أجروا تحقيقاتهم وجدوا مؤشرات مزعجة على تغيرات كبيرة في الكلية مثل الإكثار من الصلاة والانفصال في مجموعات وعلامات على التشدد المبالغ فيه. وكان السادات يعبئ الروح الإسلامية لكن بطريقة لم تستطع أن تنتبه لها المخابرات الأمريكية أو المصرية".(٢٧) كان زعيم الإخوان المسلمين في ذاك الوقت هو عمر التلمساني الذي كان مسجونا وأطلق السادات سراحه كما أطلق العنان لأفكار الإخوان المسلمين وحرية سلوكهم كما يقول ايلتس، الذي استطرد يقول: "وقد انطلقوا بحرية بالفعل". كانت تصدر مقالات من حين لآخر في إحدى مجلات أو صحف الإخوان المسلمين تنتقد الحكومة ثم تغلق الصحيفة لمدة شهر. وشعر السادات بأن السيطرة مرة أخرى على تنظيم الإخوان المسلمين ليس بالأمر الصعب.(٢٨)

لكن في الوقت الذي ظلت فيه المنظمة محظورة رسميا كانت الجماعات الإسلامية المنبثقة عنها المكونة من الطلاب أساسا، تعد للمواجهة. وفي السنوات التالية بنت تلك الجماعات قوتها في مصر وتورطت أحيانا في بعض أعمال الاغتيالات والعنف. ويقول سعيد: "بدأ العديد من الإسلاميين العيش منفصلين ويتجهون إلى الصحراء لبناء حركتهم. وغفلت الأجهزة الأمنية عنهم".(٢٩) وفي عام ١٩٧٧ اغتالت عناصر تنتمي إلى التيار الديني وزير الأوقاف المصري وبدأوا يواجهون عمليات القمع

والقبض عليهم من قبل السلاطات إلا أن ذلك لم يحل دون إنتشارهم. وعندما أذهل السادات مصر بزيارته إلى القدس في ١٩٧٧ للتوصل إلى اتفاقية مع مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل، تحول الإسلاميون والإخوان والجماعات الإسلامية إلى المعارضة المسلحة.

كان العديد من المتشددين الإسلاميين في مصر من أتباع سيد قطب الذي شنقه ناصر عام ١٩٦٦. وكان قطب طور خلال الستينات نظرية متشددة شبهت المسلمين الذين لا يلتزمون بالفكر الإسلامي المتشدد بعرب الجزيرة العربية الذين عاشوا في الجاهلية قبل ظهور النبي محمد. واستغل قطب وأتباعه تلك النظرية كمبرر لاغتيال القادة العرب الذين يعتبرون وفقا لهذه النظرية من غير المؤمنين. ورغم أن نظريات قطب كانت مشوشة ومتعارضة فقد أشاد به بعض المستشرقين باعتباره مفكرا ينتقد العلمانية في الشرق الأوسط. وكان قطب وكتابه "معالم في الطريق" هما اللذين ألهما غالبية المتشددين (والأكثر عنفا) من الإسلاميين في مصر وبعيدا عن عيون المخابرات المصرية والأمريكية.

ويقول أيلتس إن السادات فشل في اكتشاف أي خطر في تشجيع الجماعات الإسلامية اليمينية المتشددة لكن آخرون من المقربين من حوله اكتشفوا هذا ومنهم زوجته جيهان السادات. وقال أيلتس: "السادات الذي يعد عضوا سابقا في الإخوان المسلمين تبنى وجهة النظر التي تفيد بأن تزايد النفوذ الإسلامي والإخوان المسلمين خاصة في الجامعات لم يكن أكثر من مجموعة من الشباب يعبرون عن رأيهم. وأتذكر أن العديد من الناس بما فيهم زوجته كانوا يقولون له لابد أن تراقب هؤلاء الناس ويقولون أنهم خطرين لكنه كان يلوح بيديه فقط ويقول إنهم مجرد شباب. ببساطة لم يعتقد السادات أن اهتمام هؤلاء بالدين والإخوان المسلمين كانوا يشكلون خطرا ولم يستطع بعض وزراءه إقناعه بذلك".(٣٠)

ولذلك فإن المسئولين في المخابرات الأمريكية والدبلوماسيين أيضا لم يفهموا مدى العمق الحقيقي لتغلغل الإخوان المسلمين في المجتمع في أواخر السبعينات ولم يفطنوا إلى العلاقة الغريبة بين الإخوان المسلمين الرسمية والجماعة الإسلامية

والجماعات السرية وأتباع قطب. ولاحظ أيلتس وضباط مخابرات أمريكيين في مصر عملية أسلمة مصر لكنهم وجدوا من الصعب تفهم الأمر أو توقع ما يمكن أن يحدث. في النهاية كان السادات يشجع الأسلمة ويبدو أنه كان مؤمنا بأن هذا أمر مفيد ولا ضرر منه على الإطلاق. ويقول أيلتس: "كان هناك وعي بأن بعض عناصر الحركة الدينية خطرين وتبنيت وجهة النظر القائلة بأن هناك من يستحق المراقبة عن كثب بالتأكيد". لكن أيلتس كان يعتقد أن الحكومة المصرية يمكنها السيطرة على الظاهرة وأن الزعماء المحافظين في الإخوان المسلمين مثل التلمساني لم يكونوا ليؤيدوا الأعمال العسكرية والتكتيكات العنيفة. وتساءل أيلتس في سخرية وتهكم قائلا: "أدان التلمساني المتشددين لكن هل كان جادا في ذلك. ويعتقد أيلتس السفير الأمريكي أنه لم يكن هناك تداخلا بين قادة الإخوان المسلمين والمتشددين لكنه ليس متأكدا. ويقول: "من الصعب الفصل في ذلك ولذلك لابد أن تعتمد إلى حد ما على حكم الرئيس والوزراء".(٣١)

ولم تكن جهود المخابرات الأمريكية أكثر جدوى في هذا الصدد. ويقول مسئول مخابراتي قضى سنوات في الشرق الأوسط منها عدد في القاهرة، أن بعض عناصر المخابرات المصرية حذرته من التقليل من أهمية الإسلاميين. وقال أن أحد أصدقائه من هذه العناصر قال له ذات مرة: "لابد أن تفهموا قوة المسجد. سوف نفقد السيطرة. ولن يؤمن الناس إلا بالمسجد." (٣٢)

وتقول كاثي كريستيشن التي انضمت إلى المخابرات عام ١٩٧١ ورأست مكتب القاهرة من ١٩٧٣ حتى ١٩٧٧ أن الخطر المحدق بمصر من الإسلاميين في تلك الفترة لم يكن يشغل بال المخابرات (الأمريكية). وتقول إنها سمعت عن الإخوان المسلمين بالطبع لكن لم يكن هناك تركيز على الإسلام. كان من السهل التغاضي عن نشاط الإسلاميين في مصر في ذاك الوقت.(٣٣) ومن أهم أسباب ذلك أن المخابرات الأمريكية وصناع السياسة كانوا يعتقدون على مدى طويل أن هذا النشاط يصلح أن يكون سلاحا ضد السوفيت.

ويقول أيلتس أنه خلال فترة عمله سفيرا من ١٩٧٤ عندما استعادت مصر وأمريكا العلاقات الدبلوماسية وحتى ١٩٧٩ كان من الصعب على السفارة والمخابرات

الالتقاء مع الإسلاميين خاصة الذين بدأوا اتخاذ مواقف ضد الحكومة سرا. ولم تكن الحكومة تحبذ إجراء اتصالات بين أمريكا وقوى المعارضة على أساس أن هذا سوف يشجع المعارضة على الاعتقاد بأن أمريكا تؤيدها. ويوضح أنه كان على المرء أن يتعامل مع هذه الأشياء بعناية شديدة. وكانت الاتصالات تحدث في المناسبات التي يرتبها بعض الأصدقاء فقط. وخلال الجولات المكوكية التي قام بها كيسنجر بعد الحرب العربية الإسرائيلية في ١٩٧٣، وعد هذا الأخير الرئيس السادات بألا تعمل المخابرات سرا ضد مصر. وهو ما حد من نشاط المخابرات في هذا المجال. ويمكن الحديث عن اتصالات سرية مع الإسلاميين لكنه من الصعب القول أنها كانت منتظمة. (٣٤)

فضلا عن ذلك لم تكن المخابرات مجهزة للاتصال بأصحاب اللحى والأئمة المصريين المتشددين ونشطاء الجماعة الإسلامية "الذين يميلون إلى العنف". وكانت المخابرات تفتقر إلى المهارات اللازمة مما يعكس المشكلة التي عانت منها من سنوات. كان هناك ضباط قلائل يهتمون بقضايا غير غربية وقلائل يستطيعون الحديث بالعربية وقلائل لديهم خلفية عن التاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية. وقال أحد العاملين بالمخابرات من الذين عملوا في الشرق الأوسط ولا يريد ذكر اسمه إنه يتذكر هذا المكتب الصغير المسئول عن اختراق الإسلام المتشدد، وكان يضحك وهو يحكي تلك القصة. ويقول أنه يتذكر نمط التفكير الذي كان قائما آنذاك ومؤداه أن من سيخترق الجماعات المتشددة لم يكن ينبغي له أن يكون أيرلنديا ذو شعر أحمر، وإنما يتطلب الأمر الكثير من التخطيط والعمل الإستراتيجي والفهم. وهو لايعتقد أن هناك مشكلة أكثر تعقيدا من ذلك فلابد أن يكون الشخص المعني مسلما ويرتاد المساجد ليستطيع الحديث مع هؤلاء الناس ويضع يديه على المشكلة. ونحن لم نفعل ذلك.(٣٥)

أما بالنسبة لليمين الإسلامي فقد كانت السبعينات عقد التحولات. ممارسات الإسلام المتشدد الذي عرفته أمريكا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لا تزال موجودة وما زالت الآن لكن إلى جانبها هناك شكل آخر يتطور أكثر غلظة. في مصر اتخذ هذا شكل المتشددين من الجماعة الإسلامية الذين كونوا قلب الجهاد الإسلامي فيما بعد بزعامة أيمن الظواهري الرجل الثاني في "القاعدة". وفي إيران اتخذ هذا الشكل الجديد

المتشددين الشيعة المسلحين الذين كونوا الجناح المتشدد من حركة آية الله خميني. وفي السعودية معقل الوهابيين أفرز الشكل الجديد أسامة بن لادن أتباعه الذين اعتبروا حتى رجال الدين المتشددين في السعودية زمرة من المدعين.

واخفقت الخارجية والمخابرت الأمريكية في اكتشاف التحول في اليمين الإسلامي في السبعينيات بل ورأوا ما يريدون أن يروه وهو الإسلام السياسي المحافظ المناهض للشيوعية الذي يشغل نفسه بمحاولة فهم أحكام الشريعة كما يفسرها العلماء أصحاب اللحى. وقال عدد قليل جدا من المتخصصين الأمريكيين في الإسلام وشئون الشرق الأوسط أن اليمين الإسلامي ليس فقط مناهضا للشيوعية بل للديمقراطية والغرب ويميل إلى العنف لكن تلك كانت وجهة نظر الأقلية في السبعينيات وحتى بعد الأحداث الجسام التي وقعت في السنوات التالية مثل الثورة الإيرانية و احتلال الكعبة في مكة واغتيال السادات وقنبلة حزب الله التي قتلت ٢٤١ من مشاة البحرية الأمريكية كان الأمريكيون ينظرون إلى اليمين الإسلامي على أنه حليف خاصة وقت الجهاد في أفغانستان.

ولعل من الأسباب التي أبقت على جعل الصعود الإسلامي أمرا مغريا بالنسبة للغرب ظهور الاقتصاد الإسلامي في السبعينيات. فقد أسس العديد من المتشددين الإرهابيين مشاريع اقتصادية وبنوكا وظهروا في عيون العالم على أنهم مواطنين مزدهرين أثرياء ولو كانوا أتقياء لا غضاضة. لكن المشاريع والبنوك حققت أرباحا وأتباعا للتشدد أيضا.

بنك الإخوان المسلمين

لعب الاقتصاد دورا حيويا إلى جانب السياسة في انتشار المد الإسلامي في مصر في السبعينيات. وعندما تولى السادات السلطة في مصر في ١٩٧٠ رأت المصالح التي سبقت نظام ناصر، التي حاولت المخابرات استغلالها وفشلت في القضاء على ناصر في أواخر الخمسينات، فرصة لاستعادة ثرواتها ونفوذها السياسي. وقد حافظ الكثير من هؤلاء على علاقاته مع الإسلاميين خاصة العائلات الإقطاعية التي فقدت نفوذها لكنها لم

تختف. والحقيقة أن العائلات الإقطاعية المالكة للأراضي والمشاريع وعائلات التجار الأثرياء كان لها علاقات حميمة مع الإسلاميين وينطبق ذلك على الشرق الأوسط من مصر إلى باكستان إلى إيران إلى تركيا. وفي كثير من الحالات كانت هناك علاقات نسب فكان لكل من الأثرياء أخ أو ابن عم يعمل أماما أو من الملالي أو آيات الله وكان التعاون بينهم وثيقا.

وأصبحت حركة الإخوان المسلمين من كبار المؤيدين لخطة السادات لتوسيع نطاق حرية المشاريع في مصر وأيدوا بشدة سياسة الانفتاح الاقتصادي التي تبناها آنذاك. كان الانفتاح من على السطح يدار بواسطة مطالبة صندوق النقد الدولي باتباع سياسة التقشف. وخلال الستينات والسبعينات فرض صندوق النقد الدولي شروطا قاسية على العديد من دول العالم الثالث كشرط لحصولها على قروض دولية. وأدت تلك الشروط إلى مصاعب اقتصادية مبرحة لبلد تلو الآخر لأن المساعدات تقلصت وزادت البطالة وتم تأميم الصناعات. وكانت سياسات صندوق النقد غالبا تؤدي إلى مواجهات للأنظمة مع اليسار والنقابات العمالية. ولم تكن مصر استثناء من هذا. وكانت السياسات التقشفية لصندوق النقد وتخفيض المساعدات النتيجة المباشرة لجهود أمريكا الرامية إلى تشجيع الاقتصاد الحر في العالم الثالث لمحاربة الاشتراكية. وفي مصر وجد الإسلاميون اليمينيون والمحافظون من أصحاب الأعمال في ذلك التطور قضية مشتركة للدفاع عنها.

وتلقت مجلة الدعوة الصادرة عن الإخوان المسلمين الجدد المتحررون دعما ماليا من اليمينيين المصريين الأثرياء. ووفرت المشاريع التي قامت على سياسة الانفتاح التي تبناها السادات غالبية الإعلانات في تلك المجلة. وكانت شركات العقارات ورجال الأعمال يشترون نحو ٤٩ صفحة من صفحات مجلة الدعوة البالغة ١٨٠ وتشتري شركات البلاستيك والكيماويات ٥٢ صفحة ويشتري مستوردو السيارات ٢٠ صفحة والبنوك الإسلامية وشركات الاستثمار ١٢ صفحة وشركات الأغذية ٤٥ صفحة للإعلانات وفق إحصاءات جيل كيبل. وكان ٤٠% من الإعلانات في المجلة يأتي من ثلاث شركات يسيطر عليها أعضاء في الإخوان المسلمين كونوا ثرواتهم في السعودية. (٣٦)

واضطر التلمساني في حديث مع مجلة اسبوعية مصرية أن يعترف بأن غالبية مقومات سياسة الانفتاح تخضع لسيطرة أعضاء سابقين في الإخوان المسلمين كانوا في المنفى وعادوا إلى مصر.(٣٧) وفي عام ١٩٧٤ أصدر الإخوان المسلمين مرسوما يطالب أعضاءها بتأييد سياسة الانفتاح التي أطلقها السادات. وكان هذا العمل حقا من خصائص الإسلام السياسي. فقد كان الإسلاميون طوال تاريخهم يؤيدون رأس المال والرأسماليين ويعارضون سياسات صراع الطبقات من حيث المبدأ. فلم يكن الإسلاميون يؤيدون الفقراء أو المعدمين أو الطبقات الدنيا(*). وفي مصر بصفة خاصة لم يتعاطف الإسلاميون مع العمال المظلومين أو المزارعين الفقراء الذين لم يستطيعوا أن يستفيدوا من سياسة الانفتاح أو الذين تأثرت حياتهم سلبا بالانفتاح، ولكنهم شاركوا في فض الإضرابات وعارضوا بحماس النقابات العمالية والمثقفين الين تحالفوا مع اليسار.

وكان ظهور البنوك الإسلامية عاملا أساسيا في أسلمة الاقتصاد المصري. وكانت البنوك الإسلامية التي قامت على أساس أن البنوك الجارية لا تتبع الشريعة الإسلامية وتتعامل بالربا، تتهم البنوك الأخرى بأنها لا تقوم على أسس من الدين وأنها يهودية. ولجأت البنوك الإسلامية إلى أساليب ملتوية لتسويق خدماتها وتحذير عملاء البنوك التقليدية بأنها ضد الإسلام وبالتالي سوف يكون مصيرهم جهنم.(٣٨)

وشجع تطور الاقتصاد الإسلامي في مصر على انتشار الإسلام السياسي. وعول أعضاء الإخوان المسلمين على الموارد المالية والتجارية لثروات مؤيديهم في تعزيز تنظيمهم الاجتماعي والسياسي. ووجه الأعضاء الأثرياء في الإخوان المسلمين واليمين الإسلامي في المؤسسات المالية، الأموال إلى المساجد والمشاريع الصغيرة والمنافذ الإعلامية الصديقة ومشاريع أخرى تعمل من أجل المجتمع إسلامي. ولأن الإخوان المسلمين تعمل في ظل قرار رسمي بحظرها فقد تم بعض هذا العمل سرا بـ "الإيماءة أو إشارة العين". ولايزال اليمين الإسلامي في مصر يعتمد على الدعم السعودي لكنه أصبح مستقلا ماليا. ويقول أحد المحللين المصريين إن الإسلاميين أقاموا العديد من المشاريع والبنوك وكانوا يتعاملون مع بعضهم فقط. فكان عضو الإخوان المسلمين يشعر ببالغ

---

* جملة غامضة وملغمة تشوه مفاهيم الإسلام والحركات الإسلامية للثروة وأسس النظام الإقتصادي.

السعادة أن يعطي الجماعة نصف دخله.(٣٩) وساهم إنشاء بنك فيصل الإسلامي في مصر في ١٩٧٦ في تعزيز طاقة الإخوان المسلمين في البلاد إلى جانب جهود السادات لتعبئة اليمين الإسلامي. كان البنك هو حجر الزاوية في إمبراطورية البنوك الإسلامية ويديره الأمير محمد الفيصل السعودي ابن الملك فيصل ولعب دورا حيويا في أسلمة مصر والمنطقة.

لم يكن الأمير محمد الفيصل بكل المقاييس عضوا في الإخوان المسلمين لكنه كان يتبع سياسة العائلة المالكة السعودية في استغلال الإخوان كذراع في إدارة السياسة الخارجية مع تجنب الإقتراب الشديد من الحركة قدر الإمكان.

كان الأمير يعتمد على الشخصيات البارزة ذات الواجهة الإيجابية مثل مفتي الجمهورية، لكي يضفي المزيد من المشروعية على نشاط البنك، وحظي الأمير بتأييد السادات حتى أنه استصدر تشريعا يعطي البنك مشروعيته الكاملة.(٤٠) وكان بين مؤسسي البنك رئيس الورزاء الأسبق عبد العزيز حجازي الذي أصبح أحد رواد حركة الاقتصاد الإسلامي، وعثمان أحمد عثمان(*). ورجل صناعة كبير يعرف باسم روكفلر مصر لعب الدور الرئيسي في إعادة ظهور الإخوان المسلمين في السبعينات. (٤١)

وكان بين أعضاء مجلس إدارة البنك شخصيات هامة في الإخوان المسلمين وذات نفوذ مثل يوسف القرضاوي وعبد اللطيف شريف ويوسف ندا.(٤٢) وسوف يلعب كل من هؤلاء دورا حيويا في نمو التشدد الإسلامي ليس في مصر فقط بل في المنطقة قاطبة. وسوف يحوم الجميع في السنوات التالية حول الطرف الأقصى للجماعة الإسلامية. ومن أهم وأشهر المؤسسين لبنك فيصل الإسلامي الشيخ الضرير عمر عبد الرحمن والذي يعتبر المرشد الروحي للجهاد الإسلامي وهي جماعة متشددة سوف يغتال أعضاؤها السادات. وفيما بعد سوف يساعد عبد الرحمن المخابرات الأمريكية لتجنيد "طالبي الشهادة" للعمل في الجهاد ضد السوفيت في أفغانستان. وسوف يهاجر عبد الرحمن إلى أمريكا حيث يلقى القبض عليه ويدان لدوره في تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك. حصل بنك فيصل الإسلامي على دعم حكومي غير محدود لتأسيسه.

---

* هل يمكن أن يكون هناك تشويه للحقيقة أكثر مما يذكره المؤلف في هذه السطور بشأن دور عبد العزيز حجازي.

وضمن القانون الخاص الذي منح البنك مشروعيته عدم تأميم البنك وألا يخضع للقوانين التي تحكم بنوك الدولة وأن يعفى من العديد من الضرائب وأن يعمل في سرية تامة!(٤٣) ومن اللافت للنظر أن المسئول الذي عرض قانون إنشاء البنك على البرلمان لم يكن وزير الاقتصاد بل وزير الأوقاف. وتم تمرير القانون بسهولة في ضوء خوف الأعضاء اليمينيين من التصويت ضده حتى لا يتم تصنيفهم باعتبارهم ضد الإسلام.(٤٤)

وكان الشريف الذي سيدخل السجن في مصر في التسعينات وسيطا شهيرا له اتصالات وعلاقات مع الإسلاميين المتشددين. وقام الشريف من موقعه في بنك فيصل بالعمل مع شركات توظيف الأموال الإسلامية التي تطورت بسرعة وانتهت بسرعة في الثمانينات في غمرة الانفتاح والسوق المفتوحة وكانت توفر للمستثمرين أسعار فوائد أعلى كثيرا من البنوك التقليدية. كانت شركات توظيف الأموال توفر ٢٥ % فوائد على الودائع أي ضعف فوائد أي بنك آخر. وكانت أولى تلك الشركات هي الشريف لتوظيف الأموال التي كان لها علاقات مع الإخوان المسلمين.(٤٥) كانت شركات توظيف الأموال سياسية بالدرجة الأولى وتدعم المرشحين التابعين للإخوان المسلمين في الانتخابات سرا خاصة في عام ١٩٨٧. وانهار نظام توظيف الأموال نهاية الثمانينات مما هدد أساس شبكة البنوك الإسلامية خاصة بنك فيصل الإسلامي.

وقال سليمان في كتاباته أنه أشيع أن الأمير محمد الفيصل حمل طائرات بمليارات الدولارات على أن تذهب مباشرة إلى القاهرة للوفاء بطلبات السحب من المودعين في البنك.(٤٦) وفي عام ١٩٩٣ اشترى صالح كامل صاحب مجموعة البركة مجموعة الشريف مقابل ١٧٠ مليون دولار.

كان يوسف القرضاوي ناشط الإخوان المسلمين المقيم في قطر من مؤسسي بنك فيصل. وكان القرضاوي معروفا في العالم العربي بأنه متشدد وبخطاباته اللاذعة التي توزع على شرائط كاسيت. والقرضاوي هو المؤيد الأكبر لمن يقومون بعمليات انتحارية بتفجير أنفسهم ضد إسرائيل.(*) وبعد الغزو الأمريكي للعراق أصدر القرضاوي فتاوى

* في ضوء حقيقة تشويه عمليات المقاومة في فلسطين على يد الكتابات الغربية، فإن هذا التوصيف الذي يقدمه المؤلف قد يستغرق ويجر إلى قدر كبير من الجدال ليس هنا مجاله ونكتفي بهذا التنويه.

بقتل المدنيين الأمريكيين في العراق.(**) ومن الغريب أن القرضاوي والذي تلقي في عام ٢٠٠٤ لحضور منتدى دولي عن الإسلام نظمه معهد بروكلين، يخفف من نبرته المتشددة عندما يتحدث إلى جماهير من الغرب.

وربما يكون يوسف ندا من أهم مؤسسي بنك فيصل الإسلامي. كان ندا من أعضاء الإخوان المسلمين قبل تولي ناصر الحكم واتهم في قضية محاولة اغتيال ناصر في عام ١٩٥٤ وهو مثل سعيد رمضان، هرب من مصر إلى ألمانيا ثم إلى إيطاليا. وساهم ندا مثل عدد من الأعضاء القدامى في تأسيس بنك التقوى الذي كان له فروع في جزر البهاما وإيطاليا وسويسرا. كان بنك التقوى البنك شبه الرسمي للإخوان المسلمين. ويقول عبد القادر شهيب الصحفي المصري الذي تابع ندا لعدة سنوات كان بنك التقوى هو الجهاز الاقتصادي المركزي للإخوان المسلمين خاصة فروعه الدولية. وكان الفرع الدولي مرتبطا بسعيد رمضان، زوج ابنة حسن البنا ومؤسس الإخوان المسلمين بجنيف. كان يوسف ندا مديرا لبنك التقوى كما يقول شهيب.(٤٧) وشملت قائمة مؤسسي بنك التقوى السرية زعماء الإخوان المسلمين في سوريا وتونس فضلا عن يوسف القرضاوي الذي كان رئيسا للبنك للشئون الدينية.(٤٨) وسوف تظهر أسماء المرتبطين بدوائر بنك التقوى وبنك فيصل الإسلامي في تحقيقات القاعدة وحلفائها، حيث اعتبرت الخارجية والخزانة الأمريكية في عام ٢٠٠١ أن ندا هو ممول الإرهاب.(٤٩)

ولم تكن علاقات بنك فيصل الإسلامي بالمتشددين الإسلاميين هي الشيء الوحيد الذي أدى إلى انهياره في الثمانينات. كان للبنك أيضا علاقات وثيقة مع بنك الاعتماد والتجارة الدولي سيء السمعة وكان يشتهر باسم "بنك النصابين والمجرمين الدولي". كان البنك مملوكا لمستثمرين من باكستان والخليج ويشارك في تمويل الإرهاب وتجارة السلاح وتهريب المخدرات وعمليات تمويل مشبوهة. وحتى سقوطه في عام ١٩٨٨ كانت المخابرات الأمريكية من عملاء البنك وتستغله في إيداع أموال أمريكية وسعودية لتمويل الحرب في أفغانستان. كانت تلك الأموال توجه إلى المتشددين الإسلاميين

** هكذا وكأن العراق قد خلا من العسكريين الأمريكيين فلم يجد القرضاوي سوى الدعوة إلى قتل المدنيين والسؤال هو لماذا لم يشر المؤلف إلى أن القرضاوي دعا إلى قتل الأمريكيين – لتعني ضمنا المدنيين والعسكريين - حتى يكتسب قدر من الموضوعية ولو الشكلية!

المحاربين المرتبطين بالجهاد هناك. ورغم أن بنك الاعتماد والتجارة لم يكن إسلاميا فقد كان يعمل على هذا الأساس. وعندما انهار بنك فيصل وجد المؤسسون ٥٨٩ مليون دولار غير مسجلة منها ٢٤٥ مليون دولار تخص البنك في مصر.(٥٠)

وبعد اغتيال السادات تم طرد العديد من الذين كانوا يشغلون مناصب عليا في بنك فيصل الإسلامي ومنهم ندا والقرضاوي والشريف. وطلبت المخابرات المصرية من الأمير محمد بن فيصل رفع هذه الأسماء من ضمن القائمين على شئون البنك.(٥١) لكن الضرر كان قد وقع بالفعل. فقد ساعد البنك على إحياء المؤسسة الإسلامية في مصر التي أفرزت "إرهابيين" وأدت إلى إنتشار العمليات السرية. وخلال الثمانينات والتسعينات سوف تقاوم تلك الشبكة السرية الإرهابية جميع جهود الحكومة لحلها في ظل حكم الرئيس مبارك(*).

لقد مثل رحيل السادات نهاية للقب "الرئيس المؤمن"، لكن بحلول ذلك الوقت كانت إيران تحت سيطرة نسخة جديدة من الإسلام ممثلة في الثورة الخمينية وكان الجهاد في أفغانستان في عنفوانه وأصبح الإسلام إيديولوجية الناشطين من شمال أفريقيا إلى وسط آسيا السوفيتية. هذه التطورات غير العادية لم تكن لتجد طريقها إلى النور لولا التحالف الذي قام بين السادات وأمريكا والسعودية. الآن يستغل السعوديون مليارات الدولارات من عائدات النفط الذي ارتفعت أسعاره للسماء في السبعينات في بناء إمبراطورية من البنوك والمؤسسات المالية الإسلامية المؤيدة لأمريكا في كل من مصر والسودان والكويت وتركيا وأماكن أخرى.هذا هو التزاوج بين إيديولوجية الإخوان المسلمين وقوة الاقتصاد الإسلامي الذي سيفضي في النهاية إلى تحويل اليمين الإسلامي لقوة عالمية.

* واضح أن المؤلف يقع في ذات الخطأ الذي يقع فيه قطاع كبير من الفكر الغربي وهو اعتبار المسلمين كتلة واحدة لا تمايز بينها وهنا فمن البين أنه يعتبر الحركة الإسلامية في مصر كتلة واحدة لا اختلافات بينها رغم مجافاة ذلك للحقيقة .. فلا نكاد نميز ما إذا كان يتحدث عن الإخوان أم عن الجماعات الإسلامية أم عن الجهاد أم ..الصوفيون!

الفصل السابع

صعود الإسلام الاقتصادي

عزز الإسلام السياسي في السبعينات بزوغ قوة موازية له هي الإسلام الاقتصادي. فقد وجدت نسبة من الثروات الطائلة التي تتدفق على الدول المنتجة المصدرة للنفط طريقها إلى البنوك والشركات الاستثمارية التي يسيطر عليها اليمين الإسلامي والإخوان المسلمين. وقامت تلك البنوك الإسلامية، في بلد تلو الآخر، بما هو أكثر من الوظيفة المالية. دعمت تلك الأموال، علنا أو سرا، السياسيين المتعاطفين مع الإسلاميين مثل ضباط الجيش والنشطاء الذين يحصلون أساسا على دعم مالي والأحزاب السياسية وشركات الدعاية الإسلامية والمشاريع التي يسيطر عليها الإخوان المسلمين. ومنذ عام ١٩٧٤ دعم النظام المصرفي الإسلامي اليمين الإسلامي بل ومثل له العمود الفقري.

واعتمد النظام المالي والمصرفي الإسلامي الذي بدأ من الصفر وتحول إلى قوة مالية عالمية خلال عقدين تاليين لذلك العام، على العون المالي والتقني من المؤسسات القائمة في الدول الغربية (أوربا وأمريكا) بما فيها بنوك عملاقة مثل سيتي بنك.

وكانت البنوك الإسلامية تبدو أمرا مثاليا بالنسبة لمديري البنوك الغربية وصندوق النقد الدولي وإيديولوجيات السوق المفتوحة. فقد كان اليمين الإسلامي يعلن بصراحة أنه يفضل الرأسمالية على الشيوعية الملحدة. ولم تدافع أي من الحركات الإسلامية المهمة عن العدالة الاجتماعية والاقتصادية سواء الإخوان المسلمين في مصر(*) أو الجماعة الإسلامية في باكستان أو المتشددين الشيعة في العراق. بل كانت الجماعات تعارض ملكية الحكومة والإصلاح الزراعي وبرامج الرعاية الاجتماعية.

نشأت البنوك الإسلامية في مصر على شاكلة نشأة الإخوان المسلمين وتم تمويلها من السعودية ثم انتشرت إلى أرجاء العالم الإسلامي. كانت تبدو تلك البنوك غريبة في البداية فهي عبارة عن نظام موجه للسوق الحرة ذو سلطة مالية تنتمي إلى الشريعة الإسلامية لكنها توفر العملة الصعبة والسهلة لمؤيديها. وبعد قليل كشف البعد السياسي الإسلامي في الصرافة الإسلامية عن نفسه. في الواقع أصبحت البنوك الإسلامية وسيلة

* وماذا عن كتاب قطب الذي يحمل العدالة الاجتماعية في الإسلام أم هل يخرج المؤلف قطب من عداد الإخوان، الأمر الذي ينفيه سياق الكتاب حيث يعتبره، وهي حقيقة، أحد أعمدة الإخوان المسلمين في فترة من مراحل تطورها ومن الغريب أن المؤلف يشير في صفحات لاحقة إلى هذا الكتاب بالتحديد.

لتصدير الإسلام السياسي فضلا عن تبني العنف. وحصلت تلك البنوك، بشكل مباشر أو غير مباشر، على دعم من البنوك والحكومات الغربية.

كان نمو الإسلام الاقتصادي في البداية يتوافق مع تصور واشنطن للشرق الأوسط في ظل الحرب الباردة. فقد كان تزاوجا بين المنظرين الاقتصاديين المتشددين من اليمين الإسلامي في العالم العربي وتقنية وخبرة العديد من البنوك الغربية الكبرى والمؤسسات المالية العالمية والجامعات. بدأ الإسلام الاقتصادي ببطء في الخمسينيات عندما طور خبراء اقتصاديون من الإخوان المسلمين واثنان من رجال الدين العراقيين النماذج الأولى للاقتصاد الإسلامي. وزادت قوة الاقتصاد الإسلامي في الستينات عدما أسس ممول الإخوان المسلمين (السعودية) أول بنك إسلامي. وانطلق الإسلام الاقتصادي فعليا في السبعينات بدعم كامل من السعودية والكويت والدويلات الخليجية خاصة بعد الارتفاع الصاروخي لأسعار النفط في ١٩٧٣ و ١٩٧٤. ثم استجمع الأمير محمد بن فيصل، أخو وزير الخارجية السعودي، الأمر وأنشأ أول سلسلة من البنوك الإسلامية بمليارات الدولارات وليكتسب سمعة اعتباره أمير الأعشار في الإسلام prince of Tithes . خلال تلك السنوات زاد مستوى تنظيم شبكة البنوك الإسلامية وتزودت بالموظفين والمهارات وسيطر عليها الناشطون الأثرياء من الإخوان المسلمين في الغالب، الذين استغلوها لتمويل التحول في الجناح اليميني السياسي في مصر والسودان والكويت وباكستان وتركيا والأردن.

وعمل الإسلام الاقتصادي على محورين في السبعينات، أولا المملكة العربية السعودية نفسها، فهي والدول النفطية التي هبطت عليها فوائض دولاريه ضخمة، مقارنة بالدول الإسلامية الفقيرة مثل مصر وتركيا وباكستان وأفغانستان، عرضت المساعدة على تلك الفقيرة مقابل التحول السياسي إلي اليمين. وثانيا تكونت شبكة البنوك الإسلامية في كل من القاهرة وكراتشي والخرطوم واسطنبول حيث أصبحت لاعبا ماليا مهما فضلا عن التمويل الهادي لنمو اليمين الإسلامي.

في مصر انضم المصرفيون الإسلاميون إلى السادات لدعم تحول البلاد من الاشتراكية العربية إلى "انفتاح السادات" من أجل استعادة اقتصاديات السوق الحرة. وساعد المصرفيون الإسلاميون خلال تلك العملية في بناء زخم سياسي لليمين الإسلامي.

وفي الكويت دعت العائلة المالكة المصرفيين المرتبطين بالإخوان المسلمين لتمويل القوة السياسية ضد القوميين والفلسطينيين في تلك الإمارة النفطية الصغيرة. وفي السودان والأردن وتركيا بني الإخوان المسلمين والسياسيون اليمينيون إمبراطورية مالية على قاعدة البنوك الإسلامية واستغلوا ثرواتهم وعلاقاتهم للدفاع عن قضية اليمين الإسلامي. وعرف الإسلاميون سياستهم الاقتصادية، كما كان الحال في مصر وفي الغالب، على أنها إصلاحات اقتصادية يطلب تنفيذها صندوق النقد الدولي عن طريق الشركات متعددة الجنسيات والمقرضين الأجانب.

وأصبح هناك خطا مباشرا بين السعودية والكويت وشيوخ قطر وأمراؤها الأثرياء ورجال الأعمال والمصرفيين من الإخوان المسلمين إلى اليمين الإسلامي بتمويل من دولارات النفط، بفضل الإسلام الاقتصادي الذي أصبح قوة التجول في الشرق الأوسط.

البنوك الإسلامية والغرب

شجعت البنوك الكبرى وشركات النفط والمؤسسات الحكومية الأمريكية البنوك الإسلامية باستماتة في السبعينات. وجعل ارتفاع أسعار النفط في عام ١٩٧٣ بفعل منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) منطقة الخليج تكتسب أهمية ليس فقط بسبب آبار النفط الموجودة فيها بل بسبب التخمة المالية أيضا. وتدفقت كميات هائلة من السلع العسكرية الأمريكية على السعودية وإيران وإسرائيل ودول خليجية أخرى. وانضمت مصر إلى حلفاء أمريكا التقليديين مثل إسرائيل وتركيا وأصبحت امتدادا للنفوذ الغربي. وبدأت أمريكا وبريطانيا في بناء وتوسيع قواعدها الجوية والبحرية وتعزيز أساطيلها في المحيط الهندي والقرن الأفريقي وجنوب الجزيرة العربية وشرقي البحر المتوسط.

لم يبن رجال الدين وأعضاء الإخوان المسلمين الذين يفكرون بعقلية العصور الوسطى البنوك الإسلامية بمجهودهم الشخصي، بل ساعدهم في ذلك المصرفيون الغربيون الذين كانوا يتوقون إلى استغلال دولارات النفط التي تراكمت على دول الأوبك بعد ارتفاع الأسعار في ١٩٧٣(*). كانت البنوك الكبرى من كبار اللاعبين مع المصرفيين التقليديين في السعودية والخليج وعندما ظهرت حركة البنوك الاسلامية بدا أنها فرصة لا تعوض ولا يمكن التغاضي عنها.

وتقدمت البنوك والمؤسسات المالية الغربية لتوفير الخبرة والتدريب وأحدث التقنيات المصرفية لتسهيل الانتشار السرطاني للبنوك الإسلامية ونفوذها. وأقبلت المراكز المصرفية الكبرى على العملية بعد تطمينات من المستشرقين والأكاديميين الذين أكدوا أن الأسس الرأسمالية في الإسلام تعود إلى مواقف وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم.

وشمل كبار المشاركين في تلك العملية "سيتي بنك" و"البنك البريطاني"- إتش إس بي سي - و"بنكرز ترست" و"تشيس مانهاتن" و"برايس واترهاوس" وغيرها من البنوك الكبرى فضلا عن صندوق النقد الدولي، إلى جانب متخصصين من الولايات المتحدة وبريطانيا وسويسرا. فلم يكن هناك أي خدعة وراء إنشاء نظام مصرفي لا يفرض فوائد ويستطيع العمل بكفاءة في سوق التمويل العالمي. ولا يتسع هذا الكتاب لبحث نظرية التمويل الإسلامي والآليات التي ساعدت البنوك المقرضة بلا فائدة على إعادة تحصيل قروضها ولا تزال تحقق أرباحا. يكفي أن نقول أن تلك النظرية تطورت في السبعينات.(١) والأهم من ذلك بالنسبة لمقصد كتابنا هذا هو كيف دفعت تلك البنوك نمو الإسلام السياسي بمباركة من البنوك الغربية.

ويقول إبراهيم وارد أحد المراقبين الأساسيين في عالم التمويل الإسلامي "كان النظام المصرفي العالمي أداة لإقامة البنوك الإسلامية. ولم يكن أمام هذه البنوك المزدهرة التي تفتقر إلى الخبرة والموارد خيار إلا الاعتماد على خبرات البنوك العالمية

* حتى هذه المزية، المتعلقة بمواكبة الحداثة ولو على النمط الغربي يأبى المؤلف إلا أن ينتزعها من ممن انتموا إلى رواد تأسيس اقتصاد إسلامي بغض النظر عن التحفظات التي يوردها الكثيرون على مثل هذا الاقتصاد وإن كانت الأزمة المالية الأخيرة قد أثبتت وفقا لكثير من الشهادات أن الأسس الإسلامية للاقتصاد أثبتت في بعض التجارب سلامتها عن نظيرتها الغربية.

التقليدية. وعندما اكتسبت البنوك الإسلامية الخبرة كانت صناعة التمويل العالمية تمر بتحولات كبرى. لذلك فان التعاون مع البنوك الغربية أدى إلى ازدهار أنشطة مثل المشاريع المشتركة وإدارة واتفاقات وتعاون تقني وصيرفة عن بعد بدلا من تراجعها، وأدي هذا بدوره إلى تزايد التقابل والاندماج بين التمويل التقليدي والإسلامي. (٢)

وكان أهم تقدم في ملامح تطور الصيرفة الإسلامية في باكستان، وفي لندن، على يد اقتصادي هو لويد ميتزلر من جامعة شيكاغو في الستينات بما في ذلك تنظيم الأعمال المصرفية الحديثة باستخدام الأوراق المالية بلا فوائد.(٣) وبحلول السبعينيات انطلق "الإسلام النفطي" واشتد عوده.

وقال وارد: "كانت كل البنوك الأمريكية بما فيها "سيتي بنك" و"بنكرز ترست" و"تشيز مانهاتن"، تقوم بعمل هام للسعوديين ولذلك عندما بدأت ظاهرة الصيرفة الإسلامية كانت فرصة للقيام بأعمال تجارية. وكان بنك "جولدمان ساكس" نشطا في خلق أنواع المنتجات المصرفية القائمة على السلع للبنوك الإسلامية."(٤)

وبين ١٩٧٥ و٢٠٠٠ استخدمت مؤسسات مالية وبنوك غربية المنتجات المالية الإسلامية في تمويل المشاريع ومنها "فاني ماي" و"فريدي ماك" التي قامت بمنح قروض للمشاريع الكبرى بالطرق الإسلامية وبنك الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي وشاركت في ذلك مؤسسات مثل مؤسسة التمويل الدولية التابعة للبنك الدولي وحتى "بيج اويل".

وكتب كليمنت هنري "فتحت المؤسسات المالية الغربية الكبرى منافذ إسلامية لتلقي الودائع من العملاء الأثرياء في الخليج. وانضمت بنوك فرنسية مثل "ناسيونال بنك دو باري" إلى العديد من البنوك الأمريكية والبريطانية وعلى رأسها "سيتي بنك" و"كلنورث بنسون" في هذا العمل.(٥)

الحقيقة أن البنوك الإسلامية فتحت فروعا في أوربا ودول أخرى في العالم ومراكز المال العالمية. وقال وارد: "كانت أعمال البنوك الإسلامية في لندن وجنيف والبهاما أكثر منها في جدة وكراتشي والقاهرة. وكانت تبدو تحالفا مع الاقتصاديات الحرة

الجديدة. ومن الناحية الإيديولوجية كانت الليبرالية والبنوك الإسلامية تسير بقوة دفع المعارضة المشتركة للاشتراكية والاقتصاد المركزي".(٦)

وقيل أن التمويل الإسلامي يعتمد على الاقتصاديين من ذوي الاتجاهات اليمينية والساسة الإسلاميين الذين يؤيدون الخصخصة والسوق الحرة حسب أسس مدرسة شيكاغو. وكتب وارد "حتى الجمهوريات الإسلامية اعتنقت الليبرالية الجديدة علنا. ولم يتردد وزير الاقتصاد السوداني عبد الرحيم حمدي في الفترة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٣ في تنفيذ حلول السوق الحرة التي أملاها صندوق النقد الدولي. وحمدي هو تلميذ فريدمان وكان مصرفيا إسلاميا سابقا في لندن. وقال إنه ملتزم بتحويل الاقتصاد المركزي (تحت سيطرة الدولة) إلى الاقتصاد الحر باعتبار أن هذا هو الأسلوب الذي يملي الاقتصاد الإسلامي التصرف على أساسه.(٧) وعلى المنوال ذاته أيدت الحركة الإسلامية في الجزائر التي ستدفع البلاد إلى حرب أهلية في التسعينات علنا وصفة صندوق النقد الدولي للبلاد. وكتب كليمنت هنري "إن جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر أيدت إصلاحات السوق من خلال برنامجها الحزبي بما في ذلك إخضاع العملة المحلية لأسعار السوق كما أصر صندوق النقد الدولي في ذاك الوقت كما أيدت التمويل الإسلامي".(٨)

وكان سيتي بنك رائدا في هذا المجال ويقول وارد إن سيتي بنك كان أول بنك غربي يفتح قسما إسلاميا(٩) ويستمر في دفع العوائد. وأنشأ شوكت عزيز عضو مجلس إدارة قسم التمويل الإسلامي وسيتي بنك المرتبط بالبنك السعودي الأمريكي برنامج التمويل الإسلامي للبنك في البحرين.(١٠) وقضى عزيز ٣٠ عاما في العمل في التمويل الإسلامي. وسوف يترقى عزيز ليصبح وزيرا للشئون الاقتصادية في باكستان. وفي عام ٢٠٠٤ سيترشح ليكون رئيسا للوزراء من جانب الرئيس برويز مشرف. وما أثار السوق الحرة الغربية فكرة أن الإسلام بطبيعته دين رأسمالي وأن الرسول محمد كان رأسماليا أيضا وتاجرا يبحث عن الربح وأن السوق الحرة والضرائب المحدودة والمشروع الخاص في ظل غياب قواعد تمثل قيودا على النشاط الاقتصادي وسوف تكون قواعد هذا النظام الإسلامي المبكر في مكة هي أساس الاقتصاد الليبرالي الجديد أو على الأقل تلك

هي الصورة التي رسمها المتشددون الإسلاميون لإيديولوجيات السوق الحرة لدى الغرب.

وقد بررت تلك الصورة التأييد الغربي للمشاريع الاقتصادية لليمين الإسلامي لكنها وفرت من جانب آخر وسيلة لمهاجمة الاشتراكية العربية والمشاريع التي تديرها الدولة والقواعد الاقتصادية المركزية التي تعتبرها مناهضة للإسلام. ورغم أن فكرة الاعتماد على قواعد دينية تعود إلى القرن السابع والنظريات الاقتصادية الإسلامية للقرن الرابع عشر لإنشاء نظام اقتصادي جديد مثيرة للسخرية.(*) فإن المصرفيين الغربيين وساسة الشرق الأوسط العلمانيين لم يستطيعوا مقاومة إغراء الأموال التي أغدقها من يمولون الإخوان المسلمين.

وأصدر معهد السوق الإسلامية الحرة في فيرجينيا والذي يعتبر مؤسسة محافظة بحثا بعنوان "الإسلام والسوق الحرة" يصور الأمر بدقة شديدة. فقد ذهب القائمون على بنك فيصل الإسلامي بناء على آيات من القرآن إلى إن الإسلام الحق يعني معارضة الاشتراكية ومقاومة الضرائب واحترام حقوق الملكية الخاصة والخضوع لقانون العرض والطلب الذي لا يتبدل أبدا.

وورد في البحث إن جوهر الأمر حسبما ينص القرآن صراحة هو ضرورة الاعتماد على نظام السوق التي توفر التجارة الحرة على أساس التبادل الطوعي والاتفاق العام. والحقيقة أن الإسلام يطالب المسلمين بالخروج إلى السوق وكسب العيش والربح من أجل عائلاتهم والتمتع بالرخاء. والإسلام يؤيد حقوق الملكية الخاصة بصفة مؤكدة ويوليها ثقة كبيرة على عكس الاشتراكية. ويعترف الإسلام بحقوق التعاقد حيث يطالب القرآن المسلمين بالالتزام بتعهداتهم في العقود والمواثيق. كما تبين تعاليم الرسول أن الأسعار ينبغي أن تتحدد عن طريق العرض والطلب في سوق مفتوحة ولا يحددها مسئولون بشكل تحكمي.

* لا ندري ما هو وجه السخرية في ذلك خاصة إذا علمنا أن جوهر النظريات السياسية الغربية يعود في جانب منه إلى الأفكار التي قدمها أفلاطون وأرسطو والذي يعود فكرهما إلى ما قبل الميلاد.

وأضاف البحث إن هذا المبدأ يعكس الأساس والخلفية التجارية لقبيلته وكذا الأنشطة التجارية التي كانت سائدة خلال الفترة التي عاشها، الأمر الذي انعكس في أن الرسول اختار خلال حياته في المدينة بوضوح عدم فرض أي ضرائب على التجارة مما جعل المدينة منطقة تجارية حرة.

وأدت سياسات الإسلام في اقتصاد السوق الحرة إلى طفرة اقتصادية كبيرة في المناطق التي طبقت فيها كما هو الحال في كل مكان طبقت فيه تلك السياسات، والنتيجة أن العالم الإسلامي تحول إلى قوة اقتصادية مسيطرة على الأرض ويقي هكذا ٥٠٠ عاما في الوقت الذي كانت أوربا فيه ترزح تحت نيران الإقطاع المناهض للسوق في العصور الظلامية.(١١)

غير أن فكرة أن القرآن يمكن أن يستخدم في محاربة الاشتراكية والترويج للمشروع الخاص غير ذات أساس قوي في ضوء أن قواعد الإسلام تفتقر إلى الوضوح ولا تنطبق على الأنظمة الاقتصادية الحديثة. غير أن هذا لم يمنع الاقتصاديين الغربيين من القول بأنه مناسب ولم يوقف رجال الدين المسلمين عن إصدار الفتاوى التي تقنن هذا التفسير القاصر ومنهم آيات الله في العراق وإيران.(*)

وقال جراهام فوللر الذي ترأس مجلس المعلومات الوطنية في المخابرات الأمريكية في بداية الثمانينات إن مصالح أمريكا لا تتفق مع ظهور التشدد الإسلامي. وفي منتصف الثمانينات قال فوللر في بحث له أنه يرى أن تقيم أمريكا علاقات أوثق مع نظام آيات الله في إيران لمنع السوفيت من تحقيق أي مكاسب وهو البحث الذي ساهم في مبادرة أوليفر نورث ويليام كيسي من حكومة رونالد ريجان، التي عرفت باسم إيران كونترا. وكتب فوللر الكاتب المرموق حاليا أن الرؤية الاقتصادية لليمين الإسلامي تقترب من أطروحات المدافعين عن السوق الحرة ومن يؤيدها وقال ليس هناك منظمة إسلامية تعكس قطاعا عريضا تطرح آراءاً اجتماعية تتسم بالتشدد.(١٢)

---

* يتبنى المؤلف هنا اتجاها غربيا كاملا يذهب إلى عدم توافق الإسلام مع الحداثة، وأن الإسلام بقواعده وأسسه وقيمه التي يدعو إليها لا يمكن له أن يتعايش مع القيم التي تمثلها الحداثة في أي أشكال تطورها.

وأضاف فوللر أن الإسلام لا يؤيد التدخل الشديد من جانب الدولة في السوق أو في النشاط الاقتصادي في المجتمع والغريب أن الإسلاميين لا يزالوا أعداء الثورات الاجتماعية.(١٣) ويعارض الإسلاميون التفسير الماركسي للمجتمع (١٤) فهم يعارضون بشدة دور الدولة في الاقتصاد مع الفارق بين النظرية والتطبيق. فالنظرية الإسلامية الكلاسيكية ترى أن دور الدولة محدود في تسهيل سير الأسواق ونشاط التجار وعدم السيطرة عليهم. ورفض الإسلاميون بشدة دائما الاشتراكية والشيوعية. ولم يكن لدى الإسلام أي مشكلة مع فكرة عدم عدالة توزيع الثروة وفق ما قاله فوللر.(١٥). وسجلت البنوك الإسلامية نموا صاروخيا ويقول المجلس العام للبنوك والمؤسسات المالية الإسلامية أن عددها حتى ٢٠٠٤ يبلغ ٢٧٠ وأصولها ٢٦٠ مليار دولار وودائعها ٢٠٠ مليار دولار.(١٦) ويعود أكبر الفضل إلى رجل دين عراقي ومصرفي مصري وأمير سعودي وزمرة الحكام في الكويت والذين سنعرج على رواية قصتهم فيما بعد.

آية الله والأمير

يعتبر رجل دين الشيعي العراقي محمد باقر الصدر كبير عائلة الصدر ووثيق الصلة بمقتضى الصدر المتمرد العراقي الذي أصبح جيش المهدي التابع له قوة جامحة في العراق في عام ٢٠٠٣ واضع أساس الاقتصاد الإسلامي. وقد قدمت أفكار آية الله الصدر الأساس النظري لما يمكن وصفه بالسياسة الاقتصادية الإسلامية.

في عام ١٩٦٠ كتب الصدر كتاب "اقتصادنا" الذي أصبح كتاب النظريات الاقتصادية الإسلامية المقدس. وكان كتابه "البنوك غير الربوية في الإسلام" (١٩٧٣) أحد أهم الركائز التي توضح أساس الصيرفة الإسلامية.(١٧) وسوف يكون الكتابان وثيقة تأسيس الاقتصاد الإسلامي السياسي المؤيد للرأسمالية المناهض اللدود للاشتراكية الذي تبناه الإسلاميون. ولاغرو أن محمد باقر الصدر ساعد أيضا في تأسيس حزب إسلامي "إرهابي"(*) سري هو جماعة "الدعوة الإسلامية" في الخمسينات. وكان حزب

* لا يغيب عن فطنة القارئ مدى الربط والتلازم الذي يحرص المؤلف عليه في توصيف كل ما هو إسلامي بالإرهاب دون تمحيص وليس هدفنا هو تبرئة حزب الدعوة الذي يشير إليه أو غيره وإنما هي ملاحظة تكاد تنطبق على أي إشارة إلى تنظيم أو جهة إسلامية رسمية كانت أم غير رسمية.

الدعوة عبارة عن قوة مناهضة للاشتراكية في بغداد تعبئ الطبقة العراقيين المحافظين ضد الماركسية في الجامعة وفيما بعد تلقت دعما سريا من جهاز السافاك الإيراني (المخابرات) من أجل القضاء على حزب البعث في العراق والقيام بأعمال اغتيال وتفجيرات لفترة عقود من الزمن ضد الزعماء العراقيين.

وكان شريك الصدر في جماعة الدعوة هو آية الله محسن الحكيم مؤسس أسرة سياسية عراقية متطرفة أخرى وسوف تشارك ذيولها في النظام الذي زرعته أمريكا في العراق في عام ٢٠٠٣ عن طريق المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق. كان الصدر والحكيم هما اللذين نظما الإسلام السياسي اليميني في العراق في أواخر الخمسينات. وما دفعهما إلى تنظيم حركتهما هو نمو نشاط الجناح اليساري في العراق وقوة الحزب الشيوعي العراقي. وكان الشيوعيون واليسار هما الأقوى بين الشيعة المشرذمين في العراق خاصة في حواري بغداد الملتوية التي يسيطر عيها الشيعة. ويقول مسئول سابق في المخابرات الأمريكية: "إن عضوية الأحزاب اليسارية في تلك الفترة كانت قوية جدا لدرجة أن أحد الكتاب فيها يصف الحزب الشيوعي في العراق بأنه الحزب السياسي الوحيد الذي يمثل الشيعة.(١٨) وما أصاب الصدر والحكيم بالذعر هو أن مئات الشباب من الشيعة خاصة طلبة الجامعات بدأوا يتخلون عن التزامهم بالإسلام وينضمون إلى الاشتراكيين والشيوعيين والبعث أو القوى المؤيدة لعبد الناصر. وتأسس حزب الدعوة على أساس خطوط حزبية بقيادة مهدي الحكيم ابن آية الله الحكيم. وعمل الحزب في السر من خلال خلايا صغيرة بلا أسماء وتحت تسلسل قيادي صارم.(١٩)

كان لكثير من رجال الدين العراقيين علاقات وارتباطات بالمخابرات البريطانية من فترة طويلة. وقد احتفظت لندن لأكثر من قرن من الزمان بعلاقات مع رجال الدين الشيعة في العراق وإيران خاصة المقيمين في مدينة نجف بالعراق. ومن ١٨٥٢ حتى خمسينات القرن التالي كانت المخابرات البريطانية تدفع رواتب لمئات من رجال الدين الشيعة في النجف وكربلاء عن طريق وسائل سرية ذكية.(٢٠) وبعد نجاح بريطانيا في الإطاحة بملك العراق عام ١٩٥٨ بدأ العديد من رجال الدين هؤلاء في تأسيس تنظيم مناهض لليسار العراقي والحزب الشيوعي العراقي وخلال تلك الفترة تأسست جماعة

الدعوة الإسلامية، وكان لها علاقات مباشرة مع الإخوان المسلمين في مصر – رغم أن الإخوان من السنة فيما تنتمي جماعة الدعوة للطائفة الشيعية.(٢١) وفي عام ١٩٦٠ شن إعلان مشترك بين السنة والشيعة صادر عما يسمى الحزب الإسلامي هجوما على الحكومة العراقية وحلفائها من الشيوعيين وكان الإعلان موقعا من آية الله الحكيم. وقال إسحاق نقاش صاحب كتاب "الشيعة في العراق" إن حكيم دعم المذكرة أو الإعلان بل وأصدر بنفسه فتوى ضد الشيوعية بالاسم وتؤكد أنها تخالف تعاليم الإسلام. (٢٢)

وألهم التنظيم المناهض للشيوعية والتنظير الاقتصادي الإسلامي من آيات الله العراقيين، الأمير محمد بن فيصل لإنشاء أول إمبراطورية مصرفية إسلامية. والأمير محمد هو ابن الملك فيصل وأخو سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي وكان يطلق عليه "أمير الأعشار" وهو مؤسس مجموعة فيصل التي تضم عددا من البنوك الإسلامية في أنحاء العالم وتعاون هذا الأمير مع صالح كامل، زوج أخت ولي العهد في ذاك الوقت الأمير فهد (الذي تولى مهام الحكم كعاهل للمملكة وتوفي منذ سنوات) وهو بليونير صاحب مجموعة البركة المصرفية، في تطوير الاقتصاد الإسلامي وتوسيع نطاقه.

ولم يطلق الأمير محمد وصالح كامل وحلفاؤهم حركة البنوك الإسلامية، وإنما غيروا كذلك وجه الشرق الأوسط. لم يكن كل المصرفيون الإسلاميون من المتعاطين للقضايا السياسية والقليل منهم فقط كانوا يدورون في فلك اليمين الإسلامي لكنه من الصعب القول فصلهم عنه. كانت بعض الأعمال المصرفية الإسلامية تدار عن طريق غير الناشطين الإسلاميين بل عن طريق مسلمين يتسمون بالتقوى والورع استغلوا الفرصة فقط لتحقيق قدر من المال. لكن الكثير كانوا من الناشطين الذين وجدوا في الصيرفة الإسلامية وسيلة لنصرة قضية التشدد والإسلام السياسي واستغلوا البنوك لدعم الإخوان المسلمين وحلفائهم. ولا يزال هناك آخرون ممن يؤسسون البنوك الإسلامية أو استغلوا البنوك القائمة يمثلون واجهة بريئة لـ "الإرهاب" وتجارة السلاح وأنشطة أخرى رهيبة. ومن سوء حظ المخابرات الأمريكية و"سيتي بنك" أنه كان من المستحيل التفريق بين هذه الفئات وفي الغالب كانوا جميعا يتعاونون سويا، سواء الورعين أو السياسيين أو الإرهابيين.

وكان العديد من الناشطين الإسلاميين الكبار في العقود الأربعة الماضية لهم علاقة بالصيرفة الإسلامية من حيث النظرية والتطبيق وغالبا تحت جناح الأمير محمد بن فيصل. وكان العديد منهم على علاقة بالإخوان المسلمين. ومن هؤلاء سيد قطب المتشدد الإسلامي المصري الذي جرى إعدامه عام ١٩٦٦، وألف كتاب "العدالة الاجتماعية في الإسلام" الذي يفترض أن يكون خريطة لكيفية رؤية المسلمين المتشددين للنظرية الاقتصادية. وكذلك يوسف القرضاوي الباحث الإسلامي المصري الذي استقر في قطر، فقد كان عضوا في مجالس إدارات العديد من البنوك الإسلامية. ومحمد الغزالي القيادي البارز في الإخوان المسلمين الذي استقر في الخليج، فقد اقتفى أثر الاقتصاد الإسلامي في التاريخ ومن كتبه "الإسلام والقضايا الاقتصادية".

أما الرجل الذي بدأ الأمر برمته في مصر فهو أحمد النجار المصرفي المصري الذي تلقى تعليما في ألمانيا. وفي عام ١٩٦٣ أنشأ بنك ميت غمر الذي يعد أول بنك إسلامي في مصر والعالم اجمع. (٢٣) بدأ بنك ميت غمر بعون وخبرة ألمانية عن طريق عائلة النجار وبدعم من داخل أجهزة الأمن المصرية. كان الأمر سرا. ولم يعرف الشعب أو الحكومة بأن هذا البنك سيكون إسلاميا.(٢٤) في ذلك الوقت كانت الإخوان المسلمين تناصب ناصر العداء واتخذ النجار خطوات ليبعد نفسه عن هذا السجال على الأقل على السطح، ليكون بعيدا عن الحركة التي تعمل تحت الأرض تحت الأرض متخذة من العنف سبيلا لها. لكن النجار كان بالتأكيد على علاقة بهم (الإخوان).

إن مقدمة الكتاب الذي كتبه وتصف تجربته كرائد في الصيرفة الإسلامية، كتبها جمال البنا، أخو حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين. والاختلاف بين النجار وغيره من الاقتصاديين الإسلاميين هو أنه لا يعتبر الاقتصاد الإسلامي علما أو دراسة بل قضية صحوة لإيقاظ المسلمين ووسيلة لنهضتهم. وبالتالي يعتبر النجار البنوك الإسلامية مجرد قاعدة للانطلاق لتنفيذ مهمته.(٢٥) وكتب النجار نفسه أن الباعث وراء إنشاء أول بنك إسلامي في مصر هو "إنقاذ الهوية الإسلامية التي بدأت تغيب من مجتمعنا، بغية تحويل

المجتمع إلى الماركسية". وهاجم النجار عبد الناصر بشراسة (*) وقال أنه يدفع المصريين إلى الخجل من الإسلام والفخر بالاشتراكية أو القومية. ومع ذلك فإن النجار راح يقول أنه لا يستطيع أن يعلن أهدافه الحقيقية.(٢٦)

لقد شارك "الإخوان المسلمين" في عمل النجار برمته واستثمر العديد منهم في أوائل مشاريعه.(٢٧) وبحلول ١٩٦٧ كان من الواضح تماما أن الإخوان المسلمين سيطروا تماما على بنك ميت غمر ثم تم إغلاق البنك. ويقول منذر قحف إن تجربة البنوك الإسلامية تلاشت في الستينات عندما شارك فيها الناشطون الإسلاميون والإخوان المسلمين باعتبارهم عملاء مصرفيين ومودعين أو موظفين. وعندما بلغ بنك ميت غمر أوجه كان له تسعة أفرع و لديه ٢٥٠ ألف مودع. وقال النجار في مذكراته أن عبد الناصر هو سبب فشل مصرفه. لكن النجار لم يتوقف بل توجه إلى السودان حيث رحب به الإخوان المسلمين هناك. وكتب النجار يقول: "إن الإخوان في السودان كانوا جماعة إسلامية متناغمة و ديمقراطية متحضرة وذكر أنه اتخذ من حسن الترابي قدوة له وهو زعيم الإخوان في السودان، وسيتولى السلطة في أواخر السبعينات.(٢٩) وعندما أطاح جعفر النميري بالحكومة هرب النجار من السودان نظرا إلى أن النميري كان مواليا لعبد الناصر.

وسافر النجار إلى ألمانيا والسعودية والإمارات وماليزيا ينشر أفكار الصيرفة الإسلامية. وخلال العقود الثلاث التالية سوف يكون وراء كل بنك إسلامي تم افتتاحه. ويقول عبد القادر توماس مؤسس الصحيفة الأمريكية للتمويل الإسلامي "كان النجار هو من روج لفكرة الصيرفة الإسلامية عند أي من يستمع إليه". ويذكر أن توماس عمل لدى سيتي بنك في التمويل الإسلامي في البحرين. وكان النجار من المؤسسين عندما أنشأت منظمة المؤتمر الإسلامي المدعومة من السعودية بنك التنمية الإسلامي في جدة عام ١٩٧٥.

---

* لا ندري كيف يقول المؤلف، ويشعر بالاتساق مع نفسه، أن البنك الذي أنشأه النجار قام على تيسير إنشاءه الأجهزة الأمنية المصرية وفي الوقت ذاته يشير إلى أن البنك قام من أجل تعزيز الهوية الإسلامية بفعل ارتباطه بالإخوان رغم أن هؤلاء كانوا على صدام مع النظام، فكيف تشارك الأجهزة الأمنية في نشاط يهاجم الرئيس ناصر في ذلك الوقت.

كان بنك التنمية الإسلامي هو الأب لبقية البنوك الإسلامية حيث تلقى الدعم بسخاء من السعودية وليبيا والكويت والإمارات. وتلى هذا البنك بنك دبي الإسلامي في نفس العام ثم بيت التمويل الكويتي (١٩٧٧) ثم بنك السودان الإسلامي في نفس العام، ثم بنك الأردن الإسلامي للتمويل والاستثمار (١٩٧٨) وبنك البحرين الإسلامي في نفس العام.

واستغل النجار أهم العناصر الداعمة عندما أقنع الأمير محمد بن فيصل وصالح كامل بالمشاركة في البنوك الإسلامية. ويقول توماس: "إنه نفس الشخص (يقصد النجار)، إنها الاجتماعات التي حضرها في السبعينات. أفكارهم تتشابه لأن نفس الشخص هو الذي بثها وأوحى بها. لقد بدأوا في نفس الوقت وعملت معهم نفس الشخصيات".(٣٠) ويقول النجار إنه التقى الأمير محمد بن فيصل أول مرة في اجتماع بنك التنمية الإسلامي في مطلع السبعينات.(٣١)

بدأت إمبراطورية بنك فيصل الإسلامي التي أسسها الأمير محمد بإنشاء بنك فيصل الإسلامي في مصر عام ١٩٧٦. كان بنك فيصل الإسلامي أكثر تلك البنوك رسمية وانضباطا في هيكله حيث يوجد به مجلس إسلامي يتألف من كبار الشخصيات الدينية في مصر. وأسس الأمير محمد أيضا الرابطة الدولية للبنوك الإسلامية ونشر "دليل الصيرفة الإسلامية" وأنشأ شبكة عالمية باسم "مجموعة فيصل". شملت تلك الشبكة جزءا من بنك الأردن الإسلامي أو كله وبنك فيصل الإسلامي في السودان (١٩٧٨) وبيت فيصل للتمويل في تركيا (١٩٨٥). وفي عام ١٩٨١ أطلق الأمير محمد دار المال الإسلامي في قمة إسلامية عقدت في الطائف بالسعودية. وتلك الدار عبارة عن شركة كبرى تمثل العصب المركزي لإمبراطوريته. كان مقر دار المال الإسلامي في جزر البهاما وتتمركز عملياتها في جنيف وكان لها أفرع في ١٠ دول منها البحرين وباكستان وتركيا والدنمرك ولكسمبورج وغينيا والسنغال والنيجر.(٣٢)

وكان صالح كامل يقيم إمبراطوريته المالية الخاصة أيضا في ذلك الوقت وهي مجموعة البركة. ويرعى صالح كامل نسيب العائلة المالكة السعودية ندوة سنوية يحضرها خبراء في الاقتصاد والمصارف إضافة إلى علماء في الشريعة. وأقام كامل

مركزا باسمه في الأزهر في مصر للدراسات الاقتصادية الإسلامية. وكان المدير الإداري لشركة البركة للاستثمار والتنمية من كبار أعضاء الإخوان المسلمين (٣٤) كما أن فروعها في السودان وتركيا وأماكن أخرى تتعامل مع الجماعة عن كثب.

وبين السبعينات والثمانينات وجدت البركة ودار المال الإسلامي حلفاء عديدين في لندن ونيويورك وهونج كونج وسويسرا و مراكز المال الخارجية مثل البهاما وجزر كايمن. وقال إبراهيم كامل نائب رئيس دار المال الإسلامي ومديرها التنفيذي في مؤتمر إسلامي في بادن بادن بألمانيا الغربية (ذاك الوقت) إن مركز وعمليات الدار في سويسرا لم تكن لتقوم بدون مساعدة "برايس واتر هاوس". وقال: إن الذين شرحوا التمويل الإسلامي للجنة البنوك في سويسرا هم من "برايس واترهاوس". وعقدت عشرات المؤتمرات في مراكز المال الغربية لتوضيح معنى التمويل الإسلامي وشاركت معاهد شهيرة متخصصة في هذا بما فيها جامعة هارفارد ببرنامج هارفارد لمعلومات التمويل الإسلامي ودعم مالي من الدوائر المصرفية الغربية والإسلامية.

وفر التمويل الإسلامي آلية للجمع بين الأثرياء المحافظين والناشطين الإسلاميين وعلماء الشريعة الإسلامية من الجناح اليميني في مناخ عظم من نفوذهم جميعا. كما وفر التمويل الإسلامي المحرك الذي أعاد تنشيط عملية الإحياء الإسلامي. وخلال فترة الحرب الباردة لم يكن أحد يفكر في أن التمويل الإسلامي يمكن أن يكون له تأثير جبار على مجتمعات الشرق الأوسط وأنه يمكن أن ينقلب ضد الغرب. ويقول تيمور قوران الكاتب التركي صاحب كتاب "الإسلام والمأمون" أن الاقتصاد الإسلامي عزز انتشار التيارات الفكرية المناهضة للحداثة والغرب في أنحاء العالم الإسلامي.(٣٥)

وأفضل وصف لكيفية تعزيز التمويل الإسلامي للتوسع في انتشار الإسلام السياسي يأتي في كتابات منذر قحف المتشدد الإسلامي من سوريا. حصل قحف على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة يوتاه، بعد أن تخرج من جامعة دمشق التي درس فيها الفقه الإسلامي. ومن ١٩٧٥ حتى ١٩٨١ كان قحف يدير الشئون المالية للجماعة الإسلامية في شمال أفريقيا وهي جماعة متشددة اصولية مقرها في الهند ولها روابط وثيقة مع الإخوان المسلمين. وعمل قحف في البنوك في نيويورك ثم ذهب للعمل

في معهد الأبحاث والتدريب الإسلامي في بنك التنمية الإسلامي في جدة من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٩. ومنذ ذلك الوقت يقدم قحف الاستشارات ويحاضر حول التمويل الإسلامي في كاليفورنيا وكتب كتبا عديدة في هذا الموضوع.

ووصف قحف كيف أقامت البنوك الإسلامية تحالفا سياسيا اقتصاديا بين العلماء الإسلاميين في ورقة بحثية قدمها أمام منتدى هارفارد ٢٠٠٢ حول التمويل والصيرفة الإسلامية فقال: "جاءت الاتصالات الرسمية المنتظمة بين المصرفيين وعلماء الشريعة خلال الإعداد لإنشاء بنوك إسلامية في مصر والأردن في النصف الثاني من السبعينات. وعندما ظهرت الأشكال الجديدة من مصادر التمويل الإسلامي الدولي، رغم أنه كانت تحت إدارة بنوك ووسطاء وبيوت تمويل غربية، كان لابد من وجود علماء في الشريعة أيضا من أجل القبول والمشروعية. والندوات العديدة والاجتماعات والمؤتمرات التي عقدت منذ منتصف السبعينات في أرجاء المعمورة عززت هذا التحالف الجديد بين المصرفيين الإسلاميين وعلماء الشريعة وطورت علاقات مفيدة للطرفين.

وكان هذا التحالف الجديد من وجهة نظر العلماء الإسلاميين يعيدهم إلى واجهة المسرح السياسي في الوقت الذي كانوا يحتاجون فيه إلى ذلك بشدة. ويعطي هذا التحالف لعلماء الإسلام مصدرا للدخل ونافذة على حياة جديدة تشمل السفر بالطائرات وأحيانا نفاثات خاصة والإقامة في فنادق خمس نجوم وأن يكونوا تحت الضوء الإعلامي ويستعرضون آراءهم أمام علية القوم الذين يهرولون للاستماع ويسمح لهم بالحصول على أجر لقاء البحث الفقهي. لقد تحولوا إلى مشاهير في بلادهم وخارجها أيضا. ويخلق هذا التحالف مناخا من التقارب السياسي الجديد بين الحركة الإسلامية والحكومات في الدول الإسلامية خاصة العربية منها".(٣٦)

ويعني قحف بكلمة تقارب أسلمة المجتمع والسياسة في العالم الإسلامي. ويضيف قحف أن علماء الشريعة كانوا ينتقون من المجالس الاستشارية ومناصب أخرى ويتم اختيارهم بعناية. وكان يتم تجنب المتشددين منهم والذين لا يتم قبولهم من جانب مسئولي الحكومات المعتدلة والمصرفيين الغربيين.كما كان يتم في الوقت ذاته استبعاد العلماء

الذين يسايرون الحكومات.(٣٧) لقد خلقت تلك العملية فئة جديدة من الإسلاميين اليمينيين الأثرياء الذين يحوزون الثروة والإعلام.

"تصحير" الكويت

تمثل حالة الكويت مثالا ناطقا على ما سببته البنوك الإسلامية من تغير في وجه الشرق الأوسط. وهناك نموذج مميز للتطور السياسي في الصيرفة الإسلامية، حيث ينشئ بنك إسلامي أو أكثر في عاصمة محددة كمقر اقتصادي لرجال الأعمال من الإخوان المسلمين ونشطاء إسلاميين آخرين. كما ينشئ في الوقت ذاته قاعدة للمسلمين الأتقياء أتباع الجماعة وفي الوقت نفسه يمثل تحالفا مربحا مع الساسة من المتدينين والعلمانيين. وفي ذلك الوقت استمدت المنظمات الإسلامية قوتها من القوة الاقتصادية لهذا النوع من البنوك والمؤسسات الإسلامية ومنها المساجد والجمعيات الخيرية والمشاريع التي تطورت وازدهرت نتيجة لذلك. وظهرت طبقة جديدة من الإسلاميين الأثرياء الذين يساهمون في تمويل الإخوان المسلمين والجبهات السياسية الإسلامية.

وتختلف الكويت عن السعودية في أن الأولى الثرية جدا الصغيرة جدا أكثر ليبرالية وحرية. لكن في السبعينات تحالفت العائلة المالكة واليمين الإسلامي وجماعات البنوك الإسلامية معا لمكافحة الحركة القومية البازغة. ونتيجة ذلك تحولت الكويت وتغيرت بشكل جذري. كان مركز التغير والتحول هو البنك الإسلامي أو بيت التمويل الكويتي.

لم تكن الكويت في أي وقت ملاذا للأتباع الإسلاميين. ولم يجد الوهابيون الذين استولوا على السعودية لصالح آل سعود وكان لهم نفوذ في قطر والإمارات، موطئ قدم في الكويت. لقد حافظت الأسرة الحاكمة هناك والتي اتسمت باللهو بالسلطة بقوة الجيش البريطاني وكانت تبدو قانعة بهذا الوضع. غير أن الكويت لم تكن مستقرة فهي ليست دولة حقيقية لأنها مقتطعة من العراق والإمبراطورية العثمانية وأقيمت لتكون قاعدة بريطانية في الخليج وبئر بترول لشركة "بريتيش بتروليم" وبترول الخليج (جلف أويل). وحاول عدد من الحكومات العراقية الاستيلاء عليها أو استردادها وتهدد وجود الإمارة

على الأقل مرتين ودافعت عنها القوات البريطانية في عام ١٩٦١ عندما استقلت لأول مرة ثم تحالف القوات الدولية بقيادة أمريكا عام ١٩٩١ (حرب الخليج الثانية).

وحتى بعد ١٩٦١ اعتمدت الكويت على الموظفين البريطانيين والجيش والضباط البريطانيين وخبراء النفط الأمريكيين والبريطانيين وكان هذا الوضع مريحا للطرفين، فهو يوفر لبريطانيا وأمريكا الحصول على نفط الكويت بسهولة وتمتع العائلة المالكة بالحماية وأرباح النفط. وكانت الكويت في تلك الفترة مجتمع علماني في الخليج وتعرف بالاتجاه الليبرالي والانتخابات البرلمانية ووسائل الإعلام الحرة نسبيا والحراك السياسي النشط نسبيا كذلك. وكان سكان الكويت قليلو العدد لا يحبذون العمل إذا لم يضطروا إلى ذلك ولذلك استقدمت الإمارة عشرات الآلاف من العمال الوافدين من العالم العربي خاصة من فلسطين، وآسيا وكانت تلك هي المشكلة.(*)

يقول تالكوت سيلي المبعوث الدبلوماسي الأمريكي في الكويت في أواخر الخمسينات "كانت الكويت الأذن الصاغية للقومية العربية. كانت الناصرية والعلمانية هي القوة السياسية السائدة في الكويت وغطت على الإسلام. ووجدت ثورة العراق عام ١٩٥٨ بقيادة الشيوعيين والقوميين صدى وتأييدا في الكويت حتى بين الأقلية من العائلة المالكة .. عائلة الصباح. ويضيف سيلي أنه يتذكر عندما جلس مع جابر الصباح الحاكم حاليا (**) وذكر أمامه ملك العراق فعبر الصباح بالإشاحة بأصبعه حول رقبته فيما يعني أنه ينبغي أن يذهب أو يموت. حتى في ذاك الوقت كان هناك العديد من الفلسطينيين في الكويت. لقد كانت مجتمعا علمانيا، لكن البريطانيين كانوا يسيطرون على الوضع".(٣٨)

خلال فترة الستينيات كانت الكويت أقل الدويلات العربية شمولية في الحكم. وكان الفلسطينيون يمثلون قوة هامة لأنهم الغالبية في الوظائف والأعمال، بالإضافة إلى الطلاب أيضا. لم يكن للإسلاميين التابعين للإخوان المسلمين نفوذا كبيرا هناك. ويقول مسئول سابق في المخابرات الأمريكية إنه اعتاد حضور اجتماعات الجمعية الوطنية

* هذه مغالطة من المولف حيث ان مشكلة الكويت أو غيرها من دول الخليج الاخرى لا تتمثل في ان سكانها لا يحبون العمل، كما يحاول أن يروج وإنما أن الفورة النفطية فيها دفعت التنمية بشكل فاق الوضع السكاني بهذه الدول ما اضطرها إلى استقدام العمالة غير الوطنية سواء من الدول العربية أو غيرها وخاصة الأسيوية الهند وباكستان. رغم حقيقة أن هذا نمط من التعاطي مع الأمر أدى فيما بعد إلى ما يمكن اعتباره ثقافة تراخي المواطن الخليجي وعدم إقباله على العمل.

** توفي مؤخرا.

(البرلمان) في تلك الأيام وكان يستمتع بالاستماع إلى الإسلاميين المحافظين الذين كانوا دائما ينتقدون عائلة الصباح. غير أنهم لم يكونوا قوة مؤثرة وغير منظمين. كانت حركة الإخوان المسلمين حاضرة دائما بتأثير من مصر كما يقول المسئول المخابراتي الأمريكي السابق، لكنه أكد أنه لم يسمع أن الجناح الإسلامي له أي أهمية.(٣٩)

وخرج العديد من الفلسطينيين التقدميين في الكويت من عباءة حركة القومية العربية التي تأسست في الأربعينات على يد جورج حبش الذي سيؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فيما بعد. كانت حركة القومية العربية علمانية ليبرالية وتلقت بعض الدعم من ناصر وحزب البعث الاشتراكي وكان لها العديد من الأتباع بين الفلسطينيين في بيروت وعمان والكويت.

ويقول مسئول سابق آخر من المخابرات الأمريكية إنه في عام ١٩٦٨ عندما تأسست الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان الأعضاء جميعا من الناشطين في الحركة القومية العربية. وكان هذا المسئول يتعامل مع القادة الفلسطينيين في ذاك الوقت.(٤٠) وقال أنه تحدث إلى العديد من أعضاء الحركة القومية التي كانت مجرد تعبير عن القومية العربية التي بدأت تكتسب قوة وتماسكا في الكويت خلال الخمسينيات والستينات، أولا بين العرب الوافدين العاملين في الكويت ثم انتشرت إلى الكويتيين أنفسهم وحتى اكتسبت تأييدا بين بعض الأثرياء الكويتيين من العائلة المالكة. وبحلول منتصف السبعينات دقت قوة القوميين العربي في الكويت ناقوس الخطر للعائلة المالكة بشكل بدا معه وكأنها يمكن أن تتفوق عليها، وكما فعل السادات في مصر، لجأت العائلة المالكة الكويتية إلى الحل الإسلامي.

بالنسبة لقصة كيفية تغيير البنوك الإسلامية للكويت ندين في هذا الكتاب للكاتبة كريستين سميث التي كتبت دراسة حالة رائعة ملهمة عن تهديد أموال اليمين الإسلامي لقوى الأثرياء والعائلة المالكة في الكويت.(٤١) وقالت سميث في دراستها "شعرت الحكومة الكويتية بالخطر بشأن خطاب المعارضة المختلط والعدد الكبير من الفلسطينيين العاملين في الإمارة وحلت البرلمان (عام ١٩٧٦) لأول مرة منذ الاستقلال وبدأت البحث

عن شخصيات لمناهضة القوميين العرب. ووجدت الكويت تلك الشخصيات في القوى الإسلامية".(٤٢)

وكانت الكويت تضع الأردن نصب أعينها في بحثها عن الإسلاميين لأن الإخوان المسلمين ساعدوا الملك هناك في سحق العصيان الفلسطيني. كما أن الأسرة الحاكمة في الأردن تنحدر من الهاشميين الذين نصبهم هناك تي أي لورانس وتشرشل والمكتب البريطاني العربي. وكان في الأردن عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين. وبعد سنوات من التوتر اندلعت حرب أهلية في عام ١٩٧٠ في الأردن. وقام الملك حسين بتعبئة الجيش البدوي لسحق العصيان الفلسطيني فيما عرف بمذبحة أيلول (سبتمبر) الأسود.

وألقى الإخوان المسلمون في الأردن، الذين ساندوا الملكية لسنوات طويلة بثقلهم في المعركة ضد منظمة التحرير الفلسطينية دعما للملك. ولذلك لابد أن يكون للعائلة المالكة مبرر بأن اليمين الإسلامي يمكنه أيضا أن يوفر دعما ضد القوميين الفلسطينيين والعرب في الإمارة (الكويت).

في هذا الوقت لم تكن السيدات في الكويت ترتدي الحجاب. وكانت العجائز فقط هن اللائي يرتدن المساجد. وفي الجامعات الكويتية كان هناك اختلاط بين الطلاب والطالبات. وآمن غالبية الكويتيين بأن الدين مهم في الحياة الخاصة والنشاط الثقافي لكن ليس في السياسة. لم يكن للإسلام السياسي موطئ قدم عميق في الكويت رغم أن الإخوان المسلمين هناك كانوا جماعة صغيرة منظمة من خلال جمعية الإصلاح الاجتماعي التي تأسست في عام ١٩٦٢. غير أنه منذ بداية السبعينات تعاون الصباح مع الإسلاميين. ومع تزايد الضغط من القوميين ومؤيدي منظمة التحرير الفلسطينية وقيام العائلة المالكة باستبعاد الكويتيين الكسالى من المناصب، أحكم الصباح السيطرة وقضى على الجلبة الدستورية.

وأشاد الإسلاميون من الإخوان المسلمين وجماعة الإصلاح الاجتماعي بحل البرلمان . وجاءت العائلة المالكة برئيس جماعة الإصلاح في منصب وزير الأوقاف. وشجع الوزير بدوره وساعد على إنشاء مؤسسة مصرفية بلا فوائد هي بيت التمويل الكويتي في عام ١٩٧٧. وضغط الإسلاميون في الكويت، المدعومين من الإخوان

المسلمين في مصر من أجل إقامة هذا البنك منذ السبعينات. البنك يقوم على أساس أن الإسلام يمنع الفوائد وهو مبدأ يرفضه علماء الإسلام حاليا.وتحول بيت التمويل الكويتي إلى ثاني أكبر وأقوى بنك في الكويت بين عشية وضحاها تحت رعاية الصباح.

امتلكت الحكومة ٤٩% من أسهم بيت التمويل الكويتي وتمتع بمميزات لم يتمتع بها أي بنك آخر أولها عدم الخضوع للوائح البنك المركزي واحتكار مضمون باعتباره البنك الإسلامي الوحيد في الكويت. ويعبر البنك عن التحالف الفعلي القائم بين العائلة المالكة والحركة الإسلامية والذي يقوم في أحد أسسه على تمويل في الكويت. ثم ينطوي الأمر على أسلمة حياة الناس تحت مباركة ورعاية الحكومة.(٤٣) وكان لبيت التمويل الكويت أثر آخر أيضا، حيث قوض من تأثير النخبة الكويتية من التجار من القطاع الخاص الذين يكرهون احتكار عائلة الصباح للدولة الصغيرة، والذين انجذب العديد منهم إلى القومية العربية، الأمر الذي انعكس في معارضتهم الصباح. وقد حالت الحكومة الكويتية بينهم وبين نشاط بيت التمويل الكويتي، وبدلا من ذلك جرى تعزيز أوضاع البدو في الصحراء في مواجهة نفوذ التجار.

وكانت القبائل الصحراوية هي قوة الملك حسين ضد منظمة التحرير الفلسطينية أيضا ووفروا نواة لأكبر قوى رجعية في السعودية من قبل. وأطلق شفيق ناظم الغبراء الأستاذ الكويتي على تزايد نفوذ البدو في الكويت اسم "تصحير الكويت". وقال في هذا الصدد: " التزاوج بين قيم البدو المحافظين والحركة الإسلامية نضج نضوجا تاما وتحركت غالبية قبائل البدو المحرومة من الهامش إلى المقدمة في طلب الاعتراف الاجتماعي بها ومساواتها بالآخرين وهو أساس الإسلام، المساواة. وخرج العديد من الإسلاميين ذوي الشعبية الكبيرة والنفوذ من بين صفوف البدو. هذه العملية أو "التصحير"، كما يسميها محمد جابر الأنصاري المفكر البحريني، هي من بين أكثر العمليات تدميرا في الشرق الأوسط، فهي تقضي على المجتمع الحديث المتحضر عن طريق جلب قيم شديدة المحافظة من الصحراء وخلطها بالشعبية الإسلامية".(٤٤)

كان الصباح مستعدا للتضحية بأي شيء لتشجيع الإسلاميين ضد اليسار. وعندما قرر الصباح أن الظروف تسمح بعودة البرلمان استغل الإسلاميون الظرف بسرعة

وفازوا بغالبية المقاعد في انتخابات ١٩٨١ وما تلاها، ويقول الغبراء: في انتخابات ١٩٨١ أصبحت القوى العروبية التي تفوق عليها الإسلاميون، الحزب السياسي المنظم الوحيد في البرلمان.(٤٥) ولم يكن ذلك نتاج أي عصيان إسلامي شرعي ساذج بل بالطبع النتيجة المباشرة لقرار اتخذته العائلة المالكة الكويتية بكامل إرادتها وأيده بيت التمويل الكويتي. وساهم ثراء بيت التمويل الفاحش في نمو التشدد الإسلامي في الكويت منذ ١٩٧٧ وما تلاها.

وأفادت تقارير عديدة في الكويت بأن بيت التمويل الكويتي يدفع الثمن للسياسيين الإسلاميين عينا ويضع موارده الهائلة تحت طلب حملاتهم الانتخابية. وكتبت كريستين سميث تقول إن البيت استغل المال والعقارات والوظائف للتأثير في نتائج الانتخابات.(٤٦) وقيل أن العقارات كانت تستغل لإشعال المناظرات والندوات الانتخابية وهي قوة هائلة يجرى استخدامها خلال الحملات الانتخابية للإسلاميين. وأصبح بيت التمويل الكويتي أيضا مقرا لأكثر من مئة جمعية خيرية إسلامية مرتبطة غالبا بالجماعات الإسلامية. وكان يتم تحويل بعض أموال بيت التمويل لدعم الجماعات الإسلامية المتشددة في مصر وأفغانستان والجزائر.. كما دعم مال البيت بشكل مباشر الجمعيات الخيرية في الكويت التي يديرها الإسلاميون ومن بينها من له علاقات مع منظمة القاعدة.(٤٧) وفرض بيت التمويل الكويتي بداخله فصلا صارما بين الرجال النساء وأنشأ بنايات ومراكز تسوق ومدارس تدار حسب الشريعة الإسلامية والمبادئ شديدة المحافظة. وكان للبيت تأثيرات بالغة في كل مكان. وقالت سميث: "كان بيت التمويل الكويتي يهتم بصفة خاصة بالتعليم ويكفل رحلات ميدانية ومنح دراسية ويشجع الطلاب على دراسة الشريعة الإسلامية والدخول في مسابقات إسلامية (حفظ القرآن وما شابه) وإنشاء مدارس إسلامية خاصة. وكان البنك متغلغلا في المجتمع بمجلة شهرية هي "النور" التي بلغ توزيعها أكثر من ١٠ آلاف نسخة".(٤٨)

أدى وجود بيت التمويل الكويتي الذي بلغ رأسماله مليار دولار، إلى سرعة انتشار الإسلام اليميني في الكويت التي كانت علمانية. وسيطر الإسلاميون على هيئات التدريس ووزارة التعليم وتغيرت المناهج الدراسية واحتوت على جرعات أكبر من

الدراسات الدينية. كما سقطت وزارة الإعلام في يد الإسلاميين وأصبحت برامج التلفزيون والإذاعة أكثر محافظة وخاضعة للرقابة. كما خضعت الكتب أيضا للرقابة وغمرت الكتيبات والملازم والمنشورات الإسلامية البلاد.(٤٩)

ويعتبر "تصحير" الكويت مجرد مثال واحد على كيفية تمدد ونمو نفوذ اليمين الإسلامي الجديد المدعوم بالمال وقوته ونفوذه. لكن بالنسبة للمخابرات الأمريكية والعديد من الحكام في الشرق الأوسط لم يكن ما تحت سطح التمويل والصيرفة واضحا بالمرة حيث كان هناك جانب مظلم هو النمو السرطاني للتشدد الإسلامي السري الذي وجه جام غضبه إلى اليسار والقومية فضلا عن الولايات المتحدة نفسها والغرب وحلفائه من الدول العربية في الشرق الأوسط. وساعدت البنوك والمؤسسات المالية الإسلامية وبيوت التمويل والجمعيات الخيرية التي يديرها الإخوان المسلمين وحلفاؤهم في الخليج في هدوء على إطلاق الجيل الجديد من المتشددين الإسلاميين بما فيهم من يديرون منظمة القاعدة.

غير أن أمريكا والسعودية وباكستان استمروا في استغلال اليمين الإسلامي في حساباتهم فيما يتعلق بالسياسة الخارجية وانضمت إليهم دول أخرى في ذلك. وفي أواخر السبعينات عندما وضعت أمريكا أساس الجهاد ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان أطلقت إسرائيل والأردن حليفا أمريكا، عملية جهاد مصغرة على قياسهما فعبأتا اليمين الإسلامي ضد سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية.

الفصل الثامن

الإسلاميون في إسرائيل

لم يكن موقف أمريكا في الشرق الأوسط أفضل وأكثر أمانا مما كان عليه أبدا في أواخر السبعينات. كانت هناك زمرة من الدول الرافضة فقط في المنطقة تشمل العراق وسوريا وليبيا فضلا عن منظمة التحرير الفلسطينية خارج المعسكر الأمريكي. وكانت أمريكا تتخذ موقفا دفاعيا منها وسعت واشنطن إلى عزل وإضعاف باقي المعارضين بالتعاون مع حلفاء مثل إسرائيل ومصر والأردن ودول الخليج. وسعت أمريكا إلى تقليل دور المعارضين إلى أقصى حد في المنطقة وحتى إلى إحداث تغيرات في أنظمتها باستخدام وسائل شتى منها التهديد والإقناع والرشاوى. ووجدت سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية نفسيهما في مواجهة حرب أهلية في نفس الوقت ضد القوى التي تقودها الإخوان المسلمين واليمين الإسلامي. وكانت الإخوان المسلمين تلقى الدعم من أمريكا ومن حلفاء آخرين في تأليب القلاقل بفعل الإسلاميين في دمشق وضد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير.

وانطلقت جهود إسرائيل والأردن في دعم الإخوان المسلمين في أواخر السبعينات واستمرت حتى الثمانينات. وخلال تلك الفترة سوف يبدأ اليمين الإسلامي في ابداء مواقف متشددة مناهضة لأمريكا وسوف تتمخض تلك المواقف عن ظهور أسامة بن لادن. وحدث في الفترة من ١٩٧٩ إلى ١٩٨١ استيلاء الإسلاميين بالقوة على الحكم في إيران وثورة إسلامية كبرى في السعودية واغتيال أنور السادات على يد إرهابيين لهم علاقة بالإخوان المسلمين. لكن قبل تلك الأحداث وخلالها وبعدها سوف تستمر الأردن وإسرائيل في سياستهما غير المبالية لدعم الإخوان المسلمين والجماعات المتحالفة معها في سوريا وفلسطين. ورغم أنه ليس هناك دليل على التورط المباشر لأمريكا في الجهود الأردنية الإسرائيلية وفق مسئولون أمريكيون عملوا في الشرق الأوسط خلال تلك الفترة فإن المخابرات الأمريكية أرسلت تقارير حول تلك الأحداث إلى مسئولين أمريكيين كانوا على علم بما تقوم به إسرائيل والأردن. ولم تحاول أمريكا في أي وقت إقناعهما بالعدول عما يفعلان.

ومما يثير الدهشة أن الدولة اليهودية ودولة ملكية علمانية ستتحالفان مع التشدد الإسلامي. لكن البلدين تصورا أن الإخوان المسلمين يمكن أن تكون سلاحا ضد سوريا

ومنظمة التحرير الفلسطينية. في سوريا قام الإخوان المسلمين بهجمات منظمة وعمليات إرهابية وانتفاضات في حرب أهلية نتج عنها آلاف الضحايا. واعتبارا من ١٩٦٧ حتى الثمانينات ساعدت إسرائيل الإخوان المسلمين على تعزيز أوضاعهم في الأراضي المحتلة وساعدت أحمد ياسين زعيم الإخوان على إنشاء حركة حماس وراهنت على أن شخصيتها الإسلامية سوف تضعف منظمة التحرير الفلسطينية وقد فعلت. غير أن النتائج جاءت على غير ما خططت إسرائيل، وبشكل لم تحسب له إسرائيل حساب، فقد تطورت حماس إلى جماعة "إرهابية" قامت بتفجيرات انتحارية في التسعينات قتلت المئات من اليهود الإسرائيليين.(*) لقد تحالفت إسرائيل والأردن على إطلاق المارد من القمقم.

حماس صناعة إسرائيلية

أنشأت إسرائيل جماعة حماس كما يقول تشارلز فريمان الدبلوماسي الأمريكي المخضرم السفير السابق في السعودية. ويضيف أن حماس كانت مشروعا من صنع "الشين بيت" أو المخابرات الإسرائيلية الداخلية التي شعرت أنها يمكن أن تستغل حماس ضد منظمة التحرير الفلسطينية.(١) ورغم إنشاء حماس رسميا عام ١٩٨٧ كان كل أعضاء حماس من الإخوان المسلمين خاصة في قطاع غزة. وفي أعقاب حرب ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل لغزة والضفة الغربية ازدهر الإسلاميون بدعم من كل من الأردن وإسرائيل. وأصبحت الإخوان المسلمين في الأراضي المحتلة رسميا تحت سيطرة الإخوان المسلمين في الأردن وكانت حماس الفرع المملوك للمنظمة.

وتعود جذور حماس إلى الثلاثينات عندما كان مفتي القدس الحاج أمين الحسيني الذي قام بأنشطة تدعم النازية (وبريطانيا) حيث كان كل النشاط الفلسطيني يكتسي بمكون إسلامي بسيط. التقى المفتي مع مبعوثين عن حسن البنا في عام ١٩٣٥. وتأسست جمعية المكارم في القدس عام ١٩٤٣.(٢) وانجذب العديد من الفلسطينيين القوميين (العروبيين) إلى الإخوان المسلمين في ذاك الوقت وسوف يكون من بينهم زعماء

* على غرار الكثير من الكتابات الغربية لا يحاول المؤلف أن يلمح ولو من بعيد إلى أن مثل هذه العمليات الاستشهادية جاءت في سياق عمليات مقاومة للاحتلال الإسرائيلي.

للحركة العلمانية غير الإسلامية في الدولة الفلسطينية وهي سابقة على الإخوان المسلمين في فلسطين وبدأت فروع المنظمة تنتشر في الأردن وفي حلب و حماة ودمشق في سوريا وفي غزة والقدس ورام الله وحيفا وأماكن آخرى. وتم فتح أول مكتب للإخوان المسلمين في القدس عام ١٩٤٥ على يد سعيد رمضان وبحلول ١٩٤٧ كان هناك ٢٠ فرعا للإخوان في فلسطين ونحو ٢٥ ألف عضو.(٣) وفي أكتوبر ١٩٤٦ و١٩٤٧ مرة أخرى عقدت حركة الإخوان المسلمين مؤتمرا إقليميا في حيفا حضره مندوبون من لبنان وعبر الأردن، يدعو إلى نشر فكر الإخوان المسلمين في أنحاء فلسطين.(٤) كانت المنظمة منقسمة في الأيام الأولى. في غزة كان الإخوان المسلمين تابعين لقيادة المنظمة في القاهرة وفي الضفة الغربية، المنطقة التي خضعت لإدارة الأردن بعد حرب ١٩٤٨، كانت تابعة للأردن. وفي عام ١٩٥٠ توحدت أفرع الضفة الغربية والأردن لتكوين الإخوان المسلمين في الأردن. كانت جماعة محافظة وطورت بسرعة علاقات مع الملك الذي كان القوميون شوكة في خاصرته.(٥) وشجع الهاشميون (العائلة المالكة الأردنية) نشاط الإخوان المسلمين ورأوا أنها يمكن أن تشكل توازنا ضد الشيوعيين واليسار ثم لاحقا ضد الناصرية والبعثية. كان مؤسس الإخوان المسلمين زعيم المنظمة في الأردن هو أبو قورة التاجر الثري الذي ليس له مصلحة في إغضاب أي طرف. وكان لدى قورة علاقات وثيقة مع رجال أعمال في سوريا وعمان والبنا ورمضان في مصر. ومنح الملك عبد الله الإخوان المسلمين مشروعية قانونية باعتبارها منظمة رعاية اجتماعية على أمل أن يضمن تأييدها ضد المعارضة العلمانية.(٦) لكن الملك كان يتشكك في الإخوان مع أنه يأمل في أن دعمهم سيعزز مشروعيته كزعيم إسلامي. وكان الشريف حسين حاكم مكة، أبو الملك، صديق لورانس العرب، راح يعلن أن أصوله تعود إلى الرسول محمد رغم أن هذا لم يكن مؤكدا. وكان على عبد الله وحفيده الملك حسين مستقبلا، أن يفعلا أي شيء ليظلا في الحكم.

كانت حركة الإخوان المسلمين، مثل أي جماعة إسلامية في أي مكان، تناهض الشيوعية بحجة أن مصر والعالم الإسلامي في القرن العشرين وقعت تحت تهديد الشيوعية والأيديولوجيات القومية التي تنكر الشريعة الإسلامية.(٧) وكان الإخوان

المسلمين قوة موالية في دعم الملك حسين وعارضت بشدة القومية العربية. وكانت جذور الإخوان المسلمين في الأردن ضاربة في العائلات الثرية من الضفة الشرقية التي اعتبرت أن الاشتراكية والإصلاح الزراعي تهديدا لوجودها. وعندما تحدى رئيس الوزراء عبد السلام النابلسي الميال إلى اليسار المتأثر بناصر، الملك في عام ١٩٥٧ وكان على وشك الإطاحة به، وقف الإخوان المسلمين إلى جانب الملك وأنقذوا عرشه من السقوط. وكتب بولبي يقول: "اعتبارا من تلك اللحظة أصبح هناك عقد غير مكتوب للحفاظ المشترك على الوجود بين الملك حسين والإخوان".(٨) وقال يوسف العظم زعيم الإخوان في الأردن: "اتفقنا مع الملك لأن ناصر لم يكن منطقيا في الهجوم عليه ولحماية أنفسنا لأن أتباع ناصر وصلوا إلى المناصب القيادية في الأردن وسوف يتعرض الإخوان المسلمون للإبادة كما حدث في مصر.(٩) وجاء دعم الإخوان للملك في الوقت المناسب. كان نفوذ ناصر وحلفاؤه يزداد وفي الوقت ذاته جرى الإطاحة بملك العراق وتحولت السياسة الأمريكية بشدة إلى مناهضة مصر. وفي عام ١٩٥٨ تم إرسال قوات أمريكية إلى لبنان وبريطانية إلى الأردن والكويت لوقف انتفاضة القوميين وانضم الإخوان إلى الجهود الأمريكية والبريطانية. وقد قمع الملك الأحزاب الناصرية والبعثية والشيوعية وشجع الإخوان المسلمين على الترشيح في الانتخابات لدخول البرلمان الأردني وفازوا بالمقاعد البرلمانية في نابلس ومدن أخرى في الضفة الغربية. كما وفر الجيش الأردني تدريبا لقوات الإخوان المسلمين شبه العسكرية.(١٠)

وفي غزة التي أصبحت معقل حماس، تغلغل الإخوان المسلمين بين الطلبة الفلسطينيين القادمين من القاهرة والكويت. وكونت حركة الإخوان المسلمين اتحاد الطلبة الفلسطينيين الذي سيتخلى الكثير منهم عن الإسلاميين ويتجه إلى منظمة التحرير الفلسطينية ومنهم ياسر عرفات وصلاح خلف والإخوة حسن.(١١) وفي غزة التي كانت تحت الإدارة المصرية وجدت حركة الإخوان نفسها تحت ضغط بعد أن قضى ناصر على المنظمة في القاهرة. وفي يوليو ١٩٥٧ اقترح خليل الوزير الذي سيتبوأ مقعدا قياديا على الصعيد الفلسطيني فيما بعد أن تقيم حركة الإخوان المسلمين الفلسطينية منظمة خاصة إلى جانب الحركة الأصلية لا تأخذ الطابع الإسلامي بل يكون هدفها تحرير

فلسطين. ومنذ تلك اللحظة انقسمت الحركة الفلسطينية إلى فصيلين في أحدهما القوميين الذين يؤيدون فكرة الوزير الذي أنشأ الحركة الوطنية لتحرير فلسطين أو فتح في ١٩٥٨-١٩٥٩ وفي الجانب الأخر الإسلاميون الذين فضلوا الإبقاء على الولاء للإخوان المسلمين ولم ينضموا إلى فتح وعارضوها علنا.(١٢)

وقد أنشئت منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٥ وبدأت الهجمات ضد إسرائيل منذ ذاك الوقت . وضمت المنظمة المنتمين إلى القومية الفلسطينية الذي كانوا حلفا ء لها وكانت تلك الفكرة القومية صورة من القومية العربية لدي عبد الناصر. فيما ظلت حركة الإخوان المسلمين من جانب آخر في معسكر المحافظين المتحالفين مع ملك الأردن بتأييد من السعودية والكويت والممالك الخليجية التي سوف تصبح دولا مستقلة فيما بعد. وتراجعت عضوية الفلسطينيين في الإخوان المسلمين بشكل كبير بعد أن وصلت إلى بضع آلاف في الأربعينات، وأصبحت القومية العربية الصرعة الجديدة في الشرق الأوسط. وفازت الأحزاب الموالية لناصر والبعث والأحزاب الشيوعية وحركة فتح بحجم عضوية أكبر على حساب الإخوان.

وكان أعضاء الإخوان المسلمين في الضفة الغربية أقل من ألف وفي غزة بلغوا ألفا قبل حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل. وفي الضفة الغربية تغاضت السلطات الأردنية عن الإخوان المسلمين بينما في غزة قمعت مصر المنظمة في ظل حكم ناصر. وخلال تلك الفترة ظهر أحمد ياسين باعتباره متشددا، وسوف يفوز بتأييد إسرائيل ودعمها في السبعينات والثمانيات ويؤسس حماس عام ١٩٨٧.(١٣) وألقت المخابرات المصرية القبض عليه في إحدى محاولات اغتيال ناصر. لكن الأمور تغيرت بعد حرب ١٩٦٧ حيث سيطرت إسرائيل على الضفة الغربية وغزة. وتم إطلاق سراح أحمد ياسين. وقال شاؤل ميشيل وافرام سيلا الباحثان الإسرائيليان اللذين كتبا كتاب "حماس الفلسطينية": كانت إسرائيل تسمح بالنشاط الإسلامي الاجتماعي والثقافي ووقوع غزة والضفة الغربية تحت سيطرة الحكومة الإسرائيلية مكن من تجديد المواجهة بين الناشطين الإسلاميين في المنطقتين. ومهد هذا الطريق أمام تبلور جهود منظمة مشتركة بين الجانبين. في أواخر الستينات تأسست منظمة الإخوان المسلمين الفلسطينية المتحدة لتقوم بنشاط إسلامي في

كل من قطاع غزة والضفة الغربية وشهدت السبعينات مزيدا من العلاقات والروابط بين الإخوان المسلمين في الأراضي التي تحتلها إسرائيل وبين المواطنين العرب داخل إسرائيل. وأدى ذلك إلى زيارة شخصيات من الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وغزة مثل الشيخ ياسين تجمعات المسلمين داخل إسرائيل من الجليل إلى النجف من أجل الدعوة وإلقاء خطب الجمعة".(١٤)

وبدأت إسرائيل تلاحظ بعد قليل أن ياسين والإخوان المسلمين حلفاء جيدين ضد حركة التحرير الفلسطينية. وفي ١٩٦٧ بدأت الإخوان المسلمين تكون بنيتها التحتية والسلطات الإسرائيلية تغض الطرف تماما. وانتشرت الجمعيات الخيرية وأصبحت الأوقاف الإسلامية أكثر ثراء وتسيطر على ١٠ % من العقارات في غزة وعشرات المشاريع وآلاف الأفدنة من الأراضي الزراعية. وتم أسلمة الفلسطينيين بعد ١٩٦٧ كما هي الحال في مصر والسودان ودول عربية أخرى. وفي الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٨٧ زاد عدد المساجد في غزة من ٢٠٠ إلى ٦٠٠ كما ارتفع العدد في الضفة الغربية من ٤٠٠ إلى ٧٥٠ مسجدا.(١٥)

في عام ١٩٧٠ طرد الأردن منظمة التحرير الفلسطينية بعد هزيمتها في الحرب الأهلية التي نشبت في سبتمبر. خلال تلك الحرب أيد الإخوان المسلمين الملك والبدو التابعين له ضد منظمة التحرير الفلسطينية وساعدت إسرائيل الملك حسين وهددت باتخاذ إجراءات إذا تحرك الجيش السوري لمساعدة المنظمة. وفي نفس العام طلب أحمد ياسين زعيم الإخوان في غزة، من الإدارة العسكرية الإسرائيلية التصريح بإنشاء منظمة. ورفضت السلطات الطلب لكنها بعد ٣ سنوات وتحت أعين الشين بيت (المخابرات الداخلية) سمحت لياسين بإنشاء مركز إسلامي وجماعة إسلامية تحت ستار تحت اسم معهد إسلامي. وبدأ ياسين السيطرة الفعالة على مئات المساجد وكانت تلك المساجد إلى جانب مئات الجمعيات الخيرية والمدارس الإسلامية تعمل في تجنيد الإسلاميين وتحولت لتصبح مراكز جذب سياسية لنشاط ياسين. وفي عام ١٩٧٦ انفصل مركز ياسين الإسلامي عن الجمعية الإسلامية وكان لها فروع وأعضاء في قطاع غزة واستمرت في النمو. وكان الدعم الرسمي من إسرائيل للإسلاميين قد بدأ في عام ١٩٧٧

عندما فاز حزب حيروت الذي يرأسه مناحم بيجين وكتلة الليكود على حزب العمل الإسرائيلي في الانتخابات الوطنية في مفاجأة مذهلة. وفي عام ١٩٧٨ منحت حكومة بيجين الجمعية الإسلامية التي أنشأها ياسين، الاعتراف الرسمي. وكان هذا نوعا من الضغط الشديد على منظمة التحرير الفلسطينية.

كانت الحرب الأهلية مستعرة في لبنان ودعمت إسرائيل الميليشيات المسيحية المارونية التي كانت تحارب الفلسطينيين. وفي الضفة الغربية وقطاع غزة حاول بيجين زعزعة النفوذ القوي لمنظمة التحرير الفلسطينية بأسلوبين أولا دعم الحركة الإسلامية وثانيا بإنشاء ما يسمى بالجمعيات القروية وهي مجالس محلية يديرها الفلسطينيون المناهضون للمنظمة بدعم كامل من السلطات العسكرية الإسرائيلية . وسجل ياسين والإخوان المسلمين نفوذا وسيطرة على الجمعيات القروية. وتم تدريب أكثر من ٢٠٠ من أعضاء تلك الجمعيات تدريبا شبه عسكريا على يد إسرائيل وجند "الشين بيت" العديد من العملاء بالأجر في شبكة كبيرة من هؤلاء.(١٦) وكان مقدرا لتلك الجمعيات أن تفشل ويزدريها الناس ويحقرها الفلسطينيون في الأراضي المحتلة. لكن الإخوان المسلمين واصلوا اكتساح الساحة والنجاح على حساب فتح والجماعات الفلسطينية اليسارية مثل الجبهة الوطنية لتحرير فلسطين.

وكتب ديفيد سبلر المراسل السابق لصحيفة "نيويورك تايمز" أن الحاكم العسكري الإسرائيلي في غزة تباهى بإعلان أن إسرائيل مولت الإسلاميين ضد منظمة التحرير الفلسطينية. وكتب يقول: "كانت إسرائيل تنظر إلى المتشددين الإسلاميين على أنهم مفيدين لها من الناحية السياسية لأن بينهم وبين المؤيدين العلمانيين لمنظمة التحرير الفلسطينية نزاعات واختلافات وكان العنف بين الجماعتين ينشب من وقت لآخر في جامعات الضفة الغربية وقال لي ذات مرة الحاكم العسكري لقطاع غزة الجنرال إسحاق سيجيف كيف مول الحركة الإسلامية لتكون ضد منظمة التحرير الفلسطينية والشيوعيين. "أعطتني الحكومة الإسرائيلية ميزانية وأعطتها السلطات العسكرية للمساجد". وفي عام ١٩٨٠ عندما أضرم المتطرفون النيران في مكتب جمعية الصليب الأحمر في غزة برئاسة دكتور حيدر عبد الشافي الشيوعي المؤيد لمنظمة اتحرير الفلسطينية، لم يفعل

الجيش الإسرائيلي أي شئ حيث لم يتدخل فقط سوى عندما حدثت تظاهرات أمام منزل الدكتور وهددت حياته شخصيا."(١٧)

لم تكن إسرائيل وحدها تؤيد ياسين والإخوان المسلمين بل العناصر الدينية في السعودية أيضا حيث كانت تريد التخلص من منظمة التحرير الفلسطينية العلمانية وساعد أثرياء من رجال الأعمال السعوديين في تمويل ياسين رغم أن قدرته على العمل في غزة كانت تعتمد على حسن نوايا السلطات العسكرية الإسرائيلية. وكانت علاقات ياسين مع الإخوان المسلمين في الأردن عاملا مساعدا في تمكينهم من إقامة علاقات وثيقة مع المؤسسات الإسلامية في السعودية، التي وفرت دعما ماليا سخيا في السبعينات والثمانينات للجماعات الإسلامية (١٨)، وإن ظل ينتاب الحكومة السعودية قدر من الشكوك تجاه ياسين، الأمر الذي سينتهي بها إلى وقف المساعدات التي تقدمها للحركة. وقد هاجم الإخوان المسلمين منظمة التحرير الفلسطينية من أجل توجهاتها غير الإسلامية، ربما من أجل مجاملة الإسلاميين المحافظين في السعودية وأعضاء العائلة المالكة المتأثرين بالوهابيين. وقال الإخوان إن المنظمة ليست لوجه الله وأعلن ياسين إن المنظمة علمانية ولا يمكن اعتبارها من المحافظين إلا إذا تحولت إلى منظمة إسلامية.(١٩)

في ذاك الوقت لم يكن واضحا إذا كان الإخوان المسلمين سوف يحققون وجودا كبيرا بين الفلسطينيين. وكان من أهم أسباب ذلك أن غالبية الفلسطينيين كانوا مسيحيين ولن يؤيدوا جماعة إسلامية تهدف إلى إقامة دولة إسلامية. كما كان الفلسطينيون من أكثر العرب تعليما وثقافة وحداثة وإتباعا للنمط الغربي وكانت أسفارهم متعددة باعتبارهم يعيشون في الشتات وكانت لهم علاقات وصلات بالوطن العربي وأمريكا وأوربا ومن نافلة القول بالاتحاد السوفيتي. وفوق كل ذلك كان الفلسطينيون يعتنقون الفكر القومي، فيما كان الإسلاميون الفلسطينيون، على الجانب الآخر، يعارضون هذا الفكر وتتجاوز أولوياتهم فكرة إنشاء دولة فلسطينية، إلى العمل على أسلمة الفلسطينيين والعالم العربي أولا. لكن جاذبية التشدد الإسلامي ازدادت بين الفلسطينيين بسبب قمع إسرائيل المستمر

لمنظمة التحرير الفلسطينية مما فرض على الناس أن يبحثوا عن بديل لها في الضفة الغربية وغزة.

وكان المسئولون في المخابرات الأمريكية والدبلوماسيون يعرفون أن إسرائيل تدعم الإسلاميين في الأراضي المحتلة. وقالت مارتا كيسلر المحللة في المخابرات، التي حذرت من قبل من أن الحركة الإسلامية يمكن ان تسبب تهديدا لأمريكا في المنطقة (٢٠)، "إن الإسرائيليين يزرعون التطرف الإسلامي لمواجهة الفكر القومي لدى الفلسطينيين". لكن المخابرات ووزارة الخارجية لم تحاولا وقف هذا الدعم. وكان هناك انقسام في واشنطن بسبب البيروقراطية حول أهمية التشدد الإسلامي الفلسطيني. فقد رأى البعض أنه حميد أو مفيد ورأى البعض الآخر أنه يمكن أن يكون ضارا واعتقد بعض ثالث أنه لن يستجمع قواه وأن الفكر الإسلامي لن يجذب الفلسطينيين. وقالت كيسلر: "لم يؤت التشدد الإسلامي والأسلمة مفعولهما بين الفلسطينيين كما فعلا في أماكن أخرى على الأقل في البداية. كان الكثير من الفلسطينيين في الشتات من المتعلمين المتقدمين العلمانيين. ولم ينحو مناحي التشدد الإسلامي إلا فيما بعد. وشجع الإسرائيليون على ذلك إلى حد ما رغم أنهم ليسوا مسئولين عن هذا بكامله إلا أنهم لم يقوموا بأي شيء لمنعه بعد ذلك. سمح الإسرائيليون للإسلاميين بالازدهار فكان الإسرائيليون يسمحون للإسلاميين بأن يفعلوا ما شاءوا من أجل ضرب حركة فتح وكانوا يدللوا الشخصيات الدينية."(٢١)

وقال ديفيد لونج الخبير السابق في شئون الشرق الأوسط في الخارجية الأمريكية مكتب المعلومات والأبحاث "كنت أرى أنهم يلعبون بالنار. لم أكن اعتقد أن الحال سوف ينتهي بهم إلى خلق وحش كاسر. لكنني لا أعتقد أنه ينبغي العبث مع التشدد."(٢٢) وفي ذات الوقت كانت إسرائيل وسوريا والأردن تفعل نفس الشيء.

دمشق هي الهدف

في السبعينات كانت إسرائيل والأردن في حالة حرب غير أنه كان تربطهما علاقة تعاون معقدة من خلف الكواليس. كان الملك حسين يتعاون مع المخابرات

الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية كان لها علاقة بنظيرتها في الأردن، رغم أنها لا يمكن أن توصف بالدافئة إلا أنها كانت قائمة على الاقل. ويقول فيليب ويلكوكس مسئول الخارجية الأمريكية السابق المخضرم هناك علاقة معقدة سرية بين الهاشميين والصهاينة".(٢٣) وكان العدو المشترك لإسرائيل والأردن هو سوريا.

كان الرئيس السوري حافظ الأسد معرض للخطر من جانب الإسلاميين. كان الرئيس علمانيا وزعيما لحزب البعث لكنه كان عضوا من الأقلية العلوية في سوريا أيضا، وهي أقلية شبه شيعية يحتقرها الإخوان المسلمين ويعتبرها الوهابيون غير مسلمة على الإطلاق. كان الإخوان المسلمين في سوريا ربما أكثر تنظيما من أي دولة عربية أخرى فكان لها مراكز قوة موزعة جغرافيا بين معاقل السنة مثل حلب وحمص وحماة وبين زعماء الإخوان في المنفى في ألمانيا وسويسرا ولندن.

كان الإخوان المسلمين في سوريا من أتباع حركة حسن البنا الأوائل في مصر وتمكن أعضاء الحركة في سوريا من تجنيد الطلبة السوريين العائدين من الأزهر في منتصف الثلاثينات. وشكل الإخوان المسلمين فروعا في المدن السورية الرئيسية تحت اسم "شباب محمد". وكانت حلب في شمال سوريا مقر الإخوان المسلمين منذ عام ١٩٣٥.(٢٤) وفي عام ١٩٤٤ انتقلت القيادة إلى دمشق تحت إمرة مصطفى السباعي خريج الأزهر وصديق حسن البنا. وفي الخمسينات عندما ضرب ناصر الإخوان لجأ عدد كبير منهم إلى سوريا. لكن سوريا انتقلت إلى معسكر العروبة بعد اعتناق الناصرية في إطار الجمهورية العربية المتحدة (في اتحاد بين مصر وسوريا) ثم خضعت لقيادة حزب البعث في الستينات. ووجد الإخوان أن سوريا أقل عداء لهم. وفي عام ١٩٤٦ قاد الإخوان شغبا مناهضا لحزب البعث في سوريا تحت شعار "الإسلام أو البعث". وفي عام ١٩٦٧ خلال وبعد هزيمة سوريا في تلك الحرب أعلنت أكثر الجماعات التابعة للإخوان تطرفا وتسليحا، الجهاد ضد الحكومة السورية. وتكثف عداء الإخوان ضد سوريا بعد ١٩٧٣ عندما أعلن الرئيس الأسد دستورا علمانيا سمى البلاد "الدولة الاشتراكية الديمقراطية الشعبية" وتبع ذلك قيام تظاهرات عنيفة من الإسلاميين.(٢٥)

وفي منتصف السبعينات بدأت الحرب الأهلية في لبنان وجرت في حبائلها إسرائيل وسوريا وأطلق الإخوان المسلمين هجوما شاملا ضد حكومة سوريا. واعتبارا من ١٩٧٦ قام الإخوان المسلمين في سوريا بأعمال اغتيال وهجمات تفجيرية وأعمال عنف في العديد من المدن ومنها دمشق. وتورطت سوريا في حرب ضد إسرائيل في لبنان في خضم الحرب الأهلية، وهي ليست حربها. وأثبت الإخوان أنهم قوة عتيدة ضد الأسد. وأعلن الإخوان المسلمين الجهاد متهمين من يدير النظام السوري بأنهم ليسوا من المسلمين. وقاد الحرب عدنان سعد الدين العضو السابق في الإخوان المسلمين المصرية. واغتالت طلائع الجهاد، الجناح السري شبه العسكري للمنظمة، مسئولين في حزب البعث وشخصيات بارزة من العلويين وعملاء أمنيين ومخبرين إلى جانب مستشارين عسكريين سوفيت كانوا في سوريا. وتطور الأمر إلى تظاهرات عنيفة وإضرابات ثم إلى هجمات إرهابية مكثفة. وفي يونيو ١٩٧٩ هاجمت مجموعة من الإخوان مدرسة عسكرية سورية في حلب وقتلت ٨٣ من الطلبة باعتقالهم داخل بناية وإطلاق النار من الأسلحة الأوتوماتيكية والقنابل الحارقة عليهم. وفي العام التالي حاول الإخوان اغتيال الرئيس الأسد وانتقمت الحكومة بهجوم مضاد موسع. وفي أكتوبر ١٩٨٠ تأسست الجبهة الإسلامية السورية ووحدت حزب التحرير الإسلامي وكلاهما تابعين للإخوان المسلمين إلى جانب جماعات متشددة أخرى. وتكثف الجهاد في عام ١٩٨١ وقتل ٢٠٠ شخص في انفجار سيارة كبير في دمشق في أكتوبر من هذا العام.

اعتمد الإخوان المسلمين في شن هجمات منظمة بهذا المستوى ضد دولة معروفة بقوة جهازها الأمني، على دعم من كل من إسرائيل والأردن. ولم تحاول الدولتان إخفاء هذا الدعم وأقامتا معسكرات تدريب للإخوان المسلمين في لبنان وشمالي الأردن بالقرب من الحدود السورية. وأغدقت إسرائيل الدعم على الإخوان المسلمين عن طريق لبنان وذهب بعض هذا الدعم إلى "قوات لبنان الحرة" وهو جيش خاص يتكون من المسيحيين والشيعة وميليشيات في جنوب لبنان يقودها الضابط المنشق ذي الشعبية الواسعة الرائد سعد حداد (*). وفي عام ١٩٧٨ في خضم الحرب الأهلية اللبنانية أرسلت إسرائيل

* ليس له أي شعبية ولكن يبدو أن عمالته لإسرائيل جعلته ذو حيثية لدى المؤلف.

٢٠٠٠ من القوات إلى البلاد وعند انسحابهم تركوا جزءا من لبنان تحت سيطرة "قوات لبنان الحرة" التي ظلت متحالفة مع إسرائيل حتى منتصف الثمانينات. وأعرب حداد عن الفخر بتدريب الإخوان المسلمين في عدة بيانات في مطلع الثمانينات. وقال في أحد تلك البيانات: "افتتح الرائد سعد حداد قائد قوات التحرير اللبنانية أمس المعسكر التدريبي السابع للإخوان المسلمين في لبنان الحرة. ويحضر التدريب نحو ٢٠٠ شخص غالبيتهم من السوريين وبعض اللبنانيين". وحث حداد في خطاب له المتدربين على التدريب على العمليات الفدائية حتى يستطيعوا مع زملائهم تحرير سوريا من نظام الأقلية العلوية في سوريا. وقال الرائد: "التدريب الذي سوف تتلقونه على مستوى عال يشمل فنون مباغتة العدو وهو ليس متاحا في أي مكان آخر في المنطقة ولا العالم".(٢٧)

الحقيقة أن التدريب الذي أعطاه حداد بدعم من إسرائيل للإخوان المسلمين كان متاحا في مكانين آخرين على الأقل في نفس الوقت هما شمالي الأردن والجيب الماروني المسيحي في لبنان، حيث حزب الكتائب، وهو ميليشيا فاشية تحت قيادة عائلة الجميل **النازية** وبدعم من إسرائيل، وكان يجري هناك تدريب الإخوان المسلمين من أجل شن الحرب ضد سوريا. كانت المعسكرات في الأردن تدار بدرجة أكبر من العلنية. في عام ١٩٨١ أدان وزير الخارجية السوري الملك الأردني وقال: "إن سياسة الملك حولت الأردن إلى قاعدة للعصابات التي تقوم بالقتل والاغتيال والجرائم هي عصابات الإخوان المسلمين من أجل الضغط على سوريا وتشويشها".(٢٨) وبعد أسبوعين ألقي الأسد خطابا مطولا انتقد فيه الملك الأردني بشدة لدعمه تمرد الإخوان المسلمين في سوريا. وقال الأسد: "بدأت المشكلات التي يثيرها الإخوان المسلمين تتفاقم في سوريا. والإخوان المسلمين بالطبع ذيل تاريخي ضروري في سلسلة العلاقات الرجعية الإمبريالية في المنطقة. ومن الطبيعي للنظام الأردني والإخوان المسلمين أن يؤيدا بعضهما البعض. ومن الطبيعي لعصابة الإخوان المسلمين أن تنفذ الأوامر وأن تستحوذ على الأسلحة الضرورية والتدريب والتمويل من الأردن. لقد ألقينا القبض على مجرمين من عصابة الإخوان المسلمين في سوريا وعلى الحدود السورية الأردنية وقالوا لنا إنهم كانوا في الأردن حيث تلقوا تدريبا ومبالغ من المال والسلاح وبطاقات هوية مزورة".(٢٩)

وبعد مرور شهر على هذا الخطاب قال عبد الله عمر القيادي في حزب البعث إن سوريا لديها أدلة على أن الإخوان المسلمين يتلقون دعما من الأردن وعصابات الكتائب في لبنان ومن إسرائيل والإمبريالية الأمريكية.(٣٠) وبعد وقوع انفجار دمشق في عام ١٩٨١ الذي راح ضحيته المئات اتهمت سوريا الإخوان المسلمين بأنها تنوب عن إسرائيل وعميلة لها.(٣١) وكانت كل الاتهامات التي وجهها الأسد وعمر صحيحة.

ولم تكن الهجمات التي كانت تجرى في سوريا تحظى بتغطية في أمريكا لكن في إحدى المرات النادرة كتبت صحيفة "نيوزويك" أن حركة الإخوان المسلمين في سوريا قامت خلال السنوات الخمس الماضية باغتيال مئات من العلويين من حزب البعث الحاكم وأقاربهم والطبيب الخاص للرئيس الأسد وعدد من المستشارين السوفيت. وكتبت الصحيفة أن الأسد اتهم الملك الأردني بتوفير المأوى والتدريب للإخوان المسلمين من سوريا.(٣٢) لكن في غالبية الأحوال كانت حملة الإخوان المسلمين في سوريا غير معروفة في أمريكا. وقال ديفيد لونج: "عرفنا أن نشاط الإخوان المسلمين هناك (في سوريا) أكبر مما تكتب عنه الصحف."وكان لونج رئيس قسم الشرق الأدنى في وحدة المعلومات والأبحاث في الخارجية الأمريكية. وقال كنا نعتقد أن هذا أمر محمود وكنا نعرف أن هناك مخاطر، لكن الحياة كلها مخاطر".(٣٣) بالنسبة للأسد كانت جماعة الإخوان المسلمين تمثل خطرا محدقا، كما تقول مارتا كيسلر محللة المخابرات الأمريكية السابقة وقالت عن إسرائيل والأردن "كانوا يلعبون بالنار ولا أعتقد إلى أي مدى سيكون هذا الأمر خطيرا. لكن بالنسبة للأسد كان الأمر خطيرا. لقد قضى نحو ٥ سنوات يحاول التعامل مع الإخوان المسلمين ليحتويهم أو يتعاون معهم. وفي النهاية فقد السيطرة على الثلث الشمالي من البلاد. كان في طريقه للسقوط. لقد كان في مأزق حقيقي".

كان الدبلوماسيون يعرفون بالدعم الأردني على الأقل للإخوان المسلمين في سوريا لكنهم ادعوا أن أمريكا نفضت يدها من الموضوع. ويقول تالكوت سيلي السفير الأمريكي في سوريا في ذاك الوقت "كنت سفيرا في سوريا من ١٩٧٨ إلى ١٩٨١ وعلمت بوجود الحركة السرية في البلاد لأنه كان هناك حملة تفجيرات واغتيالات ضد مسئولي حزب البعث. وبحلول ١٩٧٩ شعرنا بوجود الحركة الإسلامية في سوريا. وفي

عام ١٩٨٠ عندما كنت هناك دخل أحدهم إلى مكتب الأسد وألقى قنبلة. وكان السوفييت الذين كانوا موجودين بأعداد كبيرة هناك يستخدمون عربات مصفحة محمية في تنقلاتهم". ويقول سيلي أن الأسد استدعاه للشكوى من عنف الإخوان المسلمين.

جمع الملك حسين الإخوان المسلمين التي أقامت معسكرات في شمال الأردن. ويقول السفير السابق أنه ذهب لزيارة الأسد وقال لي "اعلم أن أمريكا وراء هذا" لكني قلت له "أود أن أرى إذا كان لديك دليل. يمكنني أن أقول لك إننا ليس لنا يد على الإطلاق في هذا" غير أني لم أكن استطيع الجزم بما إذا كان الملك حسين متورطا في هذا أم لا؟.

لكن سيلي يقول لا أعتقد أن الأمر شكل لنا قلقا. لا يعنينا إذا كانوا يمثلون مشكلة للأسد".(٣٥) الحقيقة أن الملك حسين كان متورطا. وبعد أربعة أعوام اعترف الأردن بدوره في دعم الإخوان المسلمين واعتذر لسوريا. وكتب الملك إلى الأسد يقول: "لقد حدث أن بعض الذين لهم علاقة بالأحداث الدامية في سوريا كانوا عندنا".(٣٦) وقال الملك فيما وصف بأنه اعتراف غير عادي أن بلاده سمحت للإخوان المسلمين بشن حرب ضد سوريا من المملكة لكن سعيا وراء مصالحة مع الأسد اعترف بأنه جرى حظر نشاط الإخوان الذين يرتكبون الجرائم ويبذرون الفرقة بين الناس.

وقام رئيس وزراء الأردن بزيارة سوريا وأعلن الملك أنه يريد أن يحذر من مخططات شريرة من جانب هذه الجماعة المتعفنة".(٣٧) وبعد بضعة أيام ألقي القبض على مئات من الإخوان المسلمين المناهضين لسوريا في الأردن.(٣٨) وكتب روبرت باير ضابط المخابرات الذي عمل في الشرق الأوسط والهند عن لقاءاته مع الإخوان المسلمين وانتقد المخابرات لرغبتها في التعاطي معهم. وقال باير في كتابه: "النوم مع الشيطان" إن سوريا تبدو هي المشكلة. كانت تلك الدولة خطيرة على مستقبل السلام في الشرق الأوسط وكانت واشنطن رسميا تريد الإطاحة بالأسد. لكن إذا حل الإخوان محل الأسد فسوف تتطور الأمور إلى الأسوأ.

وكتب باير إلى رئيسه عن الإخوان المسلمين يقول: "الأردنيون يدعمونهم بالمال والمأوى لكن لأن السوريين يكرهونهم فإن عدو عدوي هو عدوي. ماذا يقول الأردنيون عن الإخوان؟ كان هذا سؤالي إلى رئيسي. نحن لا نضغط على الأردنيين ليقولوا

التفاصيل. وهم لا يتطوعون بقول أي شيء. وما رد علي به رئيسي هو أنه ليس لديه أوامر بالتجسس على الإخوان المسلمين. وبما أن الإخوان ليسوا هدفا لنا، فلا ينبغي على المخابرات في عمان أن تهدر عليهم المال".(٣٩)

هل ساندت أمريكا الإخوان المسلمين بشكل مباشر؟ يقول باير إن الإجابة سرية لا يجب أن تفشى. ويقول إن البعض قالوا أن هناك ملفات سرية بشأن هذا مما يعني أن المسئولين عن الملفات شديدة السرية هذه فقط هم الذين يستطيعون الاطلاع عليها. كانت السعودية تدعم الإخوان المسلمين . ويقول باير: "وكنا ندعم السعودية. فما حدث هو أن نتوجه إلى الحكومات ونقول لهم إليكم المال لتنفيذ الأعمال القذرة أو أن نمدهم بالعتاد والمؤن. ويضيف باير أن جماعة الإخوان المسلمين لم تكن تحصل على الدعم فقط من حداد زعيم الميليشيا المدعومة من إسرائيل في لبنان. لم يكن حداد فقط لقد كانت الجبهة اللبنانية، ما يعني أن الكتلة المسيحية اللبنانية اليمينية التي تربطها علاقات وثيقة مع إسرائيل كانت تدعم الإخوان. كانت الجبهة اللبنانية تحمى الإخوان المسلمين في بيروت، بل بيروت الشرقية المسيحية. ويقول باير أن المخابرات لم تأخذ الإخوان على محمل الجد باعتبارها تهديدا محتملا. وقال: "لقد أفلتت الإخوان منا. كنا نعتقد أنها مشكلة طرف آخر. كانت سياستنا في الشرق الأوسط مرسومة لخدمة الحرب الباردة وإذا كان هؤلاء وراء الأسد، إذن ماذا في ذلك؟ بالطبع لن نتواجه مع الملك حسين بشأن هذا.(٤٠) ولن نتواجه مع الإسرائيليين أو نتحداهم".

حماة وحماس

بلغ الدعم الإسرائيلي والأردني للإخوان المسلمين ذروته في الثمانينات. في سوريا كانت المعركة الأخيرة بين نظام الأسد والإخوان المسلمين في مدينة حماة التي تضم ٢٠٠ ألف نسمة وكانت دائما معقلا للسنة المتطرفين. ويذكر سيلي السفير الأمريكي السابق أن الأمر بدأ من شائعة. بدأت الأحداث انطلاقا من تقرير كاذب بأن الرئيس الأسد سقط أو أطيح به. وبدأت جماعة الإخوان المسلمين عمليات القتل في

المدينة (*). بناء على هذا التقرير فقتلت المئات من الجنود والمسئولين السوريين. ويقول السفير أن الإخوان قتلوا العديد من مسئولي البعث في المدينة.(٤١) وكان هذا استفزاز لا يمكن السكوت عليه من جانب الرئيس الأسد. جمع الأسد القوات الخاصة من الجيش تحت قيادة أخيه رفعت الأسد الذي اشتهر عنه الشدة والغلظة والقسوة وبلغ عدد القوات ١٢ ألفا حسب تقديرات منظمة العفو العامة فيما قال الإخوان فيما بعد إنهم كانوا ٥٠ ألفا (٤٢)، دخلوا حماة وقمعوا التمرد وقتلوا المئات. وتختلف الأرقام مرة أخرى. فقال تقرير لمجلة "تايم" أن ألف قد قتلوا لكن غالبية التقارير الأخرى قدرت القتلى بنحو ٥ آلاف. وقالت مصادر إسرائيلية ومن الإخوان المسلمين إن القتلى بلغوا ٢٠ ألفا. ومع مرور الوقت كبرت أسطورة حماة واستغلها الذين ينتقدون سوريا ليصوروا الرئيس الأسد على أنه قاتل دموي مثل ستالين ولم يبذل الأسد جهدا لتصحيح تلك الصورة لأنها ترعب الإخوان المسلمين الذين يثيرون المشكلات. وقالت مجلة "تايم" إن أحداث حماة امتدت إلى أماكن أخرى.(٤٣) ويقول سيلي إن ذلك التطور كان نهاية الإخوان المسلمين في سوريا.(٤٤)

لكن في الأراضي المحتلة لا يزال الإخوان يتلقون الدعم ويزدادون. وفي مطلع الثمانينات أيدت إسرائيل الإخوان على عدة جبهات. فقد كان تدعم الإسلاميين في قطاع غزة والضفة الغربية بالطبع إلى حد الذي ساعد على قيام حماس عام ١٩٨٧. كانت حماس إلى جا[illegible]دن تدعمان الإخوان المسلمين في حربها ضد سوريا. وفي أفغانستان دعمت إسرائيل في هدوء المتشددين المرتبطين بالإخوان الذين قادوا المجاهدين. كما دعمت إسرائيل إيران القلب العسكري المتطرف للحركة الإسلامية خلال حربها الطويلة مع العراق.

ولم يكن الجميع في إسرائيل راضون عن سياسة دعم الإسلاميين. كان المؤيدون من اليمين المتطرف جدا في إسرائيل ومنهم مناحم بيجين ورئيس الوزراء إسحق شامير ووزير الدفاع اريل شارون الذين يطبقون تلك السياسة بجرأة. وكان حزب العمل في إسرائيل يعتقد أن منظمة التحرير الفلسطينية شريكا ممكنا في التفاوض بشأن التسوية

* حسب رواية المؤلف والتي ينبغي الحذر منها في ضوء مواقفه التي ترد عليها العديد من التحفظات بشأن كل ما هو مسلم.

النهائية. لكن اليمين الإسرائيلي عارض التسوية من ناحية المبدأ وكان يريد الاحتفاظ بالأرض المحتلة بكاملها في الضفة الغربية بناء على أسباب دينية للسيطرة على يهودا والسامرة وهي الأسماء الدينية القديمة للمنطقة المتنازع عليها(*).

ويقول باتريك لانج مدير وكالة معلومات الدفاع في الشرق الأوسط الحقيقة أن سياسة إسرائيل كانت خاطئة على المدى الطويل. ويقول لم يكن هناك إجماع داخل المخابرات الإسرائيلية على دعم الإخوان المسلمين بقيادة أحمد ياسين، خاصة أعضاء الموساد الذين يعرفون جيدا ثقافة العرب والمسلمين. (**) فقد عارضوا هذا بشدة. ويقول لانج إن الخبراء بالشئون العربية في أجهزة الأمن الإسرائيلية لم يؤيدوا تلك السياسة لكن القادة الإسرائيليين ظنوا أنه يمكنهم القضاء على "الإرهابيين" (***) بين منظمة التحرير الفلسطينية ثم يتفرغون لحماس فيما بعد. كان غالبية الإسرائيليين علمانيين ويعتقدون أن "الإرهابيين المتطرفين" دينيا ليسوا إلا صرعة سهلة المنال. وكانوا يحاولون الإجهاز أولا على ممثلي التيار القومي العربي باستغلال حماس الإسلاميين.(٤٥)

وقد كتب فيكتور اوستروفسكي ضابط الموساد السابق كتابين حول أجهزة الأمن الإسرائيلية وكان منتقدا شديدا للوكالة بعد تركها.(٤٦) ويقول اوستروفسكي إن العناصر اليمينية في الموساد كانت تخشى شعبية الرئيس الراحل أنور السادات التي يمكن أن تجبر إسرائيل على التخلي عن الأراضي التي تريد إسرائيل الاحتفاظ بها لذلك دعموا الجماعات المتشددة في مصر بطريقة تمويهية أي بدون أن يدرون أن الدعم يأتي من إسرائيل.(٤٧) واتهم اوستروفسكي اليمين الإسرائيلي بأنه نشر التشدد الإسلامي بين الفلسطينيين. وقال في هذا الصدد: إن دعم التطرف الإسلامي كان في صف خطة الموساد العامة في المنطقة. فإذا كان المتشددون هم الذين يديرون العالم العربي فلن يكون هناك طرف للتفاوض مع الغرب وبالتالي تصبح إسرائيل الدولة الديمقراطية الوحيدة والمتعقلة في المنطقة. وإذا استطاعت الموساد إعداد المسرح لحماس وانتزاع

---

* ليست أراض متنازع عليها كما يذكر المؤلف متبينا الموقف الأمريكي الرسمي وإنما المحتلة من قبل إسرائيل.
** لم يفصل المؤلف في هذا المجال وترك الأمر مفتوحا لفطنة القارئ!
*** لغة إسرائيلية بحتة في توصيف الخصم الفلسطيني.

السيطرة على الشوارع الفلسطينية من منظمة التحرير الفلسطينية فسوف تكتمل الصورة تماما." (٤٨)

خلال معظم سنوات الثمانينات لم يكن الإخوان لمسلمون في قطاع غزة والضفة الغربية يؤيدون مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وكان جهد أغلبهم يتجه لمقاومة منظمة التحرير وبشكل خاص الفصائل اليسارية في المنظمة والتابعة لها في الجامعات. استغل أتباع ياسين الهراوات والسلاسل وحتى الأسلحة النارية في الصراعات العنيفة مع القوميين الفلسطينيين التابعين للمنظمة. وكانت الجامعة الإسلامية في غزة موقعا للعديد من المعارك حيث التابعين للمنظمة يريدون تأمين الجامعة والإخوان المسلمين يحاولون الحفاظ على هويتهم الإسلامية. في إحدى تلك المواجهات يوم ٤ يونيو ١٩٨٣ أصيب أكثر من ٢٠٠ طالب. ووقعت مواجهات مماثلة في جامعة بير زيت وجامعة النجاة في الضفة الغربية.(٤٩) وحاولت منظمة فتح الجناح الرئيسي للمنظمة التوصل إلى اتفاق مع الإخوان المسلمين بحيث يكون قابلا للتطبيق غير أن حركة الإخوان أصرت على الأسلمة الكاملة لمنظمة التحرير ولا شيء أقل من هذا بما في ذلك القضاء على الجناح اليساري. وحثت قيادة الإخوان المسلمين حركة فتح على تطهير المنظمة من الماركسيين، مؤكدة على عبث تعليق آمال على العلمانية، مطالبة الحركة بالتعاون الوثيق مع الجماعات الإسلامية.(٥٠)

وفي عام ١٩٨٣ وقعت حادثة غريبة لا تفسير لها أدت إلى أن يشك منتقدي ياسين في وجود علاقات له مع الشين بيت (*) في مطلع ذاك العام ألقي القبض على ياسين من جانب السلطات الإسرائيلية بعد أن أمر أعضاء المركز الإسلامي بجمع السلاح وتم توزيعه على متعاونين مختارين.(٥١) كانت بعض الأسلحة مخبأة في بيت ياسين، وزجت به السلطات في السجن. في ذاك الوقت تم قمع المقاومة ضد إسرائيل بشكل أكبر من أي وقت باستثناء الانتفاضتين اللتين وقعتا في السنوات التالية عندما انتشر المقاتلون الفلسطينيون بشكل كبير. في عام ١٩٨٣ أيضا كان جمع السلاح يعتبر

* يواصل المؤلف منهجه في محاولة التشكيك في الرموز الإسلامية، ورغم أن نشأة حماس قد تكون كما أشار هو، إلا أن ذلك لا يعني بأي حال عمالة ياسين لإسرائيل وإنما تحرك بمنطق تكتيكي باعتبار أن ذلك هو الممكن ولعل وضع حماس المنظمة التي أنشأها يؤكد على صحة تفكيره، هذا بعيدا عن المنحى الخاطئ الذي اتجهت إليه الحركة إثر توليها السلطة رغم الإقرار بالضغوط التي دفعتها لمثل هذه المواقف.

خطرا قاتلا وخطيرا. ورغم الحكم بسجن ياسين ١٣ عاما تم إطلاق سراحه بعد عام واحد. وادعى ياسين إن السلاح لم يجمع لمهاجمة القوات الإسرائيلية بل لمهاجمة فصائل فلسطينية أخرى مما أثار شكوك منظمة التحرير الفلسطينية.

وأسس ياسين حركة حماس في ١٩٨٦ وحتى عندما بدأت الانتفاضة تتطور كان هناك تقارير تفيد بن إسرائيل تعضد حماس(**) ويقول فيليب ولكوكس السفير الأمريكي السابق الخبير في مكافحة الإرهاب رئيس القنصلية الأمريكية في القدس في ذلك الوقت هناك شائعات بأن الجهاز السري الإسرائيلي كان يدعم حماس بالكامل لأنهم منافسون لمنظمة التحرير الفلسطينية. وقال إنه لم يقرأ أي وثيقة رسمية بذلك لكنه لا يشك لحظة أن هذا الدعم حقيقي. ويضيف ولكوكس أن المسئولين الأمريكيين في القدس تعاملوا بشكل منتظم ومكثف مع حماس في أواخر الثمانينات وقالوا عنها أنها منظمة مركبة لها أفرع مختلفة وهناك عناصر معتدلة "كنا نعتقد دائما أنهم قابلين للتفاوض، وهناك متطرفون ومسلحون أيضا".(٥٢)

ورغم فوز حماس بتأييد الكويت وبعض السعوديين الأثرياء كانت الحكومة السعودية تتشكك في مواقفهم. يقول تشارلز فريمان السفير الأمريكي السابق في السعودية لم تكن السعودية تريد أن توجه أموال إلى منظمة على الجبهة الإسرائيلية وبالتالي جعلوا الأمير سلمان حاكم الرياض رئيسا للجنة تقوم على وقف التبرعات في المساجد التي يمكن أن تشق طريقها إلى حماس. وفي النهاية في الوقت الذي كان يبدو أن حماس تزداد اعتمادا على إسرائيل وازدادت قوة الانتفاضة، أوقفت اللجنة (السعودية) العمل وبدأت السعودية بالتغاضي عن الأموال التي تذهب إلى حماس. ويقول فريمان يحتمل أن يكون أعضاء من العائلة المالكة تبرعوا لحماس.(٥٣)

ولم يكن الكل في الحكومة الأمريكية راض عن ظهور حماس خاصة العالمين بالشئون العربية وقوى الضغط المناهضة لإسرائيل في البنتاجون. وأدركت وكالة الإستخبارات الدفاعية خطر الإسلاميين الفلسطينيين وبدأت تجمع بيانات لإعداد تحليل عن الظاهرة منتصف وأواخر الثمانينات. ويقول لانج: "بالنسبة لنا في البداية، كانت

** لا ندري كيف ولم يوضح المؤلف هل لاستغلال الإنتفاضة لفرض واقع معين أم لتحقيق أهداف أخرى !

الحركة الإسلامية الفلسطينية بعيدة عن المراقبة. حاولنا كتابة تقييم للأمن القومي في نهاية الثمانينات لكن هذا لم يحدث. أوقف هذا الأمر أصدقاء إسرائيل في حكومة ريجان".(٥٤)

حتى بعد بداية الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٧ اتهمت منظمة التحرير الفلسطينية، حماس وأحمد ياسين بأنهم يعملون بالتعاون مع الأنظمة العربية الرجعية والاحتلال الإسرائيلي. وقال ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية الراحل لصحيفة إيطالية: "حماس خلقتها إسرائيل وأعطتها في ظل رئيس الوزراء شامير أموالا وأكثر من ٧٠٠ مؤسسة منها مدارس وجامعات ومساجد.(٥٥) وقال عرفات للصحيفة إن رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إسحق رابين اعترف له بتأييد البلاد لحماس في حضور الرئيس حسني مبارك. وقال عرفات إن رابين وصف تأييد حماس بأنه "خطأ قاتل".

تزامن إنشاء حماس تقريبا مع بداية الانتفاضة الأولى (١٩٨٧- ١٩٩٣) التي كانت أول انتفاضة فلسطينية منظمة منسقة رئيسية في الأراضي المحتلة وأيدتها الفصائل الفلسطينية بما فيها حماس ومنظمة التحرير. كان للانتفاضة آثار مهمة بعد أن شملت تكتيكات عنف وغيرها (*) لقد أعادت الانتفاضة النزاع الفلسطيني الإسرائيلي إلى بؤرة اهتمام العالم ودفعت المعتدلين الإسرائيليين مثل اسحق رابين وشيمون بيريز ايهود باراك إلى التفاوض مع المنظمة من خلال محادثات أوسلو في النرويج التي بدأت ما يسمى عملية أوسلو وأحيت أول أمل واقعي في التوصل إلى تسوية للنزاع منذ عام ١٩٦٧.

وحملت حماس السلاح ضد إسرائيل في الانتفاضة مما أدى إلى قمع من الجانب الإسرائيلي. وكانت حماس من قبل تقاتل الفصائل الفلسطينية فقط. وألقت إسرائيل القبض على العديد من أعضاء وقيادات حماس بما فيهم ياسين، في عام ١٩٨٩. وبرغم تأييد حماس للانتفاضة فقد كانت متورطة في حرب ضد منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت

---

* كانت هذه الانتفاضة رمزا للمقاومة السلمية لم يتم خلالها سوى استخدام الحجارة بشكل رئيسي، وحتى لو شابها قدر من العنف فانه من قبل إسرائيل وليس الفلسطينيين.

كلما اتجهت المنظمة للتعاون مع حزب العمل واقتربت من حل أو اتفاق تطلق حماس موجة من الهجمات العنيفة لتخريب المحادثات. وكتب احد المحللين يقول: "كان هدف حماس الرئيسي هو القضاء على عملية السلام وتخريب الطموحات السياسية لحزب الليكود. في كل مرة تكون المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية على وشك التوصل إلى اتفاق وتحقيق السلام تفسد حماس العملية بعمل إرهابي وتدفع إلى فرقة الطرفين بعيدا عن مائدة التفاوض".(٥٦) كانت حماس تسعى إلى الحصول على امتياز يتفوق على منظمة التحرير الفلسطينية عن طريق إظهار نفسها بأنها القوة العسكرية الوحيدة. ويقول راي حنانيا: "كلما حققت عملية السلام بين حزب العمل وعرفات تقدما كلما اتجهت حماس إلى العنف. وعندما أدان المسئولون في المنظمة قتل السائحون في مصر في فبراير ١٩٩٠ واجهت حماس ذلك بإرسال سيارات بمكبرات صوت إلى الشوارع في المدن الفلسطينية الرئيسية للإشادة بالهجمات والتنديد بالمنظمة لأنها انتقدتها".(٥٧)

وكان اليمين الإسرائيلي بقيادة بنيامين نتانياهو وارئيل شارون من حزب الليكود يعارضون بشدة التنازلات التي يريد رابين وبيريز وباراك تقديمها، في الوقت الذي كانت حماس التي انضمت إلى منظمات إسلامية أخرى مثل الجهاد الإسلامي الفلسطيني وحزب الله في تبني موقف معارض للمفاوضات. ومنذ ١٩٩٣ وما بعدها سيعوق حزب الليكود وحماس معا مفاوضات السلام التي يعارضاها وغالبا عن طريق أعمال استفزازية جدا هنا وهناك.

في البداية وجدت حماس نفسها بعيدا عن الصورة بفعل عملية أوسلو. ضعفت سيادة حماس والقطاعات العسكرية والسياسية للفصائل الإسلامية التي سيطرت عليها حماس بشكل كبير لعدة عوامل خلال سنوات عملية السلام في أوسلو (سبتمبر ١٩٩٣-سبتمبر ٢٠٠٠).(٥٨) اتفقت حكومة الليكود الإسرائيلية والمنظمة على ضرب حماس. إلى جانب إلقاء القبض على زعماء حماس وإعدامهم تم تعبئة الفلسطينيين العلمانيين لدعم وتأييد عملية السلام. وانتشرت المعارضة الشعبية للإرهاب. لكن اليمين الإسرائيلي بما فيه اليمين المتطرف الإرهابي سوف يقوض عملية أوسلو. في فبراير ١٩٩٤ دخل إرهابي إسرئيلي يدعى باروخ جولدشتاين عضو حركة كاخ المتشددة إلى مسجد في

الخليل بالضفة الغربية وقتل عشرات من المصلين العزل. وأغضبت المذبحة حماس التي فسرت الهجوم على أنه إهانة للإسلام وتتطلب ردا عن طريق الجهاد المسلح. وتبع ذلك مجموعة من التفجيرات الانتحارية (*). ثم في نوفمبر ١٩٩٥ قام إرهابي إسرائيلي آخر باغتيال رابين. وترك مقتل رابين فراغا في السياسة الإسرائيلية وأدت الهجمات الإنتحارية التي تقوم بها حماس إلى ذعر بين الناخبين الإسرائيليين مما أدى إلى انتخاب حزب الليكود بقيادة نتانياهو في عام ١٩٩٦. وأطلق نتانياهو، غليظ الأسلوب واللهجة، حملة مستمرة من القمع ضد جميع الفصائل الفلسطينية. وفي عام ١٩٩٧ أمر بقتل زعيم حماس في الأردن لكن ياسين أفلت من المحاولة. وعقب ذلك توصلت إسرائيل والأردن إلى اتفاق بإطلاق سراح الشيخ ياسين من السجن حتى تم القبض عليه عام ١٩٨٩. ثم عاد ياسين فجأة لنشاطه في غزة يلعن عملية أوسلو ويحشد المعارضة ضد منظمة التحرير.

وتكرر نفس النمط في عام ٢٠٠٠. سقط نتانياهو عام ١٩٩٩ وحل باراك محله وعاد إلى التفاوض مع المنظمة وبمساعدة الرئيس كلينتون كان قريبا من التوصل إلى اتفاق شامل. غير أن اليمين الإسرائيلي أثار الإسلاميين مرة أخرى واستفزهم. في سبتمبر ٢٠٠٠ قام شارون بزيارة استفزازية للمسجد الاقصى، ما أثار المتشددين من أنصار حماس . كانت نتيجة تلك الزيارة الانتفاضة الثانية (٢٠٠٠- ٢٠٠٤). وقتل عشرات من اليهود في هجمات انتحارية مما دفع العقول الإسرائيلية في الانتخابات إلى معسكر شارون الذي انتخب رئيسا للوزراء بإجماع ساحق مما قضي على أي فرصة للتفاوض مع المنظمة أو التوصل إلى اتفاق. ودهش المراقبون للسياسة الإسرائيلية من أن إسرائيل ستصبح تحت قيادة الرجل الذي شن هجمات إرهابية ضد الفلسطينيين في الخمسينات عندما كان رئيسا للوحدة ١٠١ وتحمل مسئولية مذبحة مئات الفلسطينيين اللاجئين في صابرا وشاتيلا بالقرب من بيروت على يد الكتائب حلفاء إسرائيل خلال الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. وأطلق شارون الذين يطلقون عليه "البلدوزر"،

* لا ينفصل المؤلف هنا عن المنظور الغربي في توصيفه لمثل هذا النوع من أعمال المقاومة وأن كانت التسمية المفضلة لها عربيا هي "الإستشهادية".

حملة شرسة للقضاء على منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية. ووقع عرفات بين شقي رحى حماس وشارون. حيث أن ردود الفعل الانتقامية التي يقوم بها الإسلاميون من حماس يكون رد شارون عليها اتهام عرفات بأنه المسئول بشكل يكون مبررا للانتقام من منظمة التحرير الفلسطينية.

ورفض شارون وحكومة بوش التفاوض مع عرفات وهمشوا زعيم منظمة التحرير الفلسطينية وأتاحوا مزيدا من الفرصة لحماس للنمو. والنتيجة متوقعة طبعا. أثبتت الانتخابات عام ١٩٩٦ أن ١٥% من الفلسطينيين فقط يؤيدون الإسلاميين وبحلول عام ٢٠٠٠ بلغت النسبة ١٧% ثم بحلول ٢٠٠١ أيد ٢٧% من الفلسطينيين الإسلاميين. في عام ٢٠٠٢ كشف استطلاع أجري في جامعة بير زيت أن ٤٢ % من الفلسطينيين يؤيدون فكرة حماس عن الدولة الإسلامية وكانت تلك نسبة غير مسبوقة.(٥٩) وكان يبدو في بعض الأوقات أن شارون يسعى إلى القضاء على أي فرصة للتوصل إلى اتفاق بين حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية رغم مطالبة الحكومة الإسرائيلية المنظمة بالقضاء على حملة حماس الممثلة في الهجمات الانتحارية. وفي عام ٢٠٠١ عندما حصلت المنظمة على تعهد من حماس بوقف الهجمات أمر شارون باغتيال زعيم حماس. وكتب أليكس فيشمان في صحيفة "يديعوت احرونوت" الإسرائيلية أن من أمر بهذه التصفية مهما كان لا بد أنه كان يعرف أنه يوجه ضربة إلى الاتفاق الضمني بين حماس والمنظمة.

ومرة أخرى في عام ٢٠٠٢ وقبل إعلان أحمد ياسين وقف إطلاق النار بعشرين دقيقة قصفت إسرائيل مقر حماس في غزة فقتلت ١٧ شخصا منهم ١١ طفلا. وكتب أوليفيه روا يقول يعتقد بعض المحللين أنه في الوقت الذي كان فيه قادة حماس مستهدفين واصلت إسرائيل سياستها القديمة القائمة على الترويج لحماس ضد الفصائل القومية كوسيلة للقضاء المبرم على السلطة الفلسطينية والقضاء على التيار القومي الفلسطيني إلى الأبد.(٦٠) واغتال الجيش والمخابرات الداخلية في إسرائيل أحمد ياسين وعدد من كبار المسئولين في حماس في عام ٢٠٠٤. لكن حماس استمرت في النمو. وفي عام ٢٠٠٤ أعلن شارون عن نيته الانسحاب جزئيا من قطاع غزة. وبعد سنوات من أعمال

العنف في القطاع كان لحماس أقوى وجود فيه على الأرض وإذا انسحبت إسرائيل ستلعب حماس دور القوة الرئيسية في غزة خاصة في ظل الفراغ الذي خلفه موت ياسر عرفات.

تعكس قصة حماس- من التجارب الإسرائيلية إلى تعهد عرفات بوقف العنف ضد إسرائيل في غزة والقطاع - صورة التوسع في الإسلام السياسي من الستينات إلى التسعينات وما بعدها. وتعتقد إسرائيل أن نمو وتحول حماس على مر تلك العقود كان زلزالا. ويشير العديدون في إسرائيل إلى أن الإسلام السياسي ليس قوة يمكن العبث بها أو معها. لكن تحول الحركة الإسلامية الفلسطينية إلى التشدد لم يكن زلزالا بقدر ما كان هزة تابعة. الزلزال الحقيقي هو الذي هز إيران عام ١٩٧٩ وأطاح بالشاه وأدى إلى إقامة الجمهورية الإسلامية الإيرانية. هذا الحدث حول التشدد الإسلامي من لا دولة إلى حكومة لواحدة من أقوى الدول في المنطقة والهب حماس اليمين الإسلامي في الشرق الأوسط.

بالنسبة لأمريكا ربما يكون استغلال التشدد الإسلامي ضد سوريا ومنظمة اتحرير الفلسطينية أمرا هينا لكن التحول الذي وقع في إيران، أحد القطبين المهمين لأمريكا في الخليج كان ضربة في صميم المصالح الأمريكية في المنطقة. ولأول مرة، وبعد الثورة الشيعية في إيران تحركت أمريكا لإلقاء نظرة جادة لترى ما إذا كان الإسلام السياسي سلاح ذو حدين يمكن أن يشكل خطرا جسيما على الغرب.

الفصل التاسع

جحيم آية الله

لم تشعر الولايات المتحدة بالصدمة من أي ثورة كما شعرت بالثورة الإيرانية عام ١٩٧٩. لوهلة بدا أن موقف أمريكا في الشرق الأوسط يمكن أن ينهار وأن السعودية والخليج سيقعان فريسة للثورة كما وقعت إيران وأن الملكيات العربية من الأردن إلى المغرب أصبحت في خطر. أمر المسئولون الأمريكيون المخابرات في ذعر تحديد ما إذا كانت الثورة الإيرانية الإسلامية قد تنتشر واستخدمت الحكومة الأمريكية فريقا من الخبراء في الإسلام للتحليل والتوقع. وشعر المسئولون في الأمن القومي الأمريكي بالقلق من أن خط الدفاع على حدود الجناح الواقع جنوب الاتحاد السوفيتي قد تعرض للاختراق وأن الاتحاد السوفيتي سيستغل هذا الاختراق والانهيار في إيران لدخول المنطقة والتغلغل في مجال نفوذ أمريكا.

ولأول مرة أصبح الإسلام السياسي في بؤرة الضوء وسوف تكون العواقب وخيمة. في إيران وأفغانستان وباكستان وفي الدوائر المحيطة لم يعد اليمين الإسلامي قوة هامشية لكنه القوة المحركة وراء عمليات تحول كبيرة في المنطقة. ولمن يحلل الصورة الأكبر لم يعد من صعبا تصور مجموعة من الأنظمة الإسلامية من شمال أفريقيا عبر مصر إلى السودان إلى سوريا والعراق إلى السعودية إلى باكستان إلى أفغانستان. لكن عندما انقشع الغبار تماسك الموقف الأمريكي. فقدت أمريكا، أو هكذا بدا، نفوذها في إيران، لكن بقية الإمبراطورية ما زالت تحت السيطرة. يبدو أن الفيروس الإيراني لم ينتشر باستثناء السودان الدولة الهامشية التي استولى اليمين الإسلامي على السلطة فيها في الثمانينات. وعادت الأمور لمجاريها في الشرق الأوسط بالنسبة للكثير من صناع السياسة والمتخصصين. واعتبرت أمريكا الثورة الإيرانية حدثا استثنائيا وفيما اعتبرت إيران ذاتها تهديدا إقليميا لم تنظر أمريكا إلى اليمين الإسلامي على أنه عدو حقيقي. وحافظت الولايات المتحدة على علاقاتها الوثيقة مع السعودية وباكستان معقلي الإسلام السني المتشدد، بما في ذلك العلاقات السرية. تفاقمت الصحوة الإسلامية ضد سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية في الثمانينات ولم يسبب ذلك أي قلق للدوائر السياسية الأمريكية. وأنفقت أمريكا في الثمانينات ٣ مليارات دولار لدعم المجاهدين في أفغانستان

الذين كان من الصعب تحديد أهدافهم السياسية أو تمييزها عن أهداف آيات الله في إيران. ومع ذلك استمر التحالف بين الأمريكيين واليمين الإسلامي.

وحاولت أمريكا بمختلف الوسائل أيضا أن تجري اتصالات مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية. وحاول الليبراليون في حكومة كارتر أن يكونوا علاقات صداقة مع الإسلاميين المعتدلين المتعلمين في أوربا المحيطين بأية الله الخميني ممن يرتدون البزات وليس القفطان. وحاول المحافظون الجدد في أمريكا بما فيهم مسئولون في حكومة ريجان التواصل مع رجال الدين في القلب وآيات الله في مدينة قم أصحاب السلطة الحقيقية في إيران. غير أن كل تلك المحاولات لم تفلح وسوف تكون إيران في ربع القرن التالي شيطان السياسة الأمريكية.

أذهلت الثورة الإيرانية أمريكا وجعلتها تتخبط. وكانت سياسة أمريكا منذ السبعينات مرتبكة ومترنحة ومشوشة وفي أغلب الأحوال غير طبيعية نحو رجال الثورة الإيرانية، وذلك منذ الإرهاصات الأولى للثورة أي منذ الانتفاضة وسقوط الشاه والوقوف على شفا الحرب الأهلية التي أحاطت بإيران حتى ١٩٨١ و تماسك النظام الديني في الثمانينات.

أولا أظهرت واشنطن اعتمادا كبيرا على الشاه الذي وثقت فيه ثقة عمياء. وخلال السبعينات قالت تقارير المخابرات أن نظام الشاه في أمان وتواصلت تلك التقديرات المتفائلة حتى عشية الثورة مما أدى بالعديد من صنع السياسة الأمريكيين إلى الاعتقاد بأن الشاه ليس في خطر حقيقي. وتغاضت التقارير عن الحركة الإسلامية في إيران أو ذكرتها بشكل هامشي. كانت مساعدة المخابرات للإسلاميين في عام ١٩٥٣ قد أصبحت تاريخا منسيا وفي العقود التالية همش الشاه آيات الله ونفى البعض منهم بما فيهم خامنئي واشترى آخرين بالمال. وتغاضت الخارجية الأمريكية والمخابرات عن تطورات هذه الفترة المتعلقة بأوضاع رجال الدين في إيران والتي جرت على نحو كان يناسب الشاه تماما. وقد عارض الشاه إجراء اتصالات بين أمريكا ورجال الدين حتى آيات الله الذين كانوا يتلقون أموالا منه.

لكن بعد أن شكلت حكومة كارتر فريق الأمن القومي في عام ١٩٧٧ بدأت الحكومة تضغط على الشاه الإيراني لإجراء إصلاحات وأجرت نوعا من الاتصالات المكثفة شبه السرية مع مجموعات المعارضة الإيرانية بما فيها كبار القادة الدينيين. وأدى ذلك إلى إضعاف عزم الشاه وتشويش نظامه وتمكين اليمين الإسلامي من الطفو على السطح. ولم يكن هدف أمريكا من تلك الاتصالات قيام الثورة لكن ما تمنى الكثيرون وجوده ممثلا في ملكية دستورية تتمتع بالاستقرار وذات اتجاه موالي للولايات المتحدة. وكان من أسباب تلك الجهود انتشار شائعات، يبدو أن تقارير المخابرات الأمريكية كانت وراءها، بأن الشاه كان مصابا بالسرطان. (وكان مصابا به فعلا وتوفى بسببه في عام ١٩٨٠). ويبدو أن الذين تبنوا تلك السياسة اعتقدوا أن الشاه قوى بدرجة كافية لقيادة المرحلة الانتقالية بسلام وانه سينتج عنها مزيد من السلطة للنخبة الإيرانية المثقفة والورثة المتداعيين لجبهة محمد مصدق الوطنية والتكنوقراطيين، وبعض العناصر الشيعية المعتدلة.

لكن ما لم يلاحظه الأمريكيون هو أن الحركة المناهضة للشاه سوف تتعزز باليمين الديني والأكثر منه آية الله الخميني القوي الذي تشبه شخصيته شخصية لينين. وخلال الثورة ذاتها خاصة من نوفمبر ١٩٧٨ إلى استيلاء الخميني على طهران في فبراير ١٩٧٩، سقطت حكومة كارتر في حرب داخلية مريرة حيث كان يصر البعض على أن أمريكا لابد أن تؤيد عملا عسكريا دمويا ضد الثورة. خلال تك الأشهر الأربعة الحيوية لم يكن لدى أمريكا أي نوع من السياسة وعلى أي حال كان الأوان قد فات على تغيير مسار الأحداث. هرب الشاه وسقطت حكومته وولدت الجمهورية الإسلامية الإيرانية. والذين قالوا بالتخلي عن الشاه كانوا قد قللوا بالفعل من حجم الثورة الإسلامية والآن يعولون على ظهور نظام ديموقراطي بديل في صورة إسلامية لكنه لن يكون دكتاتوريا. والذين أيدوا القيام بانقلاب كان سيسبب موت عشرات الآلاف قللوا أيضا من تقدير قوة حركة الخميني. وكانت وجهة نظرهم دائما مشوبة باعتقاد صارم لكن لا أساس له بأن الاتحاد السوفيتي وراء ما يحدث في إيران. كيف يمكن لحليف لأمريكا مثل الشاه أن يسقط إذا لم تكن موسكو وراء سقوطه؟.

ولم تتبن أمريكا أي سياسة أكثر وضوحا بعد الثورة. كان لديها عدد قليل من الخبراء في الحركة الإسلامية الإيرانية. ولم يكن الدبلوماسيون الأمريكيون الذين ذهبوا إلى إيران عقب الثورة متخصصين في الشئون الإيرانية ولم تكن معرفتهم بالإسلام وثيقة ولم يعرفوا أيضا بالخميني ومن حوله. وعمل الكثير منهم بجد لتنفيذ السياسة الرسمية محاولين التوصل إلى موقف وسط مع الجمهورية الإسلامية لكن تلك السياسة انهارت عندما أغار الشعب على السفارة الأمريكية في نوفمبر ١٩٧٩. لقد تم إقالة الشخصيات المتعلمة في الغرب الذين يرتدون البزات ويعملون مساعدين للخميني في الثورة الثانية التي تبعت احتلال السفارة الأمريكية وأكد رجال الدين في قم والخميني بهذا المسلك أن النظام أصبح نظاما دكتاتوريا.

في ذلك الوقت لم يكن المتشددون في السياسة الأمريكية مستعدين للتخلي عن إيران وقد اعتبر البعض منهم أن التوجه الديني الإيراني يشكل تهديدا للاتحاد السوفيتي. وعول هؤلاء على خوف إيران من جارها الشمالي أو الاتحاد السوفيتي وعلى عداء الإسلاميين للشيوعية باعتبار أن ذلك يمكن أن يدفع إيران إلى اتفاق مع أمريكا. ورأى مؤيدو إسرائيل، فضلا عن إسرائيل ذاتها بالطبع أن آيات الله في إيران المتشددين يمكن أن يكونوا حلفاء المستقبل. وحتى خلال أزمة السفارة الأمريكية وجه ريجان والمحافظون الجدد إيماءات إلى آيات الله.

وفي منتصف الثمانينات انضم المحافظون الجدد و المخابرات الإسرائيلية والكولونيل أوليفر نورث من مجلس الأمن القومي إلى مبادرة سرية من جانب بيل كيسي مدير المخابرات الأمريكية ترمي إلى محاولة الاتصال بعلي أكبر رافسنجاني الرجل القوي في إيران (*). وحققت الثورة الإسلامية في إيران ما يتجاوز الإطاحة بالمؤيدين من أهم مناطق النفوذ الأمريكي في المنطقة. وأدت الثورة إلى بلورة تغير جذري في شخصية اليمين الإسلامي وكان هذا التغيير يتشكل منذ ظهور الإخوان المسلمين قبل عقود من الزمان. أصبح اليمين الإسلامي أكثر ثقة في نفسه بعد اكتسابه للقوة في

* على ضوء التطورات التي جرت في إيران مؤخرا إثر الإنتخابات الرئاسية والتي فاز فيها نجاد بشكل إنقسم معه الإيرانيون إلى فريقين يترأس أحدهما رافسنجاني في مواجهة خامنئي الممثل الرسمي للنظام هل يمكن القول بأثر رجعي أن جهودا مثل تلك لاستمالة رافسنجاني قد أتت أكلها؟.

السبعينات وتحول بعضه إلى التشدد وبدأت العناصر الجديدة الميالة إلى العنف على غرار نظيرتها التي تشكلت في السر في مصر تتحدى الأنظمة الموالية لواشنطن واكتسب حزب الله "الإرهابي"(*) قوة في لبنان. حتى الجماعات الإسلامية الأخرى استلهمت المثال الإيراني واكتسبت المنظمات ذات العلاقة مع الإخوان المسلمين طابعا سياسيا أكثر وضوحا. كانت الأخطاء التي ارتكبتها أمريكا خلال وبعد الثورة الإيرانية درامية وفظيعة إلى أقصى حد. ويقع جزء كبير من اللوم على نظام المخابرات والمعلومات الأمريكي.

كان سقوط الشاه أكبر فشل ذريع للمخابرات الأمريكية منذ هجوم بيرل هاربر إلى هجوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وفيما كانت أمريكا تواقة إلى دعم الجهاد الإسلامي في أفغانستان وتوصلت إلى دعم الملالي المعتدلين في طهران لم ينظر أحد في الجهاز المخابراتي الأمريكي إلى الصورة الأكبر. بالنسبة للشعب الأمريكي يمثل آية الله الخميني اسود العينين ظهور قوة تهديد جديدة على الساحة العالمية. لكنه بالنسبة إلى الدبلوماسيين الأمريكيين وضباط المخابرات لا يزال الإسلام السياسي اليميني غير مفهوم على الإطلاق. حتى عندما عبر الإسلاميون عن قوتهم في أحداث العنف في مكة والحرب الأهلية في سوريا واغتيال السادات، أخفقت أمريكا في تفهم دلالات تصاعد اليمين الإسلامي. وحتى بعد أحداث إيران لم ينظر الأمريكيون إلى التشدد الإسلامي على أنه حركة عالمية مرتبطة بروابط الأخوة، بل على أنه حركة إيديولوجية منقسمة بين بلد وآخر. واعتقد الساذجون أن إيران حالة فريدة عبارة عن ديكتاتورية محافظة سقطت لصالح تشدد شيعي غريب لن يكون له أي صدى أو تأثير على الغالبية الإسلامية السنية. واعتقد ساذجون آخرون بطريق أكثر خطورة أن الإسلاميين على الطريقة الإيرانية والإخوان المسلمين يمكن تعبئتهم في أفغانستان ووسط آسيا واستغلالهم كوسيلة للقضاء على الاتحاد السوفيتي.

* بافتراض صحة ما يشير إليه المؤلف وهو غير كذلك، فألا تقتضي منه الموضوعية الإشارة الى الظروف التي نشأ بسببها الحزب والتي تجعل منه حركة مقاومة ضد الإحتلال الإسرائيلي، حتى يمكن أن يكتسب منطقه قدرا من المصداقية

وبرغم العداء الإسلامي لأسريكا فإن كبار المسئولين من مستشاري جيمي كارتر للأمن القومي مثل زبغينو بريجنسكي ومدير المخابرات في عهد ريغان مثل بيل كيسي اعتقدوا اعتقادا جازما بأنه يمكن مواصلة العمل على أساس أن الإسلام السياسي مجرد جندي شطرنج آخر على اللوحة التي يسميها بريجنسكي "اللوحة الكبرى".

عودة آية الله

في الثاني من فبراير عام ١٩٧٩ بعد يوم واحد من انتصار الخميني بعودته إلى إيران أرسل جورج لامبراكيس المسئول الكبير في السفارة الأمريكية في طهران، برسالة مطولة إلى واشنطن قال فيها إنه تأمل في دلالات استيلاء الخوميني وزمرته على طهران ولم يكن يبدو أنه شديد القلق. وكان تقديره، الذي يستحق نقله حرفيا، يبين كيف أن أمريكا قللت من قدر حركة الخميني إلى أقصى حد قبل أيام فقط من سيطرة الخميني على إيران. وقال في رسالته: "أفضل تقدير لنا حتى الآن هو أن الحركة الشيعية الإسلامية جيدة التنظيم حتى الآن ومتنورة وتستطيع مقاومة الشيوعية أكثر مما نعتقد. إنها متجذرة في الشعب الإيراني أكثر من أي إيديولوجية غربية بما فيها الشيوعية. غير أن إجراءات ولوائح تطبيق الحكم الشيعي ليست واضحة وربما لم يتم وضعها بعد، غير أن وضعها موضع التطبيق على الأرض قد ينتج حالة قريبة من العملية الديمقراطية الغربية أكثر مما قد يبدو عليه الأمر للوهلة الأولى".

إن المؤسسة الدينية ليست ضعيفة أو جاهلة مثل حركة الشاه وسوف يلاحظ المراقبون الغربيون ذلك. المؤسسة الدينية تتحكم في عواطف الناس وأموال السوق أكثر من أي جماعة أخرى. وتؤيد المؤسسة الدينية بطرق مختلفة وجهة نظر إيران الإصلاحية التقليدية التي تجتذب عددا أكبر من غالبية الإيرانيين في الوقت الحالي أكثر من نماذج مثل الشيوعية المتمثلة في الاتحاد السوفيتي والصين. ومن جانب آخر ليس من المضمون أن يعمل النظام بآلية برلمانية كما نفهمها في الغرب. ويمكن أن يقوم مجلس إسلامي بممارسة السلطة. ورغم أن تشكيل هذا المجلس ليس واضحا حتى الآن فإن برنامج الحركة والقادة السياسيين تحت قيادة رجال الدين يبدو أنه من المقدر له أن يلعب

دورا حيويا في تشكيل وتنفيذ سياسة الحكومة. ولدينا شك في أن المؤسسة الإسلامية يحتمل ألا تكون قادرة على تجنب وضع بعض اللوائح التي تتفق مع الأفكار الغربية للحكومة التي يسيطر عليها العديد من الشخصيات في الحركة المعارضة."(١)

عاد الخميني إلى إيران قادما من باريس في أول فبراير، أي قبل يوم واحد من كتابة رسالة لامبراكيس. وبعد تسعة أيام انهارت حكومة إيران المؤقتة وكون رجال الدين نظاما ديكتاتوريا استمر أكثر من ربع قرن. ورحب الرئيس كارتر بالحكومة الإيرانية الجديدة واتصل متفائلا بقادتها لكن من سوء الحظ أنه في ١٤ فبراير استولى الغوغاء المتأثرين بالخميني على السفارة الأمريكية في طهران ولم ينسحبوا إلا بعد مفاوضات مكثفة. وبعد تسعة أشهر أغار غوغاء من نفس النوع على السفارة وحجزوا رهائن أمريكيين لأكثر من عام في أكثر الأزمات الدبلوماسية حدة في التاريخ الأمريكي. وعندما انتهت تلك الأزمة حكم الخميني وحده بلا منازع وأصبح دكتاتور ايران. إلى أي مدى كان لامبرسكي مخطئا؟ ولماذا يعتقد مسئول أمريكي كبير، وهو ليس وحده، أن الخميني وزمرته الدينية سيتركون السلطة لقادة سياسيين بدلا من رجال الدين؟ ولماذا يصف المسئول حركة الخميني بأنها متنورة؟ ولماذا يتوقع أن تكون "العملية قريبة من الصورة الغربية في الحكم"؟

هناك العديد ممن لابد أن يلقى عليهم اللوم. لم تستطع وزارة الخارجية أو المخابرات أو مراكز الفكر والبحث في الخارجية أو الأساتذة الأكاديميين المتخصصين أن تفهم إيران بالطريقة الصحيحة. لكن غالبية اللوم ينبغي أن يقع على عاتق الحكومة لأنها مزجت بين الجهل الأعمى بإيران والإهمال الجسيم. لكن الجهل الأعمى انتشر وامتد إلى العديد من الأكاديميين الأمريكيين المتخصصين في الشئون الإيرانية. كان هناك العديد من الخبراء والمتخصصين والمخابراتيين – جيمس بيل مارفن رونيس من جامعة تكساس وريتشارد كوتام من جامعة بيتسبرج والضابط السابق بالمخابرات - مجرد مستشارين شبه رسميين للبيت الأبيض ووزارة الخارجية خلال ٧٨ – ١٩٧٩. ويقال أن جيمس بيل صاحب كتاب "الصقر والأسد" والذي جرى الاحتفاء به في مجلة "فورين آفيرز" وينظر إليه باعتباره من أهم الأعمال في العلاقات الإيرانية الأمريكية

رسم الجزء الأكبر في السياسة الخارجية الأمريكية، لكنه لم يستطع أن يفهم الإشارة (بخصوص إيران). حتى عندما زأر الخميني ضد الشاه من العراق ثم من فرنسا وحمل الغوغاء صورته في الشوارع في كل المدن الإيرانية الرئيسية كتب جيمس بيل تحت عنوان "إيران والأزمة في ١٩٧٨" يقول: البديل الأكثر احتمالا إذا سقطت أسرة بهلوي بالقوة والعنف هو الجناح اليساري وهو جماعة تقدمية من ضباط الرتب المتوسطة في الجيش وسيتولون السلطة. والاحتمالات المستقبلية الأخرى تشمل العسكريين من الجناح اليميني وهي حركة ديمقراطية تقوم على الأسس الغربية، وحكومة شيوعية.(٢)

ولم يذكر بيل حتى ضمن احتمالاته الجمهورية الإسلامية رغم أنه من الواضح جدا أن آية الله الخميني زعيم الثورة المعترف به. ولم يكن بيل، أحد المتخصصين المهمين الأمريكيين في الشئون الإيرانية، الوحيد الذي أخطأ قراءة المستقبل الإيراني. فعندما اجتاحت الثورة إيران في نوفمبر ١٩٧٨ عقد اجتماع على مستوى رفيع في الخارجية الأمريكية، بهدف تحليل الأزمة المتفجرة. وحصل هنري بيرش مسئول الشئون الإيرانية في الخارجية الأمريكية، برغم كل المعلومات المتاحة له، على تحليله من حفنة من الطلبة التي التقاهم قبل ليلة من الثورة وقال: في أواخر نوفمبر ١٩٧٨ استدعينا كل الخبراء في الشئون الإيرانية من المسئولين الذين خدموا هناك وغيرهم من أجل مناقشة ما يمكن أن نفعله وما يحدث هناك. وقبل ليلة واحدة ألقيت محاضرة في الجامعة الأمريكية وكان هناك عدد من الطلبة الإيرانيين بين الحضور. وعندما سألتهم عما يحدث في إيران قالوا جميعا "حكومة إسلامية". وفي اليوم التالي في اجتماعنا جبنا الغرفة جميعا ونحن نتبادل الأفكار عما سيحدث. وكان أناس يقولون أشياء مثل "سيكون هناك حكومة ليبرالية، مع الجبهة الوطنية وسوف يذهب الخميني إلى قم" . وعندما تحدثت أنا قلت "حكومة إسلامية" وكنت الوحيد الذي قال ذلك.(٣)

لا يمكن النظر إلى خطأ فهم إيران من جانب أمريكا إلا على أنه إهمال جسيم وإخفاق ذريع. لكن الإخفاق لم يكن بسبب نقص المعلومات لأن الثورة كانت تندلع في الشوارع والخميني لم يكن ممثلا غير مرئي. لكن أمريكا التي تثق ثقة عمياء في شاه إيران، كانت مقتنعة بالاستقرار في البلاد ولم تشك أن هناك ثورة. وحتى عندما

استجمعت الثورة قوتها وبدا من الواضح جدا أن الشاه لن يستمر، رفضت أمريكا تصديق أن الخميني ورجال الدين من حوله سوف يستولون على السلطة لأنفسهم وفضلت الاعتقاد بأن نوعا من الديموقراطية الهجينة بين الدينية والعلمانية سوف يبزغ من الفوضى التي تلي سقوط الشاه. وصل توماس أهيرن مسئول المخابرات الأمريكية في إيران عام ١٩٧٩ بعد أشهر من الثورة ووقع رهينة في أيدي الغوغاء الموجهين من الخميني الذين احتلوا السفارة الأمريكية يوم ٤ نوفمبر وقضى ٤٤٤ يوما في الأسر. ويقول أهيرن إن الثورة كانت واضحة ولابد أن نكون رأيناها كما وضحت لأي من ينظر من النافذة عام ١٩٧٨.

ويذكر أهيرن أنه عندما عاد إلي مقر المخابرات عام ١٩٨١ بعد إطلاق سراحه كانت المخابرات تلعق جراحها لفشلها في توقع الثورة. وقال إنه بعد عودته كان هناك مسئول كبير في قسم الشرق الأدنى يندب إخفاق المخابرات في توقع سقوط الشاه. وقال أهيرن أنه نظر إليه وسأله إذا كان يراقب ما يحدث في الشارع. وأضاف أهيرن أن المخابرات تعاملت مع مشكلة إيران ما قبل الثورة بطريقة الجاسوسية التقليدية وحاولت اكتشاف الأسرار عن حركة الخميني ومدى استقرار الشاه، لكنها أخفقت في الاستدلال على الحقائق من الأحداث التي تجري في الشئون الحياتية اليومية ولذلك التزمت بتوقعاتها التي تبدو أكثر أمانا بأن الشاه سوف يستمر. وقال أهيرن انضممنا إلى بقية جهاز الحكومة في إبلاغ البيت الأبيض بما يريد أن يسمعه وهو أن هناك بعض الضوضاء فقط وأن الشاه بخير وأن دعم الولايات المتحدة سيساعد الشاه على تجاوز العاصفة. كان هناك إخفاق على مستوى العمل حتى أنه لا يمكن التحدث بالحقيقة إلى السلطة.(٤)

وفي السبعينات استقرت السلطة في أيدي أربعة فصائل في دوائر السياسة الأمريكية حاولت الاتصال بإيران بعدة طرق كل بطريقته، لكنها لم تر انتصار الخميني المقبل. بالنسبة لكل من تلك الفصائل كان الخميني اختبارا عسيرا، شخصية غامضة يمكن لأي متخصص في الشئون الإيرانية وكبار صناع القرارات السياسية أن يروا ما يحبون أن يروه فيه. وأخفق الجميع وساعدوا الخميني على النجاح بخطأهم.

كان أول فصيل بقيادة كيسنجر هم الواقعيون الذين قدموا الاستشارات للقيادة السياسية الأمريكية بشأن إيران في النصف الأول من العقد. كان الخميني بالنسبة لهؤلاء غير مرني بالمرة. قضى هذا الفريق فترة السبعينات يحولون إيران إلى قوة إقليمية، ورجل شرطة الخليج، وحائط الصد الأمريكي ضد الاتحاد السوفيتي والقومية العربية. وكان حلفاء هذا الفريق مسئولي المخابرات من ريتشارد هيلمز رئيس المخابرات الذي عمل سفيرا في إيران في عام ١٩٧٣ والذي كان زميل دراسة للشاه في سويسرا في الثلاثينات، إلى مخضرمي المخابرات في عام ١٩٥٣ بما فيهم الأخوة روزفلت وهم كيرميت روزفيلت المنسق السري وارشي روزفلت عميل المخابرات المخضرم المسئول الكبير في بنك مانهاتن. قضى كل هؤلاء وشركات النفط والدفاع الكبرى سنوات يحولون إيران إلى مستعمرة أمريكية حقيقية خاصة في ظل حكم الرئيس ريتشارد نيكسون. وكانوا يغضبون من محاولات الشاه من حين لآخر التأكيد على استقلال إيران بعد أن زادت قوتها وكانوا يشعرون بالقلق من بذخ الشاه وجنون العظمة الذي يبدو عليه. وأبدوا غضبهم من استعداد الشاه لإبرام صفقات تجارية مع الاتحاد السوفيتي من آن لآخر.

لكن الأهم من ذلك كله أن إيران كانت تستضيف عشرات المستشارين العسكريين الأمريكيين. وكانت إيران السوق الأول للأسلحة الأمريكية الباهظة الثمن ويمكن اعتبارها حليفا لأمريكا في الحرب الباردة في كل مكان . وكان يعود على إيران فوائد وأرباح وفيرة لدى إقامة أعمال تجارية فيها وكانت رأس حربة أمريكية في قلب موارد النفط العالمية. وفي ظل حكومة كارتر كان ربيغنو بريجنسكي مستشار الأمن القومي أفضل من يمثل رؤية نيسكون وكيسنجر عن إيران .

كانت المجموعة الثانية من الليبراليين في حكومة كارتر وكانت تعتبر أن الخميني مرنيا وليس خفيا لكنه قوة غامضة ويبدو أنه أقل أهمية من مجموعة المثقفين واليساريين الليبراليين وناشطي الجبهة الوطنية السابقين. كان الليبراليون في واشنطن قلقون على الشاه ومن تكدس السلاح في إيران. وكان هؤلاء لا يحبذون رغبة نيكسون وكيسنجر في السماح للشاه ببناء جيشه بحرية كاملة كما كانوا غير راضين عن سجل

الشاه في حقوق الإنسان والطبيعة الشمولية للنظام. وكانوا يضغطون على الشاه من أجل تعزيز ليبرالية نظام حكمه تمشيا مع رغبة كارتر تعزيز حقوق الإنسان في الخارج. وكان البعض منهم يشعر بوضوح أن الإصلاح الكامل وحتى إنهاء نظام الشاه هو الهدف النهائي للسياسة الخارجية الأمريكية. وفي هذا الإطار كانت قوات الخميني لا تعتبر تهديدا بل حليفا مصغرا ضد الشيوعية في الحركة الإصلاحية الوطنية في إيران. كانت الخارجية تمثل هذا الفريق خاصة قسم إيران وفريق حقوق الإنسان.

الفريق الثالث هو المدافعين عن سيادة الحرب الباردة والقوة الأمريكية من اليمين المتشدد. الآن يطلق على هؤلاء المحافظون الجدد. وفي ظل حكومة كارتر كان اليمين غالبا في صف المعارضة وكان يلتف حول المرشح رونالد ريجان في أواخر السبعينات. لم يكن المحافظون الجدد، وهم أشد حلفاء إسرائيل التي بدورها تقع في صف واحد مع إيران ضد العرب، يشعرون بالقلق من ناحية الخميني.

ورغم أن هذا الفصيل أيد الشاه إلا أنه لم يكن يتردد في إقامة علاقات وثيقة لكنها سرية مع نظام الخميني بعد عام ١٩٧٩. وفي عام ١٩٨٠ انخرط فريق ريجان في مفاوضات سرية حول السلاح والرهائن مع آيات الله في جهد محسوب للإطاحة بكارتر فيما عرف فيما بعد بفضيحة "مفاجأة أكتوبر". وكانت إسرائيل تمد إيران بالمعلومات والسلاح خلال الحرب مع العراق. وتسببت إسرائيل والمحافظون الجدد إلى جانب كيسي في فضيحة إيران – كونترا حول مبيعات السلاح إلى نظام الخميني من جانب إسرائيل وأمريكا.

كارتر والشاه

تسبب تنصيب كارتر رئيسا لأمريكا في قلق للشاه وشجع المعارضة الإيرانية من المثقفين في الجبهة الوطنية إلى آيات الله في اليمين الإسلامي. كان تولي كارتر الرئاسة في ١٩٧٧ بالنسبة للإيرانيين أثارة لذكريات الفترة السابقة من العلاقات الأمريكية الإيرانية وليس الانقلاب الذي دبرته المخابرات الأمريكية عام ١٩٥٣ الذي أعاد الشاه أي السلطة، لكن إشارة إلى فترة الستينات عندما تلاعبت حكومة كينيدي بفكرة الإطاحة

بالشاه وإحلاله بنظام أقل شمولية. وركز البيت الأبيض في عهد كارتر على حقوق الإنسان وعارض العديد من المسئولين في الحكومة السياسة القديمة الرامية إلى بناء قوة الشاه. وتذكر الشاه ورجال الدين على السواء حكومة كينيدي وكانوا يعتبرونها سابقة في علاقات الولايات المتحدة مع الشاه. خلال حكم كينيدي كتب جون باولنج المتخصص في الشئون الإيرانية في الخارجية الأمريكية تحليلا عن قوى المعارضة الإيرانية وناقش مميزات تحول السياسة الغربية المؤيدة للقوميين اعتمادا على انقلاب مصدق.(٥) لكن الشكوك في الشاه لم تبدأ في عهد كينيدي وفق ما قاله مسئول مخابراتي سابق كان يشارك في تلك المناقشات. وكتب هذا المسئول يقول: "كان هناك جدل كبير في الحكومة الأمريكية والسفارة حول: تأييد الشاه أم حكومة وطنية؟. واستمر هذا الجدل منذ عام ١٩٥٨ تقريبا عندما استعادت الجبهة الوطنية قوتها. وكان السؤال هل نريد أن نزرع الشاه أم نؤيد الوطنيين. كان هناك حديث عن شيء مثل الملكية البريطانية على أن تكون السلطة الحقيقية في أيدي حكومة منتخبة. وفي النهاية اتخذ كينيدي القرار بتأييد الشاه على شرط أن يكون هناك إصلاحات حقيقية وأن يقبل الشاه على أميني رئيسا للوزراء.(٦)

وقال جيمس بيل في كتابه إن شكوك كينيدي بشأن الشاه كانت قوية لدرجة أنه اعتبر أن الإطاحة به بالقوة هي في صالح الحكم إلى أن يصل ابنه الصغير إلى السن القانونية التي يمكن أن يحكم فيها.(٧) ولم تتغير رؤى كينيدي بشأن الشاه من حيث المبدأ لكن المشكلة في بداية الستينات وأواخر السبعينات هي أنه لم يكن يوجد بديل خارج رجال الدين ليحل محل الشاه. فقدت الجبهة الوطنية تقريبا كل الدعم منذ أيام مصدق واقتصرت على الصالونات في طهران والحلفاء لها من المثقفين في أوربا الغربية.

وبذل الشاه جهودا غير متحمسة في مجال الإصلاح فيما اسماه بالثورة البيضاء وهو مدفوع إلى ذلك من الولايات المتحدة. وبدأ رجال الدين يقلبون الأمور بعد استعارهم بالدماء وبدأ اليمين الديني في الأحياء والمناطق البعيدة يعبأون الناس ضد الإصلاح الزراعي. وكان لرجال الدين علاقات وثيقة مع ملاك الأراضي الأثرياء. وبدأت أحداث العنف في العديد من المحافظات ضد الإصلاح الزراعي وكان المحرك الرئيسي لها هم

رجال الدين بقيادة روح الله الخميني الذي لم يكن قد أصبح آية الله بعد، لكنه أصبح شخصية رئيسية بعد إلقائه خطاب "ديماجوجي" في عام ١٩٦٣ يدين الشاه فيه. وأقام الخميني تحالفا مع تنظيمات إسلامية من أجل ترسيخ مكانته السياسية وكانت بقيادة أحد التجار الأثرياء ومن ثلاثة مساجد كبرى في طهران. وسوف يتحول العديد من حلفاء الخميني إلى زعماء للنظام في عام ١٩٧٩ وسيكونون من كبار المسئولين في حزب الجمهورية الإسلامية بما فيهم محمد حسيني بهيشتي.(٨) على صعيد الشاه فإنه كان يبدي ازدراء واضحا برجال الدين وفي ذلك الخصوص فإنه صب جام غضبه في يناير ١٩٦٣ في خطاب له على الخميني وزمرته.

وقال في الخطاب: "إنهم أغبياء في كل الأحوال ورجعيين لم يعملوا عقولهم من آلاف السنين. فمن يعارض الثورة البيضاء؟ الرجعية السوداء، الأغبياء الذين لا يفهمونها ولا تزال لديهم نوايا سيئة. هم الذين كونوا تجمعا صغيرا من حفنة من الملتحين والتجار الأغبياء من أجل أحداث ضوضاء. إنهم لا يريدون لهذا البلد أن يتطور".(٩)

هذا الحديث لم يرفع مكانة الشاه عند رجال الدين. في عام ١٩٦٣ ألقي القبض على الخميني من جانب السافاك (المخابرات الإيرانية). وسرت شائعات بأنه سيتم محاكمته ثم إعدامه. غير أن مثل هذه الخطوة كانت ستمثل المرة الأولى التي يتم فيها الأخذ بعقوبة الإعدام على واحد من آيات الله. وفي عام ١٩٦٤ تم نفي الخميني من إيران أولا ثم إلى تركيا ثم إلى العراق حيث استقر في مدينة النجف المقدسة حيث سيظل هناك إلى ١٩٧٨.

وتوقع الشاه ورجال الدين في عام ١٩٧٧ أن النظام الأمريكي الجديد قد يبدأ في الضغط على الملكية ويتيح الفرصة لرجال الدين لينظموا أنفسهم، كما حدث في عهد كينيدي. وقد حدث ذلك بالفعل. ويقول السفير الإيراني في لندن أن الشاه خشي أن يكون لدى جيمي كارتر انطباعات مثل تلك التي كانت لدى كينيدي.(١٠) ضرب الشاه بيد من حديد على أيدي المعارضة الدينية مرة أخرى في مطلع السبعينات وألقى القبض على العديد من حلفاء الخميني بما فيهم علي أكبر هاشمي رافسنجاني الرجل القوي مستقبلا في نظام الخميني. لكن انتخاب كارتر الذي طبق اهتمامه بحقوق الإنسان على إيران أثار

رجال الدين مرة أخرى. وفي مايو ١٩٧٧ زار سايروس فانس وزير الخارجية الأمريكي طهران ليرى الشاه. وبعد زيارة فانس انتشرت شائعات بسرعة في مزارع العنب الإيرانية بأن الشاه حصل على أوامر من واشنطن بأنه إما أن يعزز قواعد الليبرالية في البلاد وإما أن يتم عزله من الحكم، كما قال بيل الذي أضاف أصبح الأمر واقعا مقبولا في طهران فالمعارضة يمكنها أن تعمل الآن تحت مظلة حماية أمريكية فتحها سايروس فانس.(١١) (*)

ويقول تشارلز كوجان المسئول السابق في المخابرات الأمريكية الذي ترأس قسم الشرق الأدنى إن فانس توقع ثورة سلمية في إيران تؤدي إلى نظام قد يكون الخميني جزءا منه. ويقول كوجان أن فانس، ولنقل الخارجية الأمريكية بصفة عامة نظروا إلى احتمالات مستقبلية حول انتقال السلطة في سلاسة بحيث تتنازل الملكية عن بعض السلطة للمعارضين الذين لا يشملون الخميني وحده بل عدد من المعتدلين من حوله، وأن هذا السيناريو يمكن أن ينجح في التحول بإيران إلى نظام برلماني ملكي دستوري.(١٢)

واستجمعت المعارضة ضد الشاه قوتها ببطء تسارعت فيما بعد وفي الوقت ذاته بدأ مسئولو السفارة الأمريكية والمسئولين الزائرين والمخابرات والمبعوثون شبه الرسميون من واشنطن في إجراء اتصالات مع المعارضة. وتقول جوان كول أستاذ بجامعة ميشيجان الخبير في الشئون الإسلامية كان الشاه غاضبا جدا في أواخر السبعينات لأن شخصيات من المعارضة ورجال الدين كانوا يدخلون ويخرجون من السفارة الأمريكية.(١٣) وأكد هذا الرأي تشارلز ناس المسئول السياسي المخضرم في السفارة الأمريكية في طهران تحت رئاسة السفير بيل سوليفان.(*) كان سوليفان من أصل ايرلندي غليظ اللهجة خدم في عدد من المواقع الصعبة بما فيها لاوس خلال حرب المخابرات الخفية هناك. ووصل سوليفان إلى إيران عام ١٩٧٧ ليحل محل هيلمز. ويقول ناس إن سوليفان سعى بجرأة إلى إجراء اتصالات مع المعارضة المناهضة للشاه.

* واضح أن فكرة مظلة الحماية الأمريكية هي التي حكمت الأوضاع في المنطقة كذلك خلال فترة ما بعد الغزو الأمريكي للعراق والحديث من قبل إدارة بوش عن ضرورة تعزيز الديمقراطية في الوطن العربي حيث حدثت حالة من الاستقواء من قبل المعارضة في عدد من الدول العربية وبشكل خاص في مصر بالولايات المتحدة، غير أن هذه الأخيرة خذلت هذه القوى بالتخلي عن موقفها الداعم للديمقراطية الأمر الذي ارتبط أولا وأخيرا بمصالحها في المنطقة.

* سيناريو شبيه بما تخشاه عدد من الدول العربية في الوقت الحالي.

ويضيف "عندما خرج بيل سوليفان قلت له إنني لن أعمل في بلد لا أعرف شيئا عن السياسة فيه. وعندما وصل إلى هناك، حسب قول ناس، بدأ تشجيع القسم السياسي على الخروج والتقاء مزيد من الناس وتحدثوا إلى التكنوقراطيين وأعضاء الجبهة الوطنية بما فيهم قلائل متعاطفون مع الزعماء الدينيين".(١٤)

ويقول ناس إن الشاه كان على علم بأننا غيرنا رأينا وبدأنا تشجيع المعارضة وكتب الشاه في مذكراته "أراد الأمريكيون إقالتي ولم يخبرني أحد أبدا بشان النزاع داخل حكومة كارتر أو عن آمال بعض الأمريكيين في الجمهورية الإسلامية لتكون حائط صد ضد الشيوعية".(١٥)

كان اللاعب الرئيسي في رأب الصدع في الرأي بين الجبهة الوطنية العلمانية ورجال الدين هو مهدي بازارجاني مؤسس حركة التحرير وهي حزب ديني مؤيد لرجال الدين. كان لبازارجاني باع طويل في العمل مع رجال الدين وقدر له أن يكون أول رئيس وزراء لإيران بعد الثورة لكنه واصل حواراته المستمرة مع الخارجية الأمريكية والمسئولين في المخابرات. الحقيقة أن بازارجاني ذاته كان يمكن اعتباره إلى حد ما أحد الملالي أو "شبه ملا". ويقول مسئول سابق في المخابرات الأمريكية عمل في إيران إن بازارجاني كان بالفعل من آيات الله كما يقولون لكن بدون عمامة.(١٦) وقد سببت محاولات أمريكا الاتصال بالمعارضة حتما رعبا لدى الشاه لكنها شجعت المعارضة أيضا خاصة المعارضة الدينية. ويقول ناس: "فسر بازراجاني وغيره تلك الإشارات تفسيرا خاطئا وبعد الثورة قال لي بازارجاني: ليس لديك فكرة كيف تشجعنا بالرئيس كارتر." وكانت تلك من الإشارات الخاطئة.

وقد تابع فريدون هوفيدا السفير الإيراني في الأمم المتحدة حكومة كارتر وهي تتسبب في سقوط الشاه، وتكون تحالفا بين المعارضين الليبراليين وحركة بازارجاني الدينية ورجال الدين بقيادة الخميني، وبهذا الخصوص يقول السفير الإيراني إن الأمريكيين كانوا على اتصال مستمر مع الليبراليين في إيران بعد ١٩٧٧. وقالوا لهؤلاء الليبراليين خاصة بازارجاني والجبهة الوطنية أنه آن الأوان للخروج في اعتراض وتظاهر. هذا ما اعرفه ومتأكد منه. وقال بعضهم لي في ذاك الوقت إن الأمريكيين

يقولون لنا إنه وقت التظاهر والاعتراض وقلت للأمريكيين إن هذا لعب بالنار. إنكم تأتون بأسوأ أعداء الغرب".

ويتذكر أحد كبار المسئولين في الخارجية الأمريكية اجتماع في عام ١٩٧٧ استخدم خلاله فيه نفس الكلمات. ويشير إلى أن جيسيكا توشمان وآخرون في مجلس الأمن القومي أعربوا عن رفضهم دعم الشاه وعارضوا إمداده بالغاز المسيل للدموع لاستخدامه ضد المعارضة. ويضيف لقد قلت لهم أنكم لا تعرفون ما تتحدثون عنه. ليس لديكم فكرة عن الحراك السياسي في إيران لأنه لا أحد يعرف. إنكم تلعبون بالنار".(١٧)

المخابرات الأمريكية وإيران

تفجرت ثورة آية الله الخميني ببطء على مدى بضع سنوات. ولم يكن متوقعا منها تأثيرات إيجابية. وكانت عدة تقارير من المخابرات الأمريكية حول إيران تدور بعيدا عن الواقع تماما. ويقول تحليل عن الخارجية الأمريكية في عام ١٩٧٢ أنه حتى في ذلك الوقت اعتبر الدبلوماسيون أن الخميني يحمل قيما ليبرالية وإن لم تكن جذابة. وجاء في التقرير"يحرص شاه إيران على إبداء التمسك بالمشاعر الدينية والدفاع عن القضايا الإسلامية رغم أن هذه المشاعر غير قائمة بشكل يتجاوز المنطق الطبيعي للأمور لدى الإيرانيين. وليس لرجال الدين أي تأثير سياسي كبير. لقد كانوا على مر العقد الفائت يفقدون رونقهم أمام مد الدولة العلمانية. ومن المتوقع أن يقود الخميني الذي اعتقل ونفي إلى العراق عام ١٩٦٤ نتيجة لنشاطه المناهض للدولة، المسلمين في إيران لكن تعاونه الوثيق مع حكومة العراق في نشاط ودعاية مضادة للشاه يستبعد أي فرصة للمصالحة مع الشاه الحالي ويقلل من جاذبيته للعديد من المسلمين الإيرانيين الذين قد يشاركونه بعض القيم الليبرالية الأساسية."(١٨)

ويقول تشارلز ناس الذي عمل مديرا لقسم الشئون الإيرانية في الخارجية من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٨ ثم نائب رئيس البعثة الرسمية في طهران خلال الثورة إنه حتى ١٩٧٩ كان تحليل الحكومة الأمريكية لإيران ضعيفا جدا خاصة فيما يتعلق بتقديرات

المعلومات القومية التي يعدها مجلس المعلومات. وكان الرأي العام في ذلك الوقت بناء على تلك التقديرات والتقارير هو أن اليمين الإسلامي لا يمثل تهديدا للنظام. ولم يكن هناك تقارير عمليا عن الجماعات الإسلامية في البلاد لذلك أصابنا الفشل. وفي أغسطس ١٩٧٧ توصلت المخابرات من تقرير تقديرات المعلومات القومية بعنوان "إيران في الثمانينات" إلى أن الشاه سوف يكون ناشطا في الحياة الإيرانية خلال فترة الثمانينات ولن يكون هناك تغير جذري في السلوك السياسي الإيراني في المستقبل القريب. وبعد عام في أغسطس ١٩٧٨ توصل تقرير مخابراتي آخر إلى أن إيران يبدو أنها متجهة إلى انتقال سلطة سلمي إذا ترك الشاه المسرح. وقالت المخابرات: "إن إيران ليست في وضع ثورة أو حتى ما يسبق الثورة."(١٩)

وبحلول ١٩٧٨ كتب الرئيس كارتر الذي كان يشاهد تفتت إيران على التلفزيون، إلى أجهزة الأمن القومي يقول إنه غير راض عن نوعية المعلومات السياسية التي يحصل عليها عن إيران.(٢٠) لكن المخابرات، التي لا يوجد بها خبراء في الشئون الإيرانية أو من يتحدثون اللغة الفارسية أو خبراء في الإسلام، لم تستطع أن تحسن نوعية عملها. كان الأدميرال ستانسفيلد تيرنر مدير المخابرات في عهد كارتر ويقول لم يكن الإسلام كقوة سياسية على شاشات رادارنا (تحت ملاحظتنا) ولم تكن جماعة المعلومات والمخابرات مستعدة لفهم الإسلام. لم نقلل من قيمة إمكانيات الخميني بشكل كبير(٢١) فحسب بل كان الأمر أسوأ من هذا بكثير. لم يكن هناك أي شخص في حكومة كارتر، باستثناء حفنة قليلة من المتخصصين في الشؤون الإيرانية، لديه أدنى فكرة عن شخصية الخميني حتى فات الأوان. ويتذكر هنري بريخت الذي كان مسئول قسم إيران في الخارجية عام ١٩٧٨ أنه تلقى رسالة من طهران في خضم الثورة. ويقول بريخت: "تلقت الوزارة رسالة من السفارة في طهران عرفت الخميني باسم "زعيم ديني إيراني". وتعريف الرجل بهذا الشكل للقادة في واشنطن يعني أنه لم يكن هناك معرفة بتلك الشخصية."

ورغم أن آلاف الأمريكيين كانوا مقيمين في إيران، فضلا عن وجود مركز رئيسي للمخابرات الأمريكية إلا أن الكثير منهم لم يكن ملما بالثقافات الفرعية

والممارسات الدينية غير الظاهرة وقوى المعارضة. ويشير المسئولون الأمريكيون الذين كتبوا مذكرات عن الثورة الإيرانية إلى أن أمريكا اعتمدت على الشاه والدائرة الداخلية لمعلوماته في السياسة الداخلية الإيرانية. ويرجع هذا لأسباب منها، أن أمريكا كانت تثق في الشاه ضمنا وتعتقد أن أجهزة مخابراته ومعلوماته الأمنية لا تخطيء، ومنها أن الشاه كان يرفض أي اتصالات مع رجال الدين والمعارضة. ويقول والتر كاتلر الدبلوماسي الأمريكي الذي خدم في مدينة تبريز ثاني أكبر المدن الإيرانية، حتى في ذاك الوقت كان من الصعب جدا إجراء اتصالات مع رجال الدين. وقال عندما كنت في تبريز قدموني للحديث مع أحد رجال الدين لكنه كان هناك تعليمات واضحة من الشاه تقول "لا تعبث مع العناصر الدينية".(٢٢) كان للسافاك وجود جيد وبحلول السبعينات عندما أقام نيسكون وكسينجر علاقة مع الشاه لم تشجع واشنطن المسئولين الأمريكيين على إجراء اتصالات مع المعارضة والعناصر الدينية.

كان المركز الكبير للمخابرات الأمريكية في إيران يركز كليا على قضايا الحرب الباردة ويتابع العناصر السوفيتية في إيران ويشرف على جهاز المراقبة الأمريكية الذي يستهدف الاتحاد السوفيتي من شمال إيران. وقل مسئول كبير من المخابرات الأمريكية كان يعمل في إيران إن الشاه كان حليفا ولا يريد الجواسيس الأمريكيين يتعاملون مع رجال الدين لذلك كانت المعارضة الدينية خارج الحسبان.(٢٣) وأشار بريخت إلى أنه تم متابعة الاتصالات الأمريكية مع رجال الدين بعناية وحرص شديدين من جانب المخابرات الأمريكية. ويقول بريخت ذات مرة رتب المسئول السياسي في السفارة لقاء مع أحد رجال الدين وتلقى السفير الأمريكي مكالمة من وزير الداخلية الإيراني يقول فيها إن المسئول السياسي رتب للقاء هذا الشخص وأضاف "لا نعتقد أن تلك فكرة جيدة".(٢٤)

غير أنه اعتبارا من منتصف السبعينات بدأت الأمور تتصاعد، عن بعد في البداية، من جانب المخابرات الأمريكية. ويقول العديد من المسئولين الأمريكيين أول من شعر بأن هناك قلاقل هم البريطانيون، الذين يعتمدون على وجودهم من قرون في البلاد، والإسرائيليون الذين كانت مخابراتهم متغلغلة وسط التجار. ويقول بريخت إن أفضل

مصدر له كان البريطانيون فكان لديهم معلومات أوفر وأكثر عمقا وكانت تقاريرهم وتقديراتهم غير متفائلة. وكانت إسرائيل كذلك أيضا. شعروا بأن الشاه انتهى قبل أن تشعر أمريكا بذلك بكثير. وفي عام ١٩٧٦ تقريبا عندما كان بريخت بصحبة عضو من مجلس الشيوخ في جولة في إيران بدأوا بخطاب قصير من السفير هيلمز الذي أبلغ عضو مجلس الشيوخ أن إيران آمنة. وقال بريخت أنهم ذهبوا للقاء يوري لوبراني الذي يمثل إسرائيل في إيران وقال الأخير أن الشاه يواجه مشكلة خطيرة من المعارضة الدينية. وكانت تلك أول مرة نسمع فيها ذلك. لم يكن أحد في السفارة يقول هذا. وبعد عامين كما يقول بريخت أصبحت التحذيرات من جانب إسرائيل أشد نبرة وعجلة. ويضيف بريخت "جاء ضابط المخابرات الإسرائيلية في ١٩٧٨ ليقابلنا في الخارجية وقال لنا- لقد أصبحنا بالفعل في فترة ما بعد الشاه - وينبغي أن نجهز أنفسنا".(٢٥) في نفس الوقت كان غالبية المسئولين الأمريكيين يعتقدون أن الشاه سوف ينجو من العاصفة.

ومع منتصف السبعينات بدأ صناع السياسة والمخابرات يعترفون بأن الشاه سوف يسقط. ويقول هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية للشرق الأدنى وجنوب آسيا: "يمكن أن تنظر إلى ما جرى خلال عامي ١٩٧٧ و ١٩٧٨ وأن تستنتج من خلال الموقف الشعبي متى قرروا عدم وجوب استمرار نظام الشاه. ويرتبط جانب حيوي لكنه غير مدروس من القرار الأمريكي بشأن إيران في السبعينات بمرض الشاه الشديد. هذا الجزء مهم لأنه لو كان معروفا أن الشاه مريض مرض الموت فإن ذلك كان سيؤثر في كل الحسابات بشأن مستقبل إيران. فهل يموت الشاه في منصبه دون أجواء واضحة بشأن انتقال السلطة ؟ وهو خطر يهدد بأن تقع إيران في فوضى. تم تشخيص مرض الشاه منذ ١٩٦٩ حسب قول هوفيدا الذي كان أخوه رئيس الوزراء الإيراني. ويضيف هوفيدا أنه لم يعرف أن الشاه مصاب بالسرطان إلا في السبعينات رغم أنه كان سرا دفينا. لكنه يعتقد أن أمريكا لابد أنها كانت تعرف لأن أسرارا من هذا النوع لا تخفى خاصة أن الشاه استشار أكثر من طبيب وكان يتابع حالته طبيب أمريكي أيضا. ويقدم المسئولون وصناع السياسة في حكومة كارتر ومسئولي المخابرات، شهادات متضاربة عن مدى معرفة أمريكا بمرض الشاه ومتى علمت بذلك.

ويقول هارولد سوندرز رئيس قسم الشرق الأدنى في الخارجية أن أمريكا لم تعرف أن الشاه مريض إلى أن غادر إيران. لكن تشارلز كوجان المسئول المخابراتي السابق يقول أن أزمة إيران بدأت عندما اتضح مرض الشاه ليس للأمريكيين بل للفرنسيين في مطلع ١٩٧٢.(٢٧) ويقول كوجان أن الأمريكيين لم يدركوا سوى بعد فترة وبالتحديد في ٧٦ خطورة الأمر، موضحا أن السفير هيلمز كان لديه شك في أن الشاه مصاب بالسرطان وأبلغ واشنطن بذلك. في عام ١٩٧٥ لكن يبدو أن هذا لم يلفت الانتباه. لكن الفرنسيين كانوا يعرفون بذلك منذ عام ١٩٧٢ لأن أحد الأطباء الذين كانوا يعالجون الشاه كان له علاقة بالمخابرات الفرنسية.(٢٨) وقال مسئول مخابراتي آخر له باع طويل في الشئون الإيرانية "لقد عرفنا أن الشاه كان مريضا وتلقينا تقارير بهذا أيضا من مصادر جيدة جدا.(٢٩) وبحلول أواخر السبعينات لم يكن من الصعب على المخابرات الأمريكية أن تحسب الأمور بالطريقة الصحيحة وتتوصل إلى أن الشاه قد قارب نهايته. ويقول ديفيد لونج الذي عمل في مكتب معلومات الخارجية أن المعلومة كانت كافية للحكم. ويوضح أن الشاه كان مريضا ومصاب بالسرطان وهذا معروف. لكن الأمر كان سريا جدا، لكن توفرت لدينا معلومات ومصادر كافية لنعرف أن الرجل على مشارف النهاية. "لكنه كان من واجبنا أن نخفي هذا"(٣٠)

ومن أواخر من عرفوا أن الشاه كان مريضا وانتهى هو بريجنسكي وحلف روكفلر- كسينجر المؤيد للشاه الذين التزموا بالاعتقاد بأن الشاه سوف يستمر في عام ١٩٧٨. كانت السفارة الأمريكية في طهران بطيئة في ملاحظة التهديد الذي يحيط بالشاه لكن القناصل الأمريكيين خارج العاصمة كانوا على علم أوسع بنبض البلاد وكانت تقاريرهم إلى واشنطن أكثر دقة. وكان أفراد من المخابرات الأمريكية، الذين قضى بعضهم سنوات في إيران، من بين أول من عرفوا أن إيران تسقط. وقال أحد المسئولين في المخابرات: "شعرت في ١٩٧٦ بأن إيران في سبيلها للسقوط وقلت هذا لأربعة من الأصدقاء المقربين ليخرجوا أموالهم من البلاد (٣١) لكن هذا التشاؤم لم يلق قبولا وسط تقديرات المخابرات الوردية التي تقدم إلى الحكومة الأمريكية."

وكان السفير سوليفان في طهران في صيف ١٩٧٨ يعتقد أن نظام الشاه سوف يستمر. وقال في مذكراته بعنوان "مهمة في إيران" أن الدبلوماسيين شعروا بأن الشاه سوف يسقط ونقل ذلك عن مسئول في السفارة الفرنسية توقع أن يسقط الشاه خلال عام. وقال سوليفان: "لكننا شعرنا بأن الشاه في ورطة لكننا لم نرى بدايات الثورة"(٣٢) قبل ذلك بعام وفي رسالة إلى واشنطن بعنوان "قشة في الرياح" لاحظ سوليفان تزايد القلاقل الدينية في إيران وأضاف يقول: "هناك إشارات أنه بالرغم من التشدد اليميني فإن بعض الأئمة المسلمين المحافظين البراجماتيين وآيات الله يرغبون في ركوب حصان حقوق الإنسان في تحالف مع اليسار (مثل الجبهة الوطنية) لأن مصالح الطرفين يمكن أن تتقابل." وذكر سوليفان بلا وضوح كاف أن الثورة الدينية تعززت بصحوة التشدد الإسلامي الموازية في باكستان والسعودية وتركيا لكنه قال أن حكومة الشاه سوف تسيطر على الحركة الدينية. ويعترف سوليفان في مذكراته بأنه لم يكن يقرأ التطورات المتعلقة بالوضع الديني في إيران جيدا ولم يستطع فريقه أو المخابرات أن يساعدوه في هذا الصدد.(٣٣) وقال سوليفان في مذكراته: "فشلت جهودي في التعمق في تلافيف خبايا وأسرار الشيعة. ولم يستطع المسئولون السياسيون أو المخابراتيون أن يشفوا غليلي في الحصول على مزيد من المعلومات والنظرة المتعمقة لأرى ما يدور في عقل الشيعة."(٣٤)

ريتشارد كوتمان و"الأمريكيون"

كان ريتشارد كوتمان من المسئولين الأمريكيين الذين سعوا إلى فهم ما في عقل الشيعة. في مطلع ومنتصف الخمسينات كان كوتمان يعمل في إيران في فريق سري للمخابرات الأمريكية. ويقول جون والر رئيس مركز المخابرات في إيران في أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات أن كوتمان كان ضابطا تحت أمرته.(٣٥) وأصبح كوتمان أستاذا في جامعة بيتسبرج في عام ١٩٥٨ لكنه لم يترك العمل مع المخابرات ولم يبتعد عنها. وفي الستينات والسبعينات كان كوتمان على علاقة وثيقة بالمتمردين من الجبهة الوطنية إلى شخصيات دينية بارزة. وكان مقربا من رجلين سيكونان في عام

١٩٧٨ من أقرب مساعدي الخميني خلال نفيه في باريس عندما تفجرت الثورة الإيرانية، وهما إبراهيم يازدي وصادق قطب زاده وكان يطلق عليهما كنية "الأمريكيين". قضى الرجلان فترة ما أو قاما بزيارات عديدة إلى أمريكا وعملا مع اتحاد الطلبة المسلمين المرتبط بالإخوان المسلمين وهو الاتحاد الذي ساهم يازدي في تأسيسه. التقى كوتمان مع يازدي أول مرة في إيران في الخمسينات عندما كان يعمل ضابطا في المخابرات وأصبحا صديقين مقربين. وفي الستينات كان يازدي يسافر كثيرا بين إيران وباريس وأمريكا ويعمل مع قطب زاده والعديد من النشطاء الإيرانيين ذوي الفكر الديني الذين أيدوا الخميني.

وفي عام ١٩٦٧ استقر يازدي في هيوستن بولاية تكساس فكان يقوم بإعداد أبحاث ويدرس في كلية بايلور للطب وفي مطلع عام ١٩٧٨ بدأ اسم يازدي يظهر في الرسائل السرية لكل من المخابرات والخارجية في ايرن. وفي مايو التقى جون ستمبل من السفارة الأمريكية في إيران مع زعيم من الحركة المؤيدة للخميني محمد توكلي الذي سأل إذا كان ستمبل يعرف الأستاذ ريتشارد كوتمان. وجاء في رسالة من ستمبل أن توكلي سأل إذا كان ستمبل يستطيع إثبات أنه مسئول بالخارجية الأمريكية وإذا كان يوافق على التحقق من اسمه مع أستاذ كوتمان.(٣٦) وبعد أسابيع قليلة التقى ستمبل توكلي مع بازارجان زعيم ما تسمى الآن جبهة التحرير الوطني. وكان توكلي يشير إلى كوتمان وهو يسأل بفضول إذا كانت حكومة كارتر لديها قناة منفصلة عن السفارة بعيدا عن قنوات الخارجية. وكتب ستمبل: لقد لاحظ أن الحركة قدمت الكثير من المعلومات إلى ريتشارد كوتمان عندما كان مسئولا في الخارجية واستمرت في ذلك."(٣٧) واستمر كوتمان في الزيارات بين طهران وباريس حيث التقى الخميني ويازدي وقطب زاده. في يونيو ١٩٧٨ كتب تشارلز ناس من السفارة الأمريكية إلى هنري بريخت رئيس قسم إيران يقول: "وجدنا أنه من المثير أن كوتمان، كما يعتقد الكثير منا، لا يزال همزة وصل لحركة التحرير في أمريكا ويريدون تأكيد ذلك".(٣٨) وبحلول ديسمبر عندما أصبح واضحا أن الثورة على وشك النجاح، لاحظت رسالة سرية من السفارة شائعات بأن

كوتمان سافر سرا إلى طهران. وجاء في الرسالة "حسب معلوماتنا كوتمان موجود هنا ويسرنا إذا أكدت الخارجية أنه موجود في بتسبرج."

لكن في ذلك الوقت كان كوتمان يحاول تأمين الاتصال بين يازدي وقطب زاده وغيرهم في دائرة الخميني من ناحية وواشنطن من ناحية أخرى بعيدا عن قنوات الاتصال في الخارجية. ويقول بريخت أن كوتمان حاول مرارا وتكرارا فتح قنوات اتصال بين دائرة الخميني والحكومة الأمريكية. وفي أواخر ١٩٧٨ قال بريخت أن كوتمان ذكر أن إبراهيم يازدي سوف يأتي إلى واشنطن وأنه يتعين علينا أن نقابله. لكن كوتمان كان شخصية غير محببة في الخارجية لأن له اتصالات موسعة مع المعارضين الإيرانيين. وكان أفراد من مكتب حقوق الإنسان تحت قيادة ستيف كوهين يتعاملون في بعض الأحيان مع المعارضين. وأخيرا فتح بريخت وآخرون من الخارجية قنوات اتصال مع الثوار ومنهم يازدي وشهريار روحاني زوج ابنة يازدي. واستمرت المقابلات في باريس. و قدم كوتمان في طهران مسئولي السفارة الأمريكية إلى آية الله بهيشتي الذي كان ممثل الخميني الرسمي في إيران في الأشهر السابقة للثورة. وأكد إيرانيون للمسئولين الأمريكيين أنه لا خوف من الخميني وأن ليس لديه طموحات سياسية لنفسه.(٣٩)

وبعد عدة أشهر استولى الخميني على السلطة وبدأ في بناء مؤسسات تضمن بقاء السلطة في أيدي رجال الدين طوال ربع القرن التالي مثل اللجان الإسلامية والحرس ومختلف المؤسسات من الخبراء الإسلاميين والقضاة والمحاكم الإسلامية والمجلس الثوري. وتم إعدام مئات بل آلاف من المسئولين في عهد الشاه وقتل آخرون بأعداد لا تحصى على يد أتباع الخميني.

بعد الثورة

وعانت الولايات المتحدة لكي تفيق من الصدمة التي أصيبت بها في يناير وفبراير ١٩٧٩ عندما قامت الثورة الإيرانية. وبذلت أمريكا جهودا كبيرة لإقامة ما يشبه العلاقات الدبلوماسية مع النظام الجديد في طهران لكنهم فشلوا فشلا ذريعا. ويقول والتر كاتلر

الدبلوماسي الأمريكي المخضرم الذي عينته أمريكا سفيرا لدى الجمهورية الإسلامية الإيرانية في منتصف ١٩٧٩ "كنا نريد إجراء حوار. كان علي أن أذهب إلى هناك وأحاول إقامة نوعا من الاتصال مع النظام الجديد من الخميني إلى من يليه."(٤٠) عمل كاتلر في إيران قنصلا مقيما في مدينة نبريز في منتصف الستينات وقضى غالبية الثمانينات سفيرا لبلاده في السعودية. وتم ترشيح كاتلر ليخلف بيل سوليفان السفير الأمريكي في إيران الذي ساءت سمعته بسبب ارتباطه بشاه إيران السابق. وطلبوا من كاتلر أن يكون فريقا للعمل في إيران بسرعة. وقال كاتلر أن تكليفه كان شديد السرعة والعجلة وكان علي أن أكون فريقا بسرعة". وقال سايروس فانس وزير الخاجية لكاتلر: "اختر أي شخص تريده وسوف استدعيه من عمله". ما يعني أن فانس سوف يرسل إلى إيران أي شخص يريده كاتلر. لكن ما لم يعرفه كاتلر بالطبع هو أن العديد من الذين دخلوا هذا الفريق سوف يكونون رهائن في نوفمبر ويحتجزون لمدة ١٥ شهرا في ظل ظروف قاتلة.

وقال كاتلر: "كان علينا أن نثبت للإيرانيين إننا لسنا الشيطان الأعظم". إن ارتكاز الثورة الإيرانية على الإسلام وليس على القومية اليسارية، كان عنصر تشجيع لكثير من الأمريكيين من صناع السياسة والدبلوماسيين والمسئولين في المخابرات من زبغينو بريجنسكي في مجلس الأمن القومي ومن يليه من مسئولين. وأضاف كاتلر: "كنا في حرب باردة وهناك ثورة إسلامية وقضيت هناك فترة كافية لمعرفة الشكوك التي تدور في إيران حول الروس. اعتقدت أننا يمكن أن نتعامل مع احتمال أن يحاول الاتحاد السوفيتي زيادة نفوذه بسبب قوة الإسلام. وإذا كنت تبحث عن المصالح المشتركة، فإن ما يقلقنا من اختراق السوفيت لهذا الجزء من العالم، هو أحد تلك المصالح."

لكن كاتلر لم يصل إلى إيران أبدا. فقد غضب آية الله من مشروع قانون من الكونجرس يدينه في عام ١٩٧٩ وكما قال كاتلر، وحسب رواية يازدي له فيما بعد أن الخميني يريد قطع العلاقات مع أمريكا بالكامل. لكن يازدي أقنع الخميني بأن يرفض السفير فقط ولا يقطع العلاقات بالكامل. وتم سحب تعيين كاتلر.(٤١) لكن مسئولين أمريكيين آخرين بدأوا يتوافدون ووقع غالبيتهم أسر باحتجاز الرهائن فيما بعد في

نوفمبر. وكان بعضهم قد عمل في إيران من قبل لكن ليس لأحد منهم خبرة أو معرفة بالإسلام.

وقام بروس لينجين بمهمتين سريعتين في إيران، وهو الذي اتجه إلى السفارة في غياب السفير ويقول بصراحة: "لست خبيرا في الشئون الإسلامية". فقد تم استدعائه من مهمة في اليابان وأسرع إلى إيران لأن الخارجية كانت تبحث عن مسئولين دبلوماسيين متاحين يمكن الاستغناء عنهم في مهامهم الأصلية ويمكن نقلهم. فهل استعد بروس استعدادا كافيا للتعامل مع إيديولوجية الخميني وثورته الإسلامية؟ بالطبع لا كما قال هو.(٤٢) ويقول توماس أهيرن رئيس مركز المخابرات الأمريكية في إيران أن تعيينه في المهمة كان نوعا من البيروقراطية الصرفة. ويضيف أنه لم يتلق أي عون من الحكومة الأمريكية تمكنه من فهم ديناميكية الحركة الإسلامية الخمينية. ويقول: "يمكنك النقل عني أنه لم يكن هناك تعليمات من نوع أكاديمي حول سياسة وثقافة واقتصاد إيران. لقد كان نوعا من التدريب المدرسي البسيط لإعدادي لأقوم بوظائف معينة وإجراء اتصالات معينة".(٤٣) ويقول جون لمبرت الدبلوماسي الأمريكي المخضرم أيضا الذي كان يتحدث الفارسية بطلاقة: "نحتاج أشخاص للذهاب إلى إيران لإعادة البناء أو إنقاذ شيء من بين هذه الأحداث. لقد كنت ساذجا وكذلك الكثير من زملائي الذين شعروا أننا سوف نقيم علاقة صحية مع إيران". لكن هل يفهم أحد من هؤلاء الإسلام أو طبيعة اليمين الإسلامي الذي يمثله الخميني؟ يقول لمبرت: "لم نعرف شيئا عنه. لم نفهمه".(٤٤)

وبحلول نوفمبر سيقع كل هؤلاء وعشرات آخرون رهائن في أيدي الغوغاء الذين يوجههم الخميني. كانت الحكومة الإيرانية مزدوجة: فهناك حكومة رسمية تشمل رئيس الوزراء بازرجان ويازدي وقطب زادة والرجل الذي سوف ينتخب أول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية أبو الحسن بني صدر. ثم هناك حكومة غير رسمية موازية للرسمية تتكون من الخميني وعدد من آيات الله ورجال الدين في المؤسسات الدينية التي كانت تتكون لتنفيذ سياسة الخميني في الحكم الديني. وقد تم الإبقاء على فريق السفارة الأمريكية الجديد ومسئولي المخابرات الزائرين ومسئولي الخارجية للتواصل مع

الحكومة الرسمية والتي لا تمثل أو تملك نفوذا، فيما ظلت أمريكا في منظور الخميني دولة معادية. بدأ الخميني خطة لعزل والقضاء على كل أعضاء الجناح اليساري العلماني واحدا تلو الأخر والقوى الدينية المعتدلة التي انضمت إلى الثورة المناهضة للشاه في السبعينات. كان هدف الخميني النهائي هو توحيد والاستحواذ على كل السلطة في قبضة يده والمجلس الثوري وهو هيئة غامضة تتكون أساسا من آيات الله المؤيدين له.

وقال لينجين: "لم يكن لدينا اتصالات تقريبا مع رجال الدين. لم أر الخميني أبدا ولم نتحدث أبدا إلى المجلس الثوري. كنا نعرف إنهم موجودون لكننا لا نعرف مدى السلطة التي يتمتعون بها في الحقيقة. رأينا مهمتنا في أن نؤكد قبولنا للثورة الإسلامية وأن نوصل المعنى بأننا دولة تحتل فيها مثل هذه القيم الروحية مكانة عالية، ونؤكد أن أمريكا تستطيع التفاهم مع الإسلام السياسي وأن الشاه ليس له مستقبل. ولاحظنا أن الخميني سوف يستقر له الأمر لكننا استغرقنا في الاعتقاد بأن الجانب العلماني من الثورة سوف يسود. واعتقد بازراجاني ويازدي وقطب زادة إنهم سوف يسودون وإنهم سوف يستطيعون احتواء نفوذ الخميني."(٤٥)

أجرى المسئولون في السفارة الأمريكية محادثات مع شخصيات قليلة جدا من رجال الدين الشيعة لكن هذا لم يساعد في فتح الباب للوصول إلى زمرة الخميني. وتم تنحية العديد من رجال الدين المعتدلين أو اغتيالهم في المنفى عندما استتب الأمر للخميني.

ولم تكن السفارة تحصل على عون كبير من المخابرات الأمريكية أيضا حيث أخفقت الأخيرة في وضع أي تقدير بشأن مستقبل إيران في عام ١٩٧٩. ويقول أهيرن: "لا أتذكر أي تقديرات أو توقعات. وكل ما كانت واشنطن تريده من السفارة هو تشجيع وتعضيد يازدي وباذرجان على أمل مساعدة المعتدلين على التغلب على الاتجاهات العدوانية للنظام. وعلى ما أذكر كان كل ذلك في إطار الأمنيات وليس في إطار التخطيط أو يقوم على إشارات من الإيرانيين بأن هذا الأمر سوف ينجح".(٤٦)

لكن إذا كانت المخابرات لم تتوصل إلى نتائج بشأن مستقبل إيران فقد طلبوا إليها أن تنقل إلى إيران معلومات مهمة بشأن جارتها العراق. وبعد أقل من عام سوف تقع بين البلدين حرب ضروس دامية تستمر عقدا من الزمان تتسبب في مقتل نحو مليون شخص. وإلى جانب وحدة السي أي أيه قام مسئولون آخرون من المخابرات بزيارات إلى إيران في عام ١٩٧٩ قبل الاستيلاء على السفارة الأمريكية. وفي إحدى تلك الزيارات التقى اميز رئيس قسم الشرق الأدنى في المخابرات مع آية الله بهيشتي . والتقى مسئولون آخرون في المخابرات مع يازدي وعباس انتظام ومسئولين دينيين آخرين. وتم إنشاء نظام لتبادل المعلومات خاصة ما يرتبط بالعراق. ويقول مسئول مخابراتي ساهم في العمل في القضية الإيرانية في ذلك الوقت: "بمجرد إقامة حكومة بازرجان حاولنا التعاون معهم". وقال أن المخابرات حذرت إيران في عام ١٩٧٩ من النوايا العسكرية للعراق.(٤٧) ويؤكد لينجين التقارير القائلة بأن أمريكا شددت على توصيل معلومات عن العراق إلى إيران. ويقول: "كنا نشعر بالقلق من العراق. كانت العلاقات بين البلدين قرب القاع تقريبا والخميني يكره صدام حسين. وكان لديه رغبة في تصدير الثورة إلى العراق التي كانت بالفعل هدفا رئيسيا. وأتذكر أن المخابرات الأمريكية أمدت إيران بمعلومات عن العراق. أعطيناهم معلومات عن قدرات الجيش العراقي وقواته ونواياه ومواقعهم. كانت تجربة جديدة بالنسبة لي أن انخرط في العمل الإستخباراتي من العمل الدبلوماسي".(٤٨)

وفيما كانت أمريكا توفر معلومات عن العراق لرجال الدين الإيرانيين بما فيهم بهاشتي اتضح تدريجيا أن باذرجان ويازدي وقطب زادة لم يكن لديهم أي سلطة ورجال الدين الشيعة يسيطرون على كل شيء. وكان هذا واضحا فيما يتعلق بالجيش. لم يكن هناك تنسيق بين بازارجان والجيش. وقال مسئول مخابراتي سابق أنه متأكد من ذلك. وأضاف أن الجيش كان تحت السيطرة الحديدية لرجال الدين وقسم رجال الدين إيران إلى ١٧ قرية وعينوا رئيسا لكل منها.(٤٩)

ومع ذلك فإن حفنة من صناع القرار الأمريكيين بدأوا ينظروا إلى التوجه الديني الإيراني على أنه تهديد للاتحاد السوفيتي. ومن المدهش أن من توصل إلى تلك النتيجة

هو بريجنسكي مستشار الأمن القومي المتشدد الذي آمن باستغلال الانقلاب العسكري في إيران لوقف ثورة الخميني. وغير بريجنسكي رأيه تدريجيا ووضع نظرية ما سماه "قوس الأزمة" الذي يمتد من شمال شرق أفريقيا إلى وسط آسيا. كانت تلك منطقة قلاقل ومخاطر ونزاعات بين القوتين الأعظم ويفترض أنها منطقة خاضعة للثورات الإسلامية. ويتطرق هنري بريخت، وهو أحد المسئولين الأمريكيين الأكثر معارضة للشاه وأيد إقامة علاقات جيدة مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية الوضع في الشرق الأوسط في ذاك الوقت قائلا: "عقب الثورة كنا لا نزال نعتقد أن إيران مهمة جدا للمصالح الأمريكية. وقال لي هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى بعد زيارته للبيت الأبيض أنني سوف أكون مسرورا لأننا سنحاول إقامة علاقات جيدة مع إيران. كان هناك فكرة استغلال القوى إسلامية ضد الاتحاد السوفيتي. كانت النظرية تقول أنه في ظل وجود قوس الأزمة فإن قوس الإسلام بالتالي يمكن تعبئته لاحتواء السوفيت. لقد كان هذا مفهوم بريجنسكي".(٥٠)

ويقول بريجنسكي في مذكراته أنه بدأ الضغط لتطبيق سياسة أمنية أمريكية محكمة على طول قوس الأزمة حتى قبل بداية الثورة الإيرانية.. وكان يعني بذلك أربع دول إسلامية في هذا القوس تتاخم عمان التي تدعمها أمريكا، والصومال وكينيا والقواعد الأمريكية في العديد من الدول والمحيط الهندي. ويضيف إنه في أواخر عام ١٩٧٨ بدأ بريجنسكي يضغط في اتجاه نظرية قوس الأزمة ويدفع بحجة أنه من الضروري إقامة إطار أمني أمريكي يعيد تأكيد النفوذ والقوة الأمريكية في المنطقة.(٥١) واعتبر بريجنسكي فقدان الشاه كارثة وفق ما قاله كوتمان. في البداية أراد بريجنسكي أن يقمع بينوشيه إيران (الشاه) الثورة الإيرانية الإسلامية بأي ثمن لكن عندما اتضح أن هذا مستحيل جنح بريجنسكي إلى التحالف مع القوى الإسلامية الثائرة ونظام الجمهورية الإسلامية على أساس الوضع القائم. وكتب كوتمان يقول لم يكن الاستمرار هو هدف بريجنسكي بل كان همه الأول أن يشكل تحالفا مناهضا للسوفيت في المنطقة التي وصفها بقوس الأزمة. وبحلول صيف ١٩٧٩ أصبح بريجنسكي قانعا بجدية شراسة وخطورة الخميني على الشيوعية.(٥٢)

وبعد عدة أشهر التقى بريجنسكي في إطار تحقيق أحلامه مع رئيس الوزراء بازارجان ووزير الخارجية يازدي ووزير الدفاع مصطفى شارمان وكان اللقاء في الجزائر. لكن التوقيت كان أسوأ ما يكون، فقبل ذلك ببضعة أسابيع سمحت حكومة كارتر بقدوم الشاه المصاب بالسرطان إلى نيويورك للعلاج. وكانت تلك الخطوة هي التي ألهبت مشاعر أشد مؤيدي الخميني تشددا واستغل الخميني هذه الخطوة وتحرك ضد زمرة بازارجاني ويازدي في الحكومة الإيرانية بعد ثلاثة أيام فقط من لقاء الجزائر، على نحو أدى إلى ما بدا تحرك عفوي من قبل الطلبة والاستيلاء على السفارة الأمريكية في طهران وبالتالي اندلاع واحدة من أخطر الأزمات الدبلوماسية في تاريخ أمريكا. كان الدبلوماسيون في الأسر وليس هناك مجال للتفاوض أو الحوار بين أميركا وإيران التي التزمت التعبير الدبلوماسي المؤدب وأعلنت أن الخاطفين مجرد مجموعة من الطلاب المتشددين غير أنه لا شك أن الحادث برمته كان من تخطيط وإخراج الخميني والدائرة الداخلية له كوسيلة لضم السلطة السياسية للحكومة الموازية غير الرسمية التي تزداد قوتها إلى جانب الحكومة الحقيقية.

وتوفرت معلومات لدى فلاديمير كوزشكن رئيس المخابرات الروسية في طهران، الذي لجأ إلى الغرب بعد بضع سنوات، عمن نظم العملية الإرهابية بكاملها. وقال كوزشكن علمنا من مصادرنا حقيقة من بدأ العملية ونفذها واستولى على السفارة الأمريكية. لقد تم ذلك على مستوى القيادة العليا الإيرانية ونفذه فريق مدرب تألف من أعضاء من قوات الحرس الثوري".(٥٣)

ولم يكن لدى حكومة كارتر أدنى معرفة أو دراية بشأن كيفية التعامل مع الخميني بعد الاستيلاء على السفارة. وصدر عدد لا يحصى من الكتب والأبحاث والدراسات والمذكرات عن أزمة الرهائن. ولم تستطع أي منها التطرق لذكر إخفاق جهود كارتر بأسلوب أكثر بلاغة من مذكرات هاملتون جوردان رئيس موظفي البيت الأبيض الذي تولى مسئولية حل الأزمة. يقول جوردان عن كارتر وهو جالس إلى مكتبه يكتب "أرجو أن تأتي في وقت لاحق من فضلك إنني اكتب رسالة إلى الخميني. أعجبتني فكرة أن مسيحي معمداني يكتب إلى متشدد إسلامي. فماذا سيقول لهذا الرجل. فكرت أنه

ربما يوقع الرسالة باسم الشيطان الأعظم. وقال كارتر في رسالته إذا كان الخميني هو الزعيم الديني المفروض أن يكون - لا أدري كيف يوافق على احتجاز مواطنينا".(٥٤)

كانت بداية نهاية حكومة كارتر أيضا. أدت أزمة السفارة إلى أزمة مستمرة لم يستطع الرئيس كارتر أن ينأى بنفسه عنها ولم تنجح المفاوضات ولا التهديدات ولا إرسال بعثة إنقاذ عسكرية. ورغم أن طهران قبلت عدة مرات، عن طريق وساطة البعض، بالمحادثات مع واشنطن، كان من الواضح إن الخميني له أهداف سياسية داخلية سبقت الإفراج عن الرهائن في الوقت الذي يريده حتى يتمم ما بدأه. ويقول هارولد سوندرز: "سمعت أحد رجال الدولة البارزين يقول إنكم لن تحصلوا على الرهائن حتى يرتب الخميني كل ما يريد ترتيبه في جمهوريته الإسلامية". وثبت أن الأمر كذلك بالفعل.

غيرت الثورة الإيرانية كل شيء. بالنسبة لواشنطن قضت على حليف مهم يعتمد عليه وموقعا للتجسس وقاعدة عمليات. بالنسبة للطرف الآخر في الحرب الباردة أي الاتحاد السوفيتي، ربما كانت الثورة الإيرانية علامة أكثر إثارة للانتباه.

برغم التحالف المفتوح بين الشاه وأمريكا كان الاتحاد السوفيتي أكثر ارتياحا في التعامل مع إيران على أساس من الاحترام المتبادل بين الجارين في غالبية الأحوال. فيما يتعلق بالعلاقات الاقتصادية بصفة خاصة كانت تسير على ما يرام بين إيران والاتحاد السوفيتي والأهم من ذلك أن استقرار ايران يعني أن موسكو ليس لديها ما يقلق بشأن الاستقرار على حدودها في جنوب غرب آسيا. لكن الوضع تغير الآن ولأول مرة منذ العشرينات بدأ الاتحاد السوفيتي يقلق من الإسلام. وكانت أمريكا تنوي العمل على وجود ما يسبب القلق للسوفييت.

الفصل العاشر

الجهاد (١): قوس الإسلام

أدت الثورة الإسلامية في إيران إلى انهيار أحد دعامتين كانتا تحملان صرحا أمريكيا في الخليج العربي، والدعامة الاخرى هي السعودية. واصبح الخبراء في وزارة الدفاع و المحللون في المخابرات المركزية في تخبط من أمرهم ويلقون صعوبة بالغة في تقدير أثر الثورة الإيرانية على الحلفاء الاخرين والمنطقة وعلى الوجود الأمريكي برمته في الشرق الأوسط. قام الخبراء الأمريكيون من السعودية إلى المغرب بإجراء تقييم سريع للموقف ليقدروا ما إذا كانت ظاهرة الخميني قد تتكرر في بقية الانظمة الملكية في الشرق الأوسط ومتى يمكن أن يحدث هذا. غير أن بعض المحللين في الحكومة الأمريكية رأوا أن هناك فرصة يمكن أن تستغل في الظاهرة الخمينية إلى جانب خطرها وتهديدها.

أدى استيلاء التيار الإسلامي المتشدد على السلطة في إيران إلى قلق لجيرانها بما فيهم أكبرهم وهو الاتحاد السوفيتي. كان نظام الخميني متقلب الأحوال من الصعب توقع مواقفه، في ذات الوقت الذي يمثل فيه عنصرا جديدا في المنطقة.. واعتقد بعض المحللين أن الثورة الإسلامية بقيادة آيات الله يمكن أن تكون عنصر إلهام داخل الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي. أضافت تلك الفكرة دافعا جديدا إلى الأفكار العديدة التي لم تجد طريقها إلى التنفيذ عن استغلال اليمين الإسلامي لتقويض الاتحاد السوفيتي من داخله في عمق آسيا الوسطى. وفي ذات الوقت كان يجري العمل على إعداد مخططات لاستغلال المنظمات المرتبطة بالإخوان المسلمين في أفغانستان المجاورة لتقويض قبضة السوفيت هناك، التي ينظر إليها من عقود على أنها تدور في الفلك السوفيتي وتخضع لنفوذه. ألهمت الحركة الإسلامية المزدوجة في إيران وأفغانستان كلا من زبغينو بريجنسكي مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر، وبريجنسكي رئيس المخابرات المركزية في حكومة ريجان إلى متابعة استغلال الإسلام في آسيا بشكل جريء مع التركيز على الحرب المقدسة (الجهاد) في أفغانستان.

وانطلقت الحرب التي يشنها آخرون لصالح أمريكا في أفغانستان التي تكلفت ٣ مليارات دولار وأودت بحياة مئات الآلاف من الضحايا، بالتحالف القائم على استحياء منذ سنوات بين أمريكا والإسلام السياسي إلى مستويات جديدة أكثر جرأة. قبل أفغانستان

كانت الفكرة هي أن يكون الإسلام حائط صد أي يكون الإسلام السياسي حائطا ضد التوسع السوفيتي، لكن أفغانستان حولت الفكرة إلى جعل الإسلام السياسي سيفا مسلطا على رقاب السوفيت. أصبح اليمين الإسلامي سلاحا فتاكا هجوميا يشير إلى أهمية التصعيد في سياسة التحالف مع الإخوان المسلمين في مصر والرابطة الإسلامية في السعودية وعناصر أخرى من اليمين الإسلامي. ورغم أن الحرب في أفغانستان كانت تصور على أنها تحالفا واسع القاعدة فإن المجاهدين في الأساس كانوا من المتشددين الإسلاميين وذهب ثلثا الدعم الأمريكي للمجاهدين المحاربين في أفغانستان إلى الأحزاب الإسلامية المتشددة عبر باكستان والسعودية.

وأدى الجهاد الأفغاني إلى إحداث تحول مهم في الحركة الإسلامية. بادىء ذي بدء عبأ الجهاد الإسلامي الأفغاني الدائرة المتشددة التي استغلت الأمر لتحارب قوة عظمى شيئا فشيئا في هذا البلد. وثانيا خلقت الحرب الأفغانية كادرا جديدا من المسلمين المدربين على حرب العصابات والمخابرات والاحتراف ومهارات الاغتيال والقتل بالسيارات المفخخة. وثالثا عززت الحرب الأفغانية الروابط الدولية للإسلاميين بين شمال أفريقيا ومصر والخليج العربي ووسط آسيا وباكستان. وبلغت الحركة ذروة صعودها في السبعينات وازدادت قوتها بقوة السعودية الناتجة عن الثروة النفطية وصعود الاقتصاد الإسلامي القائم على البنوك الإسلامية بشكل اتخذ طابعا سياسيا، وإقامة مؤسسات إسلامية قوية في مصر ودول أخرى إسلامية محافظة أيضا. لكن الحركة بعد الحرب الأفغانية ازدادت تشددا وشعرت بقوتها أكثر من أي وقت مضى واستعرضت عضلاتها. وفي أواخر الثمانينات تمكن الإسلاميون من السيطرة على الوضع في أفغانستان والسودان وأصبحت لهم سلطة قوية في السعودية وباكستان وهددوا بالاستيلاء على مصر والجزائر. وتم في تلك السنوات أرساء قواعد منظمة القاعدة الإرهابية السرية.

لم يكن هذا أو بعضه، واضحا أو مرئيا بالنسبة للمخابرات الأمريكية وصناع السياسة الذين كانوا يشخصون بأبصارهم إلى أعلى ويركزون فقط على توجيه ضربة إلى السوفيت في أفغانستان. لم يكن الأمر كذلك وحسب لكن رأى المسئولون الأمريكيون

الأكثر تشددا أن وسط آسيا هو نقطة الضعف الإسلامية في الاتحاد السوفيتي وتصوروا أن تفتت الكيان السوفيتي سوف يبدأ من تلك المنطقة.

وأخيرا ألهب الجهاد الأفغاني، من حيث النطاق الاستراتيجي الأوسع، جذوة ما كان حتى الثمانينات مجرد حلم غير قابل للتحقيق لدى المحافظين الجدد ألا وهو الاحتلال العسكري للخليج العربي وحقول النفط فيه. هناك صلة مباشرة بين الحرب الأفغانية والوجود العسكري الأمريكي الحالي في كازاخستان وأوزبكستان وأجزاء أخرى من وسط آسيا الغني بالنفط. هذا هو النزاع الذي أتى بالولايات المتحدة إلى جزء من العالم كان حتى الثمانينات يقع خارج نطاق نفوذها. بدأ الأمر في الثمانينات عندما حصل المجاهدون الأفغان على سلاح أمريكي وصيني وإسرائيلي لمواجهة الجيش الأحمر. واستمر الأمر حتى التسعينات عندما تعاملت الولايات المتحدة مع حركة طالبان المتشددة الصاعدة. واستمر الأمر حتى الوقت الحالي حيث سهلت الحرب الأفغانية الأخرى دخول أمريكا إلى جمهوريات آسيا الوسطي الإسلامية حديثة الاستقلال. ربطت أمريكا رباطا وثيقا بين الشرق الأوسط وإمبراطوريتها في الخليج العربي من خلال مجموعة من القواعد العسكرية في الخليج والمحيط الهندي وتوسعت إلى الغرب في نقاط تنتشر حول العراق وأفغانستان ووسط آسيا. وكان التخطيط أنه إذا دفعت النزاعات والحروب في القرن العشرين الولايات المتحدة للاصطدام مع الاتحاد السوفيتي أو الصين أو كليهما في نزاع على موارد النفط والغاز في جنوب غرب آسيا فإن اليد الطولى ستكون لأمريكا. وبدأ الجيش الأمريكي، منذ بداية الحرب الأفغانية، في تجميع قوات احتلال للإحاطة بالخليج العربي من كل جانب. لم يكن أي من هذا متوفر خلال الثورة الإيرانية وبداية الجهاد في أفغانستان. لكن الحرب الأفغانية أتاحت لأمريكا لأول مرة، البدء في توزيع القوات الأمريكية بشكل مباشر في جنوب غرب آسيا والخليج العربي.

وأدت تلك الحرب إلى توسيع العلاقات العسكرية مع مصر والسعودية وباكستان وإنشاء قوة الانتشار السريع والقيادة المركزية الأمريكية وإنشاء قواعد جديدة في المنطقة. بدأت العملية بعد أسابيع من تحرك القوات السوفيتية إلى أفغانستان عندما أعلن الرئيس كارتر في يناير ١٩٨٠ ما عرف فيما بعد باسم "مبدأ كارتر" والذي يعكس

مسعى أمريكا سابقا للسيطرة على الخليج العربي التي بدأها فرانكلين روزفلت (١٩٣٤) ودوايت أيزنهاور (١٩٥٧). وقال كارتر: "ليكن موقفنا واضحا، أي محاولة من قوة خارجية للسيطرة على الخليج العربي سوف نعتبرها اعتداء على مصالحنا الحيوية". وكان إعلان كارتر موجه أساسا إلى الاتحاد السوفيتي ويعتبر تحذيرا في الجزء الأكبر منه. وفي عام ١٩٨٠، لم يكن لأمريكا حتى قوات رمزية في الخليج تستطيع صد هجوم سوفيتي وتفتقر أيضا إلى إمكانية نقل القوات جوا أو بحرا إلى الخليج في حال الطوارىء.

بالطبع لم يكن لدى السوفيت نية اجتياح الخليج واحتلاله. وكان تحرك السوفيت إلى أفغانستان آخر خيار أمامهم للدفاع في مواجهة تهديد محسوب من الثوار الإسلاميين الأفغان بدعم من الأمريكيين وباكستان. وإذا كان هناك أي تهديد للمصالح الأمريكية في الخليج فسوف يكون من الداخل فقط غير أنه حتى في تلك الحالة لا تستطيع أمريكا التدخل. وإذا دخل العراق أو إيران في حرب مع دول الخليج أو وقع انقلاب عسكري في السعودية ضد العائلة المالكة فان قدرة أمريكا على التدخل السريع ليست مؤكدة بالمرة. قبل الأزمة الأفغانية بفترة طويلة كان هناك حديث في أمريكا عن غزو السعودية واحتلال حقول النفط. بدأ هذا الحديث في السبعينات بعد الحظر العربي على النفط وارتفاع أسعاره بشكل جنوني بقرار من منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) في عام ١٩٧٣.

ويرجع أصل التفكير الاستراتيجي إلى نشر القوات الأمريكية في الخليج إلى وزير الخارجية هنري كيسنجر. في عام ١٩٧٥ ظهرت مقالة بعنوان "الإستيلاء على النفط العربي" في صحيفة هاربرز. أشارت الصحيفة إلى كاتب المقالة باسم مايلز اجنوتس الأستاذ في واشنطن مستشار وزارة الدفاع الذي له علاقات وثيقة مع كبار صناع السياسات في البلاد. الشخصية الحقيقية للكاتب كانت أدوارد لوتواك المحلل العسكري المحافظ في كلية جون هوبكنز للدراسات الدولية المتقدمة (رغم أنه ينفي ذلك). وفي نفس التوقيت تقريبا كتب روبرت تاكر الأستاذ في هوبكنز أيضا مقالة مماثلة لمجلة

"كومنتري" التي تصدر عن اللجنة اليهودية الأمريكية. وظهرت مقالات أخرى تؤيد الاستيلاء على حقوق النفط السعودية.

ويقول جيمس اكينز السفير الأمريكي في السعودية في منتصف السبعينات إن مقالة صحيفة هاربرز تحدثت عن حل المشكلات السياسية والاقتصادية الأمريكية بالاستيلاء على النفط العربي وأرسال شركات النفط الأمريكية لإدارته كما يقول اكينز الذي لاحظ الانتشار المرضي لتلك المقالات. وقال اكينز: "عرفت أنه لابد أن تكون تلك المقالات نتاج تقارير عميقة أوعزت إلى كتابها لكتابتها. فليس هناك ثمانية أشخاص يكتبون عن نفس الفكرة في آن واحد كل على حدة".(١) ثم ارتكب اكينز خطأ جسيما أو قاتلا وتم طرده من منصبه كسفير. وقال اكينز أنه قال على شاشة التلفزيون أن أي شخص يقترح هذا أما مجنون أو مجرم أو عميل سوفيتي" وبعد ذلك بقليل علم أن مصدر التقارير التي أوعزت لكتاب تلك المقالات بالفكرة هو رئيسه هنري كيسنجر.

وتم طرد اكينز من منصبه في وقت لاحق من نفس العام. ولم يعترف كيسنجر أبدا بهذا الدور في تشجيع تلك المقالات. لكن في مقابلة مع مجلة "بيزنى ويك" في نفس العام ألمح كيسنجر، وإن لم يكن بشكل واضح تماما، إلى تهديد السعوديين ليفكروا في خفض أسعار النفط . كان التهديد بشن حرب سياسية شاملة ضد دول مثل السعودية وإيران تجعلهم يخاطرون باستقلالهم السياسي وربما أمنهم إذا لم يتعاونوا في هذا. ونلاحظ شيئا من هذا القبيل، مثل طريقة كيسنجر، في موقفه من السعودية ودول الخليج، في القصة التي رواها مسئول مخابراتي كبير عمل في الخليج العربي في السبعينات. استدعى كيسنجر مسئولا في المخابرات المركزية وأرسله إلى الشرق الأوسط في مهمة ليس لها علاقة بذلك لكي يستعرض قوة أمريكا وإرهاب السعودية.

وقال المسئول المخابراتي أن كيسنجر قال له "لابد أن نلقن السعوديين درسا". وأضاف يقول: "اختر إحدى حكومات تلك الدول الخليجية وأطح بالحكومة هناك ليكون ذلك درسا للسعوديين. كانت الفكرة تطبيق ذلك في أبوظبي أو دبي. لكن عندما توجه كيسنجر إلى الخليج والتقى المسئولين في المخابرات المركزية من المنطقة لم يوافق أي منهم عليها. ولذلك تم إلغاء الفكرة. ولم يطرحها كيسنجر مرة أخرى."(٢)

وكان المخططون العسكريون قبل حرب أفغانستان يعرفون أن الولايات المتحدة غير قادرة على الأرسال السريع لعشرات الآلاف من القوات الأمريكية إلى الخليج في السبعينات وأن الوجود البحري الأمريكي هناك كان رمزيا برغم الحديث عن احتلال حقول النفط العربية. واتخذ الرئيس كارتر خطوات بدأت تعطي أمريكا القدرة على التدخل المباشر في الخليج العربي لكن بشكل مبدئي فقط، بعد إعلان مبدأه. أمر كارتر بتشكيل قوة انتشار سريع وهي وحدة عسكرية على أهبة الاستعداد تستطيع نقل آلاف القوات الأمريكية إلى الخليج في أوقات الأزمة . وتم توسيع نطاق قوة الانتشار السريع في عهد ريجان وتحولت فيما بعد إلى قيادة مركزية وهو هيكل عسكري أمريكي جديد له سلطة على الخليج العربي ومحاصرة المنطقة من شرق أفريقيا إلى وسط آسيا إلى أفغانستان. كانت القيادة المركزية هي التي أدارت حرب الخليج الأولى في عام ٢٠٠١ في أفغانستان وفي عام ٢٠٠٣ في العراق.

لكن في عام ١٩٧٩ لم يكن الوجود العسكري المكثف في الخليج والشرق الأوسط ووسط آسيا سوى حلم يراود مستشار الأمن القومي زبجينو بريجنسكي الذي اعتقد أن "القوس الإسلامي" هو الحل لمعالجة "قوس الأزمة".

استخدام الإسلام لضرب

موسكو تحت الحزام

فكرة تعبئة الإسلام ضد موسكو فكرة قديمة ويرجع تاريخها إلى الحرب الباردة. وكان الخبراء الإستراتيجيون الأمريكيون ينظرون إلى تلك الفكرة بنوع من الشك وبشكل خاص خلال الخمسينيات والستينيات. ويبدو أن العمل على دحض فكرة أن المسلمين السوفيت يمكن أن يثوروا ضد حكم موسكو والقضاء عليه هو سبب نجاح السوفيت في تهدئة جمهوريات آسيا الوسطى وتوطين مواطنين روس فيها وبالتالي تغيير التركيبة السكانية من المسلمين (برفع عدد الروس) وقمع الحركات الدينية. بالإضافة إلى ذلك فان المنطقة نائية جدا وليس في مقدور الولايات المتحدة الوصول إلى سكانها بسهولة. لكن في السبعينات تضافرت عدة عوامل لتضيف أسباب أقوى إلى حجج هؤلاء الذين سعوا

من سنوات إلى استغلال الإسلام ضد موسكو. في عام ١٩٧٠ كشف تعداد في الاتحاد السوفيتي أن السكان المسلمين في جمهوريات آسيا الوسطى يزدادون عددا بسرعة أكبر من الجمهوريات السوفيتية الأخرى خاصة الروس. ثم دفعت الثورة الإيرانية الإسلام إلى مقدمة أولويات السياسة الإقليمية في أفغانستان وأذربيجان وجمهوريات سوفيتية أخرى. وفجأة بدأ أن النظام الأفغاني الذي يدور في الفلك السوفيتي أصبح معرض لخطر قوى إسلامية وكانت أفغانستان نفسها أرض معركة محتملة لهذه القوى.

بدت الأمور كذلك على الأقل للنخبة الصغيرة التي جمعتها المخابرات المركزية وبريجنسكي. كانت مجموعة عمل القوميات في عهد كارتر هي مركز التخطيط الإستراتيجي. وكانت المجموعة عبارة عن قوة عمل خاصة تم تشكيها بمعرفة مجلس الأمن القومي وبها مسئولون من المخابرات المركزية والخارجية ووزارة الدفاع ووكالات أمريكية أخرى. كان رئيس مجموعة عمل القوميات هو بول هينز، مساعد بريجنسكي ومسئول سابق في المخابرات المركزية عمل مع من اللاعبين المساهمين من الخارج ومستشارين اعتقدوا أن اللعب على وتر الأقليات السوفيتية فيه عنصر دمار الاتحاد السوفيتي. وكان العديد منهم يلتقون منذ الخمسينات على إنشاء راديو "الحرية" وهي إذاعة موجهة من المخابرات المركزية توازي إذاعة أوربا الحرة التي كانت تبث مواد دعائية في الكتلة السوفيتية خلال الحرب الباردة.

وركز راديو "الحرية" على وسط آسيا وبدأ فعليا في الخمسينات. ويقول جيمس كرتشلو المدير التنفيذي لإذاعة راديو أوربا الحرة وراديو الحرية صاحب كتاب "القومية في أوزبكستان"، أن تلك الإذاعة بدأت البث في وسط آسيا عن طريق مكتب في تركمانستان باللغات الأوزبكية والتركمانية والكازاكية والطاجيكية والقرغيزية إلى جانب بعض البرامج من مكتب القوقاز باللغات الجورجية والأذربيجانية والشيشانية. كان الأرسال نصف ساعة يوميا بكل لغة وكانت تتكون من أخبار ومواد أخرى. ويقول كرتشلو أن المواد الأساسية في تلك البرامج كانت تعليقات تنتقد الاتحاد السوفيتي وسياساته القمعية نحو الإسلام والديانات الأخرى. غير أن البرامج تضمنت كذلك حظر علني على التحريض على الانفصال تمشيا مع الحفاظ على اعتدال الأهداف المرجوة

منها في الخمسينات. وكان البعض غاضبا ومعترضا على هذا الحظر.(٣) وكان المتشددون في الحرب الباردة يطالبون من وقت لآخر بتكثيف الدعاية الأمريكية بما في ذلك اللجوء إلى عمليات تخريب ضد جمهوريات آسيا الوسطى. مثلا في ١٩٥٨ كتب تشارلز هوسلر ضابط المخابرات الأمريكية السابق في صحيفة "ميدل ايست جورنال" أن السوفيت يخشون عملا مجمعا مناهضا لهم من الأتراك في آسيا وأن إرتباط تركيا بحلف شمال الأطلنطي قد يلهم هؤلاء الأتراك المسلمين في آسيا على الاستقلال عن السوفيت وأن الغرب ينبغي أن يهتم أكثر بهؤلاء الناس وطموحاتهم. وطالب هوسلر بتوسيع نطاق الإذاعات الأمريكية في وسط آسيا باللغات المذكورة الموجهة إلى الشعوب القوقازية ومناطقها ولغاتها.(٤)

وفي الستينات انضم بريجنسكي ذاته إلى صفوف الذين يطالبون بدعم أمريكي أكبر للمسسلمين في وسط آسيا. وقالت جين سوسين المدير السابق ومخطط برامج راديو أوربا الحرة وراديو الحرية "كان زبغينو بريجنسكي مؤيدا قويا لراديو أوربا الحرة وراديو الحرية وثبت ذلك في مطلع ١٩٦٦ عندما طلب كفلاؤنا من المخابرات أليه أن يساهم بتحليل سري عن الإذاعتين. وانتقد بريجنسكي ووليام جريفيث سياسة الأقليات التي يتبعها راديو الحرية لأنها شديدة السلبية وقالا أنه لابد من اتباع سياسة أكثر تشددا في الإذاعات باللغات غير الروسية مما يحفز على العداء ضد السوفيت".(٥) كان بريجنسكي معارض قوى ضد الشيوعية حيث كان ينحدر من عائلة ثرية من النخبة في بولندا، واعتبر أن الاتحاد السوفيتي قويا لكنه نموذج هش من الأقليات العرقية والدينية. وجمع بريجنسكي في مجلس الأمن القومي فريقا من المساعدين والمستشارين أرادوا تصعيد النزاعات والحروب داخل الاتحاد السوفيتي للتعجيل بسقوطه. ويقول روبرت جيتس المسئول المخابراتي الكبير الذي أصبح مديرا للمخابرات فيما بعد، إن الخارجية كانت متشككة بشأن المشاركة في تأييد ودعم الأقليات المنشقة في وسط آسيا السوفيتية. وكان بريجنسكي من جانب آخر يهتم جدا بدراسة مشكلات الأقليات السوفيتية كما قال جيتس في مذكراته. وأضاف أن بريجنسكي كان يريد القيام بعمل سري.(٦)

كان العقل المفكر لمجموعة عمل الأقليات هو الكسندر بينجسن الكونت والأكاديمي الأوربي زعيم المدرسة التي اعتبرت أن الإسلام يمكنه أن يمثل تهديدا قويا للسلطة السوفيتية. كانت خلفية بينجسن تشبه خلفية بريجنسكي العائلية فقد ولد في سانت بطرسبرج في روسيا وهو ابن لكونت روسي حارب ضد الثورة البلشفية في الحرب الأهلية التي تلت الثورة الروسية. وفي الخمسينات درس في كلية العلوم الاجتماعية في باريس ثم في جامعة شيكاغو. وعززت كتبه العديدة ومقالاته عن الإسلام في وسط آسيا نشاط الباحثين والمسئولين الحكوميين الذين يؤمنون بصلاحية وقوة اللعب ببطاقة الإسلام. وكان بينجسن أستاذ كرسي في جامعة شيكاغو ومؤسسة راند للأبحاث وعضو في المراكز البحثية وشغل مناصب في وكالات الأمن القومي.(٧) وكان بول هينزواندروز ويمبوش من المتأثرين بأفكار بينجسن وبريجنسكي وكانا من الخبراء في الشئون الروسية ومسئولان في راديو الحرية في ميونيخ.

وقام بينجسن من أواخر الخمسينات بكتابة مجموعة من الكتب والمقالات والأبحاث يدافع فيها عن فكرة أن الحركة السرية للإسلاميين تكتسب قوة داخل اتحاد السوفيتي. وقال في كتاب "التهديد الإسلامي للاتحاد السوفيتي" أن الحركة عادت إلى المقاومة الدينية المسلحة التي بدأت في القرن الثامن عشر وقادها الصوفيون من إخوان الطرق الدينية (في إشارة إلى الطريقة الصوفية) التي تحارب من أجل تطبيق شريعة الله على الأرض وتعارض الوجود الاستعماري الروسي.(٨) ويقول بينجسن برغم المحاولات السوفيتية لقمع وتفتيت الإسلام فقد نجحت وازدهرت الحركة السرية. وقال بينجسن في كتابه: "حتى خلال الخمسينات عندما ضرب نيكيتا خروتشوف الإسلام لم يستطع تدميره تماما بل كان تأثير ما فعله هو تعزيز المشاعر الدينية لدى السكان المسلمين واتجاهها إلى التشدد المحافظ المتمثل في نوع من الصوفية التي تلتزم السرية.(٩) وادعى بينجسن أن الإخوان المسلمين الصوفيين قادوا المقاومة ضد السلطة السوفيتية بين شعوب آسيا الوسطى. وأضاف يقول: "منذ انتصار الثورة البلشفية حتى الآن فإن المقاومة الوحيدة الخطيرة المنظمة التي تواجه السوفيت في الأراضي المسلمة تأتي من الطريقة الصوفية التي يسميها السوفيت "الإسلام الطائفي" أو "غير الرسمي"

الموازي. والإسلام الموازي أقوى وأعمق جذورا من الإسلام الرسمي. والإخوان الصوفيون جماعات مقربة من بعضها لكنها سرية كليا. ويقول السوفيت عن تلك الجماعات أنها خطيرة ومتشددة ورجعية ومناهضة لهم وللاشتراكية مؤكدين على ديناميكيتها وفعاليتها".(١٠)

ويقول بينجسن أن أهم ما في هذه الجماعات جماعة سرية تسمى "النقشبندية" وهي على غرار الجماعات الماسونية المرتبطة بالنخبة في تركيا لها علاقات تاريخية طويلة في وسط آسيا. كانت النقشبندية قوية بصفة خاصة في الشيشان وداغستان وأجزاء من آسيا الوسطى بما فيها أوزبكستان في الجنوب. وأضاف يقول أن النقشبندية لها تاريخ طويل في محاربة الروس. وتوصل إلى أن القومية في وسط آسيا ترتبط بالإسلام السياسي المتشدد. وكتب يقول: "منذ الحرب العالمية الثانية أصبحت بعض الأنظمة مختلطة مع القومية والنتيجة أن أي حركة قومية، حتى لو كانت تقدمية، يمكن أن تظهر ستكون متأثرة بشدة بالرؤية المحافظة التقليدية للطريقة الصوفية ما يؤكد بلا شك أنه سيأتي اليوم الذي تظهر فيه مثل تلك الحركة".(١١)

حث بينجسن وغيره ممن في زمرته أن تبذل أمريكا جهودا أكبر لتشجيع الإسلام السياسي في الجمهوريات السوفيتية على الثورة ورغم ذلك كتب أن النتيجة المحتملة هي تشدد إسلامي محافظ يشبه "الثورة الإسلامية" الحالية في إيران.(١٢) وتوازى موقف بينجسن من ظهور حكومات إسلامية متشددة في وسط آسيا مع اعتقاد بريجنسكي بأنه على أمريكا أن تعزز انتشار التشدد الإسلامي في أفغانستان دون أي قلق من العواقب.

ويقول جيرمي عزرائيل صاحب كتاب "المشكلات القومية في الاتحاد السوفيتي" ١٩٧٧ إنه وبينجسن حاضرا في ندوة عن شئون القوميات السوفيتية. وخرجت جامعة شيكاغو مجموعة من الخبراء في الشئون السوفيتية الأسيوية والإسلام غالبيتهم من المؤمنين بأراء بينجسن ونظرياته المثيرة للجدل وبعضهم ومنهم بول جوبل، أصبحوا محللين في المخابرات متخصصين في هذا الموضوع. وانضم عزرائيل نفسه إلى المخابرات في عام ١٩٧٨ كمحلل زائر. وقال عزرائيل عندما دخلت المخابرات أصبحت عضوا في فريق متخصص في مجموعة عمل القوميات السوفيتية في عهد

بريجنسكي وكانت الجهود في البداية تقتصر على أعمال بسيطة مثل توزيع القرآن باللغات الآسيوية وتم تعزيز الجهود بالتعاون مع المخابرات السعودية للاتصال بالمسلمين السوفيت الذين يأتون للحج.(١٣)

وأضاف يقول لكن الثورة الإيرانية عززت خيال كل من شارك في هذا العمل. ويتذكر عزرائيل أنه أحضر بينجسن إلى المخابرات لألقاء محاضرة في وقت الإطاحة بالشاه. كانت لحظة مثيرة وتمثل تحديا. فقد أعاد الخميني كتابة قواعد تطبيق الإسلام بطرد الشاه وأصبح المسئولون في المخابرات الأمريكية مثقلون بالاحتمالات المختلفة رأي غير المحافظين بصفة خاصة والمتشددون من الحرب الباردة أن بدء الجهاد ضد السوفيت، ليس فقط في أفغانستان، بل في أنحاء المنطقة سوف يكون خيارا جيدا. وبعد الغزو السوفيتي لأفغانستان في ديسمبر ١٩٧٩ كتب زلماي خليل زاده المحلل غير المحافظ خبير الإستراتيجيات في مؤسسة راند الذي سيكون سفيرا في أفغانستان، ورقة بحثية عرض فيها المشكلات التي يمكن أن يسببها الخميني للاتحاد السوفيتي. وقال يمثل نظام الخميني أيضا مخاطر على السوفيت وقد شجع تغيير النظام حركات مماثلة في العراق وأفغانستان وقد يؤثر في المسلمين السوفيت في وسط آسيا أيضا.(١٤)

وكتب يقول: "يمكن أن يكون الثمن الذي يتكبده السوفيت احتمال القلاقل الداخلية في تلك المناطق من البلاد التي يشير إليها السوفيت باسم "المستعمرات الداخلية" وهم السكان المسلمون في الاتحاد السوفيتي الذين يصل عددهم إلى ١٠٠ مليون بحلول عام ٢٠٠٠ الذين يمثل إسلامهم ثقافة مضادة وقد يكون من غير المقبول أن يستمر السوفيت في حربهم العرقية والدينية ضدهم عبر الحدود. العداء ضد السوفيت قد يزداد بصفة عامة في الدول وبين الجماعات الإسلامية".(١٥)

كان هذا بالطبع صدى لأفكار بينجسن. وكان هينز رئيس مجموعة عمل القوميات التابعة لبريجنسكي يؤمن ويدافع من فترة طويلة عن أراء بينجسن. وكان هينز يعتنق أراء متشددة مفرطة في التفاؤل. وكان من بين مناصب هينز رئاسة مركز المخابرات الأمريكية في تركيا في منتصف السبعينات. واكتسب هينز شهرة في الثمانينات باعتباره من أشد المؤمنين بأن المخابرات الروسية والبلغارية وراء محاولة

اغتيال البابا يوحنا الثاني على يد إرهابي تركي.(١٦) وخلال عام ١٩٥٨ كتب هينز مقالة عن "مشكلة شامل" في الاتحاد السوفيتي تشير إلى زعيم المقاومة الإسلامية في القرن الثامن عشر، الذي كان يعارض التوسع السوفيتي في آسيا. وكان هينز مثل بينجسن يستلهم مشكلة شامل ويعتقد أنها سوف تؤدي إلى انهيار ما بناه الاتحاد السوفيتي في وسط آسيا. وكتب هينز في مقالته لعام ١٩٥٨ يقول: "سوف يكون من الصعب جدا على الشيوعيين السوفيت الاستمرار في سياستهم المؤيدة للعرب المناهضة للاستعمار لعدة سنوات دون التعرض لخطر أثارة البلبة بين سكانهم من القوقاز وشعوب وسط آسيا. أن الجدل حول شخصية "شامل" يثبت أن مجموعة من المثقفين القوميين أصحاب النخوة والصحوة، قد تكررت بين تلك الشعوب. والاتحاد السوفيتي ليس آمنا من أوضاع تشبه تلك التي في الجزائر رغم أن اليوم الذي يتوقع أن تنفجر فيه تلك المشكلات لا يزال بعيدا".(١٧)

في أواخر السبعينات لم يكن هذا اليوم بعيد بالنسبة لبينجسن وبريجنسكي وهينز. فقد تكتلوا معا واتحدوا مع ريتشارد بايبس المؤمن أيضا بفكرة استغلال الإسلام الذي كتب عن المسلمين في وسط آسيا وتهديدهم للسوفيت منذ الخمسينات بما فيها تحليل نشرته صحيفة "ميدل ايست جورنال" في عام ١٩٥٥ بعنوان "المسلمون في وسط آسيا السوفيتية: اتجاهات وتوقعات". كتب بايبس يقول: "منطقة وسط آسيا بالكامل بما فيها تركستان الصينية التي ارتبطت بها وسط آسيا دائما ارتباطا وثيقا، قد تتحرك مع الوقت في اتجاه الاستقلال وإقامة دولة. ومن المفهوم أن تلك المنطقة الشاسعة قد تدخل في يوم من الأيام ضمن دولة إسلامية تركية تدور في فلك الشرق الأوسط."(١٩)

وكتب بايبس أيضا عن مشكلات القوميات في وسط آسيا السوفيتي بشكل مكثف وقال في إحدى كتاباته إن المسلمين السوفيت سوف ينفجرون غضبا ضد موسكو.(١٩) ورأس بايبس مجموعة عمل القوميات عندما تولى رونالد ريجان الرئاسة بعد كارتر في عام ١٩٨١.

اختلف الكثيرون من الباحثين والخبراء مع بينجسن ومن يؤمنون بأرائه وفي كل الحالات لم تقع ثورة إسلامية مماثلة ضد اتحاد السوفيتي. لم يكن الإسلام السياسي

المتشدد عاملا في سقوط الاتحاد السوفيتي عقب البريسترويكا وسقوط حائط برلين ثم استقلال جمهوريات وسط آسيا. ولم تكن الجمهوريات وسط الأسيوية التي ظهرت في التسعينات ترتبط بالتشدد الإسلامي بل وجدت نفسها تقاتل الإسلاميين المسلحين من القاعدة إلى حزب التحرير الإسلامي وهناك أدلة على أن تأييد أمريكا للإسلام السياسي في آسيا ساعد على أزدهار التيار الإسلامي الذي اتخذ أشكالا عنيفة في الشيشان وأوزبكستان ودول أخرى في المنطقة.

المخابرات الأمريكية

في أفغانستان قبل ١٩٧٩

في عام ١٩٧٩ تحولت نظرية أن الإسلام يمكن أن يكون عاملا في تدمير الاتحاد السوفيتي إلى مرحلة التطبيق. وأعلنت الولايات المتحدة وباكستان والسعودية رسميا الجهاد الإسلامي الذي هدد الحكومة الأفغانية في كابول وأثار حفيظة الاتحاد السوفيتي لغزو أفغانستان وانطلقت حرب أهلية استمرت ١٠ سنوات. كانت الحرب الأفغانية بالنسبة بريجنسكي هي عنصر الربط بين مفهومين، أولا فكرته عن القوس الإسلامي في جنوب غرب آسيا باعتباره حائط صد ضد الاتحاد السوفيتي. ويقول فواز جرجس في كتاب "أمريكا والإسلام السياسي" قال بريجنسكي إن احتواء الشيوعية السوفيتية يملي تجنب أي شيء خاصة المواجهة العسكرية الأمريكية الإيرانية. ويبدو الآن حسبما أرى أنه من المهم إنشاء تحالف إسلامي مناهض للسوفيت. وكما حدث في الخمسينات والستينات تأمل الولايات المتحدة في استغلال الإسلام ضد القوى المتشددة العلمانية وحليفها الملحد، الاتحاد السوفيتي. ولاحظ المسئولون في حكومة كارتر وجود احتمالات جديدة للتعاون مع التمرد الإسلامي ويأملون في السيطرة على موارده ومصادره الإيديولوجية والمادية ضد توسع الشيوعية. وسيطرت على عقول الأمريكيين دروس الخمسينات والستينات عندما تم استغلال الإسلام كسلاح إيديولوجي في الحرب ضد القومية العربية العلمانية."(٢٠)

فكرة بريجنسكي وبينجسن عن تعبئة الإسلام كسلاح ضد موسكو وضربها تحت الحزام في جنوب غرب آسيا كانت القوة المحركة الثانية لتلك الخطة. غير أن الإسلاميين الأفغانيين لم يتغير حالهم من لا شئ فقد بدأوا يتلقون الدعم من المخابرات الأمريكية وقبل عام ١٩٧٩ بفترة طويلة ظهر اليمين الإسلامي كقوة محتملة في أفغانستان ومنذ الخمسينات وما بعدها حارب اليمين الإسلامي القوى التقدمية اليسارية العلمانية في كابول. بدأت علاقات أمريكا مع الإسلاميين المتشددين في أففانستان المرتبطين بالإخوان المسلمين في الخمسينات وبدأ الدعم الأمريكي لليمين الإسلامي والحركة السياسية المنبثقة عنه في البلاد منذ عام ١٩٧٣.

رغم أن المخابرات الأمريكية لم يكن لها وجود قوي في أفغانستان في العقود الأولى للحرب الباردة فقد أرسلت فريقا إلى هناك عن طريق مكاتب مؤسسة آسيا التي تختفى وراءها المخابرات المركزية وتتخذ منها واجهة لها. وخلال الخمسينات والستينات وفرت المؤسسة الآسيوية الدعم لجامعة كابول وكان لديها عدد من المشاريع المتواضعة التي تتعامل مع المسلمين الأفغان المنظمين في جماعة. ويقول جون وروز بانيجان إن المسئولين في المؤسسة الآسيوية الذين عملوا في كل من باكستان وأفغانستان في الستينات ساعدوا معهد البحوث الإسلامية في لاهور وباكستان على نشر موسوعة عن القرآن باللغة الأوردية. ويقول جون بانيجان كنا نعمل مع الجامعات الرنيسية أيضا من خلال أقسام الشريعة الإسلامية. وعمل الإخوان بانيجان مع مجموعات من الطلبة لمحاربة المنظمات المؤيدة للسوفيت. وتقول روز بانيجان أقامت المؤسسة الآسيوية في أفغانستان علاقات مع عائلة مجددي وهي عائلة دينية مرموقة في البلاد ومع وزارة العدل التي رأسها مجددي لفترة. وأرسلت المؤسسة الآسيوية أيضا شفيق كماوي نائب وزير العدل إلى ندوة يتحدث فيها هنري كيسنجر عن الشئون الدولية في جامعة هارفارد. وأضافت أن العديد من العاملين من الوزارة كانوا من رجال الدين بما فيهم المستشار القانوني للمؤسسة الآسيوية.

وليس واضحا مدى حدود وانتظام الاتصالات بين المخابرات المركزية والإسلاميين الأفغان في الستينات لأن أفغانستان لم تكن ضمن قائمة أولويات أمريكا السياسية إلا في العقد التالي.

ويقول مسئول مخابراتي سابق أنه عندما كان هناك في أفغانستان عام ١٩٥٧ كانت بالفعل تدور في الفلك السوفيتي. وكانوا يريدون منه اكتشاف أي شيء عن الوجود السوفيتي في أفغانستان لأن الرئيس أيزنهاور أراد دراسة عن الأهمية الإستراتيجية لهذا البلد للإستراتيجية الأمريكية وعلاقاتها بواشنطن. لكن الدراسة أثبتت أن أفغانستان ليست دولة مهمة.. ويضيف المسئول المخابراتي أنهم توصلوا إلى أن أفغانستان ليست لها علاقة بإستراتيجيات أمريكا وحتى إذا استولى السوفيت عليها فليس هناك خطورة كبيرة على الولايات المتحدة.(٢١) لكن المؤسسة الآسيوية حافظت في الستينات كذلك على وجودها في أفغانستان مع وجود مسئول أو مسئولين من المخابرات الأمريكية مقيمين هناك وربما عشرات المستشارين.(٢٢)

وفي فترة الستينات تحولت الحركة الإسلامية في أفغانستان ببطء إلى السياسة. ورغم أن المجتمع الأفغاني كان دائما محافظا وتقليديا يلعب فيه الإسلام دورا مركزيا إلا أن صورة الإسلام السائدة في البلاد على الأقل حتى الستينات كانت تميل إلى التقوى والورع بعيدا عن السياسة. كان الإسلام في أفغانستان عقيدة إيمان وليس مفهوما سياسيا. لكن تحت تأثير القوى المثقفة الخارجية خاصة الإخوان المسلمين في مصر والجماعة الإسلامية في باكستان والتنظيم الدولي للإخوان المسلمين في سويسرا بقيادة سعيد رمضان تحول الإسلام الأفغاني إلى سياسي وأصبح أكثر تشددا ومناهضا للشيوعية. وبدأ قادة التنظيم الإسلامي الأفغاني والعلماء الإسلاميين يعودون إلى البلاد بعد زيارة مصر حيث التقوا مع حركة حسن البنا، الإخوان المسلمين. ويقول أوليفر روا المستشرق الفرنسي الشهير الخبير في الشئون الأفغانية والإسلامية أن أصل الإسلام السياسي في أفغانستان بدأ بمجموعة شبه سرية تسمى "المعلمون" الذين جاءوا إلى البلاد بعد إتمام الدراسة في الأزهر المصري حيث التقوا هناك وتعاونوا مع الإخوان المسلمين. وتبلورت الخريطة الإسلامية في أفغانستان في عام ١٩٥٨ عندما اختلف عالم إسلامي

مع محمد داوود ابن عم الملك والزعيم المستقبلي للجمهورية الأفغانية. وتم إلقاء القبض على العديد من الإسلاميين واضطرت الجماعة الإسلامية أن تختفي للعمل تحت الأرض أو تتحول إلى سرية وأطلقت على نفسها "الجماعة الإسلامية".(٢٣)

وبحلول منتصف الستينات اتبعت الجماعة إسلامية والمنظمات المنبثقة عنها خطوات المنظمات الإسلامية في مصر وباكستان والعراق وأماكن أخرى فبدأت تقوم بالإعتداء على الطلبة اليساريين والشيوعيين وهددت بأعمال عنف ضد خصومها السياسيين. وبدأوا فتح ملف النضال السياسي بقيادة العديد من الذين سوف يصبحون في عام ١٩٧٩ المستفيدين من بذخ وكرم المخابرات الأمريكية. وقال روا: "أثر – الأساتذة - كثيرا على طلابهم في عام ١٩٦٥، عام تأسيس الحزب الشيوعي. واعترض الطلبة الإسلاميون علنا بتوزيع منشور بعنوان (مسار الحرب المقدسة). وكانت الفترة من ١٩٦٥ إلى ١٩٧٢ إحدى فترات القلاقل السياسية في جامعة كابول. كان الطلاب مناهضون بشدة للشيوعية واندلعت صراعات عنيفة عديدة في الجامعة بين المسلمين والماويين. ورغم أن الإسلاميين في البداية كانوا أقل عددا من الشيوعيين إلا أن النفوذ الإسلامي انتشر بسرعة وأصبحوا أغلبية في الانتخابات الطلابية في عام ١٩٧٠".(٢٤)

قال فريق سري من السفارة الأمريكية في كابول منذ يونيو ١٩٧٠ أن القيادة الدينية في البلاد، خاصة عائلة مجددي الدينية، قوية وفعالة. وقال الفريق أن النضال من جانب رجال الدين أثار قضية اليسار على الأقل في الريف وإن التحفظ الديني أظهر لأول مرة من سنوات عديدة أنه قوة لابد أن تأخذها الحكومة في الاعتبار. وكتب الملحق السياسي في السفارة أن رجال الدين اتفقوا على الاستمرار في الجهاد في الأقاليم. وأضاف أن جهودا تبذل في العاصمة كابول للحفاظ على جذوة الصحوة الدينية ونقلها إلى الأسواق التجارية. وأضاف إلى ذلك بعض التطورات المستقبلية بطريقة ساخرة تقول أن القوة العسكرية لتي يتمتع بها رجال الدين لن تتكشف إلا بعد فترة ما.(٢٥)

وكان عبد الرسول سياف من بين قادة الحركة الإسلامية الأفغانية في مطلع السبعينات وكانت منظمته تابعة للإخوان المسلمين والسعودية ومن بين الزعماء الدينيين التابعين لها برهان الدين رباني وقلب الدين حكمتيار وجميعهم قادوا قوات الجهاد في

الثمانينات. ويقول روا: أن الحركة التي بدات تعمل علنا هي الشبان المسلمين وعلى المستوى السري تمركزت أو تمحورت حول منظمة "الأساتذة". وكان الأستاذ غلام محمد نيازي من هيئة التدريس في جامعة كابول هو الذي قاد منظمة الشبان المسلمين شبه السرية. وكانت جامعة كابول تستفيد من دعم المخابرات المركزية عن طريق المؤسسة الآسيوية. وفي عام ١٩٧٢ شكل رباني وسياف وحكمتيار فيما بعد مجلسا إرشاديا للحركة وأشرف حكمتيار على الجناح العسكري السري. كانت المنظمة بكاملها تعمل في شكل خلايا صغيرة تكون كل منها من خمسة أعضاء وفي السبعينات مرة أخرى تأسيا بالنمط الذي تعمل به الإخوان المسلمين في مصر وباكستان، وبدأوا التغلغل في القوات المسلحة.(٢٦) وفي نفس العام كشفت وثائق عن السفارة الأمريكية أن عضوا في الشبان المسلمين التقى مسئول أمريكي عدة مرات لطلب المساعدة ووصف بالتفصيل نشاط جماعته المناهض للشيوعية (بما في ذلك قتل أربعة من اليساريين) وطلب مساعدات أمريكية سرية لشراء مطبعة. غير أن الوقت لم يكن قد حان بعد لتوجيه مساعدات المخابرات الأمريكية ورفض المسئول الطلب فيما عبر عن تعاطفه مع أهداف الجماعة.(٢٧)

ومنذ ذاك الوقت تقريبا بدأت المخابرات الأمريكية تلعب دورا أكثر حيوية نيابة عن الإسلاميين الأفغان. فيما سبق كانت مساعدات المخابرات متواضعة وتأتي عن طريق المؤسسة الآسيوية إلى جامعة كابول والقوات الإسلامية. لكن في عام ١٩٧٣ أقال الأمير محمد داوود الملك بمساعدة الشيوعيين وأقام الجمهورية الأفغانية. وتحرك اليمين الإسلامي في شكل معارضة علنية لداوود لكنها كانت للأسف مفتتة إلى شراذم تقوم على الأنانية والإيديولوجيات. وبعد قليل وجدوا أصدقاء لهم في الخارج.

بدأ شاه إيران جهودا عاجلة للقضاء على الحكومة الأفغانية الجديدة بالتعاون مع المخابرات الأمريكية وباكستان التي كانت تحت حكم ذو الفقار على بوتو ثم الجنرال الإسلامي ضياء الحق. كان هذا قبل سنوات من الغزو السوفيتي لأفغانستان وقبل الجهاد الإسلامي في الثمانينات لكن قوة دفع الحرب الإسلامية المقدسة، الجهاد في الأرض الآسيوية المغلقة، بدأت تتكثف، وبلغت ذروتها بدفع من المحابرات الأمريكية. وبعد عدة

سنوات اعترف مسئول في الحكومة الباكستانية يعمل مع **ابنه** على بوتو وشغل منصب رئيس الوزراء، بدعم المخابرات الأمريكية للإسلاميين في أفغانستان وأنه بدأ فور انقلاب داوود في عام ١٩٧٣.

وأفادت تقارير صحفية نقلا عن نصير الله بابر المساعد الخاص لبينظير بوتو رئيسة الورزاء أنه قال في مقابلة في إبريل ١٩٨٩ أن أمريكا كانت تمول المنشقين الأفغان منذ عام ١٩٧٣ وأنها وضعت قلب الدين حكمتيار زعيم الحزب الإسلامي تحت جناحها قبل أشهر من الغزو السوفيتي للبلاد.(٢٨)

ووصف دييجو كوردوفيز وسليج هاريسون اعتمادا على وثائق سوفيتية تم الكشف عنها، بالتفصيل جهود الولايات المتحدة وإيران والسعودية وباكستان في تعبئة اليمين الإسلامي داخل أفغانستان فقالا: "كان الأمر في بداية السبعينات مع ارتفاع أسعار النفط وبدأ شاه إيران محمد رضا بهلوي جهوده الطموحة لوقف مد نفوذ السوفيت إلى الدول المجاورة وإنشاء نسخة حديثة من الإمبراطورية الفارسية القديمة. وبداية من عام ١٩٧٤ أطلق الشاه حملة مدبرة لإدخال أفغانستان في دائرة إقليمية اقتصادية أمنية تميل إلى الغرب تكون طهران محورها وتضم الهند وباكستان ودول الخليج. وشجعت أمريكا تلك السياسة في إطار شراكتها مع الشاه في المجالات الاقتصادية والأمنية والجهود السرية في جنوب غرب آسيا."(٢٩)

كان الهدف من الجهود الإيرانية الأمريكية، المدعومة أيضا من السعودية وباكستان، تعزيز اليمين الإسلامي والقوى المحافظة في حكومة داوود المعتدلة من أجل إخراج أفغانستان من الفلك السوفيتي. ويقول كوردوفيز وهاريسون: "تعاونت السافاك والمخابرات الأمريكية عن كثب أحيانا دون تخطيط محكم مع الجماعات الإسلامية السرية الأفغانية التي كانت لها أهداف مناهضة للسوفيت لكن لها أيضا أهداف خاصة بها. كان المتشددون الأفغان مرتبطين ارتباطا وثيقا فيما بينهم ومع الإخوان المسلمين في مصر ورابطة العالم الإسلامي العنصر الهام في الوهابية السعودية المتشددة. ومع القفزة في أرباح النفط وصلت بعثات من الجماعات الإسلامية المتشددة في الدول العربية حديثة الانضمام إلى الدائرة المتشددة إلى المشهد الأفغاني تحمل أموالا طائلة. واستخدم هؤلاء

مخبرين، مثلهم مثل السافاك، حاولوا تحديد المتعاطفين مع الشيوعية في الحكومة الأفغانية والقوات المسلحة".

وأضاف الكاتبان - كوردوفيز وهاريسون - أن المخابرات الإيرانية وفرت السلاح ومساعدات أخرى للجماعات السرية في أفغانستان المرتبطة باليمين الإسلامي فيما ساعدت المخابرات الباكستانية في تنسيق جهود الإغارة على أهداف أفغانية. وشارك عملاء من المخابرات الإيرانية والمخابرات المركزية الأمريكية والباكستانية في محاولات انقلاب فاشلة ضد داوود في سبتمبر وديسمبر عام ١٩٧٣ ويونيو ١٩٧٤.(٣٠)

في عام ١٩٧٥ شعر الإسلاميون الأفغان أنه بمقدروهم أن يشنوا تمردا شاملا ضد الأمير داوود وهو الذي كان لا يزال متحالفا مع الشيوعيين ولو كان التحالف هشا. لكنه تم قمع الانتفاضة والقي القبض على العديد من المتمردين وإعدامهم وهرب آخرون أمثال حكمتيار ورباني إلى المنفى غاليا إلى باكستان وبدأوا يحصلون على دعم حقيقي من المخابرات العسكرية هناك. وفي السنوات الأربع التالية طورت المخابرات الباكستانية علاقات وثيقة مع تحالف المتمردين الأفغان خاصة القلب الإسلامي. وربط تحليل سري من الخارجية الأمريكية بين المخابرات والإخوان المسلمين في الأزمة الأفغانية عام ١٩٧٥ وقال: "ما لم يلاحظه أحد في التورط المزعوم لباكستان في أحداث أفغانستان هو أن داوود كان يقمع أهدافا دولية للإسلام فقد كان المواطنون الأفغان قادة الدوائر المتمردة بالإضافة إلى أفراد يخدمون الأهداف الباكستانية، من المنتمين إلى الإخوان المسلمين التي كانت الجماعة الأكبر التي دخلت في اتفاق مع باكستان عن طريق رئيس المخابرات الجنرال جيلاني".(٣١)

غير أنه في أفغانستان بدأ داوود يتجه إلى اليمين بضغط من الولايات المتحدة وشاه إيران وباكستان. وبين ١٩٧٥ و ١٩٧٨ غير داوود اتجاهه وتخلى عن التحالف مع مؤيدي الجناح اليساري وبدأ إنشاء المؤسسة المحافظة والجيش الأفغاني. وفي عام ١٩٧٦ التقى داوود مع الشاه وبدأ بناء على ذلك تعيين ضباط من اليمين وزعماء آخرين من المؤيدين للغرب في مناصب عليا. وبحلول ١٩٧٨ بدأت فرق الأعدام الحكومية

الأفغانية اغتيال زعماء اليسار والشيوعية وتم تطهير النظام الأفغاني منهم.. وتقلصت قاعدة سلطة داوود لتقتصر على مجموعة صغيرة من القوات المسلحة شديدة المحافظة ويقول كوردوفيز وهاريسون أن السلطة كانت في يد السافاك من وراء الكواليس والموالون لرابطة العالم الإسلامي السعودية والإخوان المسلمين.(٣٢) وتفاقمت الأزمة في إبريل ١٩٧٨ عندما بدأ نور محمد ترقي الشيوعي انقلابا مواليا للسوفيت ووقع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي. وقام اليمين الإسلامي مدعوما بالمخابرات الباكستانية بحملة إرهاب في أنحاء البلاد واغتال عددا من المدرسين والموظفين العموميين وهجوما ضد الأفغان العلمانيين المتعلمين.

وكانت الولايات المتحدة على علم بأن المنظمات الأفغانية تقوم بحملة إرهابية مضادة للسوفيت من تحت عباءة الإخوان المسلمين وفق العديد من التقارير من الخارجية والسفارة. يقول أحد التقارير بصراحة أن التهديد الخطير للنظام الجديد يمكن أن يأتي من القبائل والجماعات الإسلامية.(٣٣) ويقول تحليل آخر في ابريل ١٩٧٩ إن بعض فصائل المعارضة الدينية يمكن أن تلتف حول الإخوان المسلمين.(٣٤) وفي يونيو ١٩٧٩ جاء في تقرير بعنوان "الوضع الحالي والانتفاضة في أفغانستان": أن كافة الأقاليم في الوسط والشرق والغرب من أفغانستان وقعت تحت سيطرة المتمردين. وأضاف أن المتمردين معروفون بأسماء عديدة مثل المجاهدين والإخوان المسلمين. وقال أن الحكومة تسير إلى المتمردين بأنهم "رجال دين صناعة لندن".(٣٥)

خلال تلك الفترة حتى مع اندلاع الثورة الإيرانية في ١٩٧٩، زادت وازدهرت روابط الإسلاميين الأفغان مع باكستان وبالتالي زاد ميل الإسلاميين في باكستان إلى التحالف مع نظرائهم في أفغانستان. وأسس الجنرال ضياء الحق نظاما يقوم على الشريعة الإسلامية وشجع على نمو الجماعة الإسلامية الباكستانية بقيادة أبو الأعلى المودودي. وفي الوقت الذي كان فيه الخميني مشغولا بإقامة الجمهورية الإسلامية الإيرانية كان زبجينو بريجنسكي والمخابرات الأمريكية يقومون بإنشاء جيشهم الإسلامي في أفغانستان. غير أن ذلك كان يتجاوز كونه إستراتيجية أمريكية تجاه الموقف في

أفغانستان، فقد كانت جهود بريجنسكي تهدف إلى تطبيق رؤيته المعززة لمدرسة بينجسن في استغلال اليمين الإسلامي كسيف مسلط على رقاب الاتحاد السوفيتي ذاته.

الجيش الإسلامي لبريجنسكي وبيل

كشف زبجينو بريجنسكي عن أسرار هذه المرحلة في مقابلة مع صحيفة "لو نوفيل اوبزرفاتور" فقال أن الدعم المخابراتي للمجاهدين الأفغان بدأ قبل الغزو السوفيتي وليس بعده. وجاء في المقابلة "وفقا للمسجل رسميا في التاريخ بدأت مساعدة المخابرات للمجاهدين الأفغان في عام ١٩٨٠ أي بعد الغزو السوفيتي لأفغانستان في ٢٤ ديسمبر عام ١٩٧٩ لكن الواقع الذي كان خفيا حتى الآن، يختلف تماما عن ذلك. الحقيقة أن بدء الدعم المخابراتي للأفغان كان في ٣ يوليو ١٩٧٩ عندما وقع الرئيس كارتر أول مرسوم مساعدات سرية لمعارضي النظام الموالي للسوفيت في كابول. في ذاك اليوم كتبت مذكرة إلى الرئيس أوضحت فيها رأيي أن تلك المساعدات سوف تؤدي إلى تدخل عسكري سوفيتي".(٣٦)

غير أنه وراء هذا السر كان هناك سرا آخرا هو أن أمريكا كانت متورطة مع اليمين الإسلامي في أفغانستان والشرق الأوسط في السبعينات. وعلاوة على ذلك فان الجهاد الأفغاني بدأ عام ١٩٧٨ عندما بدأ اليمين الإسلامي الأفغاني انتفاضة بالتنسيق والدعم من المخابرات الباكستانية شمال شرق البلاد وليس في عام ١٩٨٠ بعد عبور السوفيت للحدود بين البلدين وليس في عام ١٩٧٩ عندما بدأت المساعدات المخابراتية الأمريكية تتدفق رسميا. في مارس ١٩٧٩ انفجر الجزء الغربي من البلاد خاصة في حيرات العاصمة الإقليمية الرئيسية في الغرب القريبة من إيران. انتفضت جماعة إسلامية متشددة ترتبط برجل الحرب إسماعيل خان ومؤيدة من الجمهورية الإسلامية الإيرانية وقامت باغتيال عدد من المسئولين الحكوميين الأفغان. وقتلت أكثر من عشرة من الخبراء السوفيت مع زوجاتهم وأطفالهم. خلال الفترة تلك استمرت أمريكا في علاقاتها مع جهاز المخابرات العسكرية الإيرانية ورئيس وزراء الحكومة الجديدة بازرجان وكانت المخابرات تمد إيران بالمعلومات عن الاتحاد السوفيتي والعراق

وأفغانستان وهو تحالف سري استمر حتى الاستيلاء على السفارة الأمريكية في طهران على يد عملاء الخميني في ديسمبر ١٩٧٩.

في مارس ١٩٧٩ استكملت المخابرات الأمريكية أول مساعدات رسمية مباشرة إلى الإسلاميين الأفغان ونسقت معهم الثورة في حيرات. ويقول جيتس إن بعض مسئولي المخابرات اعتقدوا أن التدخل السوفيتي في أفغانستان سوف يشجع على إثارة المشاعر الإسلامية والعربية ضد الاتحاد السوفيتي. ويقول جيتس ليس الأمر هكذا فقط بل هناك جانب عملي أيضا فقد قامت المخابرات بمسح أفغانستان لتعرف إذا كانت تصلح لتمركز مواقعها التي فقدت نظيرتها في إيران في عام ١٩٧٩.(٣٧) في بداية عام ١٩٧٩ بدأت أمريكا تدرس تقديم مساعدات فعالة سرية إلى المجاهدين وطلبت كل من باكستان والسعودية من أمريكا أن تتدخل بشكل أكبر. وفي السعودية قال مسئول كبير أن هناك احتمال لحدوث نكسة سوفيتية في أفغانستان وقال أن حكومته تدرس رسميا اقتراح أن تقدم أمريكا مساعدات للمتمردين. ومع أن بعض المحللين الأمريكيين بما فيهم بعض المسئولين في المخابرات اعتقدوا أن الدعم المباشر للمجاهدين الأفغان يمكن أن يؤدي إلى هجوم سوفيتي على باكستان واندلاع صراع دولي بين السوفيت والأمريكيين، فإن أمريكا وافقت على المساعدات المباشرة للمتمردين.(٣٨) اتصلت المخابرات بالسعودية وباكستان بشأن توفير مساعدات للمتمردين الأفغان وأكد بريجنسكي في يوليو عام ١٩٧٩ أن الرئيس كارتر وقع أول مرسوم رئاسي يأمر بأن توجه المخابرات مساعدات "غير قاتلة" لليمين الإسلامي بما فيها أجهزة اتصالات.

واعترف بريجنسكي في مقابلته مع "اوبزرفاتور" إن هذا التدخل كان يهدف إلى إثارة الغزو السوفيتي لأفغانستان ورغم ذلك فإنه بعد حدوث الغزو أعرب المسئولون الأمريكيون عن الدهشة والصدمة. وقال بريجنسكي إنهم لم يدفعوا السوفيت إلى الغزو والتدخل لكننا رفعنا فرص واحتمالات أن يحدث ذلك. وردا على سؤال حول ما إذا كان نادما على مساعدة الانتفاضة الإسلامية المتشددة وتوفير السلاح والتدريب لمن تحولوا إلى "إرهابيين" في المستقبل، قال: "ما هو الأهم في تاريخ العالم وجود طالبان أم انهيار الإمبراطورية السوفيتية؟ لقد قام البعض بإثارة المسلمين أو تحرير أوربا الوسطى ونهاية

الحرب الباردة فأيها أهم؟". واعترف بأنه قال للرئيس كارتر: "الآن يمكننا أن نبدأ حرب فيتنام السوفيتية" في إشارة إلى توريط السوفيت في أفغانستان كما تورطت أمريكا في فيتنام.(٣٩)

بحلول نهاية ١٩٧٩ كان أكثر من ٧٥% من الأفغان مشاركين في الثورة. قبل أعياد الميلاد قام الجيش الأحمر بغزو أفغانستان للدفاع عن الحكومة الأفغانية الحليفة. ومن أسرار الجهاد الأمريكي في أفغانستان أن أمريكا سمحت لمخابرات باكستان والجنرال ضياء الحق بالسيطرة على توزيع المساعدات للمجاهدين الأفغان منذ البداية. ومما نشر في هذا الصدد ما أشار إليه الصحفي ستيف كول في كتابه "حروب الأشباح" من أن ضياء الحق سعى إلى السيطرة السياسية على أسلحة المخابرات الأمريكية وأموالها وتحقق له ذلك. وأشار كول إلى أن ضياء الحق كان يصر على أن يمر كل دولار وكل سلاح للمجاهدين الأفغان عبر باكستان أولا. وكان يصر على أن يحدد أي الجماعات التي تحصل على أي شيء وقبلت المخابرات الباكستانية هذا الأمر على مضض.(٤٠) وزار الأمير تركي الفيصل، رئيس المخابرات السعودية في ذاك الوقت، واشنطن والتقى بريجنسكي ووافق على تقديم مساعدات تعادل ما تقدمه أمريكا للأفغان بالتساوي.

وفي الفترة بعد عام ١٩٨٠ ظهر تحالف بين المخابرات الباكستانية والإسلاميين في باكستان من ناحية وممثلي الاتصال في الحكومة السعودية وشبكات خاصة من المخابرات السعودية وأسامه بن لادن ورابطة العالم الإسلامي من ناحية أخرى. كانت باكستان والسعودية مقربتان لعدة سنوات وشمل التقارب العلاقات العسكرية حيث كانت إسلام آباد ترسل قوات خاصة ومرتزقة لمساعدة وحماية العائلة المالكة السعودية وتدريب القوات السعودية. وكتبت شيرين هنتر أن العلاقات الباكستانية مع السعودية ودول الخليج الأخرى تعود إلى الستينات فقط. ودرب الضباط الباكستانيون مثلا الجيش السعودي وجيوش دول الخليج الأخرى. كان أحد هؤلاء الجنرالات هو ضياء الحق.(٤١) وفي السبعينات اعتمد بوتو أولا ثم ضياء الحق ثانيا على المساعدات السعودية خاصة منذ ارتفاع أسعار نفط الأوبك في عام ١٩٧٣ مما ألقى بتأثيره السلبي

على الخزانة الباكستانية واستنفذ عملاتها الصعبة لشراء النفط. كانت المساعدات السعودية مقرونة بأهداف سياسية. وكان نمو التشدد الإسلامي في باكستان مرتبطا بشكل وثيق بالدعم السعودية لإسلام آباد.

بالنسبة لأمريكا فإن التحالف السعودي الباكستاني كان نقطة تنظيمية لأن كلا البلدين من حلفاء أمريكا الذين كان يمكن الاعتماد عليهما لشن حرب تطهيرية ضد الاتحاد السوفيتي. لكن حكومتا كارتر وريجان أغفلتا الأهداف الخفية لكل من السعودية وباكستان ومخططاتهما. فقد كانت الحكومتان تهدفان بالدرجة الأولى إلى استنزاف الاتحاد السوفيتي في أفغانستان مهما كان الثمن. كانت باكستان تضع دائما في حسبانها عدوتها اللدودة الهند وترى أن سياستها في أفغانستان تمس العمق الإستراتيجي وستكون حليفا لها في العمق الاسيوي ضد نيودلهي. وكان الجنرال ضياء الحق يحلم بما هو " باكستان العظمى". وكان للسعودية مصالح حاصة بها أيضا واعتبرت النزاع في باكستان جزءا من المنافسة الأوسع نطاقا مع إيران الذي كان نظامها الشيعي المتشدد يهدد العراق ودول الخليج. واعتبرت السعودية أن أفغانستان ووسط آسيا جناحا لها في نزاعها مع إيران وأرادت من ناحية أخرى أن تعزز التشدد السني الوهابي في أفغانستان وما وراءها من أجل أضعاف إيران. واحتضن بريجنسكي وكيسي التحالف السعودي الباكستاني لكن كلا البلدين كان له عميله المفضل في أفغانستان. كان قلب الدين حكمتيار في باكستان يشتهر بأنه متشدد عنيف وقاسي يترأس جماعة متشددة مسلحة هي "الحزب الإسلامي".

وكان قلب الدين هو مدلل ضياء الحق والمخابرات الباكستانية ومثله مثل زعماء المجاهدين كان يعمل مع المخابرات منذ مطلع السبعينات عندما بدات باكستان سرا في دعم الطلبة المتشددين في جامعة كابول وكانوا يتمردون ضد النفوذ السوفيتي في الحكومة الأفغانية. وكان قلب الدين جزء لا يتجزأ من موجة التشدد الإسلامي التي ظهرت في العالم. ووفق دلائل عديدة فإن قلب الدين كان مسئولا عن إلقاء حامض الكبريتيك الحارق على وجوه النساء الأفغانيات اللاتي لا يرتدين الحجاب.(٤٢) كان

حكمتيار يسلخ المساجين وهم أحياء (٤٣) وكان صبغة الله مجددي الإسلامي الأقل تشددا إلى حد ما يسمي حكمتيار "الوحش الحقيقي".(٤٤)

ويقول تشارلز ولسون الجمهوري من تكساس المدافع عن دعم الجهاد الأفغاني أنه يوافق على أن ضياء الحق كان محبذا تماما لحكمتيار لأن ضياء يرى العالم على أنه صراع بين المسلمين والهندوس واعتقد أنه يمكنه الاعتماد على حكمتيار للعمل على بناء كيان إسلامي جامع يمكنه الوقوف في وجه الهند.(٤٥)

كان الحزب الإسلامي بزعامة حكمتيار أحد ستة إلى ثمانية أحزاب أفغانية تشكل التحالف المناهض للسوفيت كان هذا التحالف هو الأكبر من نوعه واشتهر عنه أيضا أنه يضم أكثر المقاتلين شراسة وزاد إعجاب المخابرات الأمريكية به لهذا السبب. وقال مسئول في المخابرات الأمريكية ساعد في الإشراف على الجهاد "لم نعتقد في البداية أننا سوف نهزم السوفيت، لكننا كنا نريد أن نقتل أكبر عدد ممكن منهم ويبدو أن حكمتيار كان يشجع من يستطيع أن يفعل ذلك، وكانت طبيعته عاملا مساعدا".(٤٦) وقال كول اعتبر مسئولو المخابرات الأمريكية في قسم الشرق الأدنى الذين كانوا يديرون البرنامج الأفغاني أن حكمتيار هو الشخصية التي يمكن الاعتماد عليها بفاعلية. على الأقل كان حكمتيار يعرف من هو العدو، هذا ما طمأن مسئولي المخابرات الأمريكية.(٤٧) وكان حكمتيار جذابا بالنسبة لرجال المخابرات المسئولين عن العملية الأفغانية، مثلهم مثل بريجنسكي وكيسي، يعتقدون أن أفغانستان هي مفتاح إضعاف السوفيت بين الجمهوريات الإسلامية لأن الرجل كان يأمل في توسيع نطاق الحرب خارج أفغانستان. ويقول ديليب هيرو أن حكمتيار تحدث عن غارات فدائية وراء حدود نهر أوكسوس وسط آسيا السوفيتية ودفع الشيوعية للخلف بتحرير الأراضي الإسلامية في بخارى وطشقند ودوشانبي.(٤٨)

وكانت شخصية السعودية المفضلة هي عبد الرسول سياف زعيم الإخوان المسلمين في أفغانستان. وعندما اندلعت الحرب ظهر سياف وحكمتيار على أنهما الزعماء الأفغان الأقرب إلى همزات الوصل مع المقاتلين الأجانب وغالبيتهم من العرب، الذين تدفقوا على أفغانستان للمشاركة في الجهاد. وبنهاية الثمانينات سيكون ما يسمى

"الأفغان العرب" زعماء الحركات المتشددة المسلحة الإسلامية في مصر والجزائر والسعودية والعراق وأماكن أخرى منها الشيشان وأوزبكستان. وكان حكمتيار وسياف قريبان من أسامة بن لادن الذي بدأ نجمه يسطع في الفترة من ١٩٧٩ إلى ١٩٨٠ عندما شارك في الجهاد الأفغاني. وقد جمع حكمتيار عندما كان في المنفى في باكستان، من حوله الإسلاميين المتشددين العابرين المناهضين للغرب الذين جاءوا متطوعين للحرب.(٤٩)

كان المسرح إذن مجهزا لمعركة كبرى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في أفغانستان. في أعقاب الثورة الإيرانية استمرت أمريكا في تعبئة العالم الإسلامي ضد الاتحاد السوفيتي، بقيادة باكستان والسعودية ومصر ليدخلوا في معركة في الجبال النائية في وسط آسيا. وهرع عشرات الآلاف من المجاهدين الذين أشعلوا لهيب الحرب، إلى معسكرات التدريب على الحدود الأفغانية الباكستانية من كل حدب وصوب من أنحاء العالم. ولم تكن أمريكا تفهم جيدا طبيعة القوات التي عبأتها وأطلقتها.غير أن هذا لم يمنع حكومة ريجان من محاولة توسيع الحرب الأفغانية إلى داخل الاتحاد السوفيتي ذاته ومحاولة إشراك حتى الخميني في هذه الحرب.

الفصل الحادي عشر

الجهاد (٢): في وسط آسيا

عندما بدأ الجهاد الإسلامي في أفغانستان تحت رعاية أمريكية في عام ١٩٧٩ كان الوضع انتقاليا يتسم بحساسية بالغة في تاريخ الإسلام السياسي. منذ عام ١٩٤٥ إلى ١٩٧٩ كان يبدو أن الإسلام السياسي مرتبط بشدة بالغرب ومناهضا للشيوعية ومعسكر الحرب الباردة. وخلال تلك الفترة أشار كثير من المحللين أن الإسلام السياسي موالي لأمريكا أو على الأقل متعاطف مع الأهداف السياسية والاقتصادية الأمريكية في المنطقة. وأعرب رجال الدين الذين يتسم طبعهم بالشراسة في أفغانستان عن كراهتهم الشديدة للشيوعية. وفي الصحراء السعودية أطلق الوهابيون صيحات الغضب الشديدة ضد اليسار والقوى القومية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط وباكستان. وقام الإسلاميون والإخوان المسلمون(*) من كابول إلى إسلام آباد إلى بغداد إلى القاهرة بحرب ضد العلمانيين وراحوا يحذرون الجماهير من الماركسية.

وتغيرت الأمور رغم هذا كله بداية من ١٩٧٩. مثلت الثورة الإيرانية الخمينية تحديا للمصالح الأمريكية والأكثر من ذلك أن اليمين الإسلامي بدأ يشن عمليات إرهابية نالت من المصالح الأمريكية والزعماء الموالين للغرب.. من المسجد الحرام في مكة إلى أنور السادات إلى الإرهاب الذي مثله حزب الله في لبنان. كانت أمريكا بطيئة في فهم الدروس المستفادة من تلك التطورات. فقد أخفقت أولا في التعاطي مع الأسباب التي تقف وراء الإرهاب "الإسلامي" بعد ١٩٧٩ برغم نداءات من الزعماء العرب مثل الرئيس المصري حسني مبارك في هذا الاتجاه. والأهم من ذلك أن الولايات المتحدة أخفقت في فهم الدرس الأكبر وهو أن اليمين الإسلامي ليس معارضا فقط للشيوعية بل مناهض بشدة للغرب وشركائه من فترة طويلة في الشرق الأوسط الذين يعتمد عليهم ألا وهم القوميين العلمانيين الديمقراطيين.

برغم تزايد الأدلة على أن اليمين الإسلامي يعتبر حليفا في خطورة الشيطان فإن حكومة ريجان أيدت جهاد هذا الشيطان. ومن الصعب الآن تخيل نطاق التحالف الأمريكي الإسلامي في ذاك الوقت وسط ما تسميه حكومة بوش الحرب العالمية على

* هنا يتأكد ان الإخوان المسلمون في سياق الكتاب لا ينطبق في كل الأحوال على جماعة الإخوان في مصر أو حتى على تنظيمها الدولي فقط.

الإرهاب ضد القاعدة ومن على شاكلتها. وخاض المسئولون في الأمن القومي الأمريكي والمخابرات في إدارة ريغان التي يغلب عليها عقلية المحافظين الجدد في عام ١٩٨١ الحرب الأفغانية بحذر، على غرار ما جرى في عام ١٩٥٣ عندما جرى الاحتفاء بسعيد رمضان القيادي في الإخوان خلال لقائه في البيت الأبيض مع الرئيس أيزنهاور. والحقيقة أن هؤلاء المحافظون الجدد الآن هم الذين يشنون حربا تحت شعار "صدام الحضارات" على الإرهاب ويضغطون بقوة من أجل إقامة تحالف مع الإسلاميين الأفغان وفي الوقت نفسه يتوصلون مرة أخرى إلى اتفاق أو صفقة مع آيات الله في إيران.

لقد أقامت أمريكا التحالف مع الإسلاميين في الثمانينات برغبتها الكاملة. ومنذ ١٩٧٩ إلى ١٩٨٢ اعتبرت حكومتا كارتر وريجان أن هناك تهديدا من اليمين الإسلامي وقررتا تجاهل هذا التهديد.

وفي أعقاب الثورة الإيرانية عقد المسئولون في حكومة كارتر اجتماعا موسعا لتحليل الإسلام السياسي. وشمل الحاضرون مسئولين من الخارجية ومحللين من المخابرات وسفراء عملوا في الشرق الأوسط. وقال هارولد ساوندرز الذي كان مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى "هناك جهد كبير للتحليل و يتركز على الدول والملكيات العربية المحافظة. والتركيز الأساسي على احتمال حدوث (ثورة مماثلة) في الأردن ومصر والسعودية أو أن تصاب بالعدوى من إيران". ويقول ساوندرز ومسئولون آخرون إن نتيجة هذا التقييم كانت أن الإسلام السياسي لا يشكل تهديدا (لأمريكا). وأضاف "لاحظنا من حركة الإسلام السياسي أن هذا لا يمكن أن يتكرر". لكن السؤال هو هل تستطيع الحكومات القائمة التعامل مع هذا؟ وكان يتم التركيز بشدة على السعودية لكن لم يكن هناك من يمكنه تأكيد أن السعودية يمكن أن تسقط. وكنا نعتقد أن السادات في مصر قادر على معالجة الوضع".(١) وبالتأكيد لم تبذل أي جهود لمنع السعودية من متابعة سياستها المستمرة منذ فترة طويلة في استغلال الإسلام السياسي في سياستها الخارجية. ولم نبذل أي جهود لمنع السادات من التودد إلى لإخوان المسلمين. ولم تبذل أي جهود لمنع إسرائيل والأردن من دعم الإخوان المسلمين في حملتهم

الإرهابية ضد سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية. وبالطبع أيدت أمريكا وباكستان تماما الجنرال ضياء الحق الذي كان نظامه المرتبط بالإخوان المسلمين ومخابراته يديران الجهاد الأفغاني.

وفي النهاية تم اعتبار أن الحركة الإسلامية قوة يمكن احتواؤها من جانب الحكومات المعنية. ولم تبذل جهودا حقيقية لفهم أن تلك الحكومات قد تتغير وكيف يمكن أن تتغير المجتمعات التي تحكمها وكيف نظم الإسلاميون أنفسهم دوليا. واستمر صناع السياسة في الاعتقاد في أن الإسلام شديد التنوع لدرجة لا يمكن أن يكون له نمط عالمي وأصروا على إمكانية التعامل معه على أساس كل دولة على حدة. وقال ساوندرز: "توصلنا إلى أننا لا يمكن أن يكون لنا سياسة تجاه الإسلام السياسي".(٢)

في أعقاب الثورة الإيرانية كانت هناك تعليمات بسيطة على استحياء من واشنطن وفروع المخابرات المركزية في الخارج بتوفير تقييم عن أثر إيران على ما حولها. ونظر المحللون من المخابرات والمسئولون من الخارجية إلى الدول التي يمكن أن تتهدد بثورة الخميني وقدروا أن التهديد الداخلي يبدو ضعيفا جدا، وأن الأنظمة الموالية لأمريكا مادامت موجودة فهي ليست في خطر ولم يدق أي مسئول أمريكي ناقوس الخطر بشأن تزايد قوة الإسلام السياسي وتأثيراته في الدول التي بليت به أو احتمالات أن الإسلاميين المتشددين قد ينقلبون على أمريكا. وقال رئيس فرع المخابرات في المغرب إنه كان هناك افتراض في البداية بأن الثورة الخمينية سوف تنتشر وأنها سوف تمتد إلى المغرب والأردن والسعودية وأن الملكيات في خطر. وتوجهت إلى المغرب ولم أجد أي شيء من هذا القبيل. كانت الحركة الإسلامية هناك صغيرة جدا".

وأضاف يقول: "في كتيب الإرشادات المخابراتي عن المغرب هناك ٨ صفحات فقط عن الإسلام والسياسة. وكنت أقول للضباط العاملين معي..تعرفوا على الإسلام بتأن. وعندما كانوا يتحدثون إلى الإسلاميين كنت أقول لهم اسألوا عما لا تفهمون ثم استمعوا لما يقولون بإسهاب".(٣) وتوصلنا إلى نتيجة أنه لا خطر على المغرب كما الحال بالنسبة لبقية الدول المعنية.

وكانت مارتا كيسلر من المحللين القلائل في المخابرات الأمريكية الذي اهتموا بالإسلام السياسي والإخوان المسلمين. وتقول في الأعمال الميدانية لم يهتم الكثير من عملاء المخابرات بذلك لأن أغلب الإسلاميين المتطرفين كانوا تحت المجهر. كان لدينا عادة من الحرب العالمية الثانية وهي أن نركز العملاء على المدن الكبيرة أو العواصم والحركة الإسلامية لم تكن تتركز في تلك المدن بل كانت في الأرياف والمحافظات والمدن الصغيرة. وتعتقد كيسلر أن الحركة الإسلامية كانت ذات شخصية تميل إلى مناهضة أمريكا. وكتبت تحليلا في ذاك الوقت حذرت فيه من أنه إذا تلاعبت حكومات مثل مصر والسودان وباكستان مع الإسلاميين سوف يكون لذلك عواقب وخيمة. وقالت مارتا: "قلت عندما تبدأ حكومات المنطقة في بذل جهود للتعاون مع الإسلاميين فسوف تتغير شخصيات تلك الحكومات. وكنت أؤمن بأن الإسلاميين سوف يكونون مناهضين للغرب".(٤) ومن نافلة القول أن تحليل كيسلر لم يقنع صناع القرار بالتخلي عن ترتيب موقفهم المتعلق باندلاع الحرب الأفغانية.

وكانت نفس وجهة النظر تسود بين المسئولين في الحكومة الأمريكية عن مكافحة الإرهاب. ويقول روبرت باير العميل السابق في المخابرات الأمريكية "بعد اغتيال أنور السادات كنت في مركز مكافحة الإرهاب. وقرأت بعض الوثائق، بعض أوراق محاكمات من اغتالوا السادات وبدأت اتساءل من هؤلاء الناس وما هي أهدافهم وما هي علاقاتهم. وبدأت أبحث عن وثائق عن الإخوان المسلمين. لكنه لم يكن في تفكيرنا أن نبحث عن هؤلاء الناس".(٥)

ولم يكن السادات على أي معرفة تذكر بمدى خطورة اليمين الإسلامي وهو الذي استغل الإخوان المسلمين والموارد المالية من المصارف الإسلامية لتعزيز ودعم قبضته على السلطة عندما أصبح رئيسا لمصر في عام ١٩٧٠. وخلال أيام من الغزو السوفيتي لأفغانستان تعاون السادات بحماس مع أمريكا والسعودية وباكستان في إرسال المجاهدين إلى بيشاور من أجل المشاركة في الحرب.

وهكذا توسع الجهاد في أفغانستان إلى حرب شاملة وأبرمت حكومة ريجان، التي تعمل بعقلية الحرب الباردة، صفقة مع آيات الله في عام ١٩٨٠ وألمحت لإسرائيل أن

تسلح إيران من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٧ وأعطت مخابرات نظام الخميني معلومات عن اليسار الإيراني وأخيرا في مسألة إيران كونترا باعت أسلحة امريكية لإيران وهي لا تزال تبحث عن إسلاميين معتدلين لا وجود لهم.

العرب الأفغان

كان الذين قاموا بالحرب والجهاد في أفغانستان في غالبيتهم أجزاء من التحالف الذي تدعمه باكستان ويتألف أساسا من رجال حرب عصابات مرتبطين بإحدى الفصائل المتطرفة الأربعة كما يقول مسئول سابق في المخابرات الأمريكية أدار عمليات سرية هناك. ويقول: "كان هناك نحو ٣٠٠ الف محارب كلهم من الإسلاميين باستثناء ١٥ ألف فقط.(٦) كانت الغالبية العظمى من الأفغان غير أنه كان هناك مجاهدين من أجزاء أخرى من العالم خاصة مصر والأردن والسعودية والخليج. كان هؤلاء هم المادة الخام التي صنع منها أسامة بن لادن ومنظمة القاعدة حديثة الميلاد، الذين خرجوا من عباءة هذا الجهاد. الذين يطلق عليهم العرب الأفغان يشملون بن لادن ذاته وأيمن الظواهري من الجهاد الإسلامي المصري الرجل الثاني في منظمة القاعدة، وعشرات الآلاف من المجاهدين من الدول العربية وإندونيسيا والفلبين والشيشان وأجزاء أخرى من العالم الإسلامي.

كان هؤلاء هم رجال حرب العصابات الذين عادوا إلى بلادهم بعد انتهاء الحرب ومنها الجزائر ومصر ولبنان والسعودية ووسط آسيا، للاستمرار في جهادهم. تعلم الكثير منهم بالطبع فنون حرب العصابات والاغتيالات والتخريب والسيارات المفخخة على يد الولايات المتحدة وحلفائها.

وفي يناير ١٩٨٠ زار بريجنسكي مصر لتعبئة الدعم العربي للجهاد. وخلال أسابيع من زيارته وافق السادات على مشاركة مصر الكاملة في الجهاد وأعطى موافقة للقوات الجوية الأمريكية على استغلال مصر كقاعدة وتوفير كميات من الأسلحة المصرية للمشاركين في العمليات وتجنيد وتدريب وتسليح نشطاء الجماعة الإسلامية في مصر لخوض المعركة. وأصبح السادات وحكومته لفترة من الوقت أحد المساهمين

الفعليين في تجنيد وإدارة جيش سري من المتحمسين الذين يتم إعدادهم لمحاربة السوفيت في جنوب ووسط آسيا.(٧) وأقلعت طائرات الشحن العسكري المصرية من قنا وأسوان في الجنوب لنقل إمدادات متوالية إلى قواعد الجهاد في باكستان. ويقول جون كولي رئيس فرع المخابرات في باكستان خلال فترة الحرب "فتحت مصر مخازن أسلحتها السوفيتية لترسلها إلى مهمة الجهاد. وتم تحويل مصنع سلاح قديم بالقرب من حلوان لتوريد نفس الأنواع من الأسلحة"(٨).

ووفرت مصر ودول أخرى ما هو أكثر من السلاح. وقرر عدد من الدول في العالم الإسلامي أنه من الحصافة إرسال المجاهدين الإسلاميين إلى الحرب الأفغانية ربما يعتقدون أنهم يصيدون طائرين بحجر واحد أولا يرضون الولايات المتحدة التي كانت تبحث عن مقاتلين، وثانيا يتخلصون من شوكة في خاصرتهم. وربما شعر السادات مثل غالبية القادة الآخرين أن هؤلاء سوف يموتون في الحرب. ويقول كولي إن الحكومات الإسلامية أفرغت ما بها من سجون لترسل هؤلاء المذنبين إلى الحرب الأفغانية.(٩) ولم يتم تجهيزهم إرسالهم إلى أفغانستان وحسب بل حصلوا على تدريب عال من القوات المسلحة الأمريكية. وبحلول نهاية عام ١٩٨٠ تم إرسال مدربين من الجيش الأمريكي إلى مصر لنقل خبرات القوات الأمريكية الخاصة إلى هؤلاء المصريين الذين سيدربون المتطوعين المصريين الذين سوف يذهبون للجهاد في أفغانستان.(١٠)

على صعيد آخر فقد كان للبريطانيين، الذين اتخذوا من أفغانستان مرتعا للعبة الكبيرة في القرن التاسع عشر والذين يرتبطون بوشائج استعمارية وثيقة مع باكستان، تاريخ طويل في التعامل مع القبائل والزعماء الدينيين في المنطقة الأفغانية الباكستانية. وقال جوس افراكوتوس المسئول المخابراتي الذي شارك في لعبة الجهاد لسنوات إن البريطانيين لديهم رجال عاشوا هناك ٢٠ سنة في هيئة صحفيين أو كتاب أو يزرعون التبغ وعندما دخل السوفيت إلى أفغانستان عملت المخابرات البريطانية على تنشيط وتفعيل هذه الشبكات القديمة". ويقول افراكوتوس: "كان البريطانيون قادرون على شراء أشياء لا نستطيع نحن شراءها لأنها تستخدم في القتل والاغتيالات والتفجيرات العشوائية. كانوا يستطيعون الحصول على مسدسات بكاتم صوت ولم يكن بمقدورنا أن

الانتحارية. أما المجاهدون الأفغان المرتبطون بأسرهم وقبائلهم والشبكة الاجتماعية المحيطة بهم فلم ينفذوا عمليات انتحارية أبدا بأعداد تذكر".(١٧)

وتدرب المجاهدون الأفغان داخل الولايات المتحدة أيضا اعتبارا من ١٩٨٠ تحت إشراف بريجنسكي في مختلف القواعد الأمريكية على الساحل الشرقي. ودربهم أصحاب القبعات الخضراء والبحرية الأمريكية. وتعلم المجاهدون الأفغان في أمريكا أكثر من ٦٠ طريقة سرية للقتل وتعلموا استخدام أجهزة متقدمة ومؤقتات زمنية ومفرقعات وأسلحة أوتوماتيكية وأسلحة لخرق الدروع وأجهزة تحكم من بعد لتفجير الألغام والقنابل (استغلوها فيما بعد في بلادهم وضد الإسرائيليين) وتعلموا التخريب الاستراتيجي والتدمير والإحراق عن عمد.(١٨)

واندلعت الحرب الأفغانية على عدة مراحل. بدأت الحرب بطيئة وبعد مرور خمس سنوات لم يكن في حسبان أمريكا أن تفوز بالحرب أو هزيمة السوفيت وتجبرهم على الانسحاب بل مجرد إيلام الاتحاد السوفيتي وإراقة بعض دمائه وإحراجه وتحقيق أهداف دعائية. وفي عام ١٩٨٤ استمرت المخابرات الأمريكية في تمويل الحرب وقدمت السعودية تمويلا مماثلا فتسارعت وتيرة الحرب وأدارها تشارلي ولسون بمباركة من بيل كيسي ودعمه. وبلغ تمويل المجاهدين في ١٩٨٤ ٢٥٠ مليون دولار أي بقدر التمويل الذي تم إنفاقه في السنوات السابقة بكاملها.(١٩) واستمرت الحرب في التصاعد وبلغ التمويل ٤٧٠ مليون دولار عام ١٩٨٦ وبلغ ٦٣٠ مليون دولار في العام التالي له. وبذلت أمريكا جهودا كبيرة أيضا لإشراك دول أخرى في الحرب ومنها الصين. ويقول تشارلز فريمان السفير الأمريكي في الصين في السابق إنه من ١٩٨١ إلى ١٩٨٤ قدمت بكين ٦٠٠ مليون دولار للتسليح في أفغانستان.(٢٠) وقام كيسي بتوسيع نطاق تمويل الحرب فضلا عن أن أهدافه أصبحت أكثر طموحا. بدأ كيسي يبحث الآن عن النصر وسعى إلى توفير أسلحة أكثر تطورا وتقدما إلى المجاهدين ومنها صواريخ ستينجر أرض جو التي يقال أنه كان لها أثر فعال في المعارك من الناحية العسكرية.(٢١)

ومع توسع الجهاد من حيث الأهداف والنطاق بدأ مزيد من العرب والأجانب يتدفقون على أرض المعركة. وقامت دول ومنظمات عديدة بحملات لجمع المتطوعين منها مصر والسعودية والمنظمات الدولية المرتبطة باليمين إسلامي مثل الإخوان المسلمين ورابطة العالم الإسلامي ومنظمة الإغاثة الإسلامية الدولية. وقد تحقق حلم أسامة بن لادن وهو أن تتكاتف المنظمات الإسلامية المتطرفة في العالم على تجنيد المجاهدين وإرسالهم إلى باكستان ثم تزج بهم في أفغانستان للجهاد. وكتب كولي يقول: "عرضت رحلات إلى باكستان للدراسة الدينية على الكثير من المتطوعين". وأضاف كولي يقول: "غالبا لم يكن المتطوعون يحصلون على تدريب عسكري خلال الدراسة الدينية لمدة ستة أسابيع أو حتى يعلمون بالجهاد ضد السوفيت الشيوعيين أعداء الله. كان يأتي ذلك في نهاية فترة الدراسة. عندئذ يظهر مسئولو المخابرات الباكستانية ليقدموا فتاوى ويعرضون فرص التدريب على آلاف المتطوعين القادمين من الجزائر ومصر والسودان والسعودية وغيرها".(٢٢)

ويقول أحمد رشيد الصحفي الباكستاني صاحب كتاب "طالبان" أنه في الفترة من ١٩٨٢ إلى ١٩٩٢ حارب نحو ٣٥ ألف متطوع إسلامي متشدد من ٤٠ دولة إلى جانب المجاهدين خلال فترة الحرب وبعدها وتم تدريب عشرات الآلاف الآخرين في المدارس التي أنشأها الجنرال ضياء الحق على طول الحدود بين باكستان وأفغانستان. وفي النهاية بلغ عدد المشاركين المباشرين في الحرب مع المجاهدين الأفغان ١٠٠ ألف اقتنعوا بالجهاد.(٢٣)

وتم تجنيد بعض المجاهدين داخل الولايات المتحدة بين الجاليات العربية والإسلامية. ووافق العديد من المجاهدين العرب على المشاركة في مركز الكفاح للاجئين الأفغان في بروكلين. وكان من الصعب اقتفاء أثر الحقائب المليئة بالأموال والشيكات المحررة لحاملها أو الجوالات المالية من رابطة العالم الإسلامي وجماعة التبليغ ومنظمات دينية أخرى مقرها باكستان.(٢٤) وكان عبد الله عزام من المشاركين في تجنيد المجاهدين في أمريكا في منتصف الثمانينات وهو إسلامي فلسطيني متطرف كان أستاذا لأسامة بن لادن وسوف يساهم في تأسيس القاعدة. وكان في مكتب الخدمة الذي

أنشأه أسامة بن لادن وعزام في بيشاور عام ١٩٨٤. ولعب مكتب الخدمة الذي يحمل اسمه كل البراءة، الدور المحوري في نقل العرب والمجاهدين الأجانب إلى الحرب.

ولد عزام في جنين عام ١٩٤١ وانضم إلى الإخوان المسلمين عندما كان شابا في سوريا حيث درس الشريعة الإسلامية في مطلع الستينات عندما كانت الحركة تقوم بحملتها ضد ناصر في العالم العربي.(٢٥) ورغم أنه ينتمي إلى منظمة التحرير الفلسطينية فقد انشق عنها خلال الصراع مع الملك حسين في سبتمبر (أيلول الأسود) عام ١٩٧٠ عندما أيد الإخوان الملك. وقضى عزام فترة في الأزهر في القاهرة خلال الفترة التي كان أنور السادات فيها يعيد الإخوان المسلمين إلى البلاد وانتهى به الحال مدرسا للتشريع الإسلامي في جامعة الملك عبد العزيز في السعودية حيث كان بن لادن تلميذا له. واستخدمت رابطة العالم الإسلامي عزام ليرأس القسم التعليمي. وفي عام ١٩٨٠ سافر لأول مرة إلى باكستان. وفي عام ١٩٨٤ أنشأ عزام مجلة الجهاد وكتب فيها بإسهاب عن واجبات المسلم، فضلا عن مشاركته في تأسيس مكتب الخدمة. وكتب عزام دعوة إلى حمل السلاح التي وفرت خريطة الطريق لخطته للجهاد العالمي وقال فيها: "الجهاد فرض عين على كل مسلم إلى أن تعود الأراضي التي كان تحت سيطرة المسلمين إلينا ويسود الإسلام على تلك الأراضي مرة أخرى. وأمامنا فلسطين وبخارى ولبنان وتشاد والأندلس وإريتريا والصومال والفلبين وبورما اليمن الجنوبي وطشقند.(٢٦) وأراد عزام أن يجمل الأمور فقال للمجاهدين المحتملين أن أسامة بن لادن سوف يدفع ٣٠٠ دولار شهريا للعرب الذين سيحاربون في أفغانستان.

وقد نشر مايك شوير مسئول المخابرات الذي تولى في السنوات التالية المهمة الأمريكية للقبض على أسامة بن لادن كتابا في عام ٢٠٠٢ بعنوان "في أعين عدونا " وهي وثيقة مفصلة عن ظهور بن لادن والقاعدة. ووصف شوير في الكتاب دور مكتب الخدمة المعروف عربيا باسم "ماك". وقال شوير: "اتجه بن لادن إلى تأسيس المنظمات غير الحكومية الإسلامية لتنفيذ الأنشطة المدعومة عسكريا عندما انضم إلى الشيخ عبد الله عزام لتأسيس مكتب الخدمات المعروف باسم "ماك" في بيشاور في منتصف الثمانينات. كانت وظيفة مكتب الخدمات إغاثة ضحايا الحرب الأفغانية لكنه كان يتلقى

المتطوعين وينظمهم وينقلهم إلى أفغانستان ويتلقى أموالا وأسلحة تتدفق على المجاهدين من دول العالم الإسلامي. وفي المجال المالي قالت صحيفة "الوطن العربي" إنه في الفترة بين ١٩٧٩ و ١٩٨٩ تم إرسال نحو ٦٠٠ مليون دولار إلى منظمة أسامة بن لادن عن طريق الهيئات الخيرية في الخليج خاصة في السعودية والكويت وعمان والإمارات والبحرين وقطر.(٢٧)

ويقول شوير أن بن لادن وعزام كانا على اتصال جيد بجمعيات إسلامية خيرية أخرى تشمل رابطة العالم الإسلامي وغيرها. ويقول مسئولون في المخابرات الأمريكية شاركوا في تنظيم الجهاد أن المخابرات لم تشارك مباشرة مع عزام وبن لادن في تجنيد المتطوعين العرب رغم أنها لم تعارض هذا العمل. وكشف روبرت جيتس مدير المخابرات في ذاك الوقت أن المخابرات درست الطرق والوسائل التي تؤدي إلى زيادة المشاركة في الجهاد ورغم أنها لم تتخذ أي خطوات في هذا الصدد، لم تتخذ أي إجراءات لمنع تجنيد الأفغان العرب أيضا. وبدأت المخابرات تلاحظ بعد فترة طويلة من انتهاء الجهاد الأفغاني وتحوله إلى تاريخ يروى، أن التمويل السعودي الأمريكي للحرب لم يكن المصدر الوحيد للتمويل للمجاهدين كما يشير الرقم الذي كشفه شوير وهو ٦٠٠ مليون دولار. انهمرت التبرعات الخاصة وشبه الخاصة من الإخوان المسلمين على المجاهدين ولم يخضع أي منها لأي رقابة مثل التي فرضتها المخابرات الباكستانية على التمويل الأمريكي والسعودي. وقالت صحيفة "أفغانستان" التي تعد مرجعا للجهاد ويحررها ضابط المخابرات الباكستانية محمد يوسف أن نظام إمداد وتمويل موازي تطور بعيدا عن القنوات الرسمية من جهات غير معلومة وكان جزءا كبيرا منه يأتي من التبرعات العربية. وكتب يوسف يقول إنها كانت أموال عربية في الأساس هي التي نفذت النظام ويعني بذلك، حسب قوله، إنه كان مالا من أثرياء أو منظمات خاصة في العالم العربي وليس من أموال الحكومة السعودية. وبدون تدفق تلك الأموال فإن تدفق السلاح إلى المجاهدين سيتوقف. والمشكلة أن كل تلك الأموال ذهبت إلى الجماعات المتطرفة وليس إلى المعتدلة (٢٩)، كما يقول يوسف. وأضاف ان غالبية الأموال اتجهت إلى عبد الرسول سياف الناشط الرئيس للتنظيمات الإسلامية في أفغانستان وأحد العلماء

الإسلاميين الذين ساعدوا في تنظيم الجمعيات السرية التي ظهرت في الستينات والسبعينات. وكان سياف وقلب الدين حكمتيار الأقرب إلى أسامة بن لادن. وكان حكمتيار زعيم المجاهدين المتشدد الذي كان حزبه الإسلامي أكبر واكثر المنظمات الإسلامية شراسة.(٣٠)

حصل سياف وحكمتيار على نصيب الأسد من الأموال العربية لأن القسم الأكبر منها تم تحويله إلى المجاهدين عن طريق الجماعة السلامية الباكستانية المرتبطة بالإخوان المسلمين، وهي الحزب الإسلامي الذي أنشأه أبو الأعلى المودودي.

تأسست الجماعة الإسلامية (الباكستانية) في عام ١٩٤٠ وقضت غالبية الخمسينات والستينات في مكافحة اليسار الباكستاني والعلمانيين. وأصبحت الجماعة الإسلامية في السبعينات قوية لدرجة أنها استوعبت الدولارات النفطية التي تدفقت من الدول العربية الخليجية وساعدت في دفع باكستان إلى اليمين في السبعينات تحت جناح رئيس الوزراء ذو الفقار علي بوتو والجنرال ضياء الحق.

ويقول سيليج هاريسون الخبير في شئون جنوب شرق آسيا الذي ساهم في كتاب "الخروج من أفغانستان" إن الإخوان المسلمين كانت توزع أموال هنا وهناك. ويضيف هاريسون أن الجماعة الإسلامية كانت مرتبطة بضياء الحق وتعاون عن كثب معهم وساعدهم والكثير من الشخصيات الرئيسية في المخابرات الباكستانية كانوا أعضاء في الجماعة. وبدأت الأموال تتدفق إلى المجاهدين حتى قبل الغزو السوفيتي لأفغانستان كما يقول هاريسون وذلك عن طريق عناصر الإخوان المسلمين في الخليج ورابطة العالم الإسلامي. ويضيف هاريسون أن كل هذا تم عن طريق باكستان بمساعدة الرابطة والجماعة الإسلامية التي أصبحت ثرية.(٣١) في ذاك الوقت لم يستشعر أحد أهمية بن لادن وعزام و بدا المتطوعون في الجهاد الأفغاني قوة هامشية من عدة مئات من الآلاف من المجاهدين الأفغان. وكانت المخابرات الأمريكية حريصة بشكل كبير على تنفيذ جدول الحرب الباردة من والجانب المتعلق بالجهاد في إطار تلك الحرب لدرجة أنها لم تدرس العواقب الناتجة عن تعزيز القوى الإسلامية المسلحة في أنحاء العالم. وفي الوقت نفسه كان بيل كيسي مشغولا بفتح جبهة ثانية ويدفع نحو توسيع نطاق الحرب الأفغانية

لتصل إلى وسط آسيا بموارد لم يحلم زبجينو بريجنسكي والكسندر بينجسن بها قبل ذلك بسنوات قليلة.

عبر نهر آمو

عبر كيسي عن رؤية مستلهمة من الدين للنضال ضد الشيوعية في نقل الجهاد الأفغاني إلى داخل الاتحاد السوفيتي ذاته، فضلا عن إتباع أسلوب ينطوي على قدر كبير من المخاطرة في السياسة الخارجية. وفي ظل حكومة ريجان كان هناك مدرستان على الأقل تتنافسان فكريا، الأولى تشير إلى القواعد الدبلوماسية الأمريكية التي ترى أن الاتحاد السوفيتي منافس قوي لابد من تحديه على مستوى العالم لمنع السوفيت من تحقيق أي مكاسب. والثانية التي يمثلها المحافظين الجدد وكيسي التي تدافع عن سياسة إبعاد الاتحاد السوفيتي عن العالم الثالث وأوربا الشرقية ووسط آسيا. وقال هيرب مير رئيس أركان كيسي في المخابرات في الثمانينات أن الانقسام الحقيقي في حكومة ريجان لم يكن بين الليبراليين والمحافظين بل بين الذين يتمنون الحيلولة دون الهزيمة في الحرب الباردة والذين يودون الفوز بها. وكان كيسي في المعسكر الذي يحلم بالفوز بالحرب الباردة (٣٢) وكان المفتاح لتحقيق ذلك هو الحرب الأفغانية.

وكان كيسي يعتقد أن الفوز بالحرب الباردة سيحتاج إلى إقامة تحالف قوي بين دول "قوس الإسلام" الذي اقترحه بريجنسكي ومنها مصر وباكستان والسعودية. واهتم كيسي بشكل خاص بالسعودية باعتبارها درة العقد. واعتبر كيسي أن السعودية أكثر من مجرد مصدر تمويل لدعم الجهاد وأكثر من مجرد من مركز ديني للتشدد الإسلامي. ويقول ماير إن كيسي عبأ سلاح النفط السعودي ضد السوفيت في الثمانينات. وأضاف أن السعوديين ساعدونا جدا في الفوز بالحرب الباردة. كان الاتحاد السوفيتي يعتمد على النفط للحصول على العملة الصعبة وبالتالي طلب كيسي من السعودية أن ترفع إنتاجها من النفط من أجل انهيار سعر النفط. وقال ماير أن كيسي لعب الدور الرئيسي في التعاون مع السعوديين لخفض سعر النفط، وكان السعوديون يمقتون السوفيت بشدة. ورفعت السعودية إنتاجها من النفط وانخفض السعر إلى مستويات قياسية وتراجع الدخل

السوفيتي بشدة. وأضاف ماير أنها كانت ضربة قاصمة للسوفيت كما لو كنت قطعت عنهم الهواء والمياه.(٣٣)

وكان يي المؤمن لديه اعتقاد وإيمان بقدرة الدين وأهميته بشكل ميكيافلي فيما يخص استغلال السياسة للمعتقدات الدينية. ويوضح ماير أن كيسي كان متدينا ولديه علاقة قوية مع البابا. وكتب كول في كتاب "حروب الأشباح" أن كيسي كان يرى الإسلام السياسي والكنيسة الكاثوليكية على إنهما الحليفين الطبيعيين في "الإستراتيجية المضادة الواقعية" للعمل الذي كان يقوم به في المخابرات للقضاء على استعمارية السوفيت. وكان رئيس أركان كيسي، مستشاره لشئون الشرق الأوسط روبرت ادمز هو الخبير الديني في المخابرات وكان عنصر تشجيع لكيسي. وشكر كيسي ادمز في أحد خطاباته وأرجع إليه الفضل في إيضاح أهمية الجهود التي يبذلها السوفييت وحلفاؤهم في العالم الإسلامي لاقتلاع الديانة من جذورها بسبب التهديد الذي تشكله على الشيوعية أو سيطرة الحزب القومي. وقال كيسي نقلا عن ادمز أن الاتحاد السوفيتي يريد اقتلاع الديانات وتغيير العناصر التقليدية في المجتمع. ويعني هذا التأثير على أهمية الدين وانتزاع الشباب من أهلهم لتقوم الدولة على تعليمهم وتربيتهم. ولهذا السبب على الديانتين الرئيسيتين في العالم (الإسلام والمسحية) أن تتعاونا، وفق كيسي الذي كان مقتنعا بأن الإسلام والمسيحية المتشددين لابد أن يتعاونا لتحقيق هذا الهدف المشترك"(٣٥) لأن السوفيت يعتقدون بأن الدين عقبة في طريقهم".

وكان كيسي يغضب زملاءه المحترفين في المخابرات برؤيته الخيالية عن تنامي قوة الإسلام السياسي. ويقول ريتشارد كروجر عميل المخابرات الذي عمل لسنوات في مكتب شاه إيران، أنه عمل مع كيسي، ويضيف انه بعد الثورة (الإيرانية) تعاون مع كيسي وجميع رؤساء المخابرات في وضع تصور مستقبلي في اجتماع عقد في كامب بيري لتحليل الحركة الإسلامية. ويقول كروجر أن جون مكماهون نائب كيسي اختلف معه بشأن تلك القضية. وقال كروجر أنه يتذكر خلافات وضغائن بين الرجلين حول الدلالات طويلة المدى للثورة الإسلامية وكان مكماهون يتخذ موقفا يدق ناقوس الخطر وكيسي لا يكترث على الإطلاق. ويوضح كروجر أن كيسي كان يريد فقط التهوين من

الموقف وتدخل مكماهون وكان غاضبا ويتحدث عن التطرف الإسلامي ويقول أنه سوف ينتشر في إندونيسيا والفلبين. وكان مكماهون يعتقد إنه من الطبيعي أن تتحول الثورة الإسلامية إلى العالمية عن طريق كل أنواع الاتصالات الدينية والاجتماعية ولا يبدو أن هذا سيكون تحت سيطرة دول، لكن كيسي لم يوافق على هذا الكلام.(٣٦)

كانت آراء كيسي عن الدين والسياسة ترجع إلى ريجان صاحب العقيدة الراسخة ولم يكن لدى الرجلين أي مشكلة في أن الجهاد الأفغاني مجرد حرب دينية تتحالف فيها المسيحية والإسلام ضد الاتحاد السوفيتي الملحد.

وقد كتب فواز جرجس أن حكومة ريجان استمرت في إتباع التقليد الأمريكي في تأييد القوى الدينية في الشرق الأوسط فقال: "في ظل حكومة ريجان استقرت سياسة أمريكا على دعم العناصر الدينية المحافظة ضد العلمانية والاشتراكية والقوى القومية في العالم الثالث. وفيما كانت تصريحات الحكومة معادية تماما في العلن لم يكن هناك تغيرات مصاحبة لذلك في السلوك الفعلي نحو الإسلاميين الجدد. ولابد أن يعتبر تغلغل حكومة ريجان في فصائل المجاهدين الأفغان في سياق المرحلة الثانية من الحرب الباردة. وقد أقام رونالد ريجان تحالفا بين أمريكا والجماعات الإسلامية والدول الإسلامية مثل أفغانستان والسعودية وباكستان، كما فعل أسلافه في الخمسينات والستينات، من أجل محاربة ما أسماه "إمبراطورية الشر وعملاءها في العالم الثالث".(٣٧)

أحيانا تبدو رغبة كيسي في تشجيع الإسلام السياسي دربا من الإثم المبين. وينطبق ذلك على تعامل كيسي مع الملك فهد عاهل السعودية. روى جوس افراكوتوس قصة الجدل حول زيارة كيسي إلى السعودية للتشجيع على دعم تمويل الجهاد. ويقول افراكوتوس: "قلت لكيسي أنه ينبغي أن تتحدث إلى الملك عن إخوانك المسلمين عن الأموال اللازمة لتغذية العائلات وملابسهم وأسلحتهم وإصلاح المساجد. لابد أن تتحدث إليه باعتباره حامي حمى الإيمان". وقال كيسي: "يا الهي أحب هذا التعبير، حامي حمى الإيمان، يا الهي تعبير جميل".(٣٨)

وأكد مسئول مخابراتي كان ضالعا في قصة الجهاد ما قاله افراكوتوس وقال: "لابد ن نقول للسعوديين شيئا حسنا مثل أن المجاهدين الأفغان يطردون الشيوعيين الملحدين. كان هذا هو الحديث السياسي إلى الملك فهد".(٣٩)

واعتبارا من عام ١٩٨٤ دفع كيسي في اتجاه التحالف السعودي الباكستاني لتنفيذ إستراتيجية شديدة الجرأة وإطلاق دعاية وتخريب وحرب عصابات عبر نهر آمو في الجمهوريات الإسلامية السوفيتية. ويقول ماير مساعد كيسي: "الحدود في تلك المنطقة منحدرة ولذلك كل الأمور المثيرة وقعت".(٤٠) ويقول مسئول مخابراتي عمل مع كيسي في ذاك الوقت: "كان هناك انتفاضات موسمية تنفجر داخل أراضي الاتحاد السوفيتي تسبب رعبا لموسكو".(٤١) وعول كيسي في تنفيذ تلك الخطوات الاستفزازية على خطط العمل التي تم تطويرها في ظل حكومة كارتر لكنها تعرضت للرفض بسبب الخطر الشديد الذي قد ينتج عن مواجهة السوفيت لها بطرق قد تكون غير متوقعة بما فيها احتمال ضربة مباشرة ضد باكستان أو بذل جهود لإثارة تمرد في بلوخستان الإقليم الباكستاني غير المستقر.

ويصف يوسف من المخابرات الباكستانية بالتفصيل حركة المجاهدين الأفغان عبر الحدود الشمالية فيقول: "كان السكان على جانبي الحدود من الاوزبك والطاجيك والتركمان. ويشترك هؤلاء في العرق برغم القمع الشيوعي للنشاط الديني إلا أنهم يشتركون أيضا في نفس العقيدة وهي الإسلام.(٤٢) ويقول يوسف عن كيسي الذي زار مقر المخابرات الباكستانية "كان أول من يدافع بجدية عن مهاجمة الروس السوفيت في عقر دارهم. وكان مقتنعا بأن إثارة المشكلات في تلك المنطقة من المؤكد سوف يسبب مشكلات وصداعا للروس. في البداية كان النشاط قاصرا على نشر الدعاية إلى الجمهوريات الإسلامية داخل الاتحاد السوفيتي من أجل إثارة الحماس الإسلامي. وخلال الثمانينات تم طباعة آلاف النسخ من القرآن باللغات الوسط آسيوية وتم توزيعها عبر الحدود الأفغانية إلى تلك الجمهوريات. كانت بعض نسخ القرآن مطبوعة في السعودية والأخرى طبعتها المخابرات المركزية الأمريكية ذاتها باستخدام اتصالات مع أوربا الشرقية.

كانت السعودية بصفة خاصة تهتم بوسط آسيا لأنها شاهدت ما حدث في إيران ونظام الخميني هناك باعتباره منافسا لها ويحاول نشر نسخة من التطرف الشيعي إلى وسط أسيا، في مقابل التشدد السني السعودي الوهابي. ويقول مسئول سابق في المخابرات الأمريكية تعاون مع المملكة، في المخابرات السعودية قالوا له اقتراحاتهم عن استعمار الجمهوريات الآسيوية. وكتب يول "كان السعوديون يريدون الوصول إلى وسط آسيا ويسبقون الإيرانيين في هذا ويقطعون الطريق على الروس ويتأكدون من نشر الإسلام السني بدلا من الشيعي. وكان السعوديون مستعدون للذهاب إلى هناك. وقالوا إنهم لابد أن يذهبوا إلى هناك، إلى الجمهوريات السوفيتية في وسط آسيا ولابد أن نتعاون سويا ونستغل الإسلام لكسر شوكة الشيوعية في تلك الجمهوريات مثل قازاخستان واوزبكستان وكل تلك المنطقة. وسوف يهب الأمراء ورجال الدين السعوديون إلى هناك ويرسلون أشياء مثل نسخ من القرآن ومواد أخرى".(٤٣)

اعتبارا من عام ١٩٨٤ لم يقتصر الأمر على نسخ من القرآن والكتب الإسلامية والدعاية. يقول محمد يوسف وسعت الولايات المتحدة من المواد المرسلة لتشمل عدة الحرب مما أدى في السنوات الثلاث التالية إلى العديد من الغارات عبر الحدودية وعمليات تخريب شمالي نهر امو. وخلال تلك الفترة كنا ندرب ونرسل آلاف من المجاهدين إلى مسافة ٢٥ كيلومترا في عمق اتحاد السوفيتي. كانت تلك أكثر العمليات سرية وحساسية في الحرب. وكان مصدر القلق الحقيقي للسوفيت هو انتشار التشدد الإسلامي وتأثيره على المسلمين في وسط آسيا".(٤٤)

وكان مسئول المخابرات الباكستانية مستعدا لإرسال فرق عبر النهر للقيام بهجمات صاروخية ووضع الألغام وإخراج القطارات عن مساراتها أو نصب كمائن.(٤٥) والفرق التي عبرت الحدود السوفيتية سعت إلى إجراء اتصالات بين النشطاء الإسلاميين في المنطقة. وقال يوسف: "لقد دهشت من عدد الذين يريدون المساعدة ومد يد العون. كان بعضهم يريد السلاح والبعض يريد الانضمام إلى المجاهدين في أفغانستان والبعض يريد المشاركة في العمليات داخل أراضي الاتحاد السوفيتي. وقال يوسف: "بلغت الهجمات عبر الحدود ذروتها في عام ١٩٨٦. تم شن

عشرات من الغارات عبر نهر امو فيما بين مناطق جوزان وبادكشان. وكان مواطنون سوفييت يشاركون في بعض الأحيان في العمليات أو يعودوا إلى أفغانستان للانضمام إلى المجاهدين. وتأكد أننا أصبنا الاتحاد السوفيتي في مقتل من شراسة رد الفعل السوفيتي. الحقيقة أن كل غارة أثارت موجة عارمة من القصف والهجمات بالسفن الحربية والطائرات على جميع القرى جنوبي النهر إلى جانب موقع الغارة."(٤٧)

بالطبع كان هذا نوع من الاعتداء الذي يثير خطر التهاب المشاعر الإسلامية داخل الاتحاد السوفيتي بل كان من الممكن أن يثير موسكو للهجوم على باكستان ذاتها وهو أمر يمكن أن يؤدي إلى مواجهة أمريكية سوفيتية عالمية. وقد حدث كل هذا في السر دون علم الجمهورية الأمريكية به. وبعد تقارير الحرب الأفغانية ومنها شهادة يوسف ذاتها، سيطر القادة الأمريكيون أصحاب العقول الباردة على مجريات الأمور وأوقفوا الهجمات عبر الحدود.. وقال يوسف: " بحلول عام ١٩٨٥ أصبح من الواضح أن أمريكا نفضت يدها. لقد شعر أحد القادة في واشنطن بالرعب." لكنه أكد أن المخابرات الأمريكية وغيرها شجعوهم على نشر الحرب داخل الاتحاد السوفيتي بصورة غير رسمية.(٤٨)

وفي النهاية فشلت الهجمات التي دبرها كيسي والمخابرات الباكستانية في إثارة انتفاضة أو ثورة إسلامية داخل الاتحاد السوفيتي. وثبت زيف نظرية بريجنسكي وبينجسن بأن السكان المسلمين ينتظرون الفرصة للثورة على أربابهم السوفيت وأنهم مندرجون في إطار نوع من الإسلام الصوفي السري، غير أنه لا شك أن أعمال كيسي والمخابرات الباكستانية ساعدت على نمو شبكة كبيرة من النشطاء الإسلاميين اليمينيين الذين لا يزالون حتى يومنا هذا يؤرقون مضجع حكومات الجمهوريات السوفيتية السابقة ويحكمها حاليا أنظمة شمولية مختلفة لكنها ليست إسلامية من حيث الشخصية. وقد اكتسبت منظمات مثل الحركة الإسلامية الأوزبكية وحزب التحرير الإسلامي والجماعات الإسلامية القوية في الشيشان وداغستان ومنظمة القاعدة التي تشبه الشبح قوة عظيمة ونفوذا في وسط آسيا في فترة الثمانينات بفعل انتشار الجهاد الأفغاني.

الجهاد لا نهاية له

لم ينته الجهاد الأفغاني عندما سحب السوفيت قواتهم من البلاد. وليس للولايات المتحدة إستراتيجية قائمة أو خطة تنفذها في أفغانستان عقب الحرب. واعتقد غالبية صناع القرار في واشنطن أن الحكومة الضعيفة الموالية للسوفيت في كابول سوف تنهار في فترة وجيزة، لكنها استمرت ولم تسقط. واستمر المجاهدون في الجهاد لكنهم تشرذموا إلى فصائل أصغر بعد الحرب ضد السوفيت وبدأوا يحاربون بعضهم البعض. وأيدت باكستان بشدة الإسلاميين في الدولة التي دمرتها الحرب وكانت تعتبرها شريكا لها في التحالف ضد الهند. غير أن هذا لم يسبب قلقا للمسئولين في أمريكا في ذاك الوقت. ويقول كاسبر واينبرجر وزير الدفاع في عهد ريجان كنا نعلم أننا متورطون مع التطرف الإسلامي ونعرف أنهم ليسوا لطفاء وانهم لا يؤمنون بالديمقراطية. لكننا كنا نواجه مشكلة اختيار عصيبة. تذكروا ما قاله تشرشل: "عدو عدوي اللدود صديقي الحميم".(٤٩)

كانت تلك هي السياسة الأمريكية في أفغانستان ووسط آسيا والقوس الإسلامي في الثمانينات. ولاشك أن الدعم الامريكي للمجاهدين كان خطأ جسيما في الحسابات في ضوء أن غالبيته ذهب إلى المتشددين. لقد أدى هذا إلى تدمير وتمزيق أفغانستان ذاتها وأدي إلى انهيار حكومتها وإلى سيطرة أمراء الحرب على الساحة سواء كانوا من الإسلاميين المتطرفين أو غيرهم. وأدى هذا الدعم إلى ظهور شبكة عالمية من المقاتلين الإسلاميين المدربين تدريبا عاليا من عدد من الدول مرتبطين ببعضهم وينتمون إلى حد ما إلى منظمة القاعدة التي سيشكلها أسامة بن لادن فيما بعد. لقد نتج عن ذلك امة محطمة أصبحت مقرا للقاعدة ومتطرفين "إرهابيين" آخرين كما أدى إلى ظروف شجعت المخابرات الباكستانية في ظلها على نمو حركة طالبان في التسعينات.

غير أن المدافعين عن الجهاد حتى هؤلاء الذين يؤيدونه بشدة في ٢٠٠٥ الحرب العالمية على الإرهاب باعتباره السياسة السليمة ضد الجماعات الإسلامية، يؤكدون أن تلك السياسة كانت سليمة. يقول دانيل بايبس عدو الإسلام السياسي ابن ريتشارد بايبس الذي نسق مجموعة عمل القوميات في بداية حكم ريجان، إنه يعتقد أن هذا العمل كان

صوابا. خلال تلك الفترة كان دانييل بايبس مسئولا في الخارجية ومجلس الأمن القومي. ويقول أيدنا ستالين ضد هتلر، مرددا نظرية واينبرجر عن "عدو عدوي صديقي" ويقول هذه هي الخيارات في العالم الحقيقي. ويقول بايبس إن أكثرهم تطرفا بين المجاهدين كما أن أفضلهم في القتال ومهما كان الأمر فإن المتطرفين الإسلاميين كانوا مناهضين للسوفيت.(٥٠) إنها وجهة نظر أيدها العديد من المخضرمين من المسئولين الأمريكيين عن الحرب الأفغانية بما فيهم مسئولين من المخابرات وصناع القرار.

ويقول ستيفين كوهين المسئول الكبير في الخارجية في الثمانينات: "الذين أيدناهم كانوا هم الأسوأ، كانوا أكثر تطرفا من المجاهدين. وإذا أردنا الفوز في الحرب الباردة وهزيمة السوفيت في أفغانستان لا نستطيع استخدام جيش الخلاص (يقصد جيشا الهيا مخلصا)."(٥١)

ومن نافلة القول أن الفصائل المتطرفة لم تنته بعد قرار السوفيت الانسحاب من أفغانستان رغم أن كفلاء المجاهدين (المسئولون الأمريكيون) تغيروا كثيرا. مثلا بيل كيسي توفي والجنرال ضياء الحق ورئيس المخابرات الباكستانية تعرضا للقتل في حادث سقوط طائرة غامض. لكن اليمين الإسلامي ظل قابعا في أفغانستان وباكستان. كانت الجماعة الإسلامية الباكستانية غنية وذات نفوذ ولها علاقات قوية مع الإخوان المسلمين في أنحاء العالم. وتحول غالبية المسئولين في المخابرات الباكستانية إلى إسلاميين الآن لهم علاقات بالمنظمات الإسلامية. والجماعة الإسلامية والإخوان المسلمين بدورهما حافظا على العلاقات القوية مع قلب الدين حكمتيار والإسلاميين المتطرفين الآخرين في أفغانستان وشبكة المجاهدين المستمرة في النمو والتي يتشكل أفرادها من عدد من الدول يأتون ويذهبون عبر نظام المدارس الدينية. واعتبرت المخابرات الأمريكية ووزارة الدفاع الانسحاب السوفيتي انتصارا كبيرا لهما وابتعدا في الغالب عن أفغانستان، معتقدين أن النظام الموالي للسوفيت الذي يحكم البلاد، ولا يزال في الحكم، بقيادة الرئيس نجيب الله، سوف يسقط بسرعة. وأخذت المخابرات درسا من سرعة سقوط نظام فيتنام الجنوبية بعد انسحاب الأمريكيين وافترضوا أن نجيب الله سوف يسقط في فترة وجيزة أيضا. غير أنه كان لا يزال هناك نوعا من عدم الارتياح في الدوائر الحكومية الأمريكية.

كان هناك نوع من القلق في الخارجية الأمريكية وحتى المخابرات من تولي حكمتيار والمتطرفين الآخرين الحكم في أفغانستان. كان المسئولون السوفييت من بين من حذروا أمريكا من خطر كامن في الحركة الإسلامية. وحاول وزير الخارجية السوفيتي ادوارد شفردنادزه أن يجس نبض نظيره الأمريكي جورج شولتز حول شروط تفاهم أو اتفاق حول الانسحاب السوفيتي من أفغانستان وطلب " تعاونا أمريكيا للحد من انتشار التطرف الإسلامي". غير أن الوزير الأمريكي والحكومة لم يعيروا هذا انتباها" ولم يفكر أي من كبار المسئولين الأمريكيين في هذا النوع من التعاون من قبل. لم يفكروا أبدا في الضغط على المخابرات الباكستانية بأن توقف تأييدها للإخوان المسلمين والفصائل المتطرفة التابعة لها أو المرتبطة بها".

كانت موسكو قلقة جدا بشأن تجذر التطرف الإسلامي على الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي غير أنه حتى فلاديمير كريوتشكوف رئيس المخابرات السوفيتية اجتمع مع جيتس مدير المخابرات الأمريكية لإيضاح أسباب خوف الزعماء السوفيت من تولي حكومة متطرفة الحكم في أفغانستان وهم النصف الآخر من التطرف الشيعي في إيران.(٥٢) وسمحت الحكومة الأمريكية لباكستان والمخابرات الباكستانية أن تستمرا في السيطرة على المقاليد السياسية في أفغانستان. وتوقف الدعم المالي السعودي رسميا لكن المصادر الخاصة غير الرسمية للتمويل استمرت في التدفق عن طريق أمراء أثرياء ورابطة العالم الإسلامي وشبكات الإخوان المسلمين. ويقول السفراء الأمريكيون الذين خدموا في السعودية في ذاك الوقت إن أمريكا وضعت نهاية الحرب بطريقة سيئة للغاية. وقال والتر كاتلر السفير الأمريكي في السعودية في الثمانينات لم يكن أحد يفكر إلى أين سيذهب هؤلاء المجاهدون الذين لا عمل لهم و لا أذكر ي مناقشات حول هذا الأمر، وتساءلت هل يمكن أن يسبب هؤلاء أي تهديد أو خطر؟ لم نكن نركز فعلا بالقدر الكافي على الإسلام السياسي. كانت الحرب الباردة. وتدريب هؤلاء المتحمسين وتسليحهم بصواريخ ستينجر.. لم يخطر على بالنا التفكير فيه".(٥٣)

ويقول تشارلز فريمان السفير لدى السعودية في نهاية الثمانينات حتى حرب الخليج عام ١٩٩١ "نبدأ الحروب دون أن نفكر كيف سوف تنتهي. وقعت أفغانستان في

حرب أهلية ولم نعد نهتم بها على الإطلاق. ويقول فريمان: "لم يتوقف القتال الأفغاني. شعر بعضنا بالقلق وكنت من بين هؤلاء وكذلك روبرت أوكلي السفير الأمريكي في باكستان الذي كان يشعر بالقلق من تدخل المخابرات الباكستانية في أفغانستان وكشمير ومن تورط السعوديين في هذا. لا تستطيع أن تعرف فعلا إذا كان السعوديين يتعرضون للاستغلال أم يشاركون بمحض إرادتهم. تحدثت إلى الأمير تركي رئيس المخابرات السعودية عن الأمر ورأى المخابرات الأمريكية وكانت رسالتي أساسا أننا لابد أن نبدأ التفكير في إخراج أنفسنا. لكن هناك تساؤلات عما إذا كانت السعودية واقعة تحت تأثير المخابرات الباكستانية التي يمكن أن تستغل الأموال السعودية لتنفيذ أهداف خاصة بها و لا نعرف ما هي هذه الاهداف. بالتأكيد كان كثير من الأموال السعودية يذهب إلى حكمتيار. لكننا لم نستطع أن نحدد فعلا الأهداف السعودية. كان هناك ٣ مليارات دولار تتدفق على تمويل الحرب من السعودية وأمريكا وغيرهما. ولا يمكنك أن تحول البوصلة بين عشية وضحاها. وفكرت أنا وبوب أننا لابد أن نجري حوارا جديا حول هذه الموضوع غير أن أحدا غيرنا لم يهتم بما فيهم روبرت جيتس وويليام وبستر مديرا المخابرات. كان الموقف في واشنطن هو – لماذا نذهب إلى هناك ونتحدث إلى أناس يرتدون محارم على رؤوسهم".(٥٤)

ويقول يوسف، الذي يرى بوضوح نهاية الحرب الأفغانية من موقعه في المخابرات الباكستانية، أن بعض الأمريكيين شعروا بالقلق بعد أن وضعت الحرب أوزارها بسبب احتمال استيلاء حكمتيار وأنصاره من المتطرفين على السلطة في البلاد. ويقول أن الأمريكيين بدأوا ينظرون إلى أفغانستان بعيدا عن الجيش الأحمر وما رأوه أشعرهم بالقلق لكن الجنرال أخطر عبد الرحمن خان مهندس الجهاد في المخابرات الباكستانية استطاع وقف الجهود الأمريكية لتعزيز القوى غير المتطرفة في أفغانستان بما فيها القوات المتحالفة مع الملك المنفي ظاهر شاه وغيره والأحزاب غير الإسلامية والأفراد غير المتطرفين. وفهم الجنرال أخطر أهداف الأمريكيين ووسائلهم وعارض كل تحركاتهم. كما عارض أخطر ما يسميه يوسف فكرة الأمريكيين النيرة عن استعادة الملك ظاهر المنفي من فترة طويلة ليرأس حكومة المصالحة الوطنية.(٥٥)

وحتى لو كانت أمريكا تريد أن تبذل أقصى ما في وسعها للحد من قوة التطرف بعد الحرب وتعزيز سلطة المعتدلين والوسطيين والعلمانيين فإن هذا سوف يكون في منتهى الصعوبة لسبب بسيط أن غالبية هؤلاء قد ماتوا. وفي الوقت نفسه كان المجاهدين الإسلاميين يحاربون الاتحاد السوفيتي بل ويقتلون المعارضين في فترة ما بعد الحرب بالآلاف في حرب ثانية غير معروفة جيدا شنها المجاهدون ضد الأفغان غير الشيوعيين.

وتقول شيريل بنارد خبيرة مؤسسة راند في شئون الإسلام السياسي زوجة زلماي خلل زادة السفير الأمريكية في كابول "في البداية اعتقد الجميع أنه ليس هناك وسيلة لهزيمة السوفيت لذا فإن ما علينا أن نفعله هو إطلاق أكثر العناصر جنونا يمكن أن تتوافر في أيدينا على السوفيت وهناك كثير من الخسائر الجانبية في هذه الحالة. كنا نعي تماما من هؤلاء الناس وما هي المنظمات التي ينتمون إليها ولم نهتم".

وتواصل شيريل حديثها فتقول: "ثم سمحنا لهم بالتخلص من، بل قتل، جميع الزعماء المعتدلين. وسبب عدم وجود زعماء معتدلين في أفغانستان الآن هو أننا تركنا الأغبياء يقتلونهم جميعا. لقد قتلوا اليساريين والمعتدلين ومن يقبلون بالحلول الوسط. تم القضاء عليهم ببساطة خلال فترة الثمانينات وما بعدها".(٥٦)

صفقات سرية مع آيات الله

كان يمكن للحطام الذي نجم عن الحرب الأفغانية أن يكون أكثر خطورة إذا أثمرت المبادرات السرية من حكومة ريجان نحو إيران من عام ١٩٨٠ إلى ١٩٨٦. هناك ثلاث حلقات بالنسبة لإيران توازت مع التحالف الأمريكي مع الإسلام المتشدد في أفغانستان هي انتفاضة أكتوبر ١٩٨٠ والعلاقات السرية بين إسرائيل وإيران في الثمانينات ومحاولة حكومة ريجان السرية الاتصال بآية الله خميني بين ١٩٨٤ و ١٩٨٦.

في ١٩٨٠ يبدو أن أعضاء فريق حملة ريجان الانتخابية ومنهم كيسي أجروا اتصالات مع المسئولين الإيرانيين في محاولة لتأجيل إطلاق سراح الرهائن حتى ما بعد

الانتخابات في الوقت الذي حاول المسئولون في حكومة كارتر جاهدين تأمين إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين في إيران.

وقال جاري سيك ضابط البحرية الأمريكية الذي عمل في مجلس الأمن القومي في حكومات فورد وكارتر وريجان، بعد بضع سنوات، أن مسئولي حملة ريجان وبوش الانتخابية دخلوا في محادثات سرية مع زعماء إيرانيين لمنع إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين ووعدنا بإرسال أسلحة أمريكية وإسرائيلية إلى إيران في عام ١٩٨١. وكتب سيك عن ذلك بالتفصيل في كتاب "مفاجأة أكتوبر: الرهائن الأمريكيين في إيران وانتخابات ريجان". وقال سيك: "قام مسئولو الحملة الانتخابية لريجان وبوش بعملية مخابراتية محترفة للإضرار بالعملية الديمقراطية الأمريكية"(٥٧)

وساور سيك الشكوك بأن المحادثات السرية مع إيران كانت تنطوي على وعد بأن الحكومة الجمهورية سوف تؤيد إرسال أسلحة إسرائيلية وغيرها إلى إيران ويحتمل أن يكون بينها أسلحة أمريكية لمساعدتها في حربها ضد العراق التي اندلعت فعليا في سبتمبر ١٩٨٠. وكانت إسرائيل تواقة إلى تزويد النظام الإيراني بالسلاح برغم أزمة الرهائن وكان لها علاقات عسكرية طويلة مع طهران تعود إلى أول صفقة سلاح بينهما في عام ١٩٦٦. وقال سيك قضى الرئيس كارتر على آمال إسرائيل في استعادة العلاقات العسكرية مع إيران لأنه رفض بعناد إرسال شحنات أي سلاح إسرائيلي إلى إيران إلا بعد انتهاء أزمة الرهائن.(٥٨) وما يثير الدهشة أن وسيط صفقة السلاح الإسرائيلية الإيرانية كان أحمد كاشاني ابن آية الله سيد أبوالقاسم كاشاني رجل الدين الذي تلقى أموالا من المخابرات الأمريكية في عام ١٩٥٣ لتنظيم تظاهرات الغوغاء المطالبين بإقالة مصدق وعودة الشاه. زار كاشاني إسرائيل عام ١٩٨٠ وكانت هناك قنوات اتصال أخرى بين إسرائيل وإيران قبل أن يصل كاشاني. ووصلت شحنة إسرائيلية صغيرة من السلاح إلى إيران في ربيع ١٩٨٠.(٥٩)

ويذكر سيك تفاصيل الاتصال والمقابلات بين كيسي ومسئولين آخرين في حملة ريجان ووساطة عدد من الإيرانيين الذين سوف يكون من بينهم من ساهموا في فضيحة إيران كونترا بين ١٩٨٤ و ١٩٨٦.(٦٠) وكان بعض هؤلاء بدورهم لهم علاقة وثيقة

مع إسرائيل وبدأت الأخيرة وإيران في التعاون العسكري الوثيق في أواخر عام ١٩٨٠ بما فيها الغارة الجوية الإسرائيلي في ٧ يونيو ١٩٨١ على المفاعل النووي العراقي بعد أيام فقط من اندلاع الحرب العراقية الإيرانية. وقال سيك أن إسرائيل وفرت لإيران معلومات عن كيفية مهاجمة المفاعل النووي لكن الدفاعات الجوية العراقية كانت من القوة بحيث يمكنها صد الهجوم (٦١)، ولذلك قامت إسرائيل به بنفسها.

وقال سيك أن كيسي ساعد إيران في كسر الحصار الأمريكي على الأسلحة الإسرائيلية إليها. وكتب يقول أن ويليام كيسي توصل فعلا إلى صفقة غير عاطفية مع رجال الدين الإيرانيين لدرجة أن جماعات الضغط الإيرانية في إسرائيل كانت تنظر للأمر بقدر كبير من الإعجاب. واتصل كيسي بإسرائيل في أغسطس وكذلك مسئولين من المخابرات الأمريكية شجعو الدولة اليهودية على التعاون مع مبادرة الجمهوريين كوسيلة للإفراج عن الرهائن.(٦٢) وكان سيك يتلقى تقارير في مجلس الأمن القومي عن شحنات السلاح الإسرائيلية إلى إيران تحديا لمعارضة كارتر لها. وقال أن القيادة الإسرائيلية على أعلى مستوى أدارت ظهرها لحكومة جيمي كارتر عن قصد في شبه ازدراء.(٦٣) وفي النهاية تم إطلاق سراح الرهائن كن في ٢٠ يناير ١٩٨١ بعد دقائق من حلف ريجان اليمين الدستورية كرئيس للبلاد. وقال سيك أن الشك ساور الكثير منا حول أن إطلاق سراح الرهائن كان نتاج مؤامرة حيكت من أشهر على يد ويليام كيسي.(٦٤)

كانت الاتصالات السرية التي أجراها ريجان وكيسي مع إيران في ١٩٨٠-١٩٨١ مقدمة لجهود حكومة ريجان للحفاظ على علاقات سرية مع آيات الله في إيران. واعتبر بعض المسئولين الأمريكيين أن إيران حليفا في خضم الحرب المتصاعدة في أفغانستان لأن الخميني كان يكره الاتحاد السوفيتي ويريد تمديد نفوذ إيران إلى أفغانستان ووسط آسيا. وكان يرى البعض الآخر أن إيران عنصر مواجهة وتوازن مع العراق لسببين، الأول العلاقات الوثيقة بين الاتحاد السوفيتي والعراق والثاني والأهم أن العراق القوي يعتبر تهديدا لإسرئيل.

وانتهجت أمريكا خلال الحرب الإيرانية العراقية سياستين في نفس الوقت. كان المنهج الرئيسي لواشنطن هو الميل نحو العراق خلال حربها مع إيران. والمسئولون

الذين أيدوا ذلك كانوا يعتبرون أن إيران تهديد كبير للمصالح الأمريكية في المنطقة وهزيمة العراق أمام النظام المتطرف في إيران سوف يفتح الطريق أمام سيطرة إيران على كامل الخليج العربي بما فيها الكويت والسعودية. وبالطبع أيد العالم العربي قاطبة العراق في حربها مع إيران ووفرت السعودية دعما محدودا للعراق بما فيه معلومات استخباراتية عن قدرات إيران العسكرية وتوزيع القوات. لكن إسرائيل كانت تنظر إلى الأمر من زاوية مختلفة ومعها مسئولون من المحافظين الجدد ومنهم كيسي.

في الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٧ ورغم أن أمريكا كانت تؤيد العراق رسميا زود الإسرائيليون إيران بالعتاد والسلاح والذخيرة وقطع الغيار. وسواء كان ذلك في إطار صفقة سرية أم لا بين كيسي وإسرائيل وإيران فإن حكومة ريجان وقفت مكتوفة الأيدي أمام تسليح إسرائيل لآيات الله في إيران. وكانت إسرائيل تفعل ذلك اعتمادا على اتصالاتها العديدة مع إيران خلال فترة حكم الشاه. وعندما تم الإطاحة بالشاه استمر الإسرائيليون في العمل مع الجيش الإيراني والمخابرات الذين تربطهم بهم علاقات حتى ولو كان الضباط في الوقت الحالي تحت قيادة آيات الله ورجال الدين. كانت علاقات إسرائيل مع إيران في ظل حكم الخميني متعددة ومتشعبة. كانت لديها علاقات مع الجيش والمخابرات التي خلفت السافاك بعد رحيل الشاه. كما أن الافا من اليهود الإيرانيين كانت تربطهم علاقات طويلة مع التجار الذين هاجر العديد منهم إلى إسرائيل لكنهم حافظوا على علاقاتهم في إيران بما فيها العلاقات مع عائلات غنية من آيات الله المحافظين. واستغلت إسرائيل تلك العلاقات أيضا.

وقال باتريك لانج رئيس قسم الشرق الأوسط في وكالة معلومات الدفاع: "أن إسرائيل كانت تتعامل مع النظام الإيراني على إنه نصف عدو.(٦٥) كانوا يتعاملون مع نفس الشخصيات الذين كانوا يتصلون بهم خلال حكم الشاه. وخلال تلك السنوات كان الإسرائيليون يعقدون اجتماعا شهريا في أوربا مع إيرانيين من القوات الجوية." ويضيف لانج أن اللقاءات الإسرائيلية الإيرانية استمرت لسنوات وسألت إسرائيل عن أنواع الأسلحة التي تريدها أو تحتاج إليها ثم تبحث ما تستطيع توفيره من تلك الأسلحة. في ذاك الوقت أطلق ريجان ما يسمى "وقف العملية " في عام ١٩٨٤ لوقف تدفق السلاح على

إيران والعراق لكن الإسرائيليين خرقوا هذا النظام ولم يستغل ريجان نفوذ أمريكا أبدا على إسرائيل لوقف تسليم السلاح إلى إيران.. وقال لانج إن الإسرائيليين كانوا يفعلون ذلك دوما وفي وكالة معلومات الدفاع اكتشفنا هذا عندما هرب عقيد من القوات الجوية الإيرانية إلينا ليبلغنا بما يحدث. ومع ذلك استمر ريجان وحكومته في غض الطرف عن ذلك، كما يقول لانج. واعتقد أننا لم نبذل أي جهد لوقف هذا. في الفترة التالية لإطلاق سراح الرهائن فقط وفرت إسرائيل لإيران معدات عسكرية وأسلحة قيمتها ٣٠٠ مليون دولار منها قطع غيار لطائرات اف -٤ ودبابات ام-٤٨ و سيارات ام -١١٣ حاملة الجنود.(٦٦) ووقع حادث في ١٩٨٣ يوضح مدى تعاون المخابرات الأمريكية تحت رئاسة كيسي مع المخابرات الإيرانية عندما كان من مصلحة البلدين أن يفعلا ذلك. في عام ١٩٨٢ هرب فلاديمير كوجشكين المخابراتي الروسي في طهران، إلى بريطانيا. وخلال فترة الثورة (الإيرانية) كان كوجشكين يمثل المصالح الروسية في إيران لكن الوجود السوفيتي في إيران كان صغيرا جدا ولا يشكل تهديدا لأمريكا أو الشاه.

ويقول كوجشكين الذي كتب كتابا فيما بعد عن تجاربه في المخابرات، أن المخابرات الروسية كان لها عميلين فقط في الدوائر الحكومية والرسمية الإيرانية وقال إنه لم يصدق ما رأى لكنها كانت حقيقة والحقائق لا تختفي أبدا. كان جوجشكين مندهشا من انخفاض عدد العملاء الروس في إيران.(٦٧) وكتب كوجشكين أيضا في كتابه أن الاتحاد السوفيتي كان يقدر الاستقرار في إيران في ظل حكم الشاه وإن موسكو لم يكن لها أي اتصالات مع الثوريين الإسلاميين أو ما يسمى الجماعات الماركسية الإسلامية التي اتفقت مع الخوميني.(٦٨) لكن مركز المخابرات الروسية في إيران لم يكن يدعم الحزب الشيوعي الإيراني بالقدر الكافي. وعندما هرب كوجشكين قرر أن ينول الاستحسان من الدوائر الانجلوسكسونية عن طريق تزويد المخابرات البريطانية والأمريكية بكل ما يعرف عن الحزب الشيوعي الإيراني وأعضائه.

وزود كودشكين البريطانيين بقائمة بها أسماء مئات العملاء السوفيت الذين يعملون في إيران، وفق ما كتبه جيمس بيل الذي قال أن المخابرات البريطانية على الفور زودت المخابرات الإيرانية بالمعلومات التي حصلت عليها من كوجشكين. ويقول بيل:

"زودت المخابرات البريطانية والأمريكية نظيرتها الإيرانية بمعلومات كوجشكين وألقي القبض على ألف من أعضاء الحزب الشيوعي الإيراني وكان العديد منهم تحت الرقابة أصلا. وشمل المقبوض عليهم نورالدين كيانوري (زعيم الحزب الشيوعي الإيراني) الذي اعترف بأنه أجرى اتصالات مع عملاء روس منذ عام ١٩٤٥. هذا التدمير العنيف لحزب تودا الشيوعي الإيراني عام ١٩٨٣ أتى على كل اليسار الإيراني ومحاه من الوجود".(٦٩)

ولم تعلن أي من تلك التطورات طبعا في نفس الوقت. ولم يعلم الأمريكيون شيئا عن تعاون المخابرات الأمريكية مع إيران تحت حكم الخميني. ولم يعلموا أيضا أي شيء عن الأسلحة الإسرائيلية إلى إيران ولم يعلموا شيئا عن مبادرة إيران- كونترا حتى كشفت عنها صحيفة لبنانية. ويؤكد ميل جودمان محلل المخابرات السابق الذي رأس فريق تحليل السياسة السوفيتية في العالم الثالث أن المخابرات الأمريكية شاركت في اتصالات كوجشكين والمخابرات البريطانية مع إيران. ويقول جودمان إن المخابرات الأمريكية كانت ضالعة في هذا أيضا فقد كانوا يتعاونون مع رجال الدين الإيرانيين للقضاء على الحزب الشيوعي (تودا). كان هناك العديد من الاتصالات بشأن هذا. كانت المخابرات البريطانية تشغل كوجشكين وهو زودها بالكثير من المعلومات. وتعاونت المخابرات البريطانية والأمريكية مع المخابرات الإيرانية التي كان بعض ضباطها يعملون مع السافاك في ظل الشاه وحولوا ولاءهم ببساطة إلى الجمهورية الإسلامية الجديدة.(٧٠)

وأشهر ضباط السافاك العاملين حاليا مع المخابرات الإيرانية هو حسين فردوست الذي كان صديق الطفولة للشاه ودرس في سويسرا معه ومع ريتشارد هيلمز الذي سيصبح رئيسا للمخابرات الأمريكية. ترقى فردوست إلى منصب رفيع في المخابرات الإيرانية في السبعينات وفي عام ١٩٧٦ أصبح رئيسا لمنظمة التفتيش الإمبراطورية التي أعاد الشاه إنشاءها. ويقول الشاه في مذكراته عن تلك المنظمة أنها صورة حديثة من التي كان يسموها في إيران "عيون وآذان الملك".(٧١) كانت مهمة تلك الوكالة دراسة التيارات السياسية في البلاد بما فيها رجال الدين. لكن فردوست انضم

إلى المعارضة التي تؤيد الخميني في السر. وقالت الأميرة أشرف أخت الشاه التي غلب عليها طابع التمرد واللامبالاة، في مذكراتها أن فردوست تعمد عدم إبلاغ الشاه بما يفعله رجال الدين. وقالت: "لم تقدم السافاك تقارير عن مدى استغلال رجال الدين والطريقة التي يستغلون بها الدين المقدس للإطاحة بالعرش. وكل يوم كان أخي يلتقي فردوست، صديق الطفولة الذي كانت مهمته جمع المعلومات والتقييم و تجويد التقارير المخابراتية. وأنا مقتنعة بأن فردوست أخفى معلومات عن الشاه وكان في الواقع يجري مفاوضات بنشاط مع الخميني في السنوات الأخيرة من حكم الشاه. واعتقد أن الأحداث التي تلت الثورة تؤيد وجهة نظري ففي الوقت الذي كان أي شخص له علاقة بالشاه يعدم فإن حسين فردوست ظل على قيد الحياة الطيبة الرغدة ويظل أحد زعماء المخابرات في ظل النظام الجديد، الذي سماه الخميني (السافاما)".(٧٢)

وسواء كان فردوست الغامض أم لا فإن المخابرات الأمريكية والإسرائيليين كان لهم قنوات اتصال داخل المخابرات الإيرانية من أولى أيام الثورة من خلال بداية مؤامرة كيسي في منتصف الثمانينيات. وفي هذا السياق فإن فضيحة إيران- كونترا ليست تطورا غريبا بل امتداد للعلاقات السابقة التي ترجع إلى عام ١٩٧٩. وكان عدد قليل من المسئولين المحافظين والمحافظين الجدد في حكومة ريجان متورطين في مبادرة إيران- كونترا، خاصة المسئولين الأمريكيين والمستشارين المقربين من المؤسسة العسكرية والمخابراتية الإسرائيلية.

وقد جاء موضوع إيران في العديد من الكتب والمذكرات وتقارير حكومية رسمية.(٧٣) كان الموضوع شديد التعقيد ومتعدد الجوانب وربط بين إرسال أمريكا وإسرائيل أسلحة إلى إيران بهدف الدعم المالي غير القانوني لثوار نيكاراجوا من جانب حكومة ريجان. ويتهم المنتقدون لسياسة أمريكا تجاه إيران، الرئيس السابق ريجان ومستشاريه بالسعي إلى تجارة السلاح مع إيران من أجل إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين في لبنان الذين يحتجزهم حزب الله، مخلب إيران هناك. ورغم ذلك فإن التعامل مع إيران بالنسبة للرئيس ريجان نفسه مجرد جهد لإطلاق سراح الرهائن رغم أن الرئيس قال في اعتراف فيما بعد أنه لا يتذكر أنه وافق على إرسال سلاح إلى إيران.

وبالنسبة لمستشاريه، خاصة المحافظين الجدد وكيسي، كانت العملية لها غرض أوسع كثيرا وهو محاولة إعادة المياه لمجاريها مع إيران في اتجاه مضاد للسياسة الأمريكية الرسمية التي تؤيد العراق في مكافحة التوسع الإيراني. إن سياق مؤامرة كيسي- نورث تجاه إيران هو إعادة التقييم التي قام بها مجلس الأمن القومي عام ١٩٨٤ للسياسة الأمريكية نحو إيران. دفعت مجموعة صغيرة من المسئولين الأمريكيين إلى إعادة التقييم حيث كانوا يعارضون الميل الأمريكي لتأييد العراق في الحرب العراقية الإيرانية. أمر روبرت مكفرلين مستشار الأمن القومي بمراجعة السياسة الأمريكية عبر المجلس وبدأت مجموعة من المسئولين حملة لعامين لتغيير السياسة الأمريكية وتأييد إيران بدلا من العراق. وتمشت جهودهم تماما مع الجهود الإسرائيلية لعزل العراق والارتباط مع إيران. وفي نفس الوقت كانت إسرائيل تزود إيران بالسلاح وتعبئ الإخوان المسلمين في الحرب الأهلية في سوريا وترسل تعزيزات مكثفة إلى المجاهدين في أفغانستان.

في عام ١٩٨٥ أصدر جراهام فوللر من المخابرات بالتعاون مع هوارد تيشر ودونالد فورتير عضوي مجلس الأمن القومي التقييم الخاص للسياسة الأمريكية الذي طالب البلاد بتزويد آيات الله في إيران بالسلاح لأن هذا سيشجع الحلفاء في الغرب والأصدقاء على مساعدة إيران على الوفاء باحتياجاتها من الواردات بما في ذلك تزويدها بمعدات عسكرية منتقاه.(٧٤) وعارض كل من وزير الخارجية ووزير الدفاع تلك الفكرة لكن مدير المخابرات بيل كيسي أيدها. وفي خضم تلك المعركة تدخلت إسرائيل باستغلال وسطاء لاقتراح جهود أمريكية إسرائيلية لمحاولة اجراء اتصالات مع إيران وبيع طهرن أسلحة. كان مايكل ليدين هو وسيط الاتصالات التي اقترحتها إسرائيل وهو مستشار في مجلس الأمن القومي ومن المحافظين الجدد وأرسله مكفرلين إلى إسرائيل لمناقشة الفكرة. كانت إسرائيل تريد توريد صواريخ هوك المضادة للطائرات وتاو المضادة للدبابات إلى إيران وهي أسلحة تعتبر حيوية في الحرب ضد العراق إلى جانب التزام أمريكا بتوريد الصواريخ إلى إسرائيل بمجرد إرسالها. كانت إسرائيل تفكر في إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين لكنها، إلى جانب عناصر في الحكومة الأمريكية كان لها أهداف أوسع من ذلك ليس لها علاقة بالرهائن.

وأيد تيشر المبادرة بشدة. وفي عام ١٩٨٠ عندما اندلعت الحرب العراقية الإيرانية قال تيشر: "في ذاك الوقت جددت حملتي ضد تأييد العراق". وأشار إلى أن بعض المسئولين الأمركيين اعتبروا الحرب وسيلة لإضعاف التهديد الإسلامي من إيران التي كانت تحتجز ٥٣ من الأسرى الأمريكيين. وقال أن مؤيدي العرب في الحكومة الأمريكية اعتبروا غزو العراق فرصة للقضاء على التهديد الأصولي من إيران".(٧٥) وكان لدى مؤيدي توريد السلاح لإيران حجتين أولا أن التهديد داخل إيران محدود وهي تريد التعامل مع أمريكا وسوف تنظر إلى البادرة الأمريكية على أنها معروفا يدل على حسن النية بتعزيز الترسانة العسكرية الإيرانية.

والحجة الثانية أن إيران من الداخل ضعيفة وغير مستقرة ويمكن للسوفيت السيطرة عليها مما يضع لهم موضع قدم في الخليج. لكن كلا من الحجتين لم تكن دقيقة وكذلك الاعتقاد بأن توريد الأسلحة سوف يساعد في إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين في لبنان. في بداية المبادرة الإيرانية قال مسئول مخابراتي إسرائيلي لمكفرلين إن الإسرائيليين ينوون توريد بعض الأسلحة إلى المعتدلين في إيران ليعارضوا الخميني.وقد استحوذت فكرة أن بعض المعتدلين سوف يستغلون الأسلحة في معارضة الخميني على الكثير من المسئولين المشاركين في مسألتى إيران كونترا بما فيهم كيسي نفسه. لكنه كان مجرد سراب. ويقول مسئول مخابراتي أمريكي سابق إن إقناع كيسي بأنه ليس هناك معتدلين في إيران استغرق فترة طويلة في منتصف الثمانينات. وقال المسئول المخابراتي: "لم يكن هناك معتدلون في عام ١٩٨٦.

وعدما خطط أوليفر نورث ومكفرلين ومسئولون آخرون أمريكيون وإسرائيليون لزيارة سرية إلى إيران لمحاولة إبرام الصفقة كان كيسي يريد أن يعرف مدى نجاح الخطة، بعد أن وافق عليها بالفعل. وقال المسئول: "طلبني كيسي وسألني إذا كان هناك فرصة لنجاح تلك الخطة فقلت له ليس هناك فرصة كبيرة. ولم يكن هناك بالفعل أي فرصة للنجاح. وقال المسئول ردا على سؤال إذا كان المعتدلون الإيرانيون سوف يستجيبون بشكل إيجابي بعد الحديث مع كيسي(٧٦)، قال باتريك لانج مدير الشرق الأوسط في مكتب معلومات الدفاع في ذاك الوقت: "كانت وجهة نظرهم أن هناك كثير

من المعتدلين في إيران ليسوا كذلك. إنهم مجموعة من المعتوهين. وقلت بالفعل إنهم من المعتوهين."

ولم يكن الجدل حول إمكانية سقوط إيران في يد السوفيت منطقيا بالمرة. كان الاتحاد السوفيتي يحارب التمرد في أفغانستان وليس له أي اصول في إيران أو القليل جدا منها وليس لدى القادة السوفيت النية لعبور الخط الأحمر والدخول في الخليج العربي المنطقة التي أعلنها أيزنهاور وكارتر منطقة نفوذ أمريكي. لكنه في مايو ١٩٨٥ وصلت مذكرة إلى كيسي بعنوان "سياستنا تجاه إيران" قال فيها فوللر: "نظام الخوميني يترنح وليس لدى أمريكا أي أوراق تلعبها والاتحاد السوفيتي لديه العديد من الأوراق". وقال فوللر إن المحللين في المخابرات يشعرون بأن موسكو تحقق تقدما نحو بناء نفوذ لها في إيران" وأن السياسة الأمريكية لتوريد السلاح إلى إيران يمكن أن تخدم المصالح السوفيتية أكثر مما تخدم مصالح الأمريكيين. وقال فوللر: "ومع ذلك من المحتم أن نفكر في سياسة أكثر جرأة ومخاطرة تضمن على الأقل أن يكون لأمريكا الصوت العالي في الوضع النهائي. وإلا إذا لم يحالفنا الحظ لن نكسب شيئا ونخسر الكثير في التطورات المتوقعة في إيران وكلها خارج نطاق سيطرتنا".(٧٧)

طور فوللر وجهة نظر جعلته متعاطفا مع التطرف الإسلامي وفي شهادته أمام لجنة تاور المكونة من ثلاثة أعضاء وعينها رونالد ريجان بقيادة عضو مجلس الشيوخ السابق جون تاور من تكساس، قال لابد من فحص دور مجلس الأمن القومي في فضيحة إيران - كونترا وأن المشكلة أن النظام الإيراني اعتبرنا عدوا لدودا له من حيث المبدأ.(٧٨) وأصر فوللر في تحليلاته على أن أمريكا سوف تدفع إيران إلى المعسكر السوفيتي إذا سمحت لإسرائيل وحلفاء آخرين بتزويد رجال الدين بالسلاح. وقال إن الحلفاء بما فيهم إسرائيل إذا ملأوا الفراغ العسكري لإيران، فإنه سيكون نفس المستوى الذي يصل إليه النفوذ السوفيتي في الجمهورية الإسلامية.(٧٩)

لكن مسئولين آخرين في المخابرات فندوا حجة فوللر بقوة. وقال تقرير فوللر أن الثورة الإيرانية كانت حمقاء وقادها مجموعة من دعاة الإصلاح الزراعي الذين لا يحفلون حقيقية بالإسلام وأنهم سوف يتعاونون مع السوفيت.

وقال لانج من وكالة معلومات الدفاع أنه تلقى تقريرا آخر انتهى بعد خمسة أشهر أخرى. وأكد التقرير الجديد عكس ما قاله التقرير السابق تماما لكن لم يكن له نفس التأثير. وفي الوقت نفسه ضغط فوللر وتيشر وآخرون لتحويل تقرير فوللر إلى سياسة أمريكية سعيا وراء مرسوم رناسي يطالب بتبني سياسة قوية للحيلولة دون التقدم السوفيتي على المدى القصير مع محاولة استعادة المكانة الأمريكية في إيران إلى ما كان عليه الوضع في ظل حكم الشاه. وطالب المرسوم القائم على محاربة السوفييت في إطار الحرب الباردة بإقامة تحالف مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية ضد الاتحاد السوفيتي بما في ذلك استمرار مقاومة إيران للتوسع السوفيتي (خاصة في أفغانستان). وشجع المرسوم إسرائيل وغيرها من حلفاء أمريكا على تسليح إيران مطالبا أمريكا بإقامة علاقات مع الزعماء الإيرانيين ودعمهم وتأييدهم، الزعماء الذين يقبلون تحسين العلاقات مع أمريكا. كما طالب المرسوم إذاعة أمريكا بزيادة الجهود لفضح المساوئ السوفيتية أمام المسلمين.

وكتب تيشر يقول: "لا تزال إيران تمثل خيارا إستراتيجيا في اللعبة الجديدة". واتفق مكفرلين مع تحليل فوللر وأصدر توجيهاته لي ولفورتيير ولي بإصدار توجيه للأمن القومي على أساس تحليل فوللر ويسوق التوجيه حجة أن أمريكا ينبغي أن تقيم حوارا مع زعماء إيرانيين. وشمل المقترح تزويد إيران بأسلحة منتقاة على أساس ما تقتضيه الظروف.(٨٠)

وانطلقت المبادرة الإيرانية لكن شولتز وواينبرغر أوقفاها فيما بعد. وقال واينبرغر أن توجيه الأمن القومي من تيشر كان "لا معنى له". وقال واينبرغر: "إن الأمر كما لو كنت أزور معمر القذافي في غذاء مجاملة".(٨١) وكما أوضح تيشر فإن نائب الرئيس بوش وكيسي مدير المخابرات أيدا التوجيه بشدة.(٨٢)

وفي نهاية فترة حكم ريجان تكشفت مبادرة إيران كونترا وخرجت إلى الضوء وحقق فيها الصحفيون ومدعي عام خاص ولجان من الكونجرس. وفشلت سياسة تقديم غصن الزيتون إلى إيران. وأطلق سراح رهينة واحدة خلال المبادرة ولم يكن هذا بالضرورة نتيجة لها. ولم يتحدث أي معتدلون إيرانيون والذين تعاونوا مع حكومة

ريجان وإسرائيل في السر مثل على أكبر هاشمي رافسنجاني، الرئيس الإيراني فيما بعد، محوا كل أثر لتعاونهم مع أمريكا بارتداء ثوب العداء الشديد لها.

وانتهى الجهاد في أفغانستان أو بدا أنه انتهى بانسحاب القوات السوفيتية. لكن تركة تلك الحرب بما فيها الإرهابيون المدربون تدريبا عاليا والشبكة الإسلامية العالمية سوف يستمرون شوكة في خاصرة أمريكا والغرب. في التسعينات سقطت أفغانستان في براثن حركة طالبان "الوهابية" وسقطت الجزائر في أتون حرب أهلية ضد اليمين الإسلامي وعاث "الإرهابيون" – (على حد توصيف المؤلف) الإسلاميون فسادا في مصر والسعودية ولبنان ولملم أسامة بن لادن شمل منظمة القاعدة. وناضلت أمريكا وسط هذا كله، بلا طائل، لتبني سياسة متماسكة نحو الإسلام السياسي. وسوف تصبح نتائج فشل أمريكا في ذلك، واستمرارها في الظن خيرا باليمين الإسلامي، واضحة جدا يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

الفصل الثاني عشر

صدام الحضارات

انتهت الحرب الباردة في عام ١٩٩١، لكن إذا كانت الحرب الباردة هي الحرب العالمية الثالثة فهل يعني ذلك، كما يقول بعض المحافظين، أن أمريكا تحارب الحرب العالمية الرابعة حاليا، هذ المرة ضد الإسلام؟ هل التشدد الإسلامي هو الشيوعية الجديدة؟ وهل الحرب على التشدد الإسلامي في القرن الواحد والعشرين تعادل حربا عالمية ضد الاتحاد السوفيتي؟ وما هو مدى جدية تهديد "الإرهاب الإسلامي"؟ وكيف تغيرت علاقة أمريكا بالإسلام السياسي في نهاية الحرب الباردة، إذا كان هناك أي تغيير؟.

الفكرة الأساسية في هذا الكتاب هي أن اليمين الإسلامي كان طيبا بالنسبة لأمريكا في فترة الحرب الباردة. هل توقف هذا التحالف أو ثبت فشله بعد اختفاء الاتحاد السوفيتي المنافس الأول لأمريكا؟. وبالقضاء على العدو الشيوعي هل وجه اليمين الإسلامي جام غضبه إلى الشياطين الكبار في العالم الغربي العلماني؟.هل تواجه أمريكا حاليا عدوا عالميا عبارة عن وحش متعدد الرؤوس منتشر في شبكة من الدول مثل إيران وليبيا والسودان والسعودية يسميه مايكل ليدين أحد مهندسي فضيحة إيران كونترا "زعماء الإرهاب".

منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ اكتسبت فكرة العداء بين أمريكا والإسلام رواجا كبيرا. فإذا كانت الحرب الأولى على العراق في ١٩٩١ إيذانا ببدء نظام عالمي جديد لا يزال في مهده، فهل الحرب الثانية على العراق في عام ٢٠٠٣ ترمز إلى فترة مختلفة جديدة، هي فترة صراع الحضارات؟ المؤيديون لهذا المفهوم وعلى رأسهم برنارد لويس وصمويل هنتنغتون يعتقدون أن الحرب التي بدأها الرئيس بوش على الإرهاب ليست جهادا ضد القاعدة وحلفائها من المتشددين بل صراعا أكبر بين الحضارة المسيحية والعالم الإسلامي. والتعبير المعروف في البنتاجون لتلك الحرب يشبه في نطقه كلمة "جهاد" التي تعني الحرب المقدسة (عند المسلمين). ويدعي كبار المحافظين الجدد أمثال جيمس وولسي المدير السابق للمخابرات الأمريكية ونورمان بودوريتس أن الصراع ضد الإسلام هو بالفعل الحرب العالمية الرابعة. ويعتبر هؤلاء، إلى جانب مسئولين كبار في حكومة بوش، أن قوة اليمين الإسلامي، وأحيانا الديانة الإسلامية، تعادل قوة الفاشية

أو الشيوعية. وقالوا أن اليمين الإسلامي أو الإسلام عدو عالمي يهدد وجوده الوجود الأمريكي وبسببه تم اتخاذ خطوات في السابق لم يكن من المتصور اتخاذها. وشن الحرب العالمية الرابعة يتطلب مبدأ أمريكي جديد من جانب واحد وحروب إجهاضية واتخاذ وضع هجومي يشمل الحروب ضد أفغانستان والعراق ثم دول أخرى وزيادة ميزانيات التسليح العسكري والاستخبارات الأمريكية. ويعني ذلك خلق حالة ترقب في الداخل بمشاركة وزارة الأمن الداخلي (الداخلية) والميثاق الوطني الأمريكي والقيادة الشمالية للدفاع ونشر قوات مسلحة داخل أمريكا، وسن قوانين جديدة تعطي مكتب التحقيقات الفيدرالي والشرطة وقوات مكافحة الإرهاب في ٥٣ ولاية أمريكية سلطات جديدة تماما.

غير أنه عند الدراسة المتأنية نجد أن صراع الحضارات، الحرب على الإرهاب، وحملة حكومة بوش من أجل إعادة تشكيل الشرق الأوسط كانت مليئة بالمفارقات والتناقضات والكذب المبين.

العدو الذي هاجم الولايات المتحدة في ١١ سبتمبر لم يكن الإسلام ولم يكن التشدد الإسلامي ولم يكن الإخوان المسلمين أو حزب الله أو أي جماعة أخرى من التي اشتهر عنها القتال والعنف من اليمين الإسلامي. بل كان القاعدة. إن منظمة القاعدة التي كونها أسامه بن لادن ليست قوة عالمية ولا تشكل تهديدا للولايات المتحدة. انها مجموعة من المتشددين لها قيادة متماسكة تشبه المافيا أو جماعات الدم المتشددة، وهجوم القاعدة على واشنطن ونيويورك عام ٢٠٠١ اغضب العالم أجمع والمواجهة الفعالة باستخدام المخابرات والأعمال القانونية والضغوط السياسية والدبلوماسية والضربات العسكرية المنتقاه بعناية شديدة يمكن أن يضعف ويدمر تلك المنظمة. ولا جدال بأن تدمير منظمة القاعدة كان ممكنا دون الحرب على أفغانستان أوالعراق وبدون حملة "الحرب على الإرهاب".

لكن حكومة بوش وسعت من نطاق التهديد من القاعدة بصفة خاصة وبالغت فيه عن قصد. ومن المؤكد أن جماعة بن لادن أثبتت قدرتها على إلحاق خسائر جسيمة بخصمها، فمنذ ١١ سبتمبر قامت بشن عمليات ضد أهداف في السعودية وأسبانيا وتركيا

وفي أماكن أخرى. ورغم أن ادعاء المدعي العام أشكروفت بأن آلافا من أعضاء القاعدة تغلغلوا إلى الولايات المتحدة غير منطقي، إلا أن أربع سنوات مرت منذ ٢٠٠١ ولم يقع حادث عنف واحد من قبل القاعدة في أمريكا. وليس هناك أي دليل على أن القاعدة حصلت أو سوف تحصل على أي أسلحة نووية أو بيولوجية أو كيماوية. باختصار رغم أن بن لادن يمكنه شن هجمات إرهابية وقد يفعل ذلك مرة أخرى فإن التهديد الحقيقي الذي تمثله القاعدة يمكن مواجهته بسهولة.

وقد واجهت دول أخرى منها إسرائيل وأيرلندا وإيطاليا تهديدات إرهابية أكبر وأخطر من ذلك على مدى سنوات!. إذن ليست القاعدة أو الرفقاء في الأيديولوجية ذاتها ولا اليمين الإسلامي ولا العالم الإسلامي برمته يمثل نوعا من التهديد على الهيمنة الأمريكية على العالم كما كان تهديد الاتحاد السوفيتي. ولا تستطيع أي دولة في الشرق الأوسط وكلها ضعيفة وفقيرة ومحطمة داخليا، أن تشكل تهديدا للولايات المتحدة باسلوب يبرر إطلاق ما يسمى "الحرب العالمية الرابعة". لكن وصف التهديد الإسلامي بهذه المبالغة الشديدة جعل حكومة بوش والمحافظين الجدد المتحالفين معها يخلقون سياقا للتوسع الإمبريالي لوجود أمريكا في الشرق الأوسط الأكبر بما فيه باكستان ووسط آسيا وشرق البحر المتوسط والأحمر والمحيط الهندي. فهل من العدل أن نسأل إذا كان الاحتلال الأمريكي الوهمي للشرق الأوسط يرتبط بأهداف أخرى خلاف مكافحة الإرهاب.

يحدث هذا لأن المحافظين الجدد يريدون ترسيخ قواعد الهيمنة الأمريكية على العالم بزرع العلم الأمريكي في تلك المنطقة الحيوية غير المستقرة؟ هل هو لأن أكثر من ثلثي نفط العالم يتركز في السعودية والعراق؟ هل هو لأن حكومة بوش أقامت تلك العلاقات الحميمة مع ارئيل شارون واليمين الإسرائيلي؟

ومن المؤكد أن محاولة الترويج لكون "الإرهاب" الإسلامي يمثل هدف الحكومة الأمريكية تتناقض مع أهداف سياسة حكومة بوش في الشرق الأوسط. لماذا؟ إذا كان العدو هو الإرهاب الإسلامي فهل تستثمر الحكومة كل تلك الطاقة ضد العراق وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية؟ لقد كان كل من الأسد رئيس سوريا وياسر عرفات الرئيس

الراحل لمنظمة التحرير الفلسطينية من المعارضين الأشداء لمنظمة الإخوان المسلمين لكنهما وجدا أنفسهما على قائمة حلفاء القاعدة المقيتة. والأمر ذاته ينطبق على الموقف من العراق، حيث أن هدف حكومة بوش كذلك لم يكن ملائما إذا سلمنا بمقولة استهداف الإرهاب الإسلامي، فصدام حسين منذ توليه السلطة في ١٩٦٨ كان عدوا للإسلاميين من أية الله الخميني في إيران إلى الجماعات الشيعية المتشددة إلى القاعدة ذاتها.

كما أن حزب البعث الاشتراكي العربي بفرعيه في سوريا والعراق، حزب علماني بالدرجة الأولى وقد أثبتت المخابرات والخارجية أن جهود حكومة بوش لربط العراق بالقاعدة لا معنى لها. والحقيقة أن حكومة بوش جعلت من غزو العراق مرادفا لمهاجمة اليمين الإسلامي، فقد أيدت أمريكا، قبل وأثناء وبعد الغزو، تحالف المؤتمر القومي العراقي المنفي الذي لعب الدور الرئيسي في تأسيسه المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق والدعوة للثورة الإسلامية.وكل من المنظمتين له علاقة بالجمهورية الإيرانية وبعد الحرب تعاونتا عن كثب مع ايه الله على السيستاني.

ويؤكد هذا أن حكومة بوش لم تكن تنتقي الأهداف الخاطئة فقط بل أن حربها العسكرية ضد الإرهاب تجري بطريقة خاطئة بهدف إضعاف جاذبية اليمين الإسلامي. إن القاعدة والجهاد الإسلامي والجماعات "الإرهابية" المشابهة كلها معا والجماعات الأوسع نطاقا من اليمين الإسلامي والمؤسسات والأحزاب السياسية في العالم الإسلامي لا تمثل في الواقع تهديدا للولايات المتحدة وأمنها القومي بل تهديدا للحكومات والمثقفين والتقدميين وأصحاب الفكر الحر في دول مثل المغرب وإندونيسيا.

وإذا كانت جبهة الإنقاذ في الجزائر إلى الإخوان المسلمين إلى حماس الفلسطينية إلى المتشددين الشيعة في العراق إلى الجماعة الإسلامية في باكستان، بتأييد من رجال الدين الوهابيين المتشددين في السعودية ومنظمات مثل رابطة العالم الإسلامي والبنوك الإسلامية، يشكلون تهديدا على الشرق الأوسط، إلا أنه تهديد لا يمكن التعامل معه عسكريا. في الواقع سيسوء الوضع بتدخل أمريكا سياسيا وعسكريا واقتصاديا في المنطقة. الانسحاب السريع من أفغانستان والعراق وتقليل الوجود الأمريكي المكثف في

السعودية والخليج والوقوف في وجه المساعي الإسرائيلية ضد هدف إنشاء دولة فلسطينية هو الذي يمكنه تخفيف الغضب والإحباط والحقد الذي يلهب التشدد الإسلامي.

إن تخفيف الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط يخالف تماما سياسة حكومة بوش غير أن الحكومة، بدافع شرير ربما، نشرت فكرة النضال الموسع ضد الإرهاب لمتابعة سياسة تهدف إلى إعادة رسم شاملة لخريطة الشرق الأوسط. أعلن المتشددون من المحافظين الجدد أو "المثاليين" من المسئولين في الحكومة الأمريكية إلى خبراء الإستراتيجيات في مراكز البحث والفكر مثل معهد المشروع الأمريكي ومعهد هدسون ومشروع القرن الأمريكي الجديد أن الحروب في العراق وأفغانستان كانت مجرد خطوة في خطة شاملة للسيطرة على إيران وسوريا والسعودية ودول الخليج بينما تؤيد بعض رؤى المحافظين الجدد فكرة نشر الوجود العسكري الأمريكي الموسع في المنطقة الممتدة من شمال أفريقيا إلى إندونيسيا.

وقال المعارضون لسياسة حكومة بوش القائمة على الحرب ضد الإرهاب والوجود الاستعماري أن تلك الإستراتيجية ستعود بالضرر ويبدو أنها مصممة لخلق مزيد من الإرهابيين بدلا من القضاء عليهم. الغضب من احتلال العراق وأفغانستان يحتمل أن يؤدي إلى ظهور مجاهدين جدد لشن الحرب في هذين البلدين ويمكن أن تنتشر الحرب إلى كل من باكستان والسعودية حيث يوجد محافظون وحكومات ذات توجه إسلامي يمكن أن تقع فريسة للجماعات المتشددة المرتبطة بأسامة بن لادن والمجاهدين وطالبان على خلفية الوهابيين المتشددين.

والعنصر الثاني في السياسة التي اتبعتها حكومة بوش في الشرق الأوسط ويحتمل أن يثبت خطأه هو الدعوة إلى تطبيق الديمقراطية. لقد كان دعم حكومة بوش للديمقراطية في المنطقة يثير، خارجيا على الأقل، قدرا من السخرية. فمنذ سنوات طويلة وخاصة خلال الحرب الباردة ساعدت أمريكا على صعود أباطرة ديكتاتوريين وملوك وأمراء ورؤساء يستمرون مدى الحياة في الشرق الأوسط والعالم أجمع. وفي العالم العربي والسعودية والأردن ومصر والخليج حكم الكثير من هذه الدول دكتاتوريين سواء من خلال التحالف مع اليمين الإسلامي أو من خلال الدعم الأمريكي. وخلال تلك

السنوات كانت المعارضة دائما تأتي من اليسار في الأنظمة الديكتاتورية اليمينية في المنطقة، من الليبرالين الأمريكيين من اليسار الأوربي ومن الاتحاد السوفيتي. ومن المؤكد أن القضاء على الأنظمة الديكتاتورية وإقامة أنظمة ديمقراطية في العالم العربي وإيران وباكستان وأفغانستان ودول أفريقيا المسلمة لابد أن يكون الهدف الأسمي.

لكن مفهوم حكومة بوش عن الإصلاح الديمقراطي يحيط به الشكوك، فهو أولا مفهوم انتهازي. لقد جاءت غالبية دوافع حكومة بوش في تركيزها على الديمقراطية في الدول العربية فقط عام ٢٠٠٣ بعد الغزو على العراق الذي كشف كذب وزيف أهداف البيت الأبيض من شن الحرب. كان الهدف العثور على أسلحة الدمار الشامل التي يخفيها صدام والكشف عن علاقة العراق بالقاعدة. وثبت أن هذين الادعائين باطلين فانتقل الرئيس بوش إلى ادعاء آخر هو أن الهدف من الحرب على العراق تحويلها إلى دول ديمقراطية. فضلا عن ماسبق، فمن الغريب أن حكومة بوش في مواقفها بخصوص هذه القضية تفرق على خلفية أهداف خبيثة بين الديكتاتوريات الموالية لأمريكا في الشرق الأوسط والديكتاتوريات المناهضة لها وتركز ضغوطها لتطبيق الديمقراطية على المناهضين لها.

وفي سياق سياسة حكومة بوش في الشرق الأوسط فإن دعوتها إلى فرض الديمقراطية يمكن أن يفسر على أنه مجرد تدخل سياسي وعسكري أمريكي مفرط في المنطقة. إن ديمقراطيات حقيقية في الدول المنتجة للنفط ستتبنى مبادرات شجاعة قومية تضمن إظهار حماقة مخططات حكومة بوش طويلة الأجل في المنطقة. والسذج فقط هم الذين سيؤمنون بالولايات المتحدة في إتباعها إستراتيجية تغيير الأنظمة في جزء من العالم يحتوي على ثلثي نفط العالم ترغب في ظهور حكومات يمكن أن تقاوم الهيمنة الأمريكية على المنطقة. ومن المؤكد أن حكومة بوش لا تحبذ تطوير أنظمة ديمقراطية في الدول العربية أو إيران يمكن أن تقيم علاقات وثيقة مثلا مع روسيا أو الصين على حساب الأمريكيين. بل الدعوة إلى التغيير الديمقراطي في الشرق الأوسط تتيح لحكومة بوش تخفيف الضغط أو تصعيده على الحكومات بشكل انتقائي لتحقيق أهدافا خاصة بالأمن القومي الأمريكي.

لقد أصبحت سوريا بين شقي رحا إسرائيل من ناحية والعراق الذي تحتله أمريكا من ناحية أخرى، وإيران بين العراق و أفغانستان التي تحتلها قوات الناتو. وحققت أمريكا منذ عام ٢٠٠١ مكانة غير مسبوقة لا تضاهيها قوة أخرى في السيطرة على الشرق الأوسط. ولايريد المحافظون الجدد الذين اعتبروا الغزو الأمريكي للعراق نجاحا إلا أن تبذل أمريكا جهودا ترمي إلى تغيير الأنظمة في سوريا وإيران من أجل خلق مجموعة من الدول إلى جانب إسرائيل وتركيا وباكستان تخضع للنفوذ الأمريكي.

وماذا عن الأنظمة الشمولية المتحالفة مع أمريكا مثل السعودية والأردن ومصر؟ لابد أن تؤخذ الجهود التي تبذل في هذا المجال بجدية إذا أراد الرئيس جورج بوش(*) أن يوسع نطاق ضغوطه من أجل فرض الديمقراطية انطلاقا من منطق يخدم الأهداف الأمريكية، على دول مثل سوريا والعراق وإيران فضلا عن منظمة التحرير الفلسطينية، وكذلك الحكومات المؤيدة للغرب في المنطقة. وقد أرسلت الحكومة إشارات متباينة فيما يخص أهم دولتين عربيتين مواليتين لأمريكا، مصر والسعودية، في ضوء وجود احتمالات مختلفة بالنسبة لتلك الدولتين. يريد المسئولون وصناع القرار في المخابرات والحكومة والخارجية وحلفاؤهم من أصحاب المصالح المشتركة في المنطقة مثل شركات النفط والبنوك وشركات تصنيع الأسلحة أن تمارس واشنطن الضغوط ببطء على القاهرة والرياض من أجل التغيير. والبعض الآخر الأكثر ايديولوجية يعتقد أن التجربة العراقية لابد أن تتكرر في مصر والسعودية.

ويربط البعض من المحافظين اجدد امثال ريتشارد بيرل وماكيل ليدين السعودية مع سوريا وإيران على أنهم من المؤيدين لمنظمة القاعدة ويطالبون باضافة الرياض إلى محور الشر وقائمة الدول الاعداء.. وجميع الأطراف تعترف بأن كلا من القاهرة والرياض تخضعان لضغوط داخلية وخارجية على مدى العقود الماضية للتحول إلى الليبرالية، وقد جربت الدولتان، على فترات مختلفة إجراء بعض الإصلاحات الديمقراطية بحذر شديد، وهي إصلاحات سرعان ما كان يتم التراجع عنها. وغالبا ما لا

* السابق، حيث أن الكتاب صدر قبل تولى الرئيس أوباما الحكم في الولايات المتحدة.

يدرك الحزبيين الأيديولوجيين في حكومة بوش أن هناك حاجة إلى الحنكة في التعامل مع هاتين الدولتين.

غير أنه في سياق اختبار السياسة الأمريكية تجاه اليمين الإسلامي فإن احتمالات الخطر تكتنف التعامل مع حالتي مصر والسعودية. ويمكن أن يؤدي الضغط الشديد من اجل التحول الديمقراطي والليبرالية في البلدين إلى وصول اليمين الإسلامي إلى السلطة في كل من القاهرة والرياض. غيرأنه كما حدث خلال الحرب الباردة، عندما ايدت أمريكا الإسلاميين ضد القوميين، تعرب حكومة بوش والمحافظون الجدد المتحالفين معها احيانا عن تفضيل اليمين الإسلامي أيضا. وإذا كان لواشنطن أن تختار بين خضوع أنظمة مصر والسعودية لقيادة القوميين العرب اليساريين أو الإسلاميين الميالين إلى اليمين فسوف تختار الإسلاميين في كل مرة. وبرغم حديثهم عن صدام الحضارات فإن المسئولين في حكومة بوش لم يتوقفوا عن البحث عن حلفاء بين اليمين الإسلامي. في العراق تحالفت حكومة بوش بعد الحرب مع ايه الله السيستاني، وحزبين مرتبطين بإيران، وقوى ينظمها ويسيطر عليها المتشددون الشيعة. وأيد كبار المحافظون الجدد اليمين الشيعي في مناسبة أخرى بما فيها السعودية حيث تمادوا إلى ما يتجاوز الدعوة إلى القيام بإصلاحات ديمقراطية إلى تقسيم السعودية وإنشاء دولة شيعية في المنطقة الشرقية من المملكة حيث يشكل الشيعة اغلبية السكان. واستمر ارنيل شارون في غزة والضفة الغربية في التلاعب مع حماس والجهاد الإسلامي وحزب الله من أجل ضرب منظمة التحرير الفلسطينية. وفي عام ٢٠٠٥ أصبحت حماس اقوى قوة انتخابية في غزة. ويبدو أن الذين يطلقون أشد التحذيرات من الصراع الإسلامي المسيحي الأزلي، يجدون راحتهم وضالتهم في التعامل مع الإسلاميين اليمينيين المتشددين.

ولا تزال حكومة بوش تريد تصوير سياستها في الشرق الأسط على أنها صدام حضارات من أجل أغراض دعائية فقط. ويرى بعض حلفاء أمريكا خاصة من اليمين المسيحي، أن الإسلام عبارة عن شر مستطير وديانة عنف فقط. وقد حصر بوش الحرب على الإرهاب في أشد التعبيرات تبجحا فقال إنها نزال بين أمريكا التي تخشى الله ومحور الشر، مدعيا أن المتشددين الإسلاميين وبن لادن "يكرهون حرياتنا" وليس

سياساتنا. وبرغم التناقضات في الحرب على الإرهاب يمكن القول أن ملايين من الأمريكيين خدعوا بفكرة حتمية الحرب بين المسيحية والإسلام إلى أبد الآبدين.

فماذا حدث لتحويل الإسلام من حليف إلى شر مستطير بين ١٩٩١ و٢٠٠١؟ الإجابة تكمن في إلقاء اللوم على الصدمة التي تلت هجوم القاعدة في ٢٠٠١، لكن هذا الهجوم سبقه عقد من التخبط في الولايات المتحدة. من الضروري الحديث عن الأزمات الإسلامية الثلاث لتي وقعت في التسعينات لفهم تحول النظام العالمي الجديد إلى شعار"صدام الحضارات". الأزمات الثلاث هي الجزائر ومصر وظهور طالبان. السنوات الأثنى عشرة من حرب العراق الأولى إلى الثانية هي فترة التغير الضبابي في الشرق الأوسط. أسقط اليمين الإسلامي الجزائر في حرب أهلية مريرة عندما استكثروا عليه الفوز في انتخابات ١٩٩١. في مصر كاد الإخوان المسلمين "الإرهابيين" المحظورين أن ينجحوا في الإطاحة بالرئيس المصري مبارك في منتصف التسعينات(*) ثم استولت طالبان المدعومة من باكستان على الحكم في كابول وفرضت اشد الاحكام الدينية.

خلال تلك الأزمات اخفقت حكومتا جورج بوش وبيل كلنتون في تطوير سياسة متماسكة تجاه الإسلام السياسي. حتى بعد استيلاء الإسلام السياسي اليميني المرتبط بالإخوان المسلمين على الحكم في إيران وأفغانستان وباكستان والسودان وتهديد تلك القوى لأنظمة الحكم في الجزائر ومصر وسوريا والسلطة الفلسطينية لم تفهم حكومتا بوش وكلينتون الدلائل والإشارات. أولا أخفقت أنظمة المخابرات الأمريكية في محاربة الإرهاب وفي ملاحظة ظهور القاعدة ثم عندما أعلنت المنظمة عن نفسها من خلال عدة هجمات كبيرة في أواخر التسعينات أخفقت المخابرات في وقفها.

فهل غيرت المخابرات سلوكها وهل لاحظت أهمية الحركة الإسلامية عندئذ وهل تابع مسئولو وعملاء المخابرات بعناية نشأة العنف المنبثق عن الإخوان المسلمين وطالبان فإذا حدث هذا ربما لم تقع هجمات ٢٠٠١ وما تلاها. فإذا كانت أمريكا صاغت

---

* على عكس ما يذهب إليه المؤلف فإن النظام المصري استطاع السيطرة على الموقف خلال النصف الثاني من التسعينات واستتبت له قبضته على الأوضاع في البلاد رغم موجة التوتر التي لم تكن ترتقي بأي حال إلي القول بأن النظام يواجه تهديدا يصل حد إسقاطه من قبل الإخوان في تلك الفترة، وإن تغيرت الأوضاع لاحقا في العقد الجاري في ضوء حالات الصعود والهبوط التي تشهدها علاقات الجماعة بالنظام.

سياسة محكمة تجاه الإسلاميين في التسعينات، لما حازت فكرة صدام الحضارات الخطيرة الجاذبية فيما بعد. لقد انقسمت الحكومة الأمريكية والأكاديميين والمثقفين ومراكز البحث والفكر حول الرد على الصحوة الإسلامية في نهاية الحرب الباردة. أراد البعض تطوير سياسة شاملة تجاه التشدد الإسلامي وطالب آخرون بمعاملته على أساس كل بلد على حدة. وأراد البعض مواجهة الإسلاميين والبعض الأخر التعاون معهم ومسايرتهم. آمن البراجماتيين بأن السياسة الأمريكية لابد أن تلتزم بتأييد الأنظمة القائمة في القاهرة وعمان والجزائر وأماكن أخرى لكن المثاليين أيدوا فكرة نشر الديمقراطية في المنطقة حتى إذا كان الإسلاميون يستطيعون الفوز في الانتخابات. وفي العقد المتواصل بين ١٩٩١ و ٢٠٠١ تخبطت السياسة الأمريكية بشأن اليمين الإسلامي وكانت مليئة بالتناقضات.

وقد اتفق الجميع على أن "الإرهاب" الإسلامي شر ولا يجب أن يتجاهلوه لكن الاتفاق توقف عند هذا الحد. لقد خرجت أمريكا من الصراع مع الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط لتواجه منطقة تمكن منها الإسلام وأصبح اللاعب الرئيسي فيها. ويخفي اليمين الإسلامي تحت عباءته أنظمة إسلامية متشددة في باكستان والسعودية وإيران والسودان ومنظمات تشبه الحكومات مثل الإخوان المسلمين وطالبان وحزب الله، فضلا عن خلايا يمينية متشددة "إرهابية" مثل القاعدة. بعض هؤلاء كان من بين حلفاء أمريكا والبعض الآخر يشكل تهديدا عليها والبعض الثالث عدائي بدرجة خطيرة لكن كيف نميز بين العدو والصديق؟

أزمات ثلاث في التسعينات

خلال فترة التسعينات تعاملت الولايات المتحدة مع المشكلات الطارئة باستغلال اليمين الإسلامي أولا في الجزائر ثم في مصر وأخيرا، مرة أخرى، في أفغانستان. وفي الحالات الثلاث استطاع الإسلاميون الاعتماد على المحترفين الذين ثقلتهم الحروب من الجهاد الأفغاني المدعوم من أمريكا، الذين استخدموا المهارات التي اكتسبوها وتعلموها

من الحروب في نضالهم، ومنها صناعة القنابل والمتفجرات والاغتيالات والهجمات الإرهابية وحرب العصابات.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي بدأ اليمين الإسلامي يهدد الاستقرار والأمن والمصالح الأمريكية.(١) الأمر الذي كشفت عنه صحيفة نيويورك تايمز عام ١٩٩٣ بعد عام من الإطاحة بالحكومة الشيوعية في أفغانستان على يد "المتمردين" الإسلاميين حيث أشارت إلى أن الحرب الأفغانية الطويلة إمتدت إلى العالم الإسلامي لأن المحترفين وبعد الخبرات التي اكتسبوها من تلك الحرب حملوا السلاح لإقالة الحكومات في الجزائر ومصر ودول عربية أخرى. وأضافت الصحيفة أن دبلوماسيين غربيين ومسئولين عرب أشاروا إلى أن آلاف المقاتلين الإسلاميين يقومون بحملات عنف سرية للإطاحة بحكومات مصر والجزائر واليمن وتونس والأردن وتركيا (*) ودول إسلامية أخرى كبرى، ويستغلون أفغانستان قاعدة انطلاق لهم. لقد شعر اليمين الإسلامي بقوته الجديدة وتولدت لديه مشاعر ويقين قوي بأن الانتفاضة الإسلامية استطاعت هزيمة قوى عظمى في أفغانستان.

الجزائر

أدت الأزمة الجزائرية بين ١٩٩٢ و ١٩٩٩ إلى مراجعة شاملة على مستوى الحكومة في السياسة الأمريكية تجاه الإسلام السياسي منذ الثورة الإيرانية. وخلال الحرب الأهلية الجزائرية التي استمرت ٧ سنوات كانت السياسة الأمريكية تتخبط هنا وهناك بناء على أراء متضاربة وسط اتهامات من باريس وعواصم أخرى في أوربا بأن واشنطن كانت تتودد إلى الإسلاميين في الجزائر لحماية مصالحها النفطية والغازية والصناعية في شمال أفريقيا على حساب أوربا.

* كيف؟ لعل الجميع يتفق على أن تركيا تمثل إستثناءا حيث أن الإطاحة بالحكومة هناك – إذا ما استخدمنا تعبير المؤلف – إنما تم ويتم على مدي العقدين الماضيين من خلال الإحتكام إلى صندوق الإنتخابات.

والمعضلة التي واجهت أمريكا في الجزائر كانت الاختيار بين الثورة الإسلامية التي اكتسبت أصواتا انتخابية والنظام العسكري العلماني المنحوس الذي علق الديمقراطية كوسيلة لوقف تقدم الإسلاميين وإلغاء انتصارهم. لم تكن القضية تتمثل في وجوبية تدخل أمريكا مباشرة أم لا، حيث لا يريد أي من الطرفين في الجزائر أن يقع هذا التدخل لكنه كان حتميا على أي حال. لكنه كان على واشنطن أن تختار بين تأكيد تأييدها للتجربة الجزائرية في الديمقراطية وبالتالي تنحاز إلى اليمين الإسلامي أو تنحاز إلى الجيش الجزائري. وبحثت واشنطن عن موقع وسط بين الاثنين وفي النهاية اعتبرت أن الحل الصحيح أن تغض الطرف عن قمع الجيش للإسلاميين. ولم تكن تلك هي النهاية السعيدة. لكن لو أن أمريكا أدانت النظام الجزائري وأعلنت تأييدها دبلوماسيا لليمين الإسلامي لكانت العواقب وخيمة في البلاد والمنطقة بالكامل.

لقد بدأت الأزمة الجزائرية منذ عام ١٩٨٩ بإنشاء جبهة الإنقاذ الإسلامية. وفي يونيو ١٩٩١ فازت الجبهة بأغلبية ساحقة في الانتخابات المحلية. ثم في ديسمبر ١٩٩١ أدهشت الجبهة الحزب الحاكم - جبهة التحرير الوطني - وفازت بعدد ١١٨ مقعدا في البرلمان خلال الجولة الانتخابية الأولى. لكن قبل الجولة الانتخابية الثانية وقبل أن تصل إلى الظروف التي تمكنها من تولي الحكم تدخل الجيش لابطال مفعول الانتخابات والقى القبض على ١٠ آلاف من أعضاء الجبهة ومؤيديها. وقامت الجبهة بحملة "إرهابية" ردا على وأد فوزها الإنتخابي، فاغتالت الرئيس الجزائري وجرت محاولات أخرى لعمليات تفجير استهدفت عدد من الوزراء، وأخرى أسفرت عن مقتل مئات من ضباط الأمن والشرطة. وبدأت الحرب الأهلية. وخلال هذا العقد ظهرت منظمة خرى باسم المجموعة الإسلامية المسلحة ذات علاقات مريبة مع جبهة الإنقاذ الإسلامية. ومع انتشار أعمال العنف بكثافة قامت العناصر الإسلامية والجماعات شبه العسكرية بحملات ترويع وقتل ودمرت وقتلت أهالي القرى وذبحت أعدادا غفيرة من النساء والأطفال ولقي العشرات مصرعهم.(٢)

لكن جبهة الإنقاذ إسلامية لم تظهر فجأة في عام ١٩٨٩ وإنما نشأت على نحو مماثل لما حدث في باكستان ومصر وسوريا والسودان وأفغانستان خلال الحرب الباردة،

لقد بنى اليمين الإسلامي قوته بمحاربة اليسار والقوميين في الجزائر خاصة في الجامعات. وكا حدث في أفغانستان، التي كان بها جماعة "العلماء" المرتبطة بالإخوان المسلمين في مصر وكونت جمعيات سرية إسلامية في كابول في الستينات والسبعينات، بدأ تطور الموقف في الجزائر إلى ما وصل إليه إثر ذهاب مجموعة من العلماء والمدرسين من مصر، الكثير منهم مرتبط بالإخوان المسلمين ودرسوا في الجامعات الإسلامية في السعودية، للتدريس في الدول العربية، ومنها الجزائر بهدف نشر اللغة العربية في البلاد. وكان محمد الغزالي ويوسف القرضاوي، العالمان الإسلاميان المصريان اللذان فرا إلى الخليج العربي، هما اللذان شجعا وروجا للصحوة الإسلامية في الجزائر في منتصف الثمانينات، وكانا سفيرا الإخوان المسلمين بين الدول العربية ويؤيدان بشدة الممالك النفطية في الخليج.(٣)

وقامت تلك الكوادر من الناشطين الإسلاميين في الثمانينات بسلسلة من العمليات الإرهابية ضد الحكومة الجزائرية. وكان العديد من "الإرهابيين" من العرب الأفغان ممن كانوا يذهبون إلى "الجهاد" ويعودون بين الحين والآخر. وكان عبد الله أنس واحدا منها، انضم إلى قوات بن لادن وعزام في مكتب الخدمات الذي سبق إنشاء منظمة القاعدة. وعندما تعرض عزام للاغتيال، تولى أنس مكانه. ونشأت جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر في ذاك الوقت وسيطرت على آلاف المساجد في أنحاء البلاد وأقامت بينتها السياسة. وعلى شاكلة ما فعلته طالبان في أفغانستان، فرضت الجبهة رؤيتها الإسلامية بمجرد سيطرتها على المساجد والحكومات المحلية فأمرت النساء بارتداء الحجاب وأغلقت الحانات ومتاجرأفلام الفيديو وكانت تقتل من لا ينصاع للأوامر.

وأدانت الجبهة الطبقة المتعلمة العلمانية المتوسطة في الجزائر وأعلنت نيتها العمل للحيلولة دون نشر فرنسا نفوذها الثقافي والإيديولوجي في البلاد. وقبل شهر من انتخابات ديسمبر التي أكدت تصعيد الجبهة للفوز في الانتخابات البرلمانية (٤)، بالتحديد في نوفمبر ١٩٩١ صدمت مجموعة من الإسلاميين المنشقين الجزائريين البلاد بأعمال إرهابية مروعة. كانت البداية هجوم دموي كبير على موقع عسكري حدودي، وعلى طريقة المحترفين الإسلاميين الأفغان، قطعوا رؤوس عدد من ضباط الجيش. تحدد

الموعد بعناية في احتفالات الذكرى الثانية لاستشهاد عبدالله عزام في بيشاور التي تستمر أربعة أيام. وكان هذا هو بداية الجهاد على أرض الجزائر.(٥) وأرهبت تلك الممارسات العديد من أهالي الجزائر من أن تتولى حكومة إسلامية الحكم وتفرض الرعب والإرهاب على الناس(*). وشعرت الحكومات العربية بما فيها مصر والأردن وتونس والمغرب بالخطر خوفا من انتشار العدوى الإسلامية الجزائرية إليها. واعتبرت أمريكا أن عمل الجيش الجزائري يمثل مشكلة سياسية معقدة فهل تؤيد واشنطن العمل العسكري من جانب الجيس لتغيير نتائج الانتخابات أو تدافع عن الجبهة واليمين الإسلامي؟

مثل الموقف معضلة حقيقية لحكومة بوش المنشغل كليا بالنظام العالمي الجديد. ولم يستطع بوش ووزير الخارجية جيمس بيكر قبول فكرة أو احتمال انتصار الإسلاميين في الجزائر وإنحازا بشكل شبه رسمي إلى الجيش وتبنيا موقفا أطلق عليه مجلس الشيوخ الأمريكي "موافقة بالإشارة والإيماءة".(٦) وقال بيكر في إيضاح موقفه "عندما كنت في الخارجية تبنينا سياسة استبعاد العناصر المتشددة من الجزائر حتى مع اعترافنا بأن هذا عمل غريب في ظل تأييدنا للديمقراطية".(٧) لكن العديد من المسئولين الأمريكيين بما فيهم المخابرات التي كان لها اتصالات مع الجبهة الجزائرية، لم يوافقوا على سياسة بوش وبيكر.

ويقول روبرت بليترو السفير الأمريكي السابق المسئول الكبير في الخارجية أن سياسة بوش وبيكر بمحاصرة الإسلاميين في الجزائر لقيت معارضة كبيرة. فقد انتقدنا الجيش بشدة عقب قراره بقمع انتصار الإسلاميين. وبعد ٢٤ ساعة غيرنا موقفنا وتبنينا وجهة نظر مغايرة غير واضحة.(٨)

ولمَ تكن الحكومة الأمريكية تعرف كيف تتعامل مع التحدي الإسلامي في الجزائر وقامت بتعديل سياستها. غير أن هذا عبث فقد كان من الصعب جدا التوصل إلى إجماع حول كيفية التعامل مع الظاهرة غير المفهومة للخبراء ولا يعلم السياسيون والمسئولون في الحكومة وأعضاء الكونجرس شيئا عنها. لم تضع الحرب أوزارها بعد

* لو أن الأمر على النحو الذي أشار إليه المؤلف فلماذا أدلى الناخب الجزائري بصوته لصالح الجبهة، وهو التساؤل نفسه الذي يفرض حضوره بشأن الإنتخابات في فلسطين وفوز حماس.

غير أن هناك على الأقل تيارين يتبلوران. أحدهما مدرسة التعايش مع الإسلاميين، ويسوق حجة أن أمريكا ليس لها أن تخشى اليمين الإسلامي وأن الدبلوماسيين الأمريكيين والمسئولين في المخابرات لابد أن يبدأوا جهودا عالمية لإجراء اتصالات مع الإسلاميين الذين كانوا يرغبون في وقف العنف سعيا وراء إجراء الحوار. والرأي الثاني من أصحاب مدرسة صدام الحضارات الذين يعتقدون أن العالم الإسلامي يكن عداءا دفينا شديدا لا يتغير ضد الغرب. ويقول هؤلاء أن عدو أمريكا ليس مجرد القاعدة فقط وليس حتى الإسلام السياسي اليميني بل طبيعة العقيدة الإسلامية والقرآن والحضارة الإسلامية التي تطورت على مدى ١٣ قرنا في عداء لما عداها. وخلال التسعينات اكتسبت المدرستان قوة دفع وسط قدر كبير من احتدام الجدل بينهما. وسوف يمثل كل مدرسة منهما خبيرا أكاديميا كبيرا. جون إسبوزيتو من جامعة جورجتاون يمثل دعاة التعايش مع الإسلاميين، وبرنارد لويس من جامعة برينستون من دعاة صدام الحضارات.(*)

في عام ١٩٩٢ صدر قرار بتعيين أدوارد ديجرجيان وكيل الخارجية لشئون الشرق الأدنى لبدء جهود تستهدف وضع سياسة جديدة تجاه الإسلام وتم اختياره لإلقاء محاضرة في يونيو ١٩٩٢ في ميريديان هاوس في واشنطن. ويقول ديفيد ماك نائب ديجرجيان أن الوزارة كلفت ديجرجيان بالتوصل إلى سياسة تجاه الإسلام. وأوضح ماك أن الخطاب كان يهدف إلى الرد على المسئولين في الحكومة الذين بدأوا يقولون أن أمريكا عليها أن تتعامل مع الإسلام على إنه عدو عالمي. وقال ماك البعض مثل ريتشارد شيفتر من مكتب حقوق الإنسان، يقول أن الإسلام خطير وبالطبع كان هذا هو الوقت المناسب لظهور نظرية صدام الحضارات. ويقول ماك لقد استطعنا أن نواجه هذا الاتجاه.عقدنا مؤتمرا كبيرا حضره مسئولون من قسم شئون الشرق الأدني ومكتب الأبحاث والمعلومات وحقوق الإنسان وعدد كبير من الخبراء في الشئون الإسلامية. وأعددت خطابا ليلقيه ديجرجيان وأحضرنا الخطاب لجيمس بيكر الذي وافق عليه وقال "إذا كنتم تريدون هذا، افعلوا".(٩)

* ينشر المركز قريبا دراسة مقارنة شاملة لفكر كل من جون اسبوزيتو وبرنارد لويس باعتبارهما ممثلين لاتجاهين ومدرستين مختلفتين في التفكير الأمريكي تجاه الإسلام.

ويقول شيفتر مساعد وزير الخارجية لحقوق الإنسان أنه يلتزم برأي جين كيركباتريك الذي يفرق بين الأنظمة الشمولية والدكتاتورية. في الأزمة الجزائرية أيد شيفتر الرأي القائل بأن أمريكا عليها أن تؤيد قمع الجيش للإسلاميين. لكن بالنسبة لشيفتر وغيره من المتشددين والمحافظين الجدد لم تكن القضية مجرد الجزائر بل أكبر من هذا. يقول شيفتر أن ما يراه هو تطور حركة تشبه الشيوعية تماما. إنه الهجوم الشمولي الثالث على الديمقراطية بعد الفاشية والشيوعية.(١٠) ويقول ماك أن شيفتر أراد أن يكون الخطاب أكثر تشددا مما كان عليه. ويوضح ماك أن شيفتر ومكتب حقوق الإنسان شعروا أن لهجة الخطاب متساهلة جدا(١١) وفي النهاية وضع خطاب ديجرجيان علامات هامة لكنه تجنب أسئلة أهم.

لقد رفض ديجرجيان فكرة صدام الحضارات وقال أن الولايات المتحدة لا ترى الإسلام مدرسة جديدة تواجه الغرب أو تهدد السلام العالمي. وليس هناك منافسة جديدة من الإسلام للغرب تأتي محل الحرب الباردة. لقد كان المتشددون موجودون من فترة طويلة. والأمريكيون يعتبرون الإسلام قوة حضارية تاريخية بين العديد من القوى التي أثرت ثقافتنا وأثرت فيها. واستطرد يقول: "هناك كثير من الاهتمام بظاهرة ميزت الإسلام السياسي والصحوة الإسلامية أو التشدد. في دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا نرى جماعات أو حركات تسعى لإصلاح مجتمعاتها بالحفاظ على التقاليد الإسلامية. وليس هناك جهود منظمة أو عالمية وراء تلك الحركات. مانراه هو مؤمنون يعيشون في دول مختلفة يركزون على المبادىء الإسلامية وحكومات تتعايش مع النشاط السياسي الإسلامي بدرجات متفاوتة وأساليب مختلفة".

وأضاف ديجرجيان أن الولايات المتحدة أرادت انتخابات حرة وعززت الحقوق المدنية في المنطقة لكنه قال في إشارة واضحة إلى الأزمة في الجزائر "نشك في الذين يستغلون تلك العملية المهمة للاستيلاء على السلطة وفرض سياستهم". وقال أن الولايات المتحدة تعارض هؤلاء الذين يقومون بأعمال العنف والقمع أو المواجهة الدينية والسياسية.(١٢) بمعنى آخر تحدث ديجرجيان بشكل ضبابي لكنه مؤيد للإسلاميين المعتدلين رغم أنه فشل في تحديد معنى الاعتدال.(١٣) وقد أدان ديجرجيان الإرهاب

وأشار إلى أن الولايات المتحدة لديها علاقات طيبة مع الدول التي تقوم أنظمتها على المبادىء الإسلامية مثل السعودية وباكستان لكنه تجنب تماما مناقشة اليمين الإسلامي ذاته ودلالاته. وكتب فواز جرجس يقول: "للأسف الخطاب لم يحدد سياسة حكومة بوش تجاه الجماعات الإسلامية".

وإذا كان خطاب ديجرجيان فشل في تحديد السياسة الأمريكية نحو الإسلام السياسي فإنه نجح تماما في أن يكون ردا على ما يحدث في الجزائر حيث أيدت أمريكا الجيش في تعليق الديمقراطية. لكن الأمور سارت من السيء إلى الأسوأ حيث وقعت الجزائر في دائرة من هجمات العنف والردود العنيفة واجه فيها الجيش معركة شرسة ضد المحترفين في الجهاد.

في عام ١٩٩٣ حاولت حكومة كلينتون تشجيع الحوار بين السلطات الجزائرية وعناصر من المعارضة الدينية. غير أن أوربا الغربية وخاصة فرنسا اتهمت أمريكا باستغلال الحوار مع الإسلاميين لتأمين الميزة التجارية والسياسية للبلاد في أعقاب ما اعتبره الكثيرون ثورة إسلامية. وقال جرجس نقلا عن شارل باسكوا وزير الداخلية الفرنسي الذي اتهم واشنطن بمحاباة المتشددين الإسلاميين، أن الفرنسيين هاجموا الدوافع الأمريكية وراء الاتصال مع الإسلاميين واتهموا الحكومة الأمريكية بمحاباة الجبهة الجزائرية على حساب النظام الجزائري.(١٤) وكان يشير بذلك إلى أنور هدام ممثل الجبهة الجزائرية في واشنطن الذي واصل اتصالاته مع المسئولين الأمريكيين في مطلع التسعينات. وقال بيليترو الذي عمل مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى في حكومة كلنتون" أراد الفرنسيون أن نرحل ممثل الجبهة من أمريكا لكننا لم نتلق أي نداء بترحيله".(١٥)

وكان من أعلى الأصوات التي راحت تنادي بالمصالحة مع الإسلاميين الجزائريين جراهام فوللر محلل المخابرات الأمريكية السابق الذي عمل مع كيسي الموكل إليه تبرير سياسة إيران - كونترا بين ١٩٨٤ و ١٩٨٦ لطهران. وكتب فوللر كتابا بعنوان "الجزائر: الدولة الاصولية القادمة" وتوقع في الكتاب أن تحكم الجبهة الإسلامية الجزائرية البلاد مستقبلا وحث أمريكا على أن تقلق من هذا. وكتب فوللر

يقول: "لا يحتمل أن تمثل الجبهة الجزائرية تحديا كبيرا لأمريكا والمصالح الغربية. وتساءل، هل ترغب أمريكا في بدء العملية الديمقراطية التي يتمتع الإسلاميون بفرصة جيدة جدا فيها والفوز بأصوات الناخبين وتولي السلطة؟(١٦)

واعترف فوللر بأن الجبهة سوف تقمع حقوق المرأة وتسعى لفرض أفكارها في الخارج. وقال سوف تنشر الجبهة برنامج عملها في مصر وليبيا وتونس والمغرب عن طريق التعاون مع الحركات الإسلامية الأخرى هناك والدعم المالي وحتى بقوة السلاح.(١٧) لكنه قال أن قوة الدفع مستمرة ولايمكن إيقافها. وأضاف: "سوف يكون من الصعب جدا إذا لم يكن من المستحيل وقف القوى الإسلامية". وقال فوللر أن الحكومات الإسلامية في الشرق الأوسط يحتمل أن تزداد عددا في السنوات المقبلة وتأخذ أشكالا متعددة وعلى الغرب أن يتعلم كيفية التعايش مع تلك الحكومات.(١٨) وأضاف أن الجبهة الإسلامية الجزائرية يحتمل أن ترحب باستثمارات القطاع الخاص الأمريكي في الجزائر وتقيم علاقات تجارية قوية مع أمريكا. وتربط الجبهة علاقات طويلة طيبة مع السعودية وتلقت الكثير من التمويل السعودي حتى السنوات الأخيرة".(١٩) وكان الجيش الأمريكي هو الذي كلف فوللر بكتابة هذا الكتاب.

ويعتقد فوللر أن الجبهة الإسلامية في الجزائر تجربة كبرى ولابد على الولايات المتحدة ألا تبتعد عنها وكانت أراؤه بالطبع مؤثرة خلال حكم كلينتون. لكن العديد من أهل الجزائر خاصة ممن شاركوا في ثورة الجزائر عام ١٩٦٢ لم يكونوا مستعدين للتخلي علن العلمانية والاشتراكية من أجل تسيد الإسلام. وقال محمد إبراهيمي رئيس رابطة حقوق الإنسان الجزائرية يمكن للأخرين أن يتحدثوا عن إجراء تجربة كبرى في الجزائر لكن ماذا نحن ؟ فئران تجارب؟.(٢٠)

مصر

عقب الانفجار في الجزائر ظهر تهديد إسلامي خطير في مصر في التسعينات فخلق معضلة أخرى لحكومة كلينتون. هل ستقع مصر في ثورة إسلامية وهي مسقط رأس الإخوان المسلمين؟. وإذا كان الأمر كذلك فما هو الشكل الذي ستتخذه السياسة

الأمريكية؟. لم توفر المراجعة السياسية التي قامت بها حكومة بوش في عام ١٩٩٢، والفريق الخاص الذي شكله ديجرجيان أي رؤية واضحة بشأن هذا الجانب. والمعضلة أن مصر تختلف عن الجزائر الواقعة على هامش المنطقة، فهي قلب الشرق الأوسط والرئيس مبارك أهم الحلفاء لأمريكا. في التسعينات شن الإسلاميون في مصر هجوما قويا على النظام الحاكم إلى الحد الذي كان يهدد معه استقرار البلاد.

وقتل المئات على يد المتشددين المسلحين ومنهم ضباط من الجيش والشرطة ومسئولين في الحكومة وعدد من كبار الكتاب والمثقفين المصريين. وبرغم الضغط الشديد عقب اغتيال أنور السادات عام ١٩٨١ والضربات الشديدة ضد الإسلاميين في الثمانينات فإن الإخوان المسلمين حققت مكاسب خاصة في المجتمع المدني. واستطاعت المنظمة السيطرة على العديد من النقابات مثل نقابة الأطباء والمحامين والمهندسين وبالطبع اتحادات الطلاب التي تعتبرها موقعها التقليدي الحصين. وكان من صدى تلك التطورات ما أشارت إليه صحيفة صندي تايمز اللندنية عام ١٩٩٣ بشأن تحذير أصدرته المخابرات الأمريكية من أن الإرهاب الإسلامي المتشدد سوف يستمر في تحقيق المكاسب في مصر. وقالت إن هذا يمكن أن يؤدي إلى سقوط نظام مبارك.(٢١)

كان جيمس ووسلي رئيس المخابرات في ذاك الوقت وقال: "كنا قلقين للغاية وعلى ما أذكر عرضنا على مصر أي مساعدات تحتاجها ونستطيع توفيرها في حدود المعقول". وأضاف أنه كان هناك بصفة عامة تأييد كبير في الحكومة والمخابرات، لمبارك أن يفعل كل ما يستطيع لمنع استيلاء الإسلاميين على الحكم.(٢٢) ووفرت المخابرات معلومات استخباراتية للشرطة المصرية. وقال أدوارد ووكر السفير الأمريكي في القاهرة من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٧ دربنا فرق في مصر بين السلطات المصرية على العمليات الخاصة بهذا الجانب.(٢٣)

والحقيقة أنه حتى مع تعاون أمريكا مع مصر إلى هذه الدرجة في مكافحة الإرهاب الإسلامي في البلاد فإن هذا التعاون لم يكن على القدر المطلوب لعدة أسباب. أولا كان هناك داخل الحكومة الأمريكية اعتقاد مزمن بأن الإخوان المسلمين حليف محتمل في جهود تطبيق الديمقراطية في مصر وخلال التسعينات أدى هذا الاعتقاد إلى

تخفيض المساعدات الأمنية لمصر. ثانيا كان نظام الرئيس مبارك يضرب بيد من حديد على رؤوس المعارضين بما في ذلك القبض على بعضهم ويمارس التعذيب ضد المسجونين مما جعل واشنطن متشككة في تقديم المساعدة إلى القاهرة.

ويقول ويسلي ووكر إن أمريكا كانت على علم بالتاريخ الطويل من سوء ووحشية الوسائل المستخدمة في مصر. ويضيف: "إنهم في غاية العدوانية لدرجة أننا لا نرغب في دعمهم. تم العثور على بعض الذين ألقي القبض عليهم مقتولين بالرصاص وهم مكبلي الأيدي. علينا أن نوقف هذا البرنامج".(٢٤)

وثالثا كان هناك اختلاف كبير في المخابرات الأمريكية وبين المسئولين الدبلوماسيين بشأن طبيعة الإخوان المسلمين نفسها فهل تتعاون المنظمة مع منظمات أخرى إرهابية وتعلن ذلك مثل الجامعة الإسلامية أو الجهاد الإسلامي الذين من بين قادتها أيمن الظواهري الذي سيتحول إلى اليد اليمنى لأسامه بن لادن؟ أم أن الإخوان جماعة معتدلة ومستقرة يمكن الاعتماد على وعودها بالديمقراطية؟

بالنسبة لمبارك على الأقل كانت الإجابة ماثلة في المشهد الجزائري، حيث شاهد الزعيم المصري سقوط الجزائر في حرب أهلية وتعهد بعدم السماح للإسلاميين في مصر باكتساب القوة الكافية لتشكيل تهديد للنظام. وبداية من الثمانينات وحتى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كان مبارك ينتقد أمريكا مرارا وتكرارا لإخفاقها في اتخاذ خطوات ضد اليمين الإسلامي في قواعدها في أوربا الغربية وداخل أمريكا ذاتها. وشمل ذلك وحدات الإخوان المسلمين في لندن وألمانيا ومركز الإخوان الذي أسسه سعيد رمضان في سويسرا والخلايا التي نشرها الشيخ عمر عبد الرحمن في نيوويرك ونيو جرسي، وهو زعيم الجماعة التي شنت الهجوم على مركز التجارة العالمي في ٢٠٠١، وخلايا ومساجد ومراكز إسلامية أخرى في أمريكا. حتى ٢٠٠١ لم تتخذ أمريكا أي جهود حقيقية للتحقق من تلك الشبكات.

وقال عبد المنعم سعيد من مركز الأهرام للدراسات إستراتيجية في القاهرة "لم تتعاون أوربا أو أمريكا مع مصر قبل سبتمبر ٢٠٠١ في هذا المجال. وكتب يقول: "كان عمر عبد الرحمن يحتمي بأمريكا بعد أن هرب عقب محاكمته إلى السودان. ولم تتعاون

أمريكا مع مصر في هذا ويقولون لنا- أنتم لستم دولة ديمقراطية ولا تجرون إصلاحات- وهكذا كانوا يشكلون شبكة إرهابية دولية وكنا نعتمد على أنفسنا في تلك الفترة. كنا نريد من الولايات المتحدة أن تسلمنا هؤلاء الناس من أجل وقف شبكتهم الدعائية وشبكتهم المالية ونقطع اتصالاتهم مع النقاط الساخنة في أفغانستان. وحاولنا عدة مرات أن نجعل أمريكا تشارك معنا أولا في ١٩٨٦ عندما طالب الرئيس مبارك بمحاربة الإرهاب العالمي وأعلن ذلك أمام اجتماع برلماني في ستراسبورج. كان لدينا معلومات كبيرة في ذاك الوقت. علمنا بأن المراكز العالمية للإرهاب تقع في لندن ونيوجيرسي وفرانكفورت إضافة إلى مراكز أخرى في هامبورج وجنيف وكوبنهاجن. ولم يكن الأوربيون يشعرون بحساسية تجاه ذلك في الثمانينات والتسعينات".(٢٥)

السفيران الأمريكيان في القاهرة في تلك الفترة كانا يختلفان في وجهة النظر حول الإخوان المسلمين. ووكر الذي خدم من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٧ كان متشككا بشأن الإخوان ومتعاطف مع حملة مبارك لضربها. بيليترو الذي خدم من ١٩٩١ إلى ١٩٩٣ كان متعاطفا أكثر مع الإخوان ويريد للحركة ان تظهر للنور. وقال بيليترو: "كنت اختلف مع ووكر في وجهات النظر بشأن الإخوان المسلمين. لقد تحدثت إليهم. وغضب مبارك من اتصالات بليترو مع الإخوان. تلقيت رسالة قوية جدا من الحكومة المصرية تطالبني بوقف تلك الاتصالات. وقلت أنني لن أوقف اتصالات. لم أتقابل معهم بشخصي لكن أخرون من القسم السياسي. استخدمنا همزات وصل زرعناها في داخل الحركة. لكن في مصر ينبغي أن تكون شديد الحذر لأن المصريين لديهم حساسية شديدة نحو المخابرات".(٢٦)

ويتذكر بليترو زيارة مبارك إلى واشنطن عندما أبدى ضيقه بشأن عدم اتخاذ أمريكا لخطوات فعالة في هذا الاتجاه. وقال بيليترو: "جاء مبارك لزيارة واشنطن فيما بعد ودعاه وارين كريستوفر وزير الخارجية للغذاء. وطلب كريستوفر من مبارك أن يحدثه عن أفضل وسيلة للتعامل مع الإسلاميين ولن أنسى ما حدث بعد ذلك. اعتدل مبارك في جلسته بحدة وقال – ليست هذه ظاهرة جديدة في مصر- وكان شديد الغضب. هؤلاء أناس قتلوا الرئيس السابق. ثم رفع مبارك قبضته في الهواء وهوى بها على

الطاولة بشدة ققز كل شيء من على المائدة وتحرك. وقال إذا خرجوا (من الجحور) لابد أن نضربهم".(٢٧)

لكن بيليترو قال: "قلت لمبارك أن ضرب الإرهابيين سياسة حكيمة، لكن ليس ضرب الإخوان المسلمين". لكن المشكلة أن معرفة الفرق بين الاثنين، بين الإرهابيين والإخوان، أمر لم تستطع أجهزة الأمن تقديم إجابة وافية بشأنه، وفق ما قاله دبلوماسيون ومسئولون في المخابرات الأمريكية. الخط الفاصل بين المنظمات الإرهابية والإخوان المسلمين لم يكن واضحا. الإخوان المسلمين كانت تدير عيادات ومراكز خدمة اجتماعية ومساجد ولها حضور قوي بين النقابات وأنشأت حزبا سياسيا شبه رسمي.

ويقول بيليترو وووكر أن العلاقة بين الإخوان المسلمين الرسمية وخلايا الإرهاب السرية ربما كانت تتم من خلال مساجد مستقلة ومراكز إسلامية في مصر وعن طريق "أمراء" الجماعات، والذين احتفظوا على ما يبدو بعضويتهم في الجماعة السرية فيما يوجهون الدعم والتشجيع والتبرير الديني للإرهابيين. وقال بيليترو أن المصريين ذكروا أنهم اكتشفوا علاقة بين الجماعة والإرهابيين لكني أعتقد أن الفاصل غير واضح بين الإخوان المسلمين والجماعات المسلحة. لقد ظهر العديد من الأمراء هنا وهناك في مختلف أجزاء القاهرة ونظم بعض رجال الدين جماعات من التابعين. هم لا يشاركون غالبا في أعمال العنف بشخصهم لكنهم يمكنهم التحريض عليه. مثلا يأتي أحدهم ويسألهم هل من المسموح أن تفعل هذا أو ذاك ؟ وهم يقولون "نعم الإسلام يقر ذلك".

لكن ووكر الذي خلف بليترو كانت له وجهة نظر أخرى فيقول: "لاحظنا أن المشكلة كبيرة. كنا قريبين من الأوربيين في التعاون من أجل مواجهة تلك التهديدات. رسمنا مخططات تبين كيف تتعامل تلك الجماعات مع بعضها. كان هناك العديد من القادة في بلاد أوربية مثل إيطاليا ولندن وكنا نتعاون عن طريق اعتراض الاتصالات ونبلغ مصر ثم يتصرف المصريون. لكن ووكر يقول أن مصر لم تكن راضية عما تفعله أوربا وأمريكا. و استطيع أن أحصي المرات التي أبدى الرئيس المصري فيها غضبه

معي لأن البريطانيين كانوا يوفرون المأوى للإسلاميين وأعضاء الإخوان المسلمين. الكل في مصر كانوا يرون أنها مشكلة لكنهم لم يستطيعوا إقناعنا.(٢٨)

وحافظ ووكر مثل بيليترو على الاتصالات مع الإخوان المسلمين وقال عندما كان في مصر كان يتصل مع أعضاء الإخوان فرادى من خلال المستشار السياسي للسفارة. لكن الإخوان كانت منظمة محظورة لذلك كانت تلك الاتصالات حساسة. الإخوان المسلمين كانت أكثر انضباطا في تنفيذ الأوامر مقارنة بالجماعات الأخرى مثل الجهاد الإسلامي. كان الكثير في واشنطن يتعاطفون مع الإخوان ويعتقدون أنها معتدلة وكان الكثير ممن يؤيدون تطبيق الديمقراطية في المنطقة يعتقدون أن الإخوان من قوى المعارضة الشرعية الداخلية. لكن ووكر وبعض المسئولين في المخابرات الأمريكية لا يعتقدون ذلك. ويقول ووكر أن الإرهاب له مصدرين أحدهما الفلسطينيون والآخر الإخوان المسلمين. المنظمتان لهما تاريخ مشابه في الإرهاب. وكانت المنظمتان صديقتان في يوم من الأيام. وأوضح ووكر أن المخابرات كانت ترى أن الإخوان والفلسطينيين إرهابيون أشقاء. وكانت بعض المساجد مشاركة في هذا. المنظمة ليست متماسكة الهيكل والتركيب لكن إذا جاءهم من يماثلهم ساعدوه.(٢٩)

وانتقد مبارك الولايات المتحدة عدة مرات علنا أيضا خاصة بعد أن قام الإسلاميون بمحاولة اغتيال ضده عام ١٩٩٥ وقتلوا عددا من المسئولين المصريين في الخارج ونسفوا السفارات المصرية. وكان مبارك ينظر بازدراء إلى الأمريكيين الذين يحثونه على التعاون مع الإسلاميين المعتدلين بما فيهم الإخوان المسلمين ويقول، من هم المعتدلون ؟ لا يستطيع أحد أن يعرفني بهم. وكان مبارك لا يؤمن بفعالية الحوار مع الإسلاميين ويقول: "حوار مع من؟ سيكون حوار الصم. أجرينا حوارا معهم لمدة ١٤ سنة وفي كل مرة كنا نشركهم يزدادوا قوة. الحوار لغة قديمة. الذين يطالبون بالحوار لا يعرفون الإسلاميين. نحن نعرفهم أفضل".(٣٠)

كان شبح الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ ماثل أمام الرئيس مبارك واتهم أمريكا مرارا وتكرارا بإجراء محادثات سرية مع الإخوان المسلمين. وقال مبارك: "تعتقدون أنكم يمكن أن تصححوا الأخطاء التي وقعتم فيها في إيران عندما لم يكن لكم اتصالات

مع آية الله خميني وجماعاته المتشددة قبل استيلائه على السلطة؟ لكنني أوكد لكم تلك الجماعات لن تستولي على هذا البلد (مصر) ولن يكونوا على وفاق أبدا مع أمريكا".(٣١)

كان مبارك على حق إلى حد ما لدرجة أن بعض المسئولين الأمريكيين توقعوا أن يستولى الإسلاميون على السلطة في مصر ولذلك سعوا إلى قناة اتصال داخلية مع اليمين الإسلامي. وقال مسئول من مجلس الأمن القومي في مطلع ١٩٩٥ أن الإسلاميين في مصر هم موجة المستقبل استشرافا لأحلام المحافظين الجدد بعد ٢٠٠١ في إعادة تشكيل الشرق الأوسط وفرض نظام ديمقراطي جديد عليه. وقال المسئول: "الأنظمة القائمة في الشرق الأوسط ستختفي في المستقبل لأن التغير حتمي ومن أهداف واشنطن الرئيسية إدارة التغير والتحول في الشرق الأوسط بأقل الخسائر السياسية الممكنة. وتعتبر أمريكا الإسلاميين لاعبين أساسيين بين القوى الاجتماعية العريضة التي تعمل في المنطقة وبالتالي على النخب الحاكمة حاليا أن توسع قواعدها الاجتماعية عن طريق السماح للإسلاميين بالمشاركة السياسية إذا أرادت أن تبقى. ويفسر هذا الواقع منطق حكومة كلينتون في اتخاذ قرار مبكر بالحفاظ على الحوار السري مع الإسلاميين في الجزائر ومصر".(٣٢)

غير أن الحكومة الجزائرية ومبارك لم يفكرا في هذا الواقع وعمدا إلى مواجهة الصحوة الإسلامية. وعقب محاولة اغتيال مبارك في عام ١٩٩٥ شن حملة ضد الإخوان المسلمين ذكرتنا بحملات ١٩٥٤ و ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦ التي قام بها ناصر. تم إلقاء القبض على مئات من الإخوان المسلمين وحل مؤسساتهم ومحاصرة نشاطهم في النقابات المهنية، وعقدت محاكمات صورية لهم. واعتقد بعض المسئولين الأمريكيين أن الحملة سوف تعود بنتيجة عكسية غير أنه خلال النصف الثاني من التسعينات تراجع اليمين الإسلامي في مصر باستثناء بعض الهجمات الإرهابية ضد السائحين في عام ١٩٩٧. وخضع اليمين الإسلامي في مصر للقمع مرة أخرى. لكنه لم ينته. لكنه دفن إرهابه وعنفه تحت الأرض وعاد سريا. وسعى الإسلاميون في شكلهم المعتدل إلى التحالف مع المعارضة السياسية الديمقراطية المصرية وأعلنوا تأييدهم لانتخابات يتم خلالها انتخاب

رئيس جديد. ويصر العديد من المسئولين في الحكومة الأمريكية والمتعاطفين من المستشرقين والمراكز البحثية المختلفة على أن الإخوان المسلمين كانوا شركاء واعدين للإصلاح في مصر.

طالبان

الصحوة الإسلامية الثالثة التي تواجه صناع السياسة الأمريكية هي ظهور طالبان في أفغانستان التي مزقت أوصالها الحرب. الأساس الذي قامت عليه طالبان ونمت وانتصرت هو كتاب أحمد رشيد الصحفي الباكستاني "طالبان: الإسلام المتشدد والنفط والأصولية في وسط آسيا". قضى رشيد المخضرم سنوات يرصد أفغانستان والمخابرات الباكستانية. ويقول أن طالبان منذ البداية تلقت دعما قويا ليس فقط من السعودية التي مولتها بل من باكستان التي كانت مخابراتها القوة الرئيسية وراء غزو طالبان لأفغانستان التي تعج بأمراء الحرب وأيضا من أمريكا. وكتب رشيد يقول: "بين ١٩٩٤ و١٩٩٦ دعمت أمريكا طالبان بشكل أساسي عبر حليفتيها باكستان والسعودية لأن أمريكا كانت تعتقد أن طالبان مناهضة لإيران والشيعة ومؤيدة للغرب. وبين ١٩٩٥ و ١٩٩٧ تزايد الدعم الأمريكي بسبب دعمها لمشروع خط أنابيب للطاقة من تركمانستان يمر عبر أفغانستان. واعتبر العديد من الدبلوماسيين الأمريكيين أن طالبان أهل خير مثل المسيحيين الأمريكيين.(٣٣) كان دعم أمريكا لطالبان إستراتيجيا وكانت تمثل تماما ما قاله بريجنسكي عن سياسة "قوس الإسلام" وحلم كيسي عن استغلال الإسلام لاختراق الاتحاد السوفيتي.

وسعت أمريكا حتى بعد انتهاء الحرب الباردة إلى استغلال وسط آسيا الغني بالنفط وفي التسعينات راهنت أمريكا على المعارضة. واعتقدت أن حلفائها هما السعودية وباكستان ومنافسيها هم الهند وروسيا والصين وإيران. وحذرت مذكرة من الخارجية الأمريكية في ١٩٦٦ من أن روسيا ايرن والهند سوف تدعم القوى المعارضة لطالبان في أفغانستان. وصدر التحذير قبيل استيلاء طالبان على كابول.(٣٤) وحذر التقرير مما حدث بالفعل حيث ظهر تحالف بقيادة أحمد شاه مسعود في أواخر التسعينات باعتباره

المعارض الرئيسي لنظام طالبان المتشدد - والمثير للسخرية أن تحالف الشمال سيكون الحليف الأول لأمريكا بعد غزوها لأفغانستان عقب الهجوم على مركز التجارة العالمي.

وكتب جراهام فوللر في "مستقبل الإسلام السياسي" يصف كيف تهدد طالبان الدول المنافسة للولايات المتحدة في وسط آسيا فقال: "القوى الخارجية المهمة التي اشتركت في أحداث أفغانستان انزعجت من دلالات استيلاء طالبان على الحكم ومنها إيران لأن طالبان مناهضة بشدة للشيعة وتعامل السكان الشيعة في هزارا بصلف شديد، وروسيا واوزبكستان وطاجيكستان لأنها تخشى أن تنقلب طالبان إلى توسيع نطاق الحركات الإسلامية إلى الشمال من وسط آسيا. والهند تخشى سيطرة باكستان على أفغانستان ويمثل انتصار طالبان تعزيز لهذه السيطرة. وكانت واشنطن محايدة على أمل أن تستطيع توحيد البلاد في النهاية بعد أن مزقتها الحرب الأهلية، **وأمل** أن يساهم ذلك في تسهيل مرور غاز تركمانستان عبر أفغانستان ليصل إلى المحيط الهندي ويلتف حول إيران ويمكن أن تحد من إنتاج الأفيون وتقضي على وجود رجال حرب العصابات الإسلاميين ومعسكرات التدريب القائمة في البلاد منذ الجهاد ضد السوفيت".(٣٥)

وقد عبرت الولايات المتحدة، سواء بالحرب الباردة أو بدونها، عن رغبتها في تحدي الهيمنة السوفيتية على وسط آسيا وأفغانستان. وفي ذلك أشارت شيلا هاسلين المسئولة في مجلس الأمن القومي أن السياسة الأمريكية كانت تهدف إلى تعزيز استقلال الدول الغنية بالنفط من أجل كسر الهيمنة السوفيتية على نقل النفط من المنطقة وبصراحة لتعزيز تأمين موارد الطاقة للغرب من خلال تنويع مصادره.(٣٦) واستعانت شركة تمديد خط يونوكال للنفط بمسئولين أمريكيين سابقين لتعزيز البرنامج الذي يضمن تنويع مصادر النفط والطاقة. ومن هؤلاء المسئولين هنري كيسنجر وزلماي خليل زاده السفير الأمريكي مستقبلا في أفغانستان. وقال مسئول في مؤسسة راند عام ١٩٩٦ إن طالبان لا تمارس التشدد المناهض لأمريكا الذي تمارسه إيران بل هي أقرب إلى النموذج السعودي. وتتبنى الجماعة خليط من المعتقدات من الباشتونية التقليدية والإسلام الأصولي.(٣٧)

وانضم حليفان أخران، إلى جانب السعودية وباكستان، إلى الإستراتيجية الإقليمية لردع روسيا واحتواء إيران هما إسرائيل وتركيا. في التسعينات شجعت واشنطن تركيا،الواقعة تحت تأثير الإسلاميين المرتبطين بالإخوان المسلمين، على توسيع نفوذها في منطقة وسط آسيا حيث يوجد عدد كبير الأتراك مستعدون للانضواء تحت القيادة التركية من البوسفور إلى الصين، حسب ظن الأمريكيين.

وفي الوقت الذي كان أسامه بن لادن يؤسس مقره في أفغانستان بعد طرده من السعودية عام ١٩٩٦، كان زعماء طالبان، الذين استضافوه وأصبحوا يعتمدون كليا على تمويله، يناوشون أمريكا من حين لآخر ويلتقون مع مسئولين أمريكيين ورجال في صناعة النفط والأكاديميين. وغضت حكومة كلينتون وشركة أنابيب يونوكال الطرف عن التظاهرات النسائية ضد طالبان حيث كانت المنظمات النسائية ترفض القمع الذي تمارسه طالبان ضد حقوق المرأة. وفضلت يونوكال أن ينظر إلى طالبان على أنهم صورة مصغرة من الأقلية الحاكمة في السعودية. وقال مسئول في الخارجية الأمريكية: "إن طالبان ربما تتحول إلى صورة ثانية من السعودية. هناك خط أنابيب أرامكو وأمير ولا يوجد برلمان وهناك الكثير من مظاهر الأخذ بالشريعة الإسلامية. يمكننا أن نتعامل مع هذا".(٣٨)

وخلال فترة التعاون بين طالبان وأمريكا من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٨، التي انتهت بتفجير سفارتين أمريكتين في أفريقيا، عندما استهدفت واشنطن بن لادن وحلفائه (طالبان)، كان توماس جوتييه الأكاديمي من جامعة نبراسكا المستشار لشركة اونوكول، مديرا لمركز الدراسات الأفغانية. وخلال الجهاد الأفغاني وبعده دبر مركز جوتييه اكثر من ٦٠ مليون دولار من المنح الفيدرالية لبرامج دراسية في أفغانستان وباكستان. ورغم أن التمويل كان عن طريق وكالة التنمية الدولية التابعة للخارجية، كانت المخابرات هي الكفيل.

وكان برنامج جوتييه التعليمي ملىء بالدعاية الإسلامية الواضحة بما فيها طبع كتبا تعليمية للأطفال تعلم الأفغان الحساب عن طريق إحصاء عدد الجنود الروس المقتولين والجمع بعدد مدافع الكلاشنيكوف الرشاشة وهو ما يتفق مع الخطاب الإسلامي

المتشدد. أعجبت طالبان ببرنامج جوتييه لدرجة أنهم استمروا في استخدام تلك الكتب. وعندما زار وفد من طالبان أمريكا عام ١٩٩٧ توقفوا في أوماها لتحية جوتييه. وعندما زاروا أمريكا مرة أخرى عام ١٩٩٩، وكان بين أعضاء الوفد قادة عسكريون لهم علاقات مع بن لادن والقاعدة، فقد اصطحبهم جوتييه في جولة إلى **جبل رشمور**.(٣٩) وقال جوتييه لمرشدهم اجلس معهم فهم يشبهون الأمريكيين العاديين، وفق ما نشرته صحيفة أوماها وورلد هيرالد.(٤٠) وعندما غزت أمريكا أفغانستان عام ٢٠٠١ كان أحد أهدافهم تنقية الكتب التي صممها جوتييه واعتمدتها طالبان، وفق ما قالته صحيفة واشنطن بوست التي أضافت أن الكتب كانت مليئة بأمثلة عن الجهاد.(٤١)

هل هو صدام حضارات؟

في أواخر التسعينات كان هناك تباين كبير في الرأى بخصوص سلطة اليمين الإسلامي في الشرق الأوسط ووسط آسيا. في مصر والجزائر تعرض الإسلاميون للقمع غير أنهم استمروا في الوجود دون ظهور كبير. في أفغانستان وإيران والسودان اكتسب الإسلاميون أرضا واسعة وسيطروا على الحكم في دولهم المتشددة في ظل أنظمة دكتاتورية. في باكستان والسعودية مارس الإسلاميون سلطة غير مسبوقة من خلال التحالف مع النخبة الحاكمة رغم أن علاقات العائلة المالكة في السعودية والحكومة العسكرية في باكستان كانت بالغة التوتر على خلفية صفقاتهم مع الشيطان (أمريكا). وحقق الإسلاميون مكاسب غير مسبوقة في تركيا هددت العلمانية التي تعود إلى ٧٠ سنة من عهد أتاتورك، بقوة الإسلاميين المرتبطين بالإخوان المسلمين(*) وجماعة الصوفية النقشبندية السرية.

ولم يفكر أحد في أمريكا في المشكلات التي سببها الإسلاميون في الشرق الأوسط من الثورة الإسلامية إلى أواخر التسعينيات. ووصل الأمر حد أن الولايات المتحدة غطت الطرف حتى عن الجماعات الإرهابية المنبثقة عن الإسلاميين(**)، وفق

* مرة أخرى يربط حزبا مثل حزب العدالة الحاكم في تركيا بجماعة مثل الإخوان رغم ما قد يكون من تباعد في الشقة بينهما.
** من الواضح أن المؤلف هنا اتجه الى التمييز بين فصيلين في الإسلاميين من بينهما إرهابيين وهي المرة الأولى التي ينفي فيها صفة الإرهاب بشكل غير مباشر عن كل الإسلاميين.

ما قاله وولسي ومسئولون في المخابرات الأمريكية، باستثناء حزب الله. واستجاب المسئولون الأمريكيون والمخابراتيون أخيرا للتحذيرات العديدة من الإسلاميين (تفجير القاعدة الأمريكية في الخبر عام ١٩٩٦ في السعودية، وتفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨ والهجوم على المدمرة الأمريكية كول في اليمن عام ٢٠٠٠) عن طريق إنشاء مجموعة من الفرق الخاصة لمحاربة أسامه بن لادن والقاعدة وحلفائها الذين أصبحوا عدو أمريكا الأول. غير أن جهود أمريكا للعثور على بن لادن والقضاء عليه لم تفلح لدرجة تثير السخرية. فشلت المخابرات الأمريكية التي تصل ميزانيتها إلى ٢٧ مليار دولار في الوصول إلى بن لادن برغم أن عدد العاملين بها يقدر بنحو ١٠٠ ألف شخص منتشرين بين العديد من الوكالات بما تملكه من مجموعة أقمار إصطناعية وأجهزة مراقبة وتنصت وجواسيس وعملاء ومخبرين.

والمفارقة أن ذلك جاء في ذات الوقت الذي استطاع فيه عدد لا يحصى من الصحفيين من أمريكا وأوربا بما فيهم مراسلو محطات تلفزيونية وغيرهم الوصول إليه بسهولة وإجراء حوارات مطولة معه، الأمر الذي فشلت المخابرات في تحقيقه. كما فشلت كذلك وبشكل مؤسف هجمات صاروخية موجهة إلى ما يعتقد أنه مخبأ بن لادن في أفغانستان في إصابة الهدف كما فشلت هجمات صاروخية على ما يعتقد أنه أهداف للقاعدة في السودان تستخدم لإنتاج أسلحة دمار شامل، ودمرت مصنع للأدوية فقط.(*) وألغيت خطة لاختطاف بن لادن بشكل مثير للسخرية. ثم في سبتمبر ٢٠٠١ وجد الذين يعتقدون في صدام الحضارات ضالتهم وفازت نظرياتهم وأرائهم بتعاطف واضح بعد أن كانت تعتبر غريبة الأطوار على أفضل الفروض ومتشددة على أسوأها.

وتبنت حكومة بوش فكرة صراع الحضارات لتدفع بالبلاد إلى توسع غير مسبوق لوجودها الإمبريالي في الشرق الأوسط مع أنها لم تتبن فكرة الصراع بين المسيحية والإسلام.

* رغم إقرار المؤلف بضرب مصنع للأدروية في السودان إلا أنه لا ينفي المزاعم عن إنتاج أسلحة دمار شامل التي أعلنت إدارة كلينتون أنها السبب وراء هجماتها على السودان الأمر الذي لم يثبت حتى الآن.

لويس وهنتنجتون

قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كان مجلس الأمن القومي وخبراء السياسة الخارجية يعتبرون برنارد لويس وصمويل هنتنجتون من الفضوليين وهما أشهر من روج لنظرية صدام الحضارات. وأدت نظريتهما إلى جدل واسع النطاق بسبب نشرهما أراءهما في مطبوعات مثل مجلة "فورين افيرز" فضلا عن التطرف الشديد لما حوته تلك النظريات من تصورات ومبادئ.

لكن عددا قليلا أخذ تلك النظريات على محل الجد باستثناء المحافظين الجدد في التسعينات الذين تشددوا في نظرياتهم كذلك. وواجهت نظريات الرجلين وفرضياتهما هجوما مضادا من العديد من الصحفيين والأكاديميين وخبراء السياسة الخارجية.

وفي ذلك كتب صموئيل هنتنغتون أن العدو ليس اليمين الإسلامي بل الديانة الإسلامية ذاتها. وكان قد أصدر كتاب "صدام الحضارات" المثير للجدل الذي بلغ درجة إعلان الحرب عند المحافظين الجدد. وقال هنتجتون في الكتاب: "مشكلة الغرب ليس التشدد الإسلامي بل الإسلام نفسه فهو حضارة مغايرة يقتنع أهلها بسمو وارتقاء حضارتهم على الآخرين وهم مهووسون بتدني قوتهم. المشكلة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات الأمريكية أو الخارجية أو وزارة الدفاع بل الغرب فهو حضارة مغايرة يقتنع أهلها بعالمية ثقافتهم ويعتقدون أن قوتهم الأعلى التي تراجعت تفرض عليهم الالتزام بنشر تلك الحضارة في أنحاء العالم".(٤٢)

وما جاء بعد ذلك في الكتاب يقول، العالم الإسلامي والعالم المسيحي دائما في حرب بين الحضارتين من قديم الأزل. و"الإرهابيون" أمثال منظمة القاعدة التي كانت تتشكل في الوقت الذي صدر فيه الكتاب، كانوا مجرد عصابة من المتشددين لديهم أهداف سياسية منها صدام الحضارات. وقال هنتنجتون أن الآلهة قدرت هذا الصدام وأن البشر لن يكون في إمكانهم وقفه. واعترف هنتنجتون بأن الإسلام لم يكن قوة كافية أمام اليسار خلال الحرب الباردة دون أن يشير إلى دور أمريكا. وقال أنه خلال الحرب الباردة شجعت العديد من الحكومات ومنها إسرائيل والجزائر وتركيا والأردن ومصر

إسلاميين ودعمتهم على الأقل مرة أو أكثر لمواجهة الشيوعية أو الحركات القومية العدائية. وحتى حرب الخليج على الأقل وفرت السعودية ودول الخليج تمويلا كبيرا للإخوان المسلمين والجماعات إسلامية في العديد من البلدان.(٤٣) لكنه لم يذكر تبريرا لأسباب التحالف بين الغرب والإسلاميين.

وأضاف أن سقوط الشيوعية أزاح عدوا للغرب وترك كل من الطرفين يرى الآخر على أنه تهديد للآخر.(٤٤) ورأى العديد في التسعينات أن حربا باردة بين الحضارات تتطور مرة أخرى بين الإسلام والغرب.(٤٥) وقال هنتنجتون، وهو ليس خبيرا في شئون الإسلام، أن هناك رابطة بين الإسلام والعسكرة (٤٦) وأكد أن الإسلام من البداية ديانة السيف وتفخر بالأمجاد العسكرية والحربية.(٤٧) ومن أجل توصيل وجهة نظره وضمان فهمها نقل هنتنجتون عن ضابط مجهول في الجيش الأمريكي قوله: "أن القطاع الجنوبي أو الحدود بين أوروبا والشرق الأوسط تتحول بسرعة إلى خط مواجهة جديد لحلف الناتو" (٤٨)

ونقل هنتنجتون تعبيرات عن الإسلام قالها برنارد لويس ليثبت أن الإسلام يمثل تهديدا على وجود الغرب فقال: "منذ نحو ألف سنة، حسبما ذهب لويس، منذ وصول الإسلاميين إلى إسبانيا، وخضوع فيينا للحصار الثاني، وأوربا تعاني من تهديد الإسلام لها. الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي وضعت الوجود الغربي أسيرا للشك وقد فعلت ذلك مرتين على الأقل".(٤٩)

ولم يفسر هنتنجتون كيف تضع دول الشرق الأوسط وجنوب آسيا الضعيفة الفقيرة المفتتة وجود الغرب "أسيرا للشك". لكن تلك هي النظرية التي كان يرددها برنارد لويس منذ الخمسينات.

كان لويس أخصائي دعاية وداعية للتوسع الإستعماري والإسرائيلي منذ أكثر من نصف قرن وهو ضابط مخابرات بريطاني سابق ويؤيد الحق الإسرائيلي في الوجود منذ فترة طويلة. واستخدم لويس تعبير "صدام الحضارات" أول مرة عام ١٩٥٦ في مقالة نشرت في صحيفة "ميدل ايست جورنال" حاول فيها تفسير "المناخ الحالي المناهض

للغرب السائد في الدول العربية ". وأكد لويس أن هذا الغضب ليس نتاج المشكلة الفلسطينية ولا يرتبط بالنضال ضد استعمار بل هو "شيء أعمق وأوسع نطاقا".

وقال لويس: "مانراه الآن ليس أقل من صراع بين الحضارات وبشكل أكثر تحديدا ثورة العالم الإسلامي ضد تأثير الحضارة الغربية، التي أطاحت بالتقاليد القديمة وغيرتها منذ القرن الثامن عشر. هذا الغضب والإحباط يعمم في الغالب ضد الحضارة الغربية ككل".(٥٠)

عاد لويس إلى تلك الفكرة مرارا وتكرارا. وأرجع لويس الشعور السائد في العالم العربي تجاه الغرب إلى قوى تاريخية كبيرة. وأعفى لويس الغرب من تهمة الاستيلاء على النفط في فترة الاستعمار الجديد بعد الحرب العالمية الثانية ودعمه لزرع الدولة الصهيونية في الأراضي العربية وتأييده للملكيات الفاسدة في مصر والعراق وليبيا والأردن والسعودية والخليج. وذكر لويس في كتابه "الشرق الأوسط والغرب" نفس الفكرة فقال لابد أن نرى الغضب الحالي في الشرق الأوسط ليس كنزاع بين دول أو أمم بل صدام بين حضارات.(٥١) وساق لويس حجة أنه لا ينبغي على أمريكا أن تسعى إلى إرضاء العرب عن طريق الضغط على إسرائيل للتوصل إلى سلام. وقال: "قد يتحدث البعض عن سهولة تحقيق آمال العرب ولكن تحقيق تلك الآمال سيكون على حساب أطراف أخرى أي على حساب إسرائيل".(٥٢) وطالب بدلا من ذلك بأن تتخلى أمريكا ببساطة عن العرب. وأضاف أن الغرب لابد أن ينأي بنفسه عن السياسة العربية خاصة السياسة بين الدول العربية. ولابد أن تتوقف الدول الغربية عن السعي إلى تكوين حلفاء من الدول العربية. لماذا نسعى إلى تحالفات مع دول تجعلها حضارتها وديانتها معارضة للحضارة الغربية؟.(٥٣)

ولعب لويس دورا حيويا لعدة عقود باعتباره أستاذا ومعلما و يملي مصطلحات على جيلين من المستشرقين والأكاديميين واخصائيين من المخابرات البريطانية والأمريكية وخبراء المراكز البحثية وخبراء أخرين في الإسلام يعتبرون لويس حالة مينوس منها بسبب إنحيازه الشديد للصهيونية وتسويق مواقف معادية للمسلمين. كان

لويس يهوديا ولد في عام ١٩١٦ وقضى خمس سنوات في الحرب العالمية الثانية يعمل في الشرق الأوسط لحساب المخابرات البريطانية ثم استقر في جامعة لندن.(٥٤)

وفي عام ١٩٧٤ هاجر من لندن إلى برينستون حيث طور علاقات مع عدد من الأشخاص أصبحوا فيما بعد قادة الحركة المحافظة الجديدة. وقال ريتشارد بيرل أحد كبار المسئولين السابقين في وزارة الدفاع الأمريكية أن لويس أصبح المثل الأعلى للسناتور هنري جاكسون عضو مجلس الشيوخ.(٥٥) وكان بيرل رئيس مجلس الدفاع وأهم المؤيدين للحرب على العراق في ٢٠٠٣ وطير "طنان" يردد أغاني لويس. وقام لويس أيضا بزيارات متكررة إلى مركز موشي ديان في جامعة تل أبيب حيث أقام علاقات وثيقة مع ايريل شارون. وبحلول الثمانينات أصبح لويس يتحرك بصحبة كبار المسئولين في وزارة الدفاع.

وطبقا لباتريك لانج المسئول السابق في وزارة الدفاع الأمريكية قد تم استدعاء لويس كثيرا من برنستون لتقديم ما يمثل دورات تعليمية لأندرو مارشال مدير مكتب التقديرات والتقييم والذي يعتبر بمثابة مركز دراسات في إطار البنتاجون.(٥٦) ومن بين تلاميذ لويس الآخرين هارولد رود الخبير بلغات الشرق الأوسط المتعددة والذي عمل بوزارة الدفاع لمدة عقدين من الزمان وخدمة كنائب لمارشال. وعلى مدى العشرين عاما الماضية ساهم لويس في تقديم خدماته كمستشار خاص بشئون الإسلام والشرق الأوسط للإدارة الأمريكية وخاصة مجموعة المحافظين الجدد في إدارة بوش بما فيهم ريتشارد بيرل، ورود ومايكل ليدن. وقد أشار جيمس ووسلي لدى سؤاله بشأن من أثر على تفكيره خلال فترة عمله بالإدارة الأمريكية إلى أن هناك العديد ممن كانوا يفدون إلى الإدارة ويقدمون حلقات دراسية متذكرا من بينهم بشكل خاص برنارد لويس.(٥٧)

ورغم أن لويس حافظ على مظهر خادع للموضوعية الأكاديمية، ورغم أن العديد من العلماء أو الدارسين يعترفون بأنه الشخص المؤهل ليكون مرجعا أساسيا في تاريخ الإمبراطورية العثمانية، فإن لويس تخلي عن كل المظاهر الأكاديمية خلال التسعينات. ففي عام ١٩٩٨ وفيما يشير إلى انضمامه رسميا إلى معسكر المحافظين الجدد، شارك لويس في توقيع خطاب يطالب بتغيير النظام في العراق، ومن بين من شارك في توقيع

الخطاب ريتشارد بيرل ومارتن بيرتز صاحب "الجمهورية الجديدة" وعدد من المسئولين المستقبليين في إدارة بوش بما فيهم بول وولفوفيتز ودافيد وورمسير ودوف زاخيم. وواصل لويس العمل عن قرب مع مراكز الأبحاث القريبة من المحافظين الجدد.

وفي الفترة التي أعقبت أحداث سبتمبر ٢٠٠١ أصبح لويس منتشرا على نطاق واسع يروج لرؤاه بأن الإسلام غير قابل للتغير فيما يتعلق بمعارضته للغرب. وبعد أحداث سبتمبر بنحو أسبوعين دعا بيرل لويس وأحمد الجلبي إلى الحديث أمام عدد من المسئولين النافذين بوزارة الدفاع الأمريكية مفتتحا عامين من جهود المحافظين الجدد لإثبات وجود علاقة مفترضة غير حقيقية بين أسامة بن لادن وصدام حسين. وكان الجلبي الذي يعتبر صديقا لبيرل ولويس منذ الثمانينات يقود جماعة معارضة عراقية في المنفى، هي المؤتمر الوطني العراق ويعتبر مسئولا بشكل أساسي عن تقديم المعلومات الغزيرة المغلوطة التي تم تزويد المخابرات الأمريكية بها من أجل مساعدة ادارة بوش على تعزيز فكرة الخطر الذي يمثله العراق في ظل صدام حسين لأمن الولايات المتحدة.

وبعد نحو أقل من شهر واحد فقط على ظهور لويس وأحمد الجلبي، أنشأ البنتاجون وحدة سرية خاصة برئاسة وورمسير والذي تطور فيما بعد إلى مكتب الخطط الخاصة. وقد كان يقوم عليه كل من رود ودوجلاس فيث، السكرتير الثاني للشئون السياسية بوزارة الدفاع الأمريكية. وفي ذلك الصدد يقول لانج : "إن رود يعتبر في إطار حركة المحافظين الجدد مناظرا لميخائيل سوسلوف" مشيرا في ذلك إلى آخر رئيس أيديولوجي للحزب الشيوعي السوفييتي السابق. مضيفا أن رود يلعب دور المنظر(٥٨) وأنه – رود – وفيث في إطار مكتب الخطط الخاصة وتحت رعاية أبرام شولسكي هما اللذين زورا المعلومات الإستخباراتية التي تتهم العراق بإقامة روابط مع القاعدة.

كما أن مكتب الخطط الخاصة كذلك هو الذي أعد الكثير من الأوراق التي كان يعتمد وزير الدفاع دونالد رامسفيلد وآخرون من مسئولي إدارة الرئيس بوش عليها والتي تزعم بأن لدى العراق مخزون كبر من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، وصواريخ طويلة المدى وعربات آلية وبرنامج نووي متطور.(٥٩) وقد اعتمد مكتب الخطط الخاصة بشكل مباشر على المعلومات المزورة التي قدمها الجلبي وهو ما تجلى في ظهور هذه

المعلومات في الخطب والكلمات التي ألقاها تشيني ورامسفيلد وآخرون من مسئولي إدارة بوش. وفيما قبل عملية غزو العراق، كان لويس مقربا بشكل كبير من تشيني وقد تناول عشاءا خاصا مع نائب الرئيس لمناقشة خطط الحرب على العراق (٦٠)، وفي عام ٢٠٠٣ أهدى لويس كتابه "أزمة الإسلام" إلى هارولد رود.

الحرب على الإرهاب

بدأ الرئيس الأمريكي بوش خلال الإعداد للحرب، في أفغانستان أولا ثم في العراق تاليا، وفي إعلان بداية الحرب العالمة على الإرهاب، بدون نهاية في الأفق، حريصا على عدم اعتناق نظرية (لويس – هنتنغتون) بشأن صدام الحضارات بشكل كامل. وفي خطبة بعد أخرى – ورغم إشارته الخرقاء إلى الحملة في الشرق الأوسط باعتبارها حربا صليبية – أصر الرئيس على أن الولايات المتحدة إنما تخوض حربا ضد الإرهابيين وليس ضد أهل القرآن. وفي الحقيقة، لم تكن حرب بوش ضد الإرهاب مع ذلك سوى مبررا لتطبيق توجه راديكالي جديد تجاه الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. لم تكن سياسة ضد الإسلام أو الأصولية الإسلامية، أو حتى تجاه الإرهاب، سواء كان إسلاميا أم غير إسلامي.

ومنذ البداية، كان رد فعل الرئيس على ١١ سبتمبر يعكس رؤية إمبراطورية واسعة. وقد تخيل إمكانية تطبيق نظرية الدومينو من خلال تغيير الأنظمة في الشرق الأوسط، وجرى ربط ذلك بتوسيع الوجود العسكري والسياسي الأمريكي في المنطقة: طالبان في البداية، ثم صدام حسين، ثم الأنظمة في إيران وسوريا والسعودية، مع اعتقاد بأن الأنظمة الأخرى في المنطقة يمكن أن تسقط أمام قوة الإنقضاض الديمقراطي التي تحركها الولايات المتحدة.

وقد تأثرت إدارة بوش بشكل كبير برؤى المحافظين الجدد في الداخل والخارج الذين تبنوا رؤية صلبة تقوم على أساس حتمية إتمام عملية التغيير في المنطقة. في الداخل كان يوجد وولفوفيتز، فيث، بيرل، مارشال، وورسمير، وشولسكي إلى جانب العديد من المسئولين الآخرين الأساسيين في البنتاجون مثل مايكل روبين ووليام لوت ولويس ليبي

في مكتب نائب الرئيس تشيني، وجون بولتون في الخارجية الأمريكية، وإليوت أبرامز في مجلس الأمن القومي وغيرهم كثيرين. وفي الخارج كان يوجد مجموعة من مراكز الأبحاث والناشطين الإعلاميين من بينهم توم دونلي وجاري شميت القائمين على "مشروع القرن الأمريكي" ووليام كريستول من "ويكلي استاندرد" ومايكل ليدن من "معهد المشروع الأمريكي" وماكس سينجر من معهد هدسون، وبيريتز صاحب "الجمهورية الجديدة" ولورانس كابلان وجيمس وولسي.

لقد بدأت اللعبة في بغداد غير أنها لم تنته هناك، وفق ما قاله كابلان وكريستول في كتاب بعنوان "الحرب على العراق". وأضاف الكاتبان "إننا على عتبات مرحلة تاريخية جديدة. إنها لحظة حاسمة. الأمر بالطبع ليس العراق فقط، بل مستقبل الشرق الأوسط والحرب على الإرهاب. إنها بشأن الدور الذي تريد أمريكا أن تضطلع به في العالم في القرن الواحد والعشرين."(٦١) وقال ليدين في مؤتمر صحفي ليلة غزو العراق، ليصف تلك السياسة بوضوح كامل "اعتقد أننا سوف نضطر إلى شن حرب إقليمية سواء أردنا أو لم نرد". وأكد أن الحرب قد لا تقتصر على العراق وحده بل قد تمتد لتكون حربا لإعادة تشكيل العالم." (٦٢)

هذه الأفكار الضخمة الكبرى هي التي تروادِ المحافظين الجدد دائما وتميز رؤيتهم للعالم. وفي مذكرة غير معروفة صدرت في إسرائيل عام ١٩٩٦، موجهة إلى رئيس الوزراء في ذاك الوقت نتانياهو بعنوان "دمار نظيف: إستراتيجية جديدة لتأمين النطاق" وضع بيرل وفيث وورمسر وآخرين خطط السياسة الإقليمية من منظور شامل لوصف السياسة الخارجية الأمريكية، طالبت تلك المذكرة إسرائيل بالتعاون مع تركيا والأردن للاستمرار في احتواء وزعزعة استقرار وصد العديد من الدول في المنطقة والإطاحة بصدام حسين والضغط على الأردن لاستعادة ملك الهاشميين في بغداد وشن عمل عسكري ضد لبنان وسوريا كمقدمة لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط لتهديد الوحدة الجغرافية السورية." ولم يأت في المذكرة أي شيء عن وضع سياسة لمواجهة الإسلام المتشدد أو الإخوان المسلمين أو القاعدة.(٦٣)

ولم تكن الديمقراطية بالطبع هي هم حكومة بوش الأول في الشرق الأوسط برغم أن الديمقراطية هي الفكرة الأساسية في الخطاب الرسمي الأمريكي. لقد أراد المحافظون الجدد السيطرة على الشرق الأوسط وليس إصلاحه حتى ولو كان هذا يعني تمزيق الدول وإحلالها بدويلات صغيرة تفصل فيما بينها حدود عرقية طائفية. واليمين الإسلامي في هذا السياق هو أحد الأدوات لتمزيق الأنظمة القائمة إذا كان هذا هو الثمن.

وفي مقالة حول "إعادة التفكير في الشرق الأوسط" في "فورين آفيرز" وصف برنارد لويس بحق الموقف بأنه عملية أقرب إلى "اللبننة": "إن إمكانية حدوث مايمثل اختراق من قبل الأصوليين أو المتطرفين قد يشبه إلى حد كبير ما أصبح يطلق عليه مؤخرا "اللبننة". فمعظم دول الشرق الأوسط – ومصر استثناءا واضح – تعد ذات طبيعة مصطنعة وقابلة لمثل هذه العملية. وإذا ما كانت القوة المركزية ضعيفة بشكل كبير فإنه لا يوجد مجتمع مدني حقيقي يمكن أن يمثل ضمانة لبقاء المجتمع ولا يوجد شعور حقيقي بالهوية المشتركة.. في ظل هذه الأجواء يمكن للدولة أن تتفكك كما حدث في لبنان وتنخرط في الفوضى وحالة من التناحر الطائفي والعشائري والقبلي والمناطقي والحزبي"(٦٤).

قد يكون ذلك بحق أحد احتمالات المستقبل في العراق في أعقاب الغزو الأمريكي له، الأمر الذي أشار إليه شاس فريمان بقوله: إن نوايا المحافظين الجدد في العراق ليست على الإطلاق بناء مجتمع ديمقراطي هناك. إن نواياهم هي تقسيمه والقضاء على العراق كقوة إقليمية تهدد إسرائيل.(٦٥)

والعراق في هذا الخصوص ليس قابلا فقط للتفكك ولكن المحافظين الجدد قدموا إشارات واضحة باستهدافهم تفكيك المملكة السعودية كذلك. ففي كتابه "نهاية الشر.. كيف يمكن الإنتصار في الحرب على الإرهاب" اقترح ريتشارد بيرل ودافيد فروم الزميلان في معهد المشروع الأمريكي تعبئة الأصوليين الشيعة ضد الدولة السعودية. ونظرا لكون الشيعة يمثلون قوة كبيرة على طول شاطئ الخليج العربي حيث حقول النفط السعودية، فإن بيرل وفروم لاحظا أن السعوديين لديهم خوف مزمن من أن "الشيعة يمكن لهم ذات يوم أن يسعوا إلى الإستقلال بالمنطقة الشرقية ونفطها".

وأضافا: "إن إستقلال المنطقة الشرقية ربما يكون عملية كارثية للدولة السعودية. ولكنه ربما يبدو أمرا ذو فائدة بالغة للولايات المتحدة. ومن المؤكد أنه أمر جدير بالبحث. الأكثر يقينا من ذلك، أنه ربما يكون من الأفضل لنا أن نجعل السعوديين على علم بتفكيرنا ذاك"(٦٦).

وقد كرر ماكس سنجر المؤسس المشارك لمعهد هدسون اقتراحه بأن الولايات المتحدة ربما يكون الأفضل أن تسعى لتفكيك المملكة السعودية من خلال تشجيع إقامة دويلات في المنطقة الشرقية والحجاز. وأضاف: بعد الإطاحة بصدام، فإنه سيكون هناك زلزال في المنطقة. وإذا كان ذلك يعني سقوط النظام السعودي فإنه قد يكون زلزالا بحق"(٦٧). وقد كتب ليدن أن سقوط الأسرة السعودية يمكن أن يؤدي إلى الإستيلاء على الوضع في البلاد من قبل العناصر التي تدعمها القاعدة. وفي هذه الحالة يمكننا أن نوسع الحرب لتشمل الجزيرة العربية، على الأقل إلى المناطق التي تنتج النفط"(٦٨). وفي هذا الصدد ذكر جيمس آكين السفير الأمريكي السابق في الرياض: لقد توقفت عن القول بأن السعودية يمكن أن تقع في أيدي أسامة بن لادن، أو عشيرة بن لادن، إذا ما ذهبنا إلى العراق، وقد أصبحت مقتنعا الآن بأن هذا هو بالضبط ماكان يريد المحافظون الجدد أن يحدث. وعلى هذا الأساس يمكن لنا التدخل والسيطرة على الموقف"(٦٩).

وخلال الأعوام الأربعة الأولى من حرب الرئيس بوش على الإرهاب، ذهب العديد من المنتقدين لإدارته إلى أن غزو أفغانستان والعراق، وكذا زيادة درجة الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط إلى هذا المستوى العالي يكون مساهمة من الإدارة في خلق وإيجاد جيل جديد من المتشددين الإسلاميين الذين ربما يلومون الولايات المتحدة على كل أمراض الشرق الأوسط. ورغم خطابها المتكرر بشأن مواجهة الإرهاب الذي يكتسي مسحة إسلامية فإن إدارة بوش لم تنجح في تقديم مؤشرات على استراتيجية ناجحة لها سواء في أفغانستان أو العراق لمراجعة انتشار الأصولية الإسلامية. وقد تطرق مايكل شوير في كتابه "الفوقية الإمبريالية" الذي قدمه باسم كاتب مجهول إلى هذا الوضع بصورة بالغة الدقة حيث قال: إن الولايات المتحدة وبريطانيا والحلفاء الآخرين يحاولون السيطرة على أوضاع لا يمكن السيطرة عليها فيما بعد الحرب سواء في أفغانستان أو

العراق، فيما أنهم يعملون معا على محاربة المقاومة الإسلامية المتزايدة في كلا الدولتين في حالة يصفها قادتنا بأنها حالة نصر. وفي خوض هذه الممارسة والحملات العسكرية التقليدية التي تسبقها فإن القوات الأمريكية وسياساتها تعزز ثورية العالم الإسلامي، على شاكلة ما حاول أسامة بن لادن القيام به بدون نجاح كامل منذ التسعينات. وكنتيجة لذلك، فإنني اعتقد أنه من الإنصاف إستنتاج أن الولايات المتحدة تبقى حليف بن لادن غير المنظور"(٧٠).

إن نجاح أفغانستان في هزيمة بقايا طالبان والتراجع عن عقود من أسلمة البلاد، والقضاء على البنية التحتية لقوى اليمين الإسلامي وإقامة دولة علمانية مستقرة أمر يبقى قائما. وبالمنطق ذاته فإن نجاح العراق في إقامة حكومة علمانية يمكن لها القضاء على القوى المرتبطة بالقاعدة التي احتشدت هناك، وتكسر شوكة الأحزاب الشيعية المتشددة مثل المجلس الإسلامي الأعلى وحزب الدعوة والتي سيطرت على الموقف في العراق فيما بعد الحرب، وكذا لجم الجهود التي تبذل من قبل آيات الله في إيران لممارسة النفوذ داخل جارتها العربية يبقى كذلك قضية غير محسومة. إن فرص النجاح والفشل في مثل هذه الفرضيات متماثل بنسبة ٥٠% لكل منهم، ففي المستقبل غير البعيد يمكن أن تقع أفغانستان في قبضة المتشددين الإسلاميين وكذلك الأمر بالنسبة للعراق حيث يمكن له أن ينتهي إلى نظام ديني ليس له من سمة تميزه سوى أنه أقل تشددا من جارته إيران. ويتمثل الوجه الآخر للعملة، في أن القيادة الدينية في طهران ربما ستعزز قضبتها الحديدية على السلطة في الجمهورية الإسلامية.

فيما أنه على صعيد الوضع في باكستان، فإن الرئيس مشرف – الذي تسامح بالفعل مع استعراض الإسلاميين لعضلاتهم في كراتشي – يمكن له في أي لحظة أن يسقط بفعل إنقلاب إسلامي داخلي سواء من قبل الجيش أو الإستخبارات(*)، اللذين يخوضان تحالفا مع الجماعات الإسلامية أو الأحزاب المتشددة الأخرى وجماعات اليمين الإسلامي. وأما فيما يتعلق بإندونيسيا وبنغلاديش فإنهما يواجهان تمردا إسلاميا. وأما تركيا فقد انحرفت

* لم يسقط نظام مشرف بفعل انقلاب داخلي إسلامي كما توقع المؤلف وإنما سقط من خلال واجهة ديمقراطية بفعل ترتيب أمريكي فيما مثل ضربة استباقية خشية تحقق الطرح الذي أشار إليه المؤلف بشكل انتهى إلى تولي حزب الشعب الذي كانت تتزعمه بنازير بوتو الحكم بما هو معروف عنه من توجهات موالية للولايات المتحدة في سيناريو شبهه البعض بتخلي واشنطن عن الشاه، وإن لصالح قوى تحظى بالقبول هذه المرة.

لجهة الإنخراط في المعسكر الإسلامي لمدة تتجاوز العقد، فيما تواجه سوريا ولبنان والأدن وفلسطين ضغطا هائلا من الإخوان المسلمين. وأما قلب العالم العربي ممثلا في مصر والسعودية، فإنهما تواجهان ضغوطا لجهة المزيد من الانفتاح السياسي في عملية يعتقد العديد من المراقبين أنها يمكن أن تؤدي حال تحققها إلى إقامة نظم إسلامية في كل منهما.

إن حالة العراق هي الحالة الأكثر غرابة. فقد ذهب الرئيس بوش إلى الحرب هناك إثر اتهام صدام حسين بتشكيل تحالف مع القاعدة. وقد حذر من أن صدام ربما ينتهي به الأمر إلى نقل أسلحة الدمار الشامل إلى خلايا بن لادن. ولكن نظام صدام لم يكن، حسبما تم الكشف عام ٢٠٠٣، على صلة بالقاعدة، فضلا عن أنه لم يكن يمتلك أسلحة دمار شامل يقوم بتوزيعها. ومهما كانت ديكتاتورية النظام الذي كان قائما في بغداد، فإنه كان علمانيا بالشكل الذي كان من المؤكد معه أن قيادته ممثلة في حزب البعث على عداء كبير مع الإسلاميين.. سواء كانوا من جماعات الشيعة المختلفة أو حتى من جماعات السنة المسلمين. ولكن إدارة بوش شجعت عن قصد وبكامل رغبتها الإسلاميين في العراق على تولي السلطة. واستقدم المسئولون في الحكومة الأمريكية والمخابرات المركزية آية الله من لندن إلى النجف في العراق وأقاموا تحالفا براجماتيا مع آية الله آخر هو على السيستاني وهو رجل دين إيراني أصبح صانع الملوك في العراق بعد الحرب. وتعاونت الحكومة الأمريكية مع رجال الدين في العراق ومنهم عبدالعزيز الحكيم (توفي مؤخرا) الذي قاد قوات قوامها ٢٠ ألف جندي تسمى لواء بدر وهي قوة دربتها وسلحتها إيران.

وطورت القوة جماعة "إرهابية" تسمى الدعوة الإسلامية قامت على مدى تاريخها المستمر منذ ٤٠ عاما بأعمال تفجير واغتيالات وهجمات إرهابية أخرى شملت الهجوم على السفارة الأمريكية في الكويت في الثمانينات. وكان الحزب السياسي الرئيسي الذي سيظهر في العراق بعد حرب ٢٠٠٣ هو الحزب الإسلامي العراقي وهو الفرع الرسمي للإخوان المسلمين في العراق. وحركت حكومة بوش سلسلة من الأحداث ستؤدي إلى تكرار الأزمة الجزائرية في عام ١٩٩٢ في عدد غير محدود من الدول في

المنطقة. حتى الدويلات الصغيرة جدا مثل الكويت حيث يتمتع الإخوان المسلمين بقوة كبيرة، والبحرين بعائلتها الملكية السنية والقلة الشيعية، كانت عرضة للثورة الإسلامية أو انتصار الإسلاميين في صناديق الاقتراع والانتخاب أو كليهما.

كان رويل جريخت ضابطا سابقا في المخابرات الأمريكية لديه خبرة في الشئون العراقية والشرق الأوسط ومدرس في معهد المشروع الأمريكي ومن متشددي المحافظين الجدد يقود الأصوات الداعية إلى دعم الغزو الأمريكي للعراق وأفغانستان. ولمدة ثلاث سنوات بعد عام ٢٠٠٢ كان جريخت يظهر في منتديات معهد المشروع إلى جانب شخصيات أخرى مثل بيرل وليدين ومحافظين جدد آخرين ويكتب في مطبوعات مثل "ويكلي ستاندارد" و"وول ستريت جورنال". وفي مطلع عام ٢٠٠٥ تظاهر جريخت بالتخلي عن معارضة اليمين الإسلامي وطالب الولايات المتحدة بتشجيع التشدد السني والشيعي في أنحاء الشرق الأوسط.

وأشار جريخت في إحدى ندوات المعهد في يناير ٢٠٠٥ إلى إصداره لكتاب بعنوان "التناقض الإسلامي: رجال الدين الشيعة والمتشددين السنة والديمقراطية المقبلة في الشرق الأوسط". وكان من بين الآراء التي طرحها جريخت في كتابه أن مستقبل الشرق الأوسط يكمن في اليمين الإسلامي وأن على أمريكا أن ترحب به. ويقول جريخت رغم أن غالبية الأمريكيين يحبذون المسلمين المعتدلين العلمانيين في الشرق الأوسط فإن المعتدلين ربما لا يكونون المفتاح وقد يكونون ذوي أهمية غير كبيرة في منطقة الشرق الأوسط.(٧١) وقال جريخت: "غالبية الأمريكيين من الليبراليين والمحافظين سيعترضون على فكرة رجال الدين المتشددين الذين يكرهون في أغلب الأحوال أمريكا وإسرائيل رغم أنهم لا يحتقرون الأولى. وهناك اعتقاد بأن التقدميين الذين يدافعون عن حقوق المرأة هم المفتاح لتحرير الشرق الأوسط المسلم من العداء للغرب. لكن المتشددين هم حلفاء أمريكا في الديمقراطية المحتملة في الشرق الأوسط وليس المسلمين العلمانيين الليبراليين الذين يلقون الإعجاب من البعض".(٧٢)

وقارن جريخت بين مبارك والخميني فقال: "الخميني طرح فكرة الجمهورية الإسلامية وفاز في الانتخابات الشعبية في عام ١٩٧٩ والإنتخابات المنتظمة مع منافسين

أمر ضروري لمشروعية النظام وهذا لم يحدث مع نظام الرئيس مبارك في مصر الذي يفتقد الديمقراطية.(٧٣) وكراهية أمريكا تنتشر في الدول العربية الديكتاتورية الموالية لأمريكا. وإذا ما قارننا نجد أن إيران دولة مؤيدة لأمريكا بعمق".(٧٤)

وبعد الاعتراف بالعلاقة المباشرة بين الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا وأسامة بن لادن ومنظمة القاعدة يقول جريخت بما يثير الدهشة أن ديكتاتورية الإخوان المسلمين في مصر (إذا استولوا على السلطة) أفضل من نظام مبارك الحالي. ويوضح الفكرة بقوله: "ربما تكون الفرصة سانحة أكثر ما يكون في مصر للتزاوج بين الأصولية والديمقراطية. ومن المؤكد أن الأصوليين سيسعون، إذا ما حصلوا على السلطة في مصر، إلى القضاء على انتخاب حكومة تمثل الشعب. والفكر الديمقراطي، رغم أنه شائع في مصر أكثر مما يظن الكثيرون في الغرب، إلا أنه ليس أصيلا كما هو بين الشيعة في إيران أو في فتاوى آية الله العظمي علي السيستاني. لكن أمريكا سوف تكون أحسن حالا مع هذا البديل منها مع الديكتاتورية العلمانية."(٧٥)

لعبة الشيطان مستمرة

قبل ستين عاما عندما بدأت الولايات المتحدة ملحمتها في الشرق الأوسط كان هناك أصوات أخرى تنادي بتعزيز الإسلام المحافظ والجماعات المتشددة المرتبطة مع اليمين الإسلامي (البغيض)، لشن حرب ضد اليسار وضد ناصر والشيوعيين والاشتراكيين العرب. والآن بعد مرور ستة عقود تبنت حكومة بوش إستراتيجية في الشرق الأوسط قامت على الأساس ذاته.. دعم أسهم اليمين الإسلامي. وسط آمال أمريكية تقوم على التعويل على المتشددين الشيعة في العراق لإنقاذ سياستها الفاشلة في هذا البلد. ويطالب أحد كبار المنظرين المؤيدين لتلك النظرية علنا بأن تلقى الولايات المتحدة بثقلها مع آيات الله والإخوان المسلمين. ولا تزال لعبة الشيطان مستمرة.

الهوامش

1. Imperial Pan- Islam

1.The proposal to London from Jamal Eddine al- Afghani was reported by a British Orient list and author of the time, W.S. Blunt, a friend of Afghani's. It is cited in C.C. Adams, Islam and Modernism in Egypt (New York: Russell and Russell,r933), p. lo, n. l
2. Elie Kedourie, Afghani and Abduh: An Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam (New York: The Humanities Press, 1966), p, 3o.
3. Kedourie, p.6.
4. Ibid, p .13.
5. Cited in Kedourie, p. 45.
6. Ibid.
7. Afghani's views on religion are quoted at length in Kedouire, p.44.
8. Cited in Kedourie, p.4. Kedourie commented wryly on Gibb's view ,saying :" Afghani would no doubt have been much gratified to see that half a century after his death , his pretentions to 'sound Koranic orthodoxy' were still being unquestioningly accepted ."
9. Wilfred Cantwell Smith, Islam in Modern History (New York: New American library, 1957), p.54.
10. Smith, pp. 56-57.
11. Ibid., pp 55.
12. Richard p. Mitchell, The Society of the Muslim Brothers (London: Oxford University Press, 1969), p. 321.
13. Nikki Keddie, "Afghani in Afghanistan," Middle Eastern Studies (1) 4.
14. Kedourie, pp. 2o-21.
15. Ibid., p. 8.
16. Adams, p. 54.
17. Ibid., pp. 3o- 31.
18. Adams, p. 18.
19. Ibid., p. 39. Wrote Kedourie: "It is, at any rate, reasonable to presume that having offered his services to the British, Afghani would offer them again to the French."In any case, France tolerated .The Indissoluble Bond, while Great Britain, Egypt, and India banned it.
20. Adams, p. 9, n. 5.
21. Kedourie, p. 54.
22. Ibid., p.58.
23. Quoted in Adams, pp .59 -6o.
24. Kedourie, p. 14.
25. Adams, p. 83.
26. Ibid., p. 79.
27. Kedourie, p. 56.
28. Cited in Kedourie, p. 57.
29. E. G. Browne, A Year amongst the Persians (London: Adam and Charles Black, 195o), pp. 13-14.
30. For an account of the relationship between Khan and Afghani, see Kedourie, pp. 22-23.
31. Adams, p. 11.

32. Kedourie, p. 4.
33. Ibid., p .5.
34. David Long, The Kingdom of Saudi Arabia (Gainesville: University Press of Florida, 1997), p. 22.
35. In Arabic, muwahhidin. See Long. 23.
36. Hamid Algar, Wabbabism: A Critical Essay (Oneonta, N.Y.: Islamic Publications International, 2002), p. 5.
37. Algar, pp.14-16.
38. William Gifford Palgrave, Personal Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia (1862-1863) (London: Macmillan and Co., 1993) , p .184 .
39. Algar, pp. 20-22.
40. Ibid., pp. 23 - 25.
41. Ibid.
42. Jhon Esposito, Unholy War: Terror in the Name of Islam (New York: Oxford University Press, 2002), p. Io8.
43. Algar, p.38.
44. Daniel Yergin , The Prize :The Epic Quest for Oil , Money , and Power (New York :Simon & Schuster ,1991),p.284.
45. Ibid., p. 285 .
46. The word ikhwan is the plural of akh (brother) and can be translated as brothers or brotherhood.
47. David Holden and Richard Jihns, The House of Saudi (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1981), pp. 5o-51.
48. Ibid., pp.11-26.
49. Elizabeth Monroe, Philby of Arabia (New York: Pitman Publishing Corporation, 1973), p. 24.
50. Ibid., p.70.
51. Cited in Monroe, p. Io4.
52. Cited in Monroe, p. 127.
53. Philby's critics disparaged his supposed pro-republican stance. Says Monroe:" They were quick to point out, too, that his republican nostrum for the Arab world did not tally with his unstinted praise for the absolute rule of his hero, Ibn Saudi. "Ibid., p.139.
54. Ibid., p. 139.
55. Algar, p.42.
56. Cited in John S, Habib, Ibn Saudi's Warriors of Islam (Leiden: E. J. Brill, 1978),p.14.
57. Ibid., p.20.
58. Ibid., pp. 26-27.
59. percy Cox, cited in Dore Gold, Hatred's Kingdom (Washington: Regnery Publishing, 2003), pp. 44-45.
60. The term hijra means "immigration," but in this case it refers to the notion that a Muslim must "immigrate" to Islam, by abandoning his nomadic ties and tribal connections.
61. Habib, p. 32.
62. Ibid., p.76.
63. Monroe, p.135.
64. Bernard Lewis, The Crisis of Islam (New York: The Modern Library, 203), pp. 125-26.
65. Habib, p. 119.

2: England's Brothers

1. In Arabic, Al Manar.

2. A detailed account of Rashid Rida's work is found in C.C. Adams, Islam and Modernism in Egypt (New York: Russell and Russell, 1933), pp. 177-204.
3. Cited in Adams, p.185.
4. Ibid., p.186.
5. Ibid., p.222.
6. Richard P. Mitchell, The Society of the Muslim Brothers. (London: Oxford University Press, 1969), p. 9. The source Mitchell uses is al-banna's autobiography.
7. Ibid., p. 5.
8. Ibid., p. 322.
9. Ibid., p. 321.
10. Ibid., p. 186.
11. Gilles Kepel, Jihad: The Trail of Political Islam (Cambridge, Mass.: Belknap Press, 2002), p. 27.
12. Mitchell, p.246.
13. Ibid., p.14.
14. In Arabic, Kataib, Interestingly, the same word was used by the fascist Christian Lebanese Phalangists led by the Gemayel family of warlords, themselves, like many Islamists, admirers of Hitler.
15. Mitchell, pp.13-16.
16. Joel Gordon, interview with author, June 2004.
17. Mitchell, pp. 40-42.
18. Ibid., p. 27.
19. Zvi Kaplinsky, " The Muslim Brotherhood." Middle Eastern Affairs, December 1954, p. 378.
20. Mitchell, p.32.
21. Kaplinsky, p. 378.
22. Stephen Dorril, M16 (New York: The Free Press, 2000), p. 538.
23. Mitchell, p.39.
24. Ibid., p. 40.
25. Said K. Aburish, Nasser: The Last Arab (New York: Thomas Dunne Books, st. Martin's Press, 2004), p. 18.
26. Answer Sadat, In Search of Identity (New York: Harper & Row, 1977). Sadat's version must be taken with a grain of salt, however. Written in the mid1970s, at a time when Sadat was engaged in a delicate effort to forge a political alliance with the revived Muslim Brotherhood, the book undoubtedly leaves out some important details.
27. Sadat, p.22.
28. Ibid.
29. Miles Copeland, The Game of Nations (New York: Simon & Schuster, 1969), p. 184.
30. Ibid.
31. Mitchell, p. 47and passim.
32. Mitchell, p.55.
33. Joseph B.Schechtman, The Mufti and the Fuehrer (New York: Thomas Yoseloff, 1965), p. 287.
34. Ibid., p. 21.
35. Political Dictionary of the Middle East in the 20th Century (Jerusalem; The Jerusalem Publishing House Ltd., 1972), p. 260.
36. Schechtman, pp.23-24.
37. Ibid., p. 45.
38. Ibid., p. 106.

39. Ibid., p. 172.
40. Clifton Daniel,"A New Chapter for the Mysterious Mufti,"New York: Times Magazine, August 25, 1946."
41. Joseph Alsop, "Crafty Fanatic Organizes Trouble in Palestine," Boston Evening Globe, December 17, 1947.
42. Dorril, p. 537.
43. Ibid., p. 540.
44. Andrew Roth,"Mufti's New Army,"The Nation, November 16, 1946.
45. Schechtman, p.223.
46. Ibid., p. 234.
47. No One was ever arrested in the assassination of banna. According to most historians, his death was ordered by Egyption govemment and carried out by government security officers.

3: Islam Meets the Cold War

1. This account is taken from an April 2004 interview with Hermann Eilts, one of America's leading Arabists and the former U.S ambassador to Egypt, who served in several posts in the Persian Gulf and Arabian Peninsula early in his career.
2. Said K. Aburish, Nasser: The last Arab (New York: Thomas Dunne Books, St. Martin's Press, 2004), p. 30. Other estimates put the number of Brotherhood members at several hundred thousand.
3. Miles Copeland, The Game of Nations (New York: Simon and Schuster, 1969), p. 48.
4. Elizabeth Monroe, Philby of Arabia (New York: Pitman Publishing Corporation, 1973), p. 162.
5. Ibid., p 164.
6. Ibid., p .168.
7. Ibid., p. 211.
8. Daniel Yergin, The Prize: The Epic Quest for Oil, Money, and Power (New York: Simon & Schuster, 1991) , p.291.
9. Standard Oil of California, or Social, was originally part of the Rockefeller Standard Oil monopoly. The Texas Oil Company, or Texaco, would eventually merge with social (renamed Chevron) to become today's Chevron Texaco. Two other Rockefeller entities, Standard Oil of New Jersey (Esso, later Exxon) and Standard Oil of New York (Socony, later Mobil) would also merge to from Exxon Mobile.
10. Executive Order 8926, February 18, 1943. Quoted in David Holden and Richard Johns, The House of Saudi (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1981), p.123.
11. Yergin, p. 394.
12. Ibid., p.397.
13. Ibid., p.401.
14. Ibid.
15. Elliott Roosevelt, As He Saw It (New York: Duell, Sloan and Pearce, 1946), p. 244.
16. Cited in Yergin, pp. 404-5.
17. David long, The Kingdom of Saudi Arabia (Gainesville: University Press of Florida, 1997), p. 116.
18. The single best account of how the United Stayes saw national security issues in the Middle East from 1945 to 1958 is John C. Campbell's The Defense of the Middle East (New York: Frederick C. Praeger, 1960).
19. The photograph is found in the September 1953 proceedings of the Colloquium on Islamic Culture, held at Princeton University and in Washington, D.C.

20. The Jamaat-e Islami, Throughout, I try to use English translations of organizational names that are usually left untranslated from the original Arabic, Farsi. Urdu, Turkish, or other Middle Eastern languages.

21. This and other details of Ramadan's life and career can be found in Dr. Said Ramadan, 1926-1995. a useful biographical sketch published on the Internet by the Islamic Center of Geneva , which was founded by Ramadan in 1961. See www.cige.org/historique.htm.

22. Ziad Abu Amr ; Islamic Fundamentalism in the West Bank and Gaza (Bloomington: Indiana University Press, 1994)pp .1-5.

23. Alain Gresh and Dominique Vidal, The New A-Z of the Middle East (London: I.B. Tauris & Co. Ltd., 2004), p .107.

24. Ibid.

25. Richard P. Mitchell, The Society of Muslim Brothers (London: Oxford University Press. 1969),p .270.

26. Ibid.

27. Islami Jamaat - i Tulabah, the student wing of the Jamaat-e Islami (Islamic Group).For a detailed discussion of the IJT, see seyyed Vali Reza Nasr, The Vanguard of the Islamic Revolution (Berkeley: University of California Press, 1994), p. 64ff.

28. Ibid., p. 65.

29. Also known by its Arabic name, the Hizb ut-Tahrir al-Islami.

30. Marion Boulby, The Muslim Brotherhood and the Kings of Jordan (Atlanta, Ga.: Scholars Press, 1999), pp.37-43.

31. Conference on Islamic Civilization, U.S. Department of State, International Information Administration. This is a memo intended for Secretary of State John Foster Dulles. Washington, D.C.: National Security Archive, April 30, 1953.

32. Jefferson Caffery, U.S. Department of State, Colloquium on Islamic Culture and saeed Ramadan. Foreign Service Dispatch. Washington, D.C.: National Security Archive, July 27, 1953.

33. Ibid.

34. Ibid.

35. Sylvain Besson, "When the Swiss Protected Radical Islam in the Name of Reasons State," Le Temps, October26, 2004.

36. Bernard Lewis, "Communism and Islam," in The Middle East in Transition, ed. Walter Laqueur (New York: Frederick A. Praeger, 1958), pp. 311-24.

37. Colloquium on Islamic Culture, pp. 86-89.

38. Kenneth Cragg, "The Intellectual Impact of Communism upon would contemporary Islam," Middle East Journal 8(2) (Spring 1954), pp. 127-38.

39. Campbell, p. 299. A quarter centauty later, however, Campbell modify his view somewhat. Writing in the spring 1984 issue of American Affairs (No. 8, p. 80). Campbell would say:" Khomeini seems to enjoy humiliating the 'atheistic' Soviet Union regardless of the actuality of the threat. The soviets have been whipsawed by the emergence of Islam as a growing and power political force in the Middle East.... The regime in Iran (has) supported counter-revolutionary Islamic reactionaries in Afghanistan. The swirling currents of Islamic reassertion are not without impact on the Muslims of central Asia." A lot would change in the twenty-five years between Cambell.s CFR task force and the revolution in Iran.

40. S.A. Morrison, "Arab Nationalism and Islam," Middle East Journal (April 1948), pp. 147-59.

41."Anti-communist Poster Material Prepared by USIS Baghdad,"march,1951, national security archive.

42. Copeland, p. 58.

43. Ibid., p. 184.
44.Ibid., p. 185-86.
45. William A. Eddy, letter to Dorothy Thompson, June 7, 1951. National Security Archieve.
46. Partrick O'Donnell, Operatives, Spies, and Saboteurs (New York: Free Press, 2004), pp. 31-32.
47. "Conversation with Prince Saudi," March 10, 1952.National Saudi Archive.
48. David Long, interview with author, April 2004.
49. The Middle East Institute, "Islam in The Modern World," March 9-10 1951, p. 72.
50. Ibid., pp. 15-18.
51. Ibid., pp. 13-14.

4: The War against Nasser and Mossadegh

1. Quoted in Saudi K. Aburish, Nasser: The Last Arab (New York: Thomas Dunne Books, St. Martin's Press, 2004), p. 314.
2. Ibid.
3. Ibid., p. 315.
4. Ed Kane, interview with author, May 2004.
5. Ibid.
6. Miles Copeland, The Game of Nations (New York: Simon & Schuster 1969), p. 62.
7. Ibid., p. 63.
8. Ibid., p. 65.
9. Joel Gordon, Nasser's Blessed Movement (New York: Oxford United Press, 1992), p. 158.
10. Copeland, p. 74.
11. The most detailed account of this period is in Gordon's Nasser's Blessed Movement, pp. 98-106 and 175-90.
12. Gordon, p. 103.
13. Stephen Dorril, M16 (New York: The Free Press, 2000), p.610.
14. Ibid., p. 613.
15. Gordon, p. 105.
16. Ibid., p. 106.
17. Robert Baer, sleeping with the Devil (New York: Crown Publishers, 2003), p.99.
18. Bernard Lewis, The Middle East and the West (New York: Harper & Row, 1969), pp. 112-13.
19. Richard Mitchell, The Society of the Muslim Brothers (London: Oxford University Press, 19696), pp. 141-42.
20. Dorril, pp. 633-34.
21. Cited in Gordon, p. 186.From The New York Times, November 17, 1954.
22. Copeland, p.183.
23. Dorril, p. 629.
24. Copeland, p. 282.
25. Ibid., p. 184.
26. John Voll, interview with author, March 2004.
27. Interviews with former Iranian officials.
28. Ashraf Pahlavi, Faces in a Mirror: Memoirs from Exile (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1980), pp. 8-9.
29. For an account of the secularizing measures undertaken by Shah Reza Pahlavi, see Dilip Hiro, Holy Wars (New York: Routledge, 1989), p. 153.
30. Mohammed Reza Pahlavi, Answer to History (New York: Stein and Day, 1980), p. 84.
31. Fereydoun Hoveyda, interview with author, May 2004.

32. Ashraf Pahlavi, p. 6.
33. Ibid., p. 47.
34. Mohammed Reza Pahlavi, p.59.
35. Mark J. Gasiorowski, U.S. Foreign Policy and the Shah: Building a Client State in Iran (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1991), p. 68.
36. Central Intelligence Agency, "Prospects for Survival of Mossadeq Regime in Iran," October 14, 1952, p. 2.
37. U.S. State Department, "C. C. Finch conversation with Dr. Sepahbodi, "December 10, 1952.
38. Dorril, p. 566.
39. Ibid., p. 565. Dorril's book provides extensive detail of the Anglo American action in 1953, including support for the Islamists. More detail is provided in Gasiorowski's U.S. Foreign Policy and the shah, especially pp. 67-79. See also Gasiorowski, "The 1953 Coup d'etat in Iran," International Journal of Middle East Studies 19(1987).
40. John Waller, interview with the author, February 2004.
41. Dorril, p.585.
42. Waller, interview.
43. Dorril, p. 592.
44. Ibid.
45. Ibid., pp .592-93.
46. Hoveyda, interview.
47. The information about the early years of Khomeini's political life is taken largely from the brilliant biography of the ayatollah by Baqer Moin, Khomeini: Life of the Ayatollah (New York: Thomas Dunne Books, st. Martin's Press, 1999).
48. Moin, p. 60.
49. Ibid., pp.63-64.

5: The King of All Islam

The epigraph is from Miles Copeland, The Game of Nations (New York: Simon & Schuster, 1969), p.216.

1. Cited in Fred Holliday, Arabia without Sultans (New York: Vintage Books, 1975), p.66.
2. David Holden and Richard Johns, The House of Saudi (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1981), p.193.
3. Dwight Eisenhower, The White House Years, Vol. II: Waging Peace (London: Heinemann, 1965), pp.115-16.
4. Malcolm H. Kerr, The Arab Cold War, Jamal Abd al-Nasir and His Rivals, 1958-1970 (London: Oxford University Press, 1971). More recently, see Adeed Dawisha, Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2003).
5. James E. Akins, interview with author, June2004.
6. Holden and Johns, p. 177.
7. Nathan J. Citino, From Arab Nationalism to OPEC: Eisenhower, King Saudi, and the Making of U.S. Saudi Relations (Bloomington: Indiana University Press, 2002), p.95.
8. Ibid.
9. Ibid., p. 126.
10. John Waller, interview with author, February2004.
11. Donald N. Willber, Adventures in the Middle East: Excursions and Incursions (Princeton, N.J.: Darwin, 1986), p. 195.
12. Ibid.

13. Citino, .96.

14. Holden and Johns, p. 194.

15. The late-1950o CIA action against Syria has been widely reported. Its existence was confirmed to me in interviews by several former CIA officials who were involved, among them Ray Close.

16. Retired CIA operations officer, interviews with author, July 2004.

17. David Long, interview with the author, April 2004.

18. John Voll, interview with the author, March 2004.

19. Ray Close, interview with the author, April 2004.

20. Hermann Eilts, interview with the author, April 2004.

21. Reinhard Schulze, A Modern History of the Islamic World, trans. Azizeh Azodi (New York: New York University Press, 2000), p. 127.

22. Dore Gold, Hatred's Kingdom (Washington, D. C.: Regnery Publishing, 2003), p. 91.

23. Holden and Johns, p. 262.

24. Gold, p. 110.

25. Gilles Kepel, Jihad (Cambridge, Mass.: Belknap Press, 2002), p. 51.

26. Ibid., p. 78.

27. Eilts, interview.

28. Martha Kessler, interview with author, April 2004.

29. Charles Freeman, interview with the author, April 2004.

30. For a complete list of the founding members of the Muslim World League, see Schulze, p. 172.

31. Schulze, p. 173.

32. John Esposito, Unholy War: Terror in the Name of Islam (New York: Oxford University Press, 2002), pp. 106-8.

33. Kepel, p. 52.

34. Retired CIA official, interview with the author, June 2004.

35. Charles Waterman, interview with the author, July 2004.

36. Gold, pp. 76-79.

37. Quoted in "Secrets of the Financial Holy War," Le Nouvel Observateur, January 31, 2004.

38. Hani Ramadan, interview with Valentina Marano, September 2004.

39. The Call (Al Dawa) was founded in 1957, expanded in the 1960s, carried out terrorist sabotage in the 1980s and 1990s- including an attack on the U. S. embassy in Kuwait – and, in 2003, emerged as an overt force in post-Saddam Hussein Iraq.

40. Gilles kepel, Muslim Extremism in Egypt (Berkeley: University of California Press, 1993), pp. 33-34.

41. Sylvain Besson, Le Temps, October 26, 2004.

42. Esposito, p. 106.

43. Eilts, interview.

44. Talcott Seelye, interview with the author, June 2004.

45. Cited in Warren Bass, Support Any Friend (New York: Oxford University Pess, 2003), p. 77, from Foreign Relations of the United States 1961-1963, Vol. 17, pp. 164-66.

46. Bass, p.79.

47. Ibid., p. 53.

48. Ibid., p.99.

49. Ibid., p.102.

50. Seelye, interview.

51. Cited in Bass, pp. 103-4.

52. Ibid., p. 43.

53. Stephen Dorril, Mi6 (New York: The Free Press), 2000, p. 68a0.

54. Ibid., pp. 680-85.

55. Howard Teicher and Gayle Radley Teicher, Twin Pillars to Desert storm (New York: Willian Morrow, 1993), p. 94.

56. Bass, p. 114.

57. Charles Freeman, interview with the author, April 2004.

58. Shireen Hunter, The Future of Islam and the West (Westport, Conn.: Praeger, 1988), pp. 156-57.

59. Bass, p. 141.

60. Holden and Johns, p. 271.

61. Saudi Ministry of Information, Faisal Speaks (undated collection of King Faisal's speeches).

62. Ibid.

63. Ibid.

64. Hunter, p. 159.

65. Gold, p. 93.

66. Long, interview.

67. Holden and Johns, p. 290.

68. Abdullah M, Sindi, "King Faisal and Pan-Islamism, " in Willard A. Beling, King Faisal and the Modernisation of Saudi Arabia (London: Croom Helm, 1980), p. 190.

69. Long, interview.

6: The Sorcerer's Apprentice

1. David Long, interview with the author, April 2004.

2. Answer Sadat, In Search of Identity (New York: Harper & Row, 1977), p. 215.

3. Michael Dunn, interview with the author, February 2004.

4. Reinhard Schulze, A Modern History of the Islamic World (New York: New York University Press, 2000), p. 189.

5. David Holden and Richard Johns, The House of Saudi (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1981), p. 289.

6. Ibid.

7. Ibid., p. 292.

8. Mohammed Heikal, The Sphinx and the Commissar (New York: Harper & Row, 1978), p. 219.

9. Holden and Johns, p. 293.

10. Henry Kissinger, The White House Years (London: Weidenfeld and Nicolson, 1979), p. 1293.

11. Sadat, p. 224.

12. Raymond Close, interview with the author, April 2004.

13. Gilles Kepel, Muslim Extremism in Egypt (Berkeley: University of California Press, 1993), p. 105.

14. In Arabic, Jama'at Islamiya.

15. John Esposito, Unholy War: Terror in the Name of Islam (New York: Oxford University Press, 2002), p. 86.

16. Kepel, p. 133.

17. Ibid., p. 129.

18. Much of the information and quotes in this paragraph are taken from Kepel, pp. 133-40, whose work on Islamism in Egypt during this period is definitive.

19. Schulze, p. 201.

20. Daniel Pipes, In the Path of God (New York: Basic Books, 1983), p. 209.

21. Abdel Moneim Said, interview with the author, July 2004.
22. Hermann Eilts, interview with the author, April 2004.
23. Close, interview.
24. Martha Kessler, interview with the author, April 2004.
25. The Liberation Party is known in Arabic as Hizb ut-Tahrir. It still exists. The party fled the Middle East, relocated to Germany, and then built a power base in Soviet Central Asia.
26. Kepel, pp. 92-94.
27. Said, interview.
28. Eilts, interview.
29. Said, interview.
30. Eilts, interview.
31. Ibid.
32. Former CIA officer, interview with the author, June 2004.
33. Kathy Christison, interview with the author, March 2006.
34. Eilts, interview.
35. Retired CIA officer, interview with the author, June 2004.
36. Kepel, p. 108.
37. Ibid., pp.108-9.
38. Samer Soliman," The Rise and Decline of the Islamic Banking Model in Egypt," in the Politics of Islamic Finance, ed. Clement M. Henry and Rodney Wilson (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2004), p.266.
39. Said, interview.
40. Monzer Kahf," The Rise of a New Power Alliance," in Henry and Wilson, p. 22.
41. Ibrahim Warde, Islamic Finance in the Global Economy (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2000), p.211.
42. Soliman, in Henry and Wilson, p. 273.
43. Ibid., p. 270.
44. Ibid., pp. 270-71. Egypt's tolerance of Islamic banking was scaled back in the 1980s, after the assassination of Sadat made it clear how dangerous the Islamist movement could be.
45. Kahf, in Henry and Wilson, p. 211.
46. Soliman, in Henry and Wilson, p. 276.
47. Cited in Richard Labeviere, Dollars for Terror: The United States and Islam (New York: Algora Publishing, 2000), p. 138. Labeviere presents a detailed picture of Al Taqwa's involvement in Egypt, Turkey, and else where.
48. Ibid., p. 139.
49. Douglas Farah, Blood from Stones: The Secret Financial Network of Terror (New York: Broadway Books, 2004), p. 148.
50. Warde, p. 84.
51. Soliman, in Henry and Wilson, p.273.

7: The Rise of Economic Islam

1. For details on the mechanisms of Islamic finance sans interest (in Arabic, riba), see Clement M. Henry and Rodney Wilson, eds., The Politics of Islamic Finance (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2004): and Rodney Wilson, Islamic Financial Markets (London: Routledge, 1990). Another well-written book is Timur Kuran's Islam and Mammon (Princeton, N.J.: Princetion University Press, 2004). Finally, a wonderfully complete book is Ibrahim Warde's Islamic Finance in the Global Economy (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2000).

2. Warde, p. 108.
3. See" Hopes for the Future of Islamic Finance," by Abbas Mirakhor, an executive director of the International Monetary Fund and an Islamic Scholar from the Islamic Republic of Iran.
4. Ibrahim Warde, interview with Barbara Dreyfuss, August 2004.
5. Clement Henry, "Islamic Financial Movements: Midwives of Political Change in the Middle East?" (paper present to the 2001 Annual Meeting of the American Political Science Association, University of Texas at Austin), p. 6.
6. Warde, p. 107.
7. Warde, p. 99.
8. Clement Henry, " Islamic Financial Movements: Midwives of Political Change in the Middle East?"
9. Warde, interview.
10. Nizam Ali, interview with Barbara Dreyfuss, August 2004.
11. Peter Ferrara and Khaled Saffuri, " Islam and the Free Market," Islamic Free Market Institute Foundation, at http:www.islamicinstitute.org/freemrkt.htm. Accessed September 2004.
12. Graham Fuller, The Future of Political Islam (New York: Palgrave Macmillan, 2003), p.26.
13. Ibid.
14. Ibid., p. 35.
15. Ibid., p. 141.
16. Agence France Press, "Islamic Banks, Institutions Boasts of 260 Billion Dollars," April 25, 2004.
17. Hanna Batatu, " Iraq's under ground Shi'a Movements," Middle East Journal 35 (Autumn 1981), 4, p. 578.
18. Graham Fuller and Rend Raham Francke, The Arab Shi'a: The Forgotten Muslims (New York: Palgrave/st. Martin's Press, 1999), p.47. Fuller, a former CIA official, is a vocal apologist for fundamentalist Islam. Francke, former head of the Iraq Foundation, would be named the first post-Saddam Hussein ambassador to the United States from Iraq under the interim government of Prime Minister Iyad Allawi in 2003.
19. Ibid., p.48.
20. For a complete account of the Oudh Bequest, see Yitzhak Nakash, The Shi'is of Iraq (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1994), pp. 211-29.
21. Fuller and Francke, p. 48.
22. Nakash, p.135.
23. Samer Soliman, " The Islamic Banking Model in Egypt," in Henry and Wilson, p. 267.
24. Soliman, in Henry and Wilson, p.267.
25. Jamal al-Banna, foreword, in unpublished book manuscript by Ahmed al-Najjar, translated by Rubah Elfattouh and Abdel Kader Thomas.
26. Najjar, unpublished manuscript, chapter3.
27. Mohammed Malley, "The Political Implications of Islamic Finance in Jordan" (paper prepared for the 2001 annual meeting of the Middle East Studies Association, University of Texas at Austin).
28. Monzer Kahf, "The Rise of a New Power Alliance," in Henry and Wilson, p. 19.
29. Najjar, unpublished manuscript, chapter 4.
30. Interview with Barbara Dreyfuss, August 2004.
31. Najjar, unpublished manuscript, chapter 4.
32. Richard Labeviere, Dollars for Terror: The United States and Islam (New York: Algora Publishing, 2000), p.240.

33. Kahf, in Henry and Wilson, p. 24.
34. Andre Stiansen, " Interest Politics: Islamic Finance in the Sudan, 1977-2001," in Clement and Henry, p. 157.
35. New York Times, August 12, 2004.
36. Monzer Khaf, " Strategic Trends in the Islamic Banking and Finance Movement " (paper presented at the Harvard Forum on Islamic Finance and Banking, Harvard University, Cambridge, Mass., April 6-7, 2002).
37. Ibid.
38. Talcott Seelye, interview with the author, June 2004.
39. Former CIA official, interview with the author, June 2004.
40. Ibid.
41. Kristin Smith, "The Kuwait Finance House and the Islamization of public Life in Kuwait," in Henry and Wilson, pp. 168-90.
42. Ibid., p.172.
43. Ibid., p.169.
44. Shafeeq N. Ghabra, " Balancing State and Society: The Islamic Movement in Kuwait,"Middle East Policy (May 1977), pp. 61-62.
45. Ibid., p. 60.
46. Smith, in Henry and Wilson, p. 178.
47. Ibid. One of Kuwait's charities was placed on the U.S. government's list of organizations suspected of ties Osama bin Laden, according to an Associated Press story," Kuwait Question Islamic Charity on Allegation of Funding Terrorists," December 29,2001.
48. Smith, in Henry and Wilson, p. 181.
49. Ghabra, p. 61.

8: Israel's Islamists

1. Charles Freeman, interview with the author, July 2004.
2. Khaled Hroub, Hamas: Political Thought and Practice (Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies, 2000), p.15.
3. Ziad Abu-Amr, Islamic Fundamentalism in the West Bank and Gaza(Bloomington: Indiana University Press, 1994), p.3.
4. Hroub, p.16.
5. Ibid., p. 20.
6. Marion Boulby, The Muslim Brotheerhood and the Kings of Jordan (Atlanta, Ga.: Scholars Press, 1999), pp. 37-43.
7. Ibid., p. 43.
8. Ibid., p. 61.
9. Cited in Abu- Amr, p. 5.
10. Hroub, pp.21-23.
11. Former CIA official who served in Kuwait in the 1950s and who knew many of the PLO leaders, interview with the author, 2004.
12. Hroub, pp.25-27.
13. Shaul Mishal and Avraham Sela, The Palestinian Hamas (New York: Columbia University Press, 2000), p.17.
14. Ibid., p. 18.
15. Abu-Amr, p. 17.
16. Ray Hanania, " Sharon's Terror Child," Counterpunch, January 18-19, 2003.

17. David Shipler, Arabs and Jews: Wounded Spirits in a promised Land (New York: Penguin, 1987), p. 177.
18. Mishal and sela, p. 21.
19. Abu-Amr, pp.29, 31.
20. Martha Kessler, interview with the author, April 2004.
21. Ibid.
22. David Long, interview with the author, April 2004.
23. Philip Wilcox, interview with the author, March 2004.
24. Dilip Hiro, Holy Wars (New York: Routledge, 1989), p. 87.
25. Hiro, in chapter 4, presents a detailed account of the Muslim Brotherhood's growth in Syria from the 1930s through the 1976-82 civil war in Syria.
26. Hiro, chapter 4.
27. BBC Summary of World Broadcasts, September 29, 1981, quoting Marj Uyun, "Voice of Hope," in Arabic.
28. BBC Summary of World Broadcasts, February 28, 1981, citing Damascus radio.
29. BBC Summary of World Broadcasts, March 11, 1981, citing Damascus radio.
30. BBC Summary of World Broadcasts, April 10, 1981, citing Damascus radio.
31. BBC Summary of World Broadcasts, December 4. 1981, citing Damascus radio.
32. Steven Strasser, "A Brotherly Bomb in Damascus," Newsweek, December 14, 1981.
33. Long, interview.
34. Kessler, interview.
35. Talcott Seelye, interview with the author, June 2004.
36." Jordan Ends Shelter for Assad's Enemies," London Times, November 12, 1985.
37. Charles P. Wallace, "Visit to Damascus Moves Jordan, Syria Closer," Los Angeles Times, November 13, 1985.
38. BBC Summary of World Broadcasts, November 18, 1985.
39. Robert Baer, interview with the author, March 2004.
40. Robert Baer, interview with the author, March 2004.
41. Seelye, interview.
42. Judith Miller, God Has Ninety- nine Names (New York: Simon & Schuster, 1996), p. 295.
43." Bloody Challenge to Assad," Time, March 8, 1982.
44. Seelye, interview.
45. Patrick Lang, interview with the author, March 2004.
46. See Victor Ostrov sky and Claire Hoy, By Way of Deception (New York: St. Martine's Press, 1990), and Victor Ostrovsky is a highly controversial, polarizing figure, and some of his assertions seem far-fetched. He refused to talk to me when I called him for elaboration. His charges about Islamism, however, are coherent with other Sources.
47. Ostrovsky, The Other Side of Deception, pp. 196-97.
48. Ibid., p. 197.
49. Abu-Amr, pp. 43-44.
50. Ibid., p.49.
51. Mishal and sela, p. 34.
52. Wilcox, interview.
53. Freeman, interview.
54. Patrick Lang, interview with the author, March 2004.
55. Corriere della sera, December 11, 2001.
56. Hanania, pp. 914.

57. Ibid., p.9.
58. Sara Roy, "Hamas and the Transformation of Political Islam in Palestine,"Current History, January 2003, p. 14.
59. Ibid., pp. 18-19.
60. Ibid., p. 20.

9: Hell's Ayatollah

1. Geogre Lambrakis, "Understanding the Shiite Islamic Movement," "confidential" dispatch, February 2, 1978.
2. James Bill, "Iran and the Crisis of 1978," Foreign Affairs, Winter1978-79, p. 340.
3. Henry Precht, interview with the author, April 2004.
4. Thomas Ahern, interview with the author, June 2004.
5. Cited in James Bill, The Eagle and the lion: The Tragedy of American-Iranian Relations (New Haven: Yale University Press, 1988),p. 133.
6. Retired CIA official, interview with the author, May 2004.
7. Bill, The Eagle and the Lion, p. 137.
8. Baqer Moin, Khomeine: Life of the Ayatollah (New York: Thomas Dunne Books, St. Martine's Press, 1999), p.80. Moin's biography of Khomeini is an amazingly detailed and well-written portrait of the man, far and away the best book in English about Khomeini.
9. Moin, p. 88.
10. cited in Gary Sick, All Fall Down: America's. Tragic Encounter with Iran (New York: Random House, 1985), p. 22.
11. Bill, The Eagle and the Lion, p. 228.
12. Interview with Charles Cogan, Episode 20, Soldiers of God, at: www.gwu.edu/-nsarchiv/coldwaar/interviews/episode-20/cogan2.html. Accessed May 2004.
13. Juan Cole, interview with the author, July 2004.
14. Charles Naas, interview with the author, June 2004.
15. Mohammed Reza Pahlavi, Answer to History (New York: Stein and Day, 1980), p.165.
16. Former CIA operations officer, interview with the author, June 2004.
17. Former State Department official, interview with the author, July 2004.
18. Anonymous U.S. State Department report, "Religious Circles," May 1972. Included in documents released by Iran From those captured in the takeover of the U.S. embassy in 1979.
19. The CIA reports were declassified and made the subject of a congressional investigation that released a public report in January 1979. The citations I used are taken from Sick.
20. Sick, p.90.
21. Stans field Turner, e- mail to the author, April 2004.
22. Walter Cutler, interview with the author, May 2004.
23. Retired CIA officer, interview, May 2004.
24. Prechy, interview, May 2004.
25. Ibid.
26. Fereydoun Hoveyda, interview with the author, May 2004.
27. Interview with Charles Cogan, Episode 20, Soldiers of God,at:www.gwu.edu/-nasarchiv/coldwaar/interviews/episode-20/cogani.html. Accessed May 2004.
28. Charles Cogan, interview with the author, May 2004.
29. Retired CIA official, interview with the author, May 2004.
30. David Long, interview with the author, April 2004.
31. Retired CIA officer, interview, May 2004.

32. William Sullivan, Mission to Iran (New York: W. W. Norton, 1987), p. 142.
33. William Sullivan, " Straws in the Wind: Intellectual and Religious Opposition in Iran," Confidential dispatch from Teheran to Washington, July 25, 1977.
34. Sullivan, Mission to Iran p. 92.
35. John Waller, interview with the author, February 2004.
36. Memorandum of Conversation, "The Iranian National Liberation Front," May 8,, 1978, Secret. From the National Security Archives.
37. Memorandum of Conversation,"Further Discussions with the liberation Movement of Iran (LMI) officials, " May 30, 1978, Secret. from the National Security Archives.
38. Letter from Charles Naas to Henry Precht, June 6, 1978, Secret. from the National Security Archives.
39. Precht, interview. See also Precht's oral history in the Middle East Journal 58 (Winter 2004).
40. Walter Cutler, interview with the author, May 2004.
41. Ibid.
42. Bruce Laingen, interview with the author, June 2004.
43. Thomas Ahern, interview with the author, June 2004.
44. John Limbert, interview with the author, June 2004.
45. Laigen, interview.
46. Ahern, interview.
47. Retired CIA official, interview with the author, July 2004.
48. laingen, interview.
49. Retired CIA official, interview, July 2004.
50. Precht, interview.
51. Zbigniew Brzezinski, Power and Principle (New York: Farrar Straus & Giroux, 1983), pp. 446-47.
52. Richard Cottam, "U. S. and Soviet Responses," In Neither East nor West, ed. Nikkie R. Keddie and Mark Gasiorowski (New Haven: Yale University Press, 1990), pp.276-78.
53. Vladimir Kuzichkin, Inside the KGB: My Life in Soviet Espionage (New York: Ivy Books, 1990), p.293.
54. Hamilton Jordan, Crisis: The Last Year of the Carter Presidency (New York: G. P. Putnam's Sons, 1982), pp. 35, 51.

10: Jihad I: The "Arc of Islam"

1. James E. Akins, interview with the author, November 2002.
2. Former CIA official, interview with the author, November 2002.
3. James Critchlow, interview with Kathleen Klenetsky, July 2004.
4. Charles W. Hostler, "The Turks and Soviet Central Asia," Middle East Journal (1958), pp. 268-69.
5. Gene Sosin, Sparks of liberty: An Insider's Memoir of Radio Liberty (University Park: Pennsylvania University State Press, 1999), p. 115.
6. Robert Gates, From the Shadows (New York: Simon & Schuster, 1996), p.93.
7. In 1961, Bennigsen wrote The Evolution of Muslim Nationalities in the USSR: in 1967, Islam in the Soviet Union: and in 1983, together with his daughter, Marie Broxup, associate editor of Central Asian Survey, the classic The Islamic Threat to the Soviet State.
8. Alexandre Bennigsen and Marie Broxup, The Islmic Threat to the Soviet State (New York: St. Martin's Press, 1983),p. 64.
9. Ibid., p. 48.

10. Ibid., p. 73.

11. Ibid., p. 77.

12. Ibid., p. 150.

13. Jeremy Azrael, interview with Kathleen Klentsky, August 2004.

14. Zalmay Khalizad," The Return of the Great Game" (California Seminar on International Security and Foreign Policy, Discussion Paper No. 88, 1980), p. 41.

15. Ibid., pp. 70-71.

16. In 1983, Henze wrote a book, The Plot to Kill the Pope, promoting his theory.

17. Paul B. Henze, "The Shamil Problem," in The Middle East in Transition, ed. Walter Z. Laqueur (New York: Praeger, 1958), p. 442.

18. Richard Pipes, "Muslims of Soviet Central Asia: Trends and Prospects," Part II, Middle East Journal (Summer 1955), p. 305.

19. Richard Pipes, Survival Is Not Enough: Soviet Realities and America's Future (New York: Simon & Schuster, 1984), p. 185.

20. Fawaz Gerges, America and Political Islam (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), p. 68.

21. Retired CIA official, interview with the author, May 2004.

22. Rose Bannigan, interview with the author, July 2004.

23. Olivier Roy, Islam and Resistance in Afghanistan (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), pp. 69-70.

24. Ibid., p. 71.

25. U. S. State Department, " Afghanistan's Clerical Unrest: A Tentative Assessment, " confidential, declassified, June 24, 1970.

26. Ibid., p. 73.

27. U.S. embassy in Kabul, "Portrait of a Moslem Youth Extremist,' confidential, declassified, May 29, 1972.

28. Robert Wirsing, Pakistan's Security under Zia, 1977-1988 (New York: St. Martin's Press, 1991), p. 73, n. 26.

29. Diego Cordovez and Selig Harrison, Out of Afghanistan (Oxford: Oxford University Press, 1995), p. 15.

30. Ibid., p. 16.

31. U.S. State Department, " Year End Afghan Internal Assessment," confidential telegram, from U.S. embassy in Kubal, December 1975.

32. Ibid., p. 23.

33. U.S. State Department, "CENTO Council of Deputies Meeting," telegram to Middle East embassies, secret, declassified, June 1978.

34. Bruce Amstutz, U.S. State Department confidential analysis, April 11, 1979.

35. U.S. State Department, " current Status of the Insurrection in Afghanistan," telegram, June 1979.

36. Quotes from Brzezinski from Le Nouvel Observateur, January 15-21, 1998.

37. Gates, p. 132.

38. Ibid., p. 144.

39. Ibid.

40. Steve Coll, Ghost Wars (New York:The Penguin Press, 2004), p. 63.

41. Shireen T. Hunter, The Future of Islam and the West (Westport, Conn.: Praeger, 1988), p. 159.

42. George Crile, Charlie Wilson's War (New York: Atlantic Monthly Press, 2003), p. 222.

43. Ibid.
44. Ibid., p. 212.
45. Cordoves and Harrison, p. 162.
46. Former CIA official, interview with the author, March 2004.
47. Coll, pp. 120-21.
48. Dilip Hiro, Holy Wars (New York: Routledge, 1989), p. 259.
49. Coll, p. 119.

11: Jihad 11: Into Central Asia

1. Harold Saunders, interview with the author, March 2004.
2. Saunders, interview.
3. Retired CIA official, interview with the author, March 2004.
4. Martha Kessler, interview with the author, April, 2004.
5. Robert Baer, interview with the author, March 2004.
6. Former CIA official, interview with the author, March 2004.
7. John Cooley, Unholy Wars (London: Pluto Press, 1999), pp. 31-32.
8. Ibid., p. 32.
9. Retired CIA official, interview with the author, June 2004.
10. Cooley, p. 32.
11. George Crile, Charlie Wilson's War (New York: Atlantic Monthly Press, 2003), pp. 197, 201.
12. Steve Coll, Ghost Wars (New York: The Penguin Press, 2004), p. 129.
13. Ibid., p. 132.
14. Ibid., p. 129.
15. Ibid., p. 132.
16. Ibid., p. 136.
17. Ibid., p. 134.
18. Cooley, pp. 88-89.
19. Coll, pp. 102,151.
20. Charles Freeman, interview with the author, April, 2004.
21. Some analysts argued that the Soviet Union was already looking for a way out of Afghanistan and planning its withdrawal, under Mikhail Gorbachev, when the Stingers were introduced, and that the missiles themselves had only a marginal impact. The supply of the Stingers did, however, create a big problem for the CIA after the war ended, and the agency scrambled to buy back excess Stingers rather than let them fall into the hands of terrorists around the world.
22. Cooley, p. 85.
23. Ahmed Rashid, Taliban: Militant Islam, Oil, and Fundamentalism in Central Asia (New Haven, Conn.; Yale University Press, 2000), p. 130.
24. Ibid., p. 87.
25. This story of Azzam is drawn from Gilles Kepel, Jihad: The Trail of Political Islam (Cambridge, Mass.: The Belkna Press, 2002), pp. 144-47.
26. Ibid., p. 147.
27. Anonymous, Through Our Enemies' Eyes (Washington, D.D.: Brassey's, 2002), p. 41.
28. Coll, pp. 135-36.
29. Mohammad Yousaf and Mark Adkin, Afghanistan: The Bear Trap (Havertown, Penn.: Casemate, 1992), p. 106.
30. Kepel, p. 142.
31. Selig Harrison, interview with the author, June, 2004.

32. Herbert Meyer, interview with the author, October, 2004.
33. Ibid.
34. Coll, p. 97.
35. Ibid., p. 98.
36. Richard Krueger, interview with the author, March, 2004.
37. Fawaz Gerges, America and Political Islam (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), p. 71.
38. Crile, pp. 340-41.
38. Former CIA official, interview with the author, April, 2004.Fahad, of course, a notorios playboy, may have had his own cynical interpretation of his role as "Keeper of the faith."
39. Meyer, interview.
40. Former CIA official, interview with the author, June, 2004.
41. Yousaf and Adkin, p. 47.
42. Former CIA official, interview with the author, July, 2004.
43. Yousaf and Adkin, pp. 189-90.
44. Ibid., p. 193.
45. Ibid., p. 195.
46. Ibid., p. 200.
47. Ibid., p. 195.
48. Ibid., p. 164.
49. Daniel Pipes, interview with the author, April, 2004.
50. Cited in Omaha World Heald, September 16, 2001, p. 12A.
51. Coll. pp. 168-69.
52. Walter Culter, interview with the author, May, 2004.
53. Freeman, interview.
54. Yousaf and adkin, pp. 208-9.
55. Cheryl Benard, interview with the author, July, 2004.
56. Gary Sick, October Surprise: America's Hostages in Iran and the Election of Ronald Reagan (New York: Times Books, 1991), p. 226.
57. Ibid., p. 59.
58. Ibid., pp. 69-71.
59. Additional, exhaustive tracking of the evidence for a republican initiative toward Iran during the hostage crisis was compiled by journalist Robert Parry, in Trick of Treason: The October Surprise Mystery (New York: Sheridan Square Press, 1993).
60. Ibid., p. 115.
61. Ibid., p. 142.
62. Ibid., p. 167.
63. Ibid., p. 192.
64. Interview with Patrick Lang, March 2004.
65. Sick, p. 200.
66. Vladimir Kuzichkin, Inside the KGb (New York: Ivy Books, 1990), pp. 104-5.
67. Ibid., pp. 200-201.
68. james Bill, The Lion (New Haven: Yale University Press, 1988), p. 273.
69. Mel Goodman, interview with the author, March 2004.
70. Mohammed Reza Pahlavi, Answer to History (New York: Stein and Day, 1980), p. 125.
71. Ashraf Pahlavi, Faces in a Mirror: Memoirs from Exile (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1980), pp. 195-96.

72. See especially Report of the Congressional Committees Investigating the Iran-Contra Affair, November 1987: The Tower Commission Report by the President's Special Review Board, John Tower, chairman (New York: Times Books, 1987): Firewall by Lawrence E. Walsh, the independent counsel in the Iran-contra investigation (New York: W. W. Norton, 1997).

73. Tower Commission Report, p. 21.

74. Howard Teicher and Gayle Radley Teicher, Twin Pillars to Desert Storm (New York: William Morrow and Co., 1993), pp. 102-3.

75. Former CIA official, interview with the author, July, 2004.

76. Tower Commission Report, pp. 112-13.

77. Ibid., p. 114.

78. Ibid., p. 115.

79. Teicher and Teicher, pp. 331-32.

80. Tower Commission Report, p. 119.

81. Teicher and Teicher, p. 332.

12: Clash of Civilizations.

1. Chris Hedges, "Muslim Militants Share Afghan Link," New York Times, March 28, 1993, p. 14.

2. For a blow-by-blow account of the complicated civil war in Algeria, 1992 to 1999, see chapter11, " The Logic of Massacre in the Second Algerian War," in Gilles Kepel, Jihad: The Trail of Political Islam (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2002), pp. 254-75.

3. Kepel, p. 165.

4. Ibid., p. 170.

5. Ibid., 174.

6. Senate Committee on Foreign Relations, The Battle Looms: Islam and Politics in the Middle East 1993, pp. 2, 6; cited in Fawaz Gerges, America and Political Islam (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), p. 75.

7. "Interview with James A. Baker 111," Middle East Quarterly (September 1994), p. 83.

8. Robert Pelletreau, interview with the author April 2004.

9. David Mack, interview with the authorApril 2004.

10. Richard Schifter, interview with the author May 2004.

11. Mack, interview.

12. Edward Djerejian, "The United States and the Middle East in a Changing World" (address at Meridian House International, U.S. Department of State, June2, 1992).

13. Gerges, pp. 80-81.

14. Ibid., p. 155.

15. Pelletreau, interview.

16. Graham Fuller, Algeria: The New Fundamentalist State. (Santa Monica: RAND Corporation, 1996), p. xx.

17. Ibid., p. xiv.

18. Ibid., p.4.

19. Ibid., p.xv.

20. Judith Miller, " The Islamic Wave, " New York Times Magazine, May 31, 1992, p. 23.

21. Gerges, p. 171.

22. James Woolsey, interview with the author May 2004.

23. Edward W. Walker, interview with the author February 2004.

24. Ibid.

25. Abdel Moneim Said, interview with the author June 2004.

26. Pelletreau, interview.

27. Ibid.

28. Walker, interview.

29. Ibid.

30. Gerges, pp. 174-75.

31. Ibid., p. 175.

32. Ibid., p. 178.

33. Ahmed Rashid, Taliban: Militant Islam, Oil, and Fundamentalism in Central Asia (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2000), pp. 176-77.

34. Ibid., p. 177.

35. Graham Fuller, The future of Political Islam (New York: Palgrave Macmillan, 2003), p. 115.

36. Sheila Heslin, testimony at Senate hearings into illegal fund-raising activities, September 17, 1997; cited in Rashid, p. 174.

37. Cited in Jean-Charles Brisard and Guillaume Dasquite, Forbidden Truth (New York: Thunder's Mouth Press/ Nation Books, 2002), p. 21.

38. Rashid, p. 179.

39. Michael J. Berens, " University Helped U.S. Reach Out to Taliban, " Chicago Tribune, October 21, 2001.

40. Stephen Buttry and Jake Thompson, " UNO'S Connection to Taliban Centers on Education," Omaha World Herald, September 16,2001.

41. Joe Stephens and David B. Ottaway, "From U.S., the ABC'S of Jihad," Washington Post, March 23, 2002, p. A1.

42. Samuel Huntington, The Clash of Civilizations (New York: Simo & Schuster, 1996), p. 218.

43. Ibid., p. 115.

44. Ibid., p. 211.

45. Ibid., p. 207.

46. Ibid., p. 258.

47. Ibid., p. 263.

48. Ibid., p. 215.

49. Ibid., p. 210.

50. Bernard Lewis, "The Middle Eastern Reaction to Soviet Pressures," Middle East Journal 10 (Spring 1956), pp. 130-31.

51. Bernard Lewis, The Middle East and the West (New York: Harper & Row, 1964), p. 135.

52. Ibid., p. 133.

53. Ibid., p. 140.

54. Peter Waldman, "A Historian's Take on Islam Steers U.S. in Terrorism Fight," Wall Street Journal, February 3, 2004, p. 1.

55. Ibid.

56. Patrick Lang, interview with the author, March 2004.

57. Woolsey, interview.

58. Lang, interview.

59. For a detailed account of the founding and role of the OSP, see Robert Dreyfuss and Jason Vest, " The Lie Factory, " Mother Jones, January-February 2004, p. 34.

60. Waldman, Wall Street Journal.

61. Lawrence F. Kaplan and William Kristol, The War over Iraq (San Franciso: Encounter Books, 2003), p.124 and pp. vii-viii.

62. Benador Associates, press conference, Washington, D.C., Fedruary 13, 2003.

63. The full text of the memo is at http:www.israeleconomy.org/strat1.htm.

64. Bernard Lewis, "Rethinking the Middle East," Foreign Affairs (Fall 1992), pp. 99ff.

65. Charles Freeman, interview with the author, May 2003.

66. David Frum and Richard Perle, An End to Evil: How to Win the War on Terror (New York: Ramadan House, 2003), pp. 140-41.

67. Maz Singer, interview with the author, February 2003.

68. Michael Ledeen, The War Against the Terror Masters (New York: Truman Talley Books, St. Martin's Press, 2002), pp. 208-9. In the book, Ledeen thanks Bernard Lewis for " personal guidance," and adds: "Harold Rhode, at the Pentagon's Office of Net Assessments, has been my guru on the Middle East for nearly twenty years. His boss, Andy MarShall, has been a constant source of good ideas," p. 240.

69. James E. Atkins, interview with the author, January 2003.

70. Anonymous, Imperial Hubris (Washington: Brassey's, 2004), p. xv.

71. Reuel Marc Gerecht, The Islamic Paradox: Shiite Clerics, Sunni Fundamentalists, and the coming of Arab Democracy (Washington, D.D.: The AEL Press, 2004), p. 10.

72. Ibid., p.18.

73. Ibid., p.41.

74. Ibid., p.50.

75. Ibid., p.53.

المؤلف في سطور:

روبرت دريفوس : صحفي أمريكي مستقل له العديد من الكتابات المتميزة في مختلف الصحف والمجلات الأمريكية منها "ذي نيشن"، و"وانشنطن مونثلي". تم تصنيفه في عام ٢٠٠١ من قبل "كولومبيا جورناليزم ريفيو" باعتباره من الصحفيين المتميزين في كتابة التحقيقات الصحفية. حصل على جائزة عام ٢٠٠٣ على كتاباته بشأن دور النفط وتأثيره على السياسة الأمريكية تجاه العراق. من بين القضايا التي تخصص في الكتابة بها في السنوات الأخيرة الحرب على العراق والحرب على الإرهاب والسياسة الأمريكية فيما بعد ١١ سبتمبر.

المترجم في سطور:

أشرف رفيق: مترجم مصري حاصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٨٠. عمل في الإذاعة المصرية، وفي مكاتب عدد من وكالات الأنباء الأجنبية بالقاهرة منها شينخوا الصينية ورويترز. شارك في ترجمة العديد من الكتب ويعمل حاليا مترجما في جريدة البيان الإماراتية في دبي.

رقم الإيداع بدار الكتب : 2010 / 17069

رغم كثرة الكتب التي قدمت حول دور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط إلا أن هذا الكتاب يعرض بشكل فريد لجانب لم يحظ، حسب المؤلف، بالكثير من الإهتمام ألا وهو أبعاد هذا الدور في تشجيع وتمويل نمو قوى التشدد الإسلامي على النحو الذي وصلت إلى ماهي عليه من خطر وفق المنظور الغربي. ولعل هذه الفرضية تصدم الكثيرين ممن يقوم تصورهم على وجود علاقة عداء بين الولايات المتحدة والإسلام أو الحركات الإسلامية بمعنى أصح الأمر الذي يقوم المؤلف على تفسيره بأن ذلك جاء في إطار سعى الإدارات الأمريكية المتعاقبة أياً كانت، لتحقيق مصالحها القومية.

وعلى ذلك نتابع مع المؤلف ما يعتبره أبعاد الدعم الأمريكي لحركة الإخوان المسلمين في مصر خلال الخمسينات، وكذلك دور واشنطن في دعم رجال الدين في إيران على النحو الذي انتهى بهم إلى الإطاحة بالشاه حليف أمريكا الأساسي، وحركات الجهاد في أفغانستان الأمر الذي انتهى بظهور بن لادن وتنظيم القاعدة. ورغم أن المؤلف يقدم صورة بالغة السلبية للإسلام السياسي دون أن يرى فيه أية ميزة، إلا أنه يعمد إلى التأكيد على التمييز بين الإسلام كدين يحظى في بعض تناوله له بقدر من الثناء، وبين الحركات التي أعلنت إنتسابها له. غير أن المؤلف يقدم أطروحات أخرى بالغة الموضوعية لا نبالغ إذا قلنا أن الكثيرين في عالمنا الإسلامي لا يصل إليها في نقده لمسار السياسة الأمريكية.